تاريخ العلاقات الإنجليزية - المغربية حتى عام 1900

*

تأليف
ب.ج. روجرز

ترجمة ودراسة وتعليق
دكتور يونان لبيب رزق



الشركة الجديدة
دار الثقافة
الدار البيضاء

تاريخ

العلاقات الإنجليزية - المغربية

حتى عام 1900

تاريخ
العلاقات الإنجليزية - المغربية
حتى عام 1900

*

تأليف

ب.ج. روجرز

ترجمة ودراسة وتعليق

دكتور يونان لبيب رزق



الشركة الجديدة
دار الثقافة

34-32 شارع فكتور هيكو
الهاتف 26.53.46 — 26.23.75
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)



الطبعة الأولى 1401 — 1981

الاختـصــارات

C.O. وزارة المستعمرات
F.O. وزارة الخارجية
F. ملف
S.P. أوراق الدولة

مقدمة المترجم

منذ نحو عامين دفع لي الأستاذ عبد الوهاب التازي سعود ، عميد الكلية التي أعمل بها أستاذا للتاريخ الحديث * ، بهذا الكتاب في نسخته الإنجليزية متسائلا عما إذا كان يستحق الترجمة .

وبعد قراءة أولى متعجلة ، وقراءة ثانية متأنية ، وقراءة ثالثة متأملة ، كانت الإجابة : نعم يستحق !

فالكتاب في جانبه الأول : متابعة أمينة « للعلاقات الإنجليزية المغربية » على مسطح زمني واسع زاد عن القرون الثلاثة.

والكتاب في جانبه الثاني : اعتمد على الوثائق الأصيلة ، وبالذات الإنجليزية ، مما يضفي عليه المسحة الأكاديمية ، وهو بالرغم من ذلك لا يتسم بالجفاف المعروف عن الكتابات الأكاديمية .

والكتاب في جانبه الثالث : قد ضبط كثيرا من الوقائع والسنوات التي أعوزها الضبط من قبل ، حتى في كتابات أصدرها متخصصون عن هذا الموضوع .. موضوع العلاقات الإنجليزية — المغربية .

لكل هذه المعطيات أقدمت على ترجمة الكتاب الى العربية ، وينبغي قبل تقليب صفحات الترجمة الإشارة إلى عدة قضايا :

الأولى : أنه بالرغم من كل تلك المعطيات فقد شاب الكتاب بعض وجوه القصور ، دعانا ذلك إلى تخصيص دراسة نقدية للتنبيه إلى تلك الوجوه ثم لعلاجها في حدود الإمكانات المتاحة .

---

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد بن عبد الله — فاس

الثانية : قضية تعريب الأسماء الأوربية ، وقد حذونا في هذا الشأن حذو المؤلف عندما فرنج الأسماء العربية على أساس أقرب مسمع ممكن لها.

الثالثة : قضية ما تضمنه الكتاب أحيانا من معلومات قد تبدو للقارئ المغربي بسيطة ومعروفة ، ولكن علينا أن نتنبه في هذا الصدد أن الكاتب ليس مغربيا وأن الكتاب في لغته الأصيلة غير موجه للمغاربة . بيد أن انصافا للكاتب تنبغي الإشارة إلى أن مثل هذه المعلومات قد جاءت في مواضع قليلة جدا ، وكان وجودها ضروريا لاتساق الكتاب .

يبقى أخيرا الاعراب على الأمل بأن يشاركني القارئ فيما اعتقدته من أسباب أهمية الكتاب ، وفي جدارته بالترجمة إلى العربية . وعلى الله قصد السبيل .

فاس — مارس 1980
دكتور يونان لبيب رزق

دراسة نقدية للمترجم

لا يملك أي منصف من العاملين في حقل الكتابة التاريخية سوى التسليم بالقيمة العلمية لذلك المؤلف الذي بين أيدينا ، ويصدر هذا التسليم من مجموعة من الحقائق التي تفرض نفسها مع تقليب صفحاته ..

فمن ناحية : عكف صاحب الكتاب على الأرشيف حيث استخرج منه مادة علمية وفيرة ضمنها كتابه ، وهو **فيما فعل** قد وضع تلك المادة قيد استخدام الباحثين ، ثم انه من **خلال ما فعل** قد أخذ بأيدي الراغبين في الاستزادة من دراسة الموضوع بما تضمنته هوامشه وبيبليوجرافيته من إشارات وفيرة إلى الوثائق التي استخدمها ، وهي وثائق تضم أشياء أخرى كثيرة غير التي سجلها المؤلف .

من ناحية أخرى : فقد أدى المستر ب . ج . روجرز خدمة هامة للمشتغلين في حقل الكتابة التاريخية ، ذلك أنه نجح — من خلال عقلية منظمة — في استخراج ما أمكنه العثور عليه من مادة علمية أصيلة في مئات الملفات التي عاد إليها ، ثم أنه استطاع ترتيب تلك المادة بشكل يغلب عليه الطابع الحولي ، وهو شكل من أشكال الكتابة التاريخية التي عفا عليها الزمان حقيقة ، غير أنه أدى هنا دورا من حيث تيسير مهمة الباحثين في نفس الموضوع بالعثور على ما يجدّون في البحث عنه .

بالرغم من كل ذلك لا يملك أي موضوعي من المشتغلين بالكتابة التاريخية سوى الحكم على المستر روجرز بأنه من غير المتخصصين في هذا الفرع من الكتابة ، إذ يتبين مع استعراض الكتابة أن الرجل يفتقد تقنية الكتابة التاريخية العلمية . ولا ينصب هذا الافتقاد على جانب دون سواه فهو يبدأ في المنهج ويمتد إلى الشكل ويصل إلى المصادر .

افتقاد المنهج وظواهره :

يعزى هذا الافتقاد بالأساس إلى أن المؤلف من غير المشتغلين بالكتابة التاريخية الأكاديمية ، **فهو** فيما فهمنا من التمهيد الذي قدم به لكتابه أحد العاملين في « إدارة البحوث بوزارة الخارجية والكومنولث » البريطانية ، وفيما نعلم فإن المهمة الأساسية للعاملين في هذه الإدارة تقوم على وضع البحوث التي يستنير بها كبار موظفي الوزارة وتمكن صناع القرارات فيها من اتخاذ قراراتهم . ويتأثر تكوين مثل هؤلاء الباحثين بسمتين :

الأولى : أنهم يستخرجون من الأضابير كل ما يمكن أن يكون محل إفادة لصانع القرار ويرتبونه بشكل زمني ، وهو ما فعله المؤلف ..وهم في هذا العمل غير مطالبين بتقديم التصورات العامة لأن هذه التصورات تكون في الغالب مهمة كبار الموظفين والوزراء.

والعمل التاريخي على هذا النحو يكون ناقصا بالقطع ، فمن مهام المؤرخ بعد تلك المرحلة القائمة على الجمع والتصنيف ، أن يمحص ثم يحلل وينتهي إلى رصد الظواهر العامة وتفسيرها .

الثانية : غلبة الوضع الوظيفي الذي يؤدى مع الوقت إلى الاهتمام بجزئيات صغيرة ولملمتها دون وضعها في إطار محكم لتشكل في مجموعها صورة مكتملة الملامح .

ونقول إن المستر روجرز قد فطن إلى هذه السمة حين كتب في تمهيده ما نصه « لقد توخيت في عرضي تجنب اصدار الأحكام واقتصرت على طرح الحقائق بأكبر قدر ممكن من الوضوح والدقة وتركت للقارئ الحرية لاستخلاص النتائج منها »[1]

وفي ظننا أن المؤلف قد أراد بهذه المقولة الخروج من المأزق الذي وجد نفسه فيه بعد انجازه لعمله ..مأزق المادة العلمية الوفيرة المرتبة التي افتقدت الرؤية المتكاملة .

---

(1) أنظر التمهيد ص 30

ويأتي الدليل على ذلك فيما يتبينه قارئ الكتاب ، بعد هنيهة من بدء مطالعته له ، من تحكم المادة العلمية في المؤلف بدلا من حدوث العكس . وتتوالى الأمثلة على ذلك ندرج فيما يلي أحدها .

يسجل المستر روجرز في جانب من كتابه بعضا من رسالة كتبها الوزير البريطاني المقيم في طنجة إلى وزير الخارجية في لندن ، اللورد راسل ، مؤرخة في 7 غشت 1864 ، جاء فيها توصيف الشعب المغربي بأنه « شعب جاهل ومتعصب ».[2]

ويعود بعد فصل واحد ليسجل جانبا من رسالة أخرى كتبها نفس الرجل بعد ما يزيد قليلا على العشرين عاما مؤرخة في 30 أبريل عام 1886 ، جاء في هذا الجانب توصيف لنفس الشعب جد مختلف عن التوصيف الأول إذ يتحدث عن « هذا الشعب الذي حمل أسلافه ، بينما كانوا في أسبانيا ، شعلة الفن والعلم ، وهو كفوء لأن يصبح أمة عظيمة »[3]

ولا يتبرع المؤلف في هذه المناسبة بتقديم أي تفسير لمثل هذه التناقضات ، وليس من سبب لهذا التقاعس سوى ما سبقت الإشارة إليه من افتقاد الرؤية المتكاملة ، وهو الافتقاد الذي ترتب عليه أن أصبحت المادة العلمية الوفيرة التي تضمنها الكتاب مثل الحصان الجامح الذي لا يعلو إلا ليهبط أو مثل موج البحر الزاخر الذي لا يستقر على حال بين مد وجزر .

ولعل تلك الحالة هي التي دفعت الكاتب إلى اختيار عنوان آخر فصول الدراسة فكان « **المد والجزر** » ، كما أنها هي التي دفعته أيضا إلى تقديم تفسير ينم عن تمكن روح الفكاهة من الرجل حين شبّه العلاقات الانجليزية — المغربية « بعلاقة الغرام التي لا يمكن أن تستمر هادئة طول الوقت »[4] ، ولا نظن أنه كان جادا في هذا التفسير !

ترتب أيضا على اتباع المؤلف للمنهج المذكور **ظاهرة أخرى** لازمت سائر الفصول

---

(2) أنظر الفصل السابع ص 232
(3) أنظر الفصل الثامن ص 269
(4) أنظر التمهيد ص 30

وإن كانت قد زادت حدتها في الفصول الأخيرة .

تمثلت هذه الظاهرة في افتقاد الوحدة الموضوعية ، بل أحيانا في تشتتها . ويمكن تسجيل مجموعة من الأمثلة حول هذه الظاهرة :

(1) جاء الحديث عن ثورة الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده وموقف المغرب من هذه الثورة ثم ما ترتب على هذا الموقف من معطيات بالنسبة للعلاقات الفرنسية — المغربية والعلاقات الانجليزية — المغربية ..جاء الحديث عن هذا الموضوع في أربعة مواقع غير متصلة في الفصل السابع !

(2) تفتت موضوع الموقف البريطاني بالوساطة بين اسبانيا والمغرب في الفترة السابقة على حرب تطوان وخلالها بين ثلاثة مواقع متباعدة في نفس الفصل .

(3) تشتت موضوع السياسات البريطانية تجاه أوضاع اليهود المغاربة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين أربعة مواقع . موقعان منها جاءا في الفصل السابع بينما جاء الموقعان الآخران في الفصل التالي (الثامن). وقد فصل بين كل موقع وآخر صفحات وصفحات !

وبالإمكان فهم الأسباب التي أدت إلى احتداد هذه الظاهرة في الفصول **الأخيرة** على ضوء ما سار عليه المؤلف من اتباع التقسيم الزمني . ذلك أنه لما كانت تلك الفصول تتناول حقبا زمنية قريبة ؛ وهي الحقب التي شهدت زيادة حجم العلاقات بين البلدين وتعقدها ، فقد كان من الطبيعي أن تبرز مثل تلك الظاهرة . على عكس الحال بالنسبة للفصول **الأولى** التي تناولت حقبا مبكرة اقتصرت العلاقات خلالها على دائرة أو دائرتين مما أدى إلى شحوب هذه الظاهرة السلبية في تلك الفصول .

ترتبط بالظاهرة السالفة **ظاهرة ثالثة** تتمثل فيما نتج عن تلك المتابعة الحولية للعلاقات الإنجليزية — المغربية من تسجيل لجوانب من تلك العلاقات تبدو شديدة الهامشية .

من الأمثلة على ذلك ما تضمنه أحد الفصول[5] من صفحات عن ارسال

(5) الفصل السادس.

احدى العربات السلطانية للاصلاح في جبل طارق !

مثل آخر ما تضمنه أكثر من فصل[6] عن قيام سفن الأسطول البريطاني بين الحين والآخر بنقل بعض أبناء السلاطين إلى الاسكندرية ليبدأوا منها رحلتهم البرية لآداء فريضة الحج في الديار الحجازية !

مثل ثالث ما تضمنته الغالبية العظمى من الفصول من الإشارة إلى مناسبات تبادل الهدايا بين الملوك الانجليز والسلاطين المغاربة ، ولما كانت الوثائق تعني أشد العناية بمثل هذه المناسبات فقد غاص المؤلف بدوره في تفاصيلها حتَّى أنه كان يورد أنواع الهدايا وأعدادها بشكل قد يكون مسليا ولكنه على وجه اليقين لا يتسم بفهم البديهية العلمية القائمة على اختيار المادة العلمية الأكثر افادة لا الأكثر اثارة !

الظاهرة الرابعة المتصلة بالمنهج تتبدى في التزام المؤلف التزاما تاما بوجهة النظر التي عبرت عنها الوثائق التي عاد إليها ، وهي وجهة النظر البريطانية ، ونسجل ملاحظتين حول هذه الظاهرة..

الأولى : انتفاؤها مع الموضوعية فالعلاقات بين بلدين يصنعها طرفان ، ومن ثم يؤدى البحث فيما أنجزه أحدهما دون الآخر إلى اختلال توازن المعالجة العلمية .

ويمكن التعرف على هذا الاختلال ببساطة من خلال النظر إلى الاطار[7] الذي كانت تتحرك في داخله علاقة كل من البلدين بالآخر وهو بالقطع اطار مختلف ، فقد تحركت العلاقات البريطانية بالمغرب في اطار خاص حكمه تعاظم القوة البحرية الإنجليزية ، هذا من جانب ، ثم ما واكب ذلك ، من جانب آخر ، من تواجد عسكري على أرض مغربية (طنجة) لبعض الوقت أو أرض متاخمة للمغرب (جبل طارق) بقية الوقت ، ثم ما صحب كل هذا من تعاظم المصالح البريطانية في أراضي ما وراء البحار بكل ما يمثله المغرب من أهمية استراتيجية في الطريق إلى تلك الأراضي .

أما العلاقات المغربية ببريطانيا فقد حكمتها اعتبارات مختلفة تبدأ بدور بريطانيا في

---

(6) الفصلان السادس والسابع.

(7) سيتبع ذلك تناول قضية الإطار بشكل أكثر تفصيلا في هذه الدراسة.

مقاومة حركة الجهاد البحري التي شنها المغاربة على الأساطيل الأوربية ، وتمتد إلى موقف بريطانيا من ذلك الصراع التقليدي ، الذي امتد على طول الفترة موضوع الكتاب ، بين المغرب وبين الدولتين الإيبيريتين (إسبانيا والبرتغال) ، وتصل إلى ما كان يتصوره المغاربة من دور كان على البريطانيين القيام به في المنافسة الاستعمارية التي أخذت في الاحداق ببلادهم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهو دور اعتقد السلاطين بإيجابيته من حيث استخدام النفوذ البريطاني في مواجهة الأطماع المتنامية لكل من فرنسا وأسبانيا.

قد يكون للمؤلف بعض العذر فيما فعله من حيث كونه انجليزيا ، ومن حيث توفر المادة العلمية المنظمة على الجانب البريطاني ، وهو ما يفتقده الجانب المغربي ، غير أنه على أي الأحوال عذر غير مقنع !.

أما الملاحظة (الثانية) فهي تؤكد بشعور المستر روجز بوجه النقص الذي تمت الإشارة إليه في الملاحظة الأولى ، ذلك أن الرجل حاول الإيهام بأنه قد اطلع على الوثائق المغربية . فهو يتحدث عن أن كتابه كان « نتاجا للبحث الذي تم في دور المحفوظات في كل من لندن والرباط »[8] ثم أنه يشكر المسئولين الذين عاونوه من العاملين في « الأرشيف الملكي المغربي[9] » بالإضافة إلى كل ذلك فهو يعبر عن امتنانه لبعض زملائه ممن عاونوه من خلال المامهم بالعربية[10] مما يوحى بأنه قد عاد إلى الوثائق المغربية الموضوعة بهذه اللغة.

ولكن لا يلبث ذلك الادعاء أن يتهاوى أمام الحقائق التي تظهر في الكتاب ، فمن ناحية لم تأت اشارة واحدة في الهوامش تفيد بأن أية معلومة من تلك التي احتشدت بها مختلف الفصول كان مصدرها مغربيا ، نفس الشيء بالنسبة لثبت المصادر التي لم يأت فيه مصدر واحد من أصل عربي .

من ناحية أخرى يتضح للباحث أن المؤلف حين ساق بعض المقتطفات من

---

(8) أنظر المقدمة.

(9) أنظر التمهيد.

(10) التمهيد أيضا.

الوثائق العربية فهو قد استمدها من ترجماتها الإنجليزية دون أن يعود إلى الأصل ، ذلك أن الأصل العربي يصحبه في الوثائق البريطانية الترجمة الإنجليزية التي كان يتم اعدادها لترفق بالأصل . ويجئ التأكد من هذه الحقيقة من خلال ما يتضح من اتفاق الترجمات التي تم اقتباسها مع لغة العصر الذي تنتمي إليه ، فالترجمات التي تم استخدامها من مراسلات القرن السادس عشر تختلف اختلافا بينا عن الترجمات التي استعين بها من مكاتبات القرن التاسع عشر مما يقطع بأن المؤلف ، ابن القرن العشرين ، ليس هو المترجم .

وتأتي **الظاهرة الرابعة** المتعلقة بالمنهج متصلة بتحديد الفترة التي عالج المؤلف خلالها موضوع البحث ، وهي فترة تبدأ من العصور الوسطى وتمتد إلى نهاية القرن التاسع عشر .

ويتفق هذا الاختيار مع الأسلوب الحولي الذي اتبعه المؤلف ولكنه لا يتفق بأي حال مع المنهج العلمي ، فهذا المنهج يقضي باختيار نقطة بدء واضحة ونقطة انتهاء محددة .

وإذا كان بالإمكان الموافقة على اختيار المؤلف لنقطة البدء المتمثلة في البعثة التي أرسلها الملك جون يطلب العون من سلطان الموحدين محمد الناصر فإن اختيار نقطة الانتهاء مرفوض تماما ، ذلك أنه ليس لعام 1900 [11] أية دلالة على مستوى العلاقات بين البلدين ، وهي دلالة مطلوبة ، بل وضرورية .

والواضح أن المؤلف قد شعر متأخرا بذلك الخطأ المنهجي فحاول علاجه بأن دفع الأحداث حتَّى العام التالي (1901) والذي يؤرخ نقطة النهاية لعصر الملكة فيكتوريا .

غير أنه حتَّى بهذا الدفع لم يتم علاج الخطأ ، فالعام الأول (1900) له دلالة زمنية فحسب ، أما العام الثاني فتتصل دلالته بالتاريخ الإنجليزي أكثر مما تتصل بتاريخ العلاقات بين البلدين .

---

(11) نذكر هنا بعنوان الكتاب : العلاقات الإنجليزية المغربية حتَّى عام 1900.

وكان ينبغي على المستر روجرز الوصول بدراسته إلى عام 1904 ، وهو العام الذي وقعت فيه بريطانيا على ما عرف باسم « الوفاق الودي » مع فرنسا والذي تخلت بمقتضاه على ذلك الدور الفريد الذي استمرت تقوم به في السياسات المغربية ، وهو بالتالي نقطة شديدة الوضوح في تاريخ العلاقات المغربية — الإنجليزية.

ويبدو أن المؤلف قد نكص عن الوصول إلى نقطة الانتهاء الموضوعية التي أشرنا إليها لأسباب غير موضوعية ، وقد نبعت هذه الأسباب ، فيما نظن ، من أن تلك الحادثة رغم أهميتها إنما كانت بمثابة نقطة انتهاء حزينة يتأكد معها أن العلاقات بين الدول لا تحكمها العواطف كما أشار المؤلف (علاقة الغرام إياها !) وإنما تحكمها المصالح.

صحيح أن المصالح قد اتخذت في هذه المناسبة شكل « الصفقة الاستعمارية » وهو شكل بغيض من أشكال العلاقات الدولية غير أنه كان على أي الأحوال يتسق مع معطيات العصر.

محاولة وضع إطار للدراسة :

على ضوء كل ما تقدم نرى أن الواجب يفرض علينا القيام بمحاولة تستهدف وضع ذلك الإطار الذي افتقده الكتاب مما يوفر الرؤية المتكاملة المطلوبة ، ومما يعمم الفائدة للمادة العلمية الأصيلة والوفيرة التي تضمنتها هذه الدراسة.

أول ما يمكن ملاحظته في هذا الصدد أنه بينما تجمعت عناصر القوة على الجانب المغربي في بداية الفترة (إمبراطورية واسعة — بحرية قوية — حكام مقتدرين) ، فقد انقلب الوضع في نهايتها (تقلص في الممتلكات — تآكل أساطيل المجاهدين بل واندثارها — صراعات بين أبناء الأسر الحاكمة — ثورات محلية — انهاك من جراء القوى الأوربية بالبلاد وما استتبع ذلك من الاستنزاف الوطني سعيا وراء صدها).

على الجانب الآخر (الانجليزي) اختلف الوضع . فقد كانت انجلترا مع بداية علاقاتها مع المغرب تعتورها الكثير من أسباب الضعف الناتجة عن محاولاتها للخروج من العصر الاقطاعي بكل ما صاحب ذلك من حروب الملوك مع الاقطاعيين في

الداخل ومع فرنسا في الخارج.[12].

بيد أنه لا يمضي وقت طويل حتّى يختلف هذا الوضع تماما فتتحول انجلترا إلى بريطانيا العظمى صاحبة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ومالكة أكبر قوة بحرية في العالم، أضف إلى ذلك التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها ممثلة في نمو رأس المال وتنامي الطبقة البورجوازية مما جعلها في طليعة الأمم الأوربية.

ومن خلال تسجيل هذه البديهية التاريخية يمكن تفسير الكثير من مظاهر التناقض التي بدت في العلاقات بين البلدين في مراحلها الأولى وبينها في مراحلها الأخيرة.

(1) مثل على التناقض ما كان يجري في استقبال السفراء، إذ بينما كان يحاط استقبال السفراء المغاربة لدى وصولهم إلى انجلترا في بداية العلاقات بكل مظاهر الأبهة والتبجيل[13]،

فقد أخذت هذه المظاهر في التآكل مع مضي الوقت حتّى أن الحكومة البريطانية قد طالبت واحدا من هؤلاء السفراء[14] بالرحيل بعد أن طالت مدة اقامته في انجلترا أكثر مما كان مقررا.

ويحدث التناقض بالنسبة للسفراء الانجليز في المغرب بشكل عكسي، إذ بينما كانت تتسم معاملتهم في البلاط السلطاني في بداية الفترة بقدر كبير من التهوين حتّى أن أحدهم قد آثر الانتحار نتيجة لهذه المعاملة[15] غير أنه مع مرور الوقت كانت تتحسن معاملتهم حتّى أصبح يحتفى بهم قرب نهاية الفترة كملوك لدى زياراتهم لهذا البلاط.[16]

(2) مظهر آخر يتمثل فيما كان يجرى من فرض كل طرف لطلباته المالية على الطرف الآخر.

---

(12) نشير في هذا الصدد خاصة إلى حرب المائة عام (337 - 1453)

(13) أنظر الفصل الثالث: استقبال جؤدر بن عبد الله لدى وصوله إلى انجلترا في اكتوبر عام 1637.

(14) هو يعقوب بن يدر الذي زارها عام 1772 — 1773 (أنظر الفصل السادس)

(15) هو القنصل ريد الذي انتحر بفاس في 18 فبراير 1758 (أنظر الفصل الخامس)

(16) استقبال المولى الحسن لهاي في فاس في أبريل 1880 (أنظر الفصل الثامن)

في خلال المرحلة الأولى كان الجانب المغربي هو الذي يفرض تلك الطلبات من خلال أشكال التعويض أو الفدية التي استمر في الحصول عليها مقابل اطلاق سراح الأسرى الانجليز، ووصل الأمر بهذا الجانب إلى أنه كان يحصل على بعض تلك التعويضات أكثر من مرة وعن نفس الأشخاص[17]، وفي كل مرة كان الجانب الإنجليزي لا يملك سوى الاذعان!

وتختلف الصورة تماما خلال المرحلة الأخيرة فقد كان البريطانيون هم الذين يفرضون هذه المرة طلباتهم على المغاربة وذلك من خلال التعويضات التي استمروا في المطالبة بها في شتى المناسبات.

من هذه المناسبات ما كان يحدث من طلب الانجليز للتعويضات احتجاجا على قيام السلطات المغربية ببعض المصادرات الناجمة من جراء عمليات التجارة غير الشرعية التي كان يقوم بها عدد من الرعايا البريطانيون[18]، ومنها أيضا ما كان يحدث لدى احتجاز أية سفينة انجليزية في الموانئ المغربية لسبب أو لآخر، مقبول أو غير مقبول، [19] ومنها أخيرا تعويضات كان يطالب بها الممثلون الإنجليز في طنجة عن بعض التعديات التي كانت تصيب اليهود المغاربة[20]..وفي كل هذه المناسبات لم تكن الحكومة المغربية تملك سوى الاذعان، فقد دارت عليها الدوائر!

(3) وننتقي المظهر الأخير مما كان يجري على سطح البحار المحيطة بالمغرب، فقد كان أقصى ما يحلم به البريطانيون خلال المرحلة الأولى من علاقاتهم بالمغرب ضمان عدم تعرض أساطيلهم التجارية لهجمات المجاهدين البحريين المغاربة، أو من أسموهم بقراصنة بلاد البربر، وهم في سعيهم لتحقيق هذا الحلم حرصوا في كل معاهدة عقدوها مع أي طرف مغربي على الحصول على تعهده بعدم الهجوم على السفن الإنجليزية في عرض البحر.[20]

---

(17) في عام 1734 كان قد تم الحصول من القنصل سوليكوفر على فدية لعدد من الأسرى ثم دفعها مرة أخرى القنصل لاتون عام 1749 (أنظر الفصل الخامس).

(18) مثل التعويض الذي حصل عليه البريطانيون عام 1888 عن مقتل أحد هؤلاء في رأس جوبي (أنظر الفصل التاسع).

(19) ترتب على احتجاز سفينتين بريطانيتين عام 1828 المطالبة بتعويض كبير (الفصل السادس)

(20) مثل التعويض الذي طلبه البريطانيون لليهودي الذي قتل في آنفا عام 1880 (الفصل الثامن).

(21) أنظر: معاهدة 1638 مع العياشي، ومعاهدة 1666 مع غيلان، ومعاهدة 1721 مع المولى اسماعيل.

بيد أن الأمر يتبدل تماما خلال الفترة الثانية من الدراسة التي بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واستمرت بامتداد القرن التالي.

فمن ناحية زادت القوة البحرية البريطانية وتآكلت القوة البحرية المغربية إلى الحد الذي أصبح معه البريطانيون قادرين في أي مناسبة على فرض الحصار على السواحل المغربية لاجبار السلطان وحكومته على الرضوخ لمختلف طلباتهم[22]

ومن ناحية أخرى نظر السلاطين إلى القوة البحرية البريطانية وقد امتلأوا بالقناعة بأنها القوة التي لا تقهر مما بدا في أكثر من إيماءة..منها اعجابهم البالغ بنظامها حتى أن واحدا منهم، هو المولى الحسن، طلب من الممثل البريطاني في طنجة، رسميا، اجراء عرض لبعض قطع ذلك الأسطول في هذا الميناء عام 1889، [23]، ومنها الطلب المتكرر الذي استمر السلاطين يتقدمون به لتقوم السفن الحربية البريطانية بنقل أبنائهم لأداء فريضة الحج[24]، ومنها ذلك الاهتمام البالغ الذي أولاه المبعوثون المغاربة إلى انجلترا في عهد المولى الحسن لكل ما يخص التجهيز والتسليح البحريين.[25]

وفي اعتقادنا أن هذه المظاهر التي سجلناها، والتي يمكن رصد غيرها في صفحات الكتاب، تكفي لابراز تأثير وضعية البلدين من حيث أسباب القوة والضعف على العلاقة بينهما.

تأتي بعد ذلك **الزاوية الثانية** من هذا الإطار الذي نحاول وضع العلاقات الانجليزية — المغربية داخله، وتتصل بالأوضاع الداخلية المغربية.

ذلك أن تلك الأوضاع قد اعتورها أكثر من ظاهرة أثرت بدرجة أو بأخرى

---

(22) كما حدث عندما تم حصار طنجة عام 1828 (الفصل السادس)، والقيام بضرب أوكار قراصنة الريف عام 1851 (الفصل السابع)، وإرسال قطعة بحرية إلى رأس جوبي عام 1886 لحماية المركز البريطاني بها (الفصل التاسع).

(23) أنظر الفصل التاسع.

(24) أنظر الفصلين السادس والسابع.

(25) أنظر رحلة الحاج محمد الزبدي الى انجلترا عام 1876 (الفصل الثامن)

على تلك العلاقات ، وبالإمكان رصد تلك الظواهر ، تبعا لدرجة تأثيرها ، على النحو الآتي :

(1) ظاهرة قصور سلطة حكومة المخزن عن الوصول إلى بعض جهات السلطنة ، خاصة مناطق الأطراف .

ومثل هذه الظاهرة طبيعية ومفهومة في دولة من ذلك النمط الذي لم تتعقد إدارته وتتمركز سلطاته إلى الحد الذي يسمح لها بالتواجد في كل بقعة في البلاد ، غير أنها خلفت مجموعة من الآثار السلبية على علاقة المغرب ببريطانيا .

يتمثل أحد هذه الآثار فيما استمر يقوم به قراصنة الريف من هجمات على السفن التجارية البريطانية بالبحر المتوسط دون أن تتمكن الحكومة المركزية من كبح جماحهم حتّى لجأ الانجليز الى استخدام القوة لضربهم[26] بكل ما كان يمكن أن يترتب على هذا الاستخدام من اضطراب في العلاقات بين البلدين .

أثر آخر يبدو فيما لجأ إليه بعض البريطانيين المكفولين بحماية حكومتهم بالسعي لعقد اتفاقيات تجارية مع بعض المشايخ البعيدين عن عيون الحكومة المركزية ، كان أظهرها المحاولة التي تمت عام 1836 لعقد اتفاقية مع أحد مشايخ واد نون .[27]

أثر ثالث فيما حدث من قيام بعض الشركات البريطانية ، وبدون اذن من الحكومة الشريفة ، بتأسيس مراكز لها على بعض الأراضي المغربية ، ولعل ما قامت به شركة شمال غرب افريقيا من تأسيس مركز لها في رأس جوبي يقدم النموذج الأمثل لهذا الأثر ، وهو نموذج ظل يشكل صداعا مستمرا لأولئك المعنيين بالعلاقات بين البلدين .[28]

(2) وتجيُ الظاهرة الثانية متواكبة مع ما كان يلم بالسلطة المركزية من أسباب الضعف لدى الانتقال من دولة إلى أخرى أو حتّى من حاكم إلى آخر فإنه كان يصحب هذا الضعف عادة انتشار حركات التمرد والعصيان ونجاح متزعمي تلك

(26) الفصل السابع.
(27) نفس الفصل.
(28) أنظر الفصلين السابع والثامن.

الحركات في تدعيم سلطانهم بالمناطق التي ظهروا فيها.

وقد استتبع ذلك أن قام التجار البريطانيون بالتعامل مع تلك الزعامات، خاصة في الأسلحة التي كان يبتاعها هؤلاء بأعلى ثمن لتكريس انفصالهم عن الحكومة المركزية، [29] ثم إن السلطات البريطانية بدورها لم تستنكف من أن تجرى المفاوضات مع هؤلاء المتمردين وحتّى تعقد معهم المعاهدات، وتمثل معاهدة 1638 مع العياشي ومعاهدة 1666 مع غيلان نموذجا لهذا التعامل.

وكان من الطبيعي أن تنعكس مثل هذه التعاملات، كيفما كان مصدرها، بالسلب على العلاقات بين البلدين.

ونصل إلى **الزاوية الثالثة** وهي تستهدف محاولة استقراء الاعتبارات التي حكمت سياسات الحكومات المغربية المتتابعة في علاقاتها مع بريطانيا.

ومن خلال هذا الاستقراء يمكن القول إن تلك السياسات قد حكمها بطول الوقت اعتبارات المصلحة الاسلامية وحكمها لبعض الوقت اعتبارات التنافس الاستعماري المحدق بالمغرب.

فيما يتصل بالنوع الأول من الاعتبارات (المصلحة الإسلامية) يمكن تخير مجموعة من المواقف بامتداد الفترة موضع الدراسة يتأكد منها طابع الاستمرارية الذي طبعها.

(1) في عام 1698 يرسل المولى اسماعيل إلى جيمس الثاني الملك الانجليزي المخلوع رسالة طويلة يؤكد فيها على طبيعة الإسلام المتفوقة ويدعوه إلى اعتناق الدين الحنيف. [30]

(2) في كل الأحوال وبامتداد القرن الثامن عشر ظل السلاطين المغاربة على موقفهم في المفاوضات التي جرت بينهم وبين الجانب البريطاني برفض اطلاق سراح الأسرى الأسبان والبرتغاليين ممن تم أسرهم من على السفن الانجليزية مدفوعين في

---

(29) الفصل الثالث.

(30) الفصل الخامس، نص الرسالة ملحق رقم 5

ذلك بقناعتهم الراسخة بشدة عداء هؤلاء للإسلام.

(3) لم يتوان الجانب المغربي، ومن منطلق اسلامي بالأساس، من تقديم كل عون لحركة الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده والتي استمرت في أعقاب بدء هذا الاحتلال (1830) ولسبع عشرة عاما متتالية.. هذا بالرغم من النصائح البريطانية المتوالية بالكف عن مد يد العون.[31]

(4) قدم المغاربة كافة التسهيلات للقوى الأوربية، في طليعتها بريطانيا، والتي تكتلت للدفاع عن الدولة العثمانية ضد الغزو الروسي خلال حرب القرم (1854 — 1856)[32]، وكان دافعهم الأساسي لذلك مشاعر التضامن الإسلامي مع الدولة الإسلامية العتيدة في المشرق.

أما النوع الثاني من الاعتبارات فقد تزايدت أهميته خلال القرن التاسع عشر، خاصة بعد الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830 واحداقه بالتراب الوطني المغربي وبعد الحرب التي شنها الأسبان في الشمال المغربي (1859 — 1860) والمعروفة بحرب تطوان.

ذلك أنه على ضوء تلك المخاطر أخذ المغاربة في تلمس العون من قوة أوربية غير طامعة فيهم، وقد رأوا في انجلترا النموذج الأمثل لهذه القوة.

ومن خلال فهم هذه الحقيقة وحدها يمكن تفسير ذلك المركز الفريد الذي تمتع به ممثل بريطانيا في البلاد السير جون درمندهاي، ذلك أن الرجل تولى مهام منصبه بين عامي 1845 و 1886 وهي الفترة التي شهدت تزايد أسباب الاحداق الفرنسي الأسباني بالأراضي المغربية.

وقد دعا الشعور بأهمية دور هاي في السياسة المغربية إلى تخصيص فصل له في الكتاب[33] غير أن الكاتب فسر أسباب هذه الأهمية من منطلقات شخصية.

---

(31) الفصل السابع.
(32) نفس الفصل.
(33) الفصل الثامن.

وتبقى **الزاوية الرابعة** والأخيرة في هذا الإطار وتتناول الاعتبارات التي حكمت السياسات البريطانية في علاقاتها بالمغرب. ويمكن تلخيصها بالقول بأنها كانت اعتبارات اقتصادية استراتيجية استعمارية.

يبدو الجانب الأول في تلك الجسور المتعددة التي سعى البريطانيون بامتداد فترة الدراسة لمدها لتجارتهم في المغرب.

أحد هذه الجسور تمثل في المعاهدات التي تم ابرامها بين الطرفين والتي كان البريطانيون حريصين فيها على النص بحرية رعاياهم في الاتجار في الموانئ المغربية حتّى انتهى الأمر بتخصيص اتفاقية عام 1856 لتحدد طبيعة هذه الحرية.[34]

جسر آخر تمثل في تلك التعاملات التي استمر التجار البريطانيون يجرونها تحت أي ظروف وفي مختلف أنحاء المغرب، سواء برضاء حكومة المخزن أو من ورائها؛[35] وهي تعاملات كانت تتمتع برعاية الحكومة البريطانية.

ويبدو الجسر الثالث من خلال ذلك التشجيع المستمر للسلاطين المغاربة بالاقبال على السلع البريطانية، وكان الانجليز حريصين في هذا الصدد كلما تقدموا ببعض الهدايا للسلاطين أن تتضمن أجود أنواع السلع المنتجة ببلادهم حثا لهؤلاء على اقتنائها ولإغراء رعاياهم على شراء مثيلاتها.

وحتّى آخر وقت، وعندما سلم الانجليز بالنفوذ السياسي في البلاد لفرنسا، مما تم الاتفاق عليه في الوفاق الودي عام 1904، فقد حرصوا على أن يتضمن هذا الوفاق اقرارا من الجانب الفرنسي بحرية التجارة في المغرب.

أما الجانب الثاني الخاص بالاعتبارات الاستراتيجية فينبع في المقام الأول من ذلك الموقع الفريد الذي يتمتع به المغرب على مختلف الطرق العالمية بامتداد المحيط الأطلنطي جنوبا أو من مدخل البحر المتوسط الغربي، وهي طرق زادت حيويتها لبريطانيا مع اتساع امبراطوريتها الاستعمارية.

---

(34) الفصل السابع.
(35) الفصل الثالث.

وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن فهم الأسباب التي دعت إلى المحاولة البريطانية لاحتلال طنجة خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر.[36]

على ضوئها أيضا يمكن ادراك دوافع الانجليز لاحتلال جبل طارق عام 1704 ، وما استتبع ذلك الاحتلال من تزايد أهمية المغرب لتموين هذا المركز الاستراتيجي الذي أحاط به العداء الاسباني.[37]

وعلى ضوئها أخيرا ينبغي فهم البواعث التي دفعت حكومة لندن إلى منع أية قوة أوروبية كبرى من التحكم في الأراضي المغربية المطلة على جبل طارق.

يبقى الجانب الثالث المتصل بالاعتبارات الاستعمارية ، فالمغرب نتيجة لصموده الطويل أمام موجة المد الاستعماري قد خلق تنافسا بين القوى الاستعمارية ربما لم يشهده بلد آخر من تلك التي تعرضت لهذه الموجة.

وكان من الطبيعي ، وبريطانيا في طليعة القوى الاستعمارية ، أن يدخل المغرب في نطاق خططها كما دخل في نطاق خطط غيرها من تلك القوى.

صحيح أن البريطانيين قد سلموا المغرب في النهاية لجارتهم اللدودة فرنسا من خلال صفقة عام 1904 بيد أنهم ظلوا طوال الفترة السابقة على هذا التاريخ ، أو حتى بعده وإلى عام 1912 ، يلعبون دورا أساسيا في الصراعات الاستعمارية التي دارت حول البلاد وهو ما يمكن رصده بسهولة من خلال ما قاموا به سواء في الصراع المغربي — الفرنسي في اسلي أو الصراع المغربي — الاسباني في تطوان.

لا يبقى بعد كل ذلك ، فيما يتصل بالمنهج ، سوى الإشارة إلى الاضافة التي زيدت على المحتويات . ذلك ان المحتويات قد اقتصرت في النسخة الانجليزية على عناوين الفصول إلا أننا وضعنا داخل كل فصل مجموعة من العناوين توضح محتواه.

وقد دعانا إلى هذا العمل الرغبة في تدارك الخطأ المنهجي الذي وقع فيه المؤلف والذي سبقت الإشارة إليه مما نتج عنه تفتت الموضوعات داخل الفصل الواحد وتشتتها بين أكثر من فصل .

---

(36) الفصل الرابع.

(37) الفصل السادس.

وفي تصورنا أننا بهذا العمل قد أتحنا للقارئ الفرصة لتتبع أي موضوع مهما بلغ به التفتت أو التشتت !

قضية الشكل العلمي :

يأتي بعد ذلك الجانب الخاص « **بالشكل العلمي** » ، ولنا عليه بدوره ملاحظة أساسية تتصل بالعلاقة بين المتن والهوامش.

ذلك أن دراسة من هذه النوعية التي بين أيدينا ، والتي تعتمد بشكل يكاد يكون كاملا على الوثائق ، تتطلب تقنية خاصة في وضع الهوامش بشكل متكامل مع المتن.

وتتمثل هذه التقنية في تضمين الهوامش لمختلف المعلومات عن الوثيقة ابتداء من الأرشيف الذي تتواجد فيه إلى رقم التصنيف الذي يتضمنها ، وهو ما قام به المؤلف فعلا ، غير أن هذا لا يكفي !

المطلوب بعد ذلك الإشارة إلى رقم الوثيقة داخل تصنيفها ، ثم تسجيل عنوانها إذا ما كانت مذكرة أو اتفاقية أو معاهدة ، أو تسجيل اسم كل من مرسلها والمرسلة إليه إذا كانت مكاتبة ، وأخيرا تدوين تاريخها.

وإذا كان المستر روجرز لم يتنبه لتسجيل أرقام الوثائق إلا أنه تنبه فسجل المعلومات الأخرى الخاصة باسم مرسل الوثيقة والمرسلة إليه وتاريخها ، غير أنه لسوء الحظ قد سجلها في المتن لا الهامش.

ترتب على ذلك اخلال واضح بالسياق ، فقد كانت هذه المعلومات أشبه بجمل اعتراضية لا مكان لها داخل المتن !

ملاحظة أخرى تتصل بالشكل العلمي وهي كثرة المقتطفات من الوثائق ، ومثل هذا الاقتطاف له دور في الدراسات التاريخية وليس مطلوبا لذاته ، فهو اما يتم للبرهنة على حقيقة تاريخية يسوقها الباحث واما يحدث لاضفاء مسحة من جو العصر الذي تتناوله الدراسة ، والكتاب في هذا الصدد خرج بعض الشيء عن تلك القواعد فهو أكثر من الاقتطاف وان لم يفرط فيها !

المصادر :

يتبقى آخر الجوانب الخاص « بالمصادر » ولا نملك في هذا الميدان سوى تقريظ الجهد الذي قام به المؤلف والمتمثل في جمع كل تلك المادة العلمية من مختلف مصادرها الأصيلة ، وإن كانت هناك ملاحظة في هذا الشأن فهي أن الرجل لم يبذل ماهو مطلوب في البحث في غير الجانب الانجليزي .

وقد حاولنا علاج هذا النقص بالبحث عن بعض أصول النصوص العربية التي سجلها الأستاذ روجرز في كتابه بالانجليزية ووضعها في ملاحق في نهاية الكتاب .

ربما لا يكون هذا كافيا ولكننا رأينا أننا لو فعلنا ما هو أكثر من ذلك لنتج عنه اختلال خطير بين الأصل والإضافة مما لن يتأتي معه تحقيق المصلحة العلمية المرجوة.

مقدمة

خلال الزيارة الرسمية التي قام بها إلى لندن عام 1980 وزير الخارجية المغربية ، حينئذ السيد « بوطالب »، اقترح على نظيره الانجليزي المستر « مايكل ستيوارت » القيام بجهد مشترك للبحث في المحفوظات بهدف وضع سجل كامل للعلاقات الإنجليزية — المغربية.

وقد لقي الاقتراح المغربي ترحيبا حارا من جانب المستر ستيوارت ، وقد جاء هذا الكتاب نتاجا للاقتراح ونتاجا للبحث الذي تم بعدئذ في دور المحفوظات في كل من لندن والرباط .

هذا وقد استفاد الكتاب من الاقتراحات والتعليقات التي أدلى بها المؤرخان المغربيان المرموقان السيد « عبد المجيد بن جلون » والدكتور « عبد الهادي التازي » لدى اطلاعهما على أصوله.

تمهيد

لا يعاني المؤرخ الذي يتناول موضوع العلاقات الإنجليزية — المغربية من أي نقص في المادة العلمية ، فمنذ أن بدأت تلك العلاقات تأخذ شكلا متواصلا خلال القرن السادس عشر توفر قدر كافي من مصادرها ، وهو القدر الذي تضاعف خلال القرون التالية ، خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . واظهر مثل على هذا وثائق وزارة الخارجية البريطانية التي تشغل مائة وتسع من المجلدات الضخمة المكتظة بالمراسلات الرسمية عن الفترة بين عامي 1876 و 1891 ، هذا غير ثلاث وتسعين مجلدا آخر عن الفترة بين عامي 1792 و 1900.

ويثير الدهشة ، بالإضافة إلى تلك المادة العلمية الأولية الوفيرة ، هذا العدد الكبير من المؤلفات التي نشرت حول مختلف موضوعات التاريخ المغربي ، ويجد القارئ في قائمة المصادر عدداً مختاراً من هذه المؤلفات مما تم الاستعانة به . وفيما يتصل بثبت واف للمصادر تنبغي الإشارة إلى الكتاب الذي اشترك في وضعه كل من السير ر. لامبرت بلايفير والدكتور روبرت براون تحت عنوان « ببليوجرافية عن المغرب منذ أقدم العصور إلى نهاية عام 1891 » والذي طبع في لندن عام 1892 ، كذا إلى المصدر الببليوجرافي الآخر الذي وضعه بودجت ميكن ، وان كان مختصرا عن الأول ، وهو تحت عنوان « الإمبراطورية المغربية ». وقد نشر في لندن أيضا عام 1899 .

ومن خلال الكم الهائل من المادة العلمية المتوفرة ، ومن خلال الجهد المستمر القائم على الاختيار والتلخيص ، أثق أنه بالإمكان الخروج بتاريخ حقيقي ومقروء للعلاقات الانجليزية — المغربية يتضمن قدرا ملحوظا من الأحداث الممتعة ومن الأمور المثيرة للاهتمام الى حد يمكن القول معه ، إن تاريخ تلك العلاقات لم يكن في أية حقبة من حقابه مثيرا للملل أو قليل الأهمية.

وقد توخيت في عرضي للعلاقات الإنجليزية — المغربية تجنب اصدار الأحكام واقتصرت على طرح الحقائق بأكبر قدر ممكن من الوضوح والدقة وتركت للقارئ الحرية لاستخلاص النتائج منها . وبالرغم من امكان الخروج بآراء مختلفة فإن هناك حقيقة لاشك فيها حول موضوعات معينة نشأت بين البلدين في الماضي ألا وهي أن العلاقات الانجليزية — المغربية كانت مثل علاقة الغرام لا يمكن أن تستمر هادئة طول الوقت .

ولما كنت قد حصلت على معونات قيمة من جهات عديدة لإنجاز هذا العمل فمن الواجب تسجيل شكري لها . وهناك في المقام الأول في هذا الصدد « وزارة الخارجية المغربية » التي عاونني المسئولون بها في تخير الوثائق المتعلقة بالموضوع من « الأرشيف الملكي المغربي » وقد كانت هذه الوثائق اضافة مفيدة للغاية لما هو متوفر في المحفوظات الرسمية البريطانية . كما أدين أيضا لسفير الحكومة البريطانية في المغرب فخامة « ر. و. بيلي » للمعونة التي قدمها ، كذا لزملائي في « إدارة البحوث بوزارة الخارجية والكومنولث » لمعونتهم فيما يتصل بالمصادر العربية والاسبانية . هذا وقد أفادني كل من المستر « م. ج. بانرمان » والمستر « ر. د. لامب » من خلال المامهم الواسع بالعربية ومستر « م. اندرسون » الذي ساعدني بترجمة عدد من الوثائق الاسبانية القديمة . ثم ان الشكر واجب لكل هيئة مكتبة وزارة الخارجية والكومنولث على الخدمات الفعالة التي قدمها أعضاؤها. وفي هذا الصدد فإني أدين بشكر خاص لمسز « أي. سي. وولف » التي قدمت لي معونة لا تقدر من خلال المامها الفائق بمحفوظات وزارة الخارجية .

ويجب أن أعبر عن شكري أيضا للمستر « ر. و. هارفلي » من قسم اعداد الخرائط في « إدارة البحوث بوزارة الخارجية والكومنولث » الذي اعد خريطة عن المغرب تتفق مع المعطيات الخاصة لهذا الكتاب.

وختاما أرى أن أشير إلى قضية تتعلق بترجمة الاسماء العربية الموجودة في هذا الكتاب فإني لم أحاول استنطاق الأسماء العربية طبقا لاحدى الطرق المستخدمة في تشكيل الابجدية العربية بل اتبعت النطق الانجليزي المعاصر الذي يعطي أقرب مسمع ممكن للاسم العربي . وإذا كانت هذه الطريقة قد أدت في بعض الأحيان إلى شكل

من أشكال عدم التناغم فإني أحيل القارئ الى المقدمة التي كتبها « ا. و. لورنس » لطبعة جديدة من كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » المطبوع في جوناثان كيب عام 1965 . فقد أشار في هذه المقدمة إلى صعوبات ترجمة الاسماء وسجل الآراء التي أدلى بها شقيقه في هذا الشأن . ويتضح من هذه الآراء أن « ت . اي . لورنس » قد أحتقر الطرق العلمية في ترجمة الاسماء واعلنها صريحة « اني أنطق الاسماء كيفما شئت لاظهر مدى فساد هذه الطرق ».

ب. ج. روجرز



الفصل الأول

مدخل من العصور الوسطى

على حافة العالم المعروف في العصور الوسطى وقعت كل من بريطانيا والمغرب. وبينما كان من المفروض أن يؤدى الموقع المشترك للبلدين على مياه الأطلنطي إلى اتصالها إذا به يؤدى إلى العكس، نتيجة لتخلف أدوات الملاحة وفنونها، ونتيجة للخزعبلات التي امتلأت بها نفوس الرجال وأعجزتهم عن الخوض في تلك المياه.

بالرغم من ذلك، وفي عصور تقطع أسباب الاتصال بين البلدين، تحتفظ السجلات بمحاولة واحدة على الأقل للاتصال بينهما جرت حينما كانت الامبراطورية المغربية في أوج قوتها. فمن المعلوم أن دولة الموحدين التي تأسست في المغرب خلال القرن الثاني عشر قد بلغت أقصى اتساعها عام 1200 حين امتدت من طرابلس شرقا بطول ساحل شمال افريقيا كما ضمت في الغرب القسم الجنوبي من شبه جزيرة ايبريا. وحين اعتلى «محمد الناصر» رابع الحكام الموحدين العرش عام 1198 كانت سمعة دولته قد طبقت الآفاق، وفي هذا الوقت كان هناك في انجلترا «الملك جون»[1] الذي وصل إلى وضع يرثى له عام 1213. فقد كان يواجه تهديدا بالغزو من جانب الملك الفرنسي فيليب أوجستس من ناحية، وثورة من السادة الاقطاعيين من ناحية أخرى[2]، وحرمانا أصدره البابا ضده قبل ذلك بأربع سنوات من ناحية

---

(1) حكم انجلترا 1167 ـ 1216 امتلأت عهده بالحروب مع فرنسا التي خسر فيها مساحات من الأراضي الاقطاعية التي تملكها اسلافه في الأراضي الفرنسية. كذا بالصراع مع البابا انوسنت الثالث الذي أصدر ضده قرارا بالحرمان الكنسي عام 1209 وأخيرا الصراع مع السادة الاقطاعيين الانجليز الذين أجبروه عام 1215 على توقيع الماجنا كارتا أو العهد الأعظم (المترجم).

(2) بينما كان للملك جون إقطاعياته الواسعة في غرب فرنسا كان السلطان المغربي يسيطر على قسم كبير من غربي شبه جزيرة أيبريا.

ثالثة . وفي هذا الوضع الميئوس منه أخذ جون في البحث عن العون من أي مصدر ، واتجهت أنظاره إلى المغرب حيث أرسل ثلاثة مبعوثين إلى محمد الناصر[3] .

بعثة الملك جون إلى محمد الناصر ومصيرها :

سجلت قصة هذه البعثة في أوراق دير « سانت ألبان أبي » وحررها كاتب حوليات الدير « ماثيو باريس » ونشرها فيما بعد أحد رهبان الدير والمدعو « روجر اوف وندوفر » قال باريس ان الملك جون « أرسل عددا من المبعوثين السريين هم : الفارسان توماس هاردنجتون ورالف فيتزنيكولاس ، وروبرت أوف لندن كاتبا للبعثة ، ومعهم أوامره المقدسة إلى أمير المؤمنين الملك العظيم لافريقيا (تونس وليبيا) والمغرب واسبانيا ليبلغوه بأن ملكهم يسلم نفسه ومملكته اليه طواعية وانه يريد أن يكون تابعا له وعلى استعداد فوق كل ذلك لترك المسيحية واعتناق الإسلام.

« ووصل المبعوثون أخيرا إلى القصر الملكي حيث اقتيدوا إلى مقر الأمير بهدوء ودون تعقيدات ..وما ان دخلوا على (الملك العظيم) كما أسموه ، حتى انحنوا له مبلغين إياه بتحية مولاهم ملك انجلترا وشارحين له في نفس الوقت سبب مجيئهم واسلموا له الرسالة التي بعثها ملكهم معهم ، وتم على الفور استدعاء مترجم قام بترجمة ما جاء فيها .

« وكان الملك وهو رجل متوسط العمر والطول ذو مظهر رجولي تتسم تصرفاته بالذكاء والحذر ، كان يطالع كتابا وقت دخول المبعوثين ما لبث أن طواه وأخذ في توجيه حديثه إليهم ..قال

«كنت اقرأ الآن في كتاب وضعه رجل يوناني عاقل ومسيحي يدعي بول ، والكتاب مكتوب باليونانية وقد سرني كثيرا ما جاء فيه من أفعال وأقوال . شئ واحد لم يعجبني في الرجل هو عدم تمسكه بالدين الذي ولد عليه وتحوله إلى دين آخر مثل أي كافر أو جبان.

---

(3) يشير أحد المؤرخين المغاربة بأن هذه البعثة قد جاءت عام 1208. محمد بن تاويت : وثائق سعدية لم تنشر مجلة تطوان العددان 3- 4 ص 50 (المترجم).

وينطبق قولي هذا على مولاكم ملك الانجليز الراغب في ترك مبادئ المسيحيين النقية التي ولد عليها والرامي الى المجيئ إلى ديننا بقلب راجف متردد.

وأضاف ..

« ويعلم الله العليم القدير بأني لو كنت كافرا لاعتنقت هذا الدين (يقصد المسيحية) ولما ارتددت عنه لأي سبب ».

« وانثنى يتساءل عن حال ملك الانجليز وحال مملكته ، وتصدى الفارس توماس باعتباره أقدر المبعوثين بالرد ، قال :

« الملك من النسل الشريف للملوك العظماء ، ويحكم بلاداً خصبة تضم مختلف أنواع الثروة الزراعية والحيوانية والخشبية ، كما أن أرضها مليئة بالمعادن . أما شعبنا فهو شعب بارع ومخلص ويجيد استخدام اللغات ، اللاتينية والفرنسية والانجليزية ، كما يتقن الحرف والصناعات . صحيح أن بلادنا لا تنتج أي كمية من الكروم أو تزرع أشجار الزيتون أو التين غير أنها تحصل على احتياجاتها منها من البلاد الأخرى التي تتاجر معها.

« أما مناخها فهو صحي ومعتدل ، فهي تقع بين الغرب والشمال حيث تأتيها الحرارة من الاتجاه الأول وتأتيها البرودة من الاتجاه الثاني وهي بذلك تتمتع بجو مثالي . ويحيط البحر تماما ببلادنا حتى أنها تسمى ملكة الجزر . ويحكم المملكة منذ أقدم العصور ملوك متوجون ويتمتع شعبنا بالحرية فهو لا يخاف إلا الله ، أضف إلى ذلك احترام الجميع لدينهم الذي يدير شئونه كل من البابا والملك.

وتنهد الملك بعمق بعد هذا الحديث ، ثم شرع في الرد ، قال : « أنا لا أفهم أبدا كيف أن ملكا يتمتع بمثل هذه المملكة الغنية والرعايا المخلصين يتنازل باختياره عن سلطاته إلى آخر ويقبل بالبؤس الذي يخلفه الاستسلام لإرادة هذا الآخر وكأنما هو يستسلم بدون معركة . لقد سمعت كثيرا عن أناس يشترون حريتهم بأنهار من الدماء وهو عمل محمود أما ما أسمعه الان عن مولاكم الحقير والكسول والجبان فلم أسمع من قبل بشيئ أسوأ منه . فرغبة الحر في أن يصبح عبدا هي أحقر ما يمكن أن يصدر عن إنسان ».

بعد ذلك تساءل بازدراء واضح عن عمر الملك الإنجليزي وحجمه وقوته وجاءته الإجابة بأنه في الخمسين وقور المظهر ذو جسد قوي ليس طويلا وان كان في هيئته المكتنزة ما يوحي بالقوة ، وعلق الملك على ذلك .

« معنى ذلك أن شبابه وحماسه الرجولي في طريقهما إلى الانتهاء وانه في خلال عشرة سنوات سوف ينتهي تماما وسوف تخونه شجاعته عن اتمام أي مشروع كبير . وإنه إذا ما بدأ الآن فلن يتمكن من الاستمرار ولن يصلح لأي شيء ، فإذا كان وهو في الخمسين يقبل أن يغرق بهذا الشكل ودون أي مبالاة فإنه سوف يتهالك تماما عندما يصل إلى الستين ، دعوه يبحث عن السلام لنفسه ويستمتع بما بقي له من عمر ».

ثم سادت فترة قصيرة من الصمت بعد قراءة كل ما تقدم من اسئلة وإجابات قطعتها ضحكة عالية من الأمير تحمل كل معاني التحقير وتبع ذلك برفض عرض الملك جون ، أو كما قال بالنص .

« لا قيمة لمثل هذا الملك وإنه مجرد حاكم صغير النفس وبلا احساس ثم إنه يتقدم في السن ولا يهمني أمره ، إنه غير جدير بالتحالف معي ».

وحدج توماس ورالف بنظرة قاسية وخاطبهما قائلا :

« أما أنتما فلا تأتيا لي أبداً بعد ذلك ولا أريد أن يصافح وجهي وجهيكما على الاطلاق وان العمل الشائن لهذا المرتد الغبي يجعل أنفاسي تضيق برائحته النتنة ».

وخرج المبعوثون مجللين بالعار غير أن الأمير استبقى أحدهم وهو الكاتب المدعو روبرت ، ثالث المبعوثين ، وكان رجلا متجهماً ضئيل الجسم له يد أطول من الأخرى وأصابع مشوهة التصق اثنان منها ببعضها وله وجه يهودي . وقد اعتقد الملك المغربي ان ارسال مثل هذا الرجل المنفر في مهمة صعبة كالمهمة التي يشارك فيها لابد أن يكون سببه ما يتمتع به من حكمة وذكاء ، ومن خلال مظهره الديني وصمته ووقوفه بعيدا بينما يتحدث الآخران أدرك انه كاتب البعثة . وبعد استبقائه عقد معه محادثة سرية طويلة لم يلبث روبرت أن أبلغ مضمون ما جرى فيها لزميليه .

قال : إن الملك سأله عما إذا كان الملك جون على خلق وإذا ما كان لديه ابناء شجعان ومدى الحيوية التي يتمتع بها . وأضاف بأنه إذا لم يصدقه روبرت القول فلن يصدق أبدا مسيحيا بعد ذلك خاصة لو كان كاتباً . وقد وعد روبرت أن يتقدم بالإجابات الصحيحة لكل التساؤلات التي طرحت عليه.

ورد بأن الملك جون طاغية أكثر منه ملك ، مدمر أكثر منه حاكم ، ظلوم لشعبه صديق للغرباء ، أسد على رعاياه حمل وديع أمام الأجانب أو أعدائه ، وانه بسبب تهاونه قد خسر دوقية نورماندي وأراض أخرى كثيرة بل انه في سبيله إلى فقدان مملكة انجلترا ذاتها أو تدميرها ، ولما كان نهمه للمال بدون حدود فهو كثيراً ما يعتدى على ممتلكات رعاياه وقد رزق بعدد من الأطفال الأصحاء غير أنه وزوجته يتبادلان الكراهية العميقة ويشتهر عن زوجته اتهامها بالحمل والولادة سفاحا وهي تهم ثبتت عليها مما دعا الملك إلى الأمر بالقبض على عشاقها وتقييدهم بالحبال في سريرها . غير أن هذا الملك نفسه صاحب مغامرات نسائية عديدة وكثيرا ما انتهك أعراض الأشراف بالاعتداء على بناتهم وشقيقاتهم . أما بالنسبة لدينه فهو كما سمع الملك المغربي جبان ومرتد .

وبعد أن استمع الملك لكل ذلك فإنه لم يعبر فقط عن ازدرائه لجون كما فعل من قبل بل أنه صب على رأسه اللعنات وصاح في روبرت « لماذا يسمح الانجليز الحقراء لمثل هذا الرجل أن يتحكم فيهم؟ إنهم حقا مخنثون ومستعبدون ! »

غير أن روبرت رد قائلا

« إن الإنجليز من أكثر الشعوب صبراً إلى أن تصل درجة ايذائهم إلى ما فوق احتمالهم ، انهم الآن أشبه بفيل فوقه أسد عندما يشعر بأنه قد أوذى أو يرى دمه ينزف يهتز بالغضب ويسعى ، ولو بعد وقت ، إلى التخلص من ذلك القابض على عنقه »

ولم يقتنع الملك بذلك ولام الإنجليز على صبرهم الزائد بل ان المترجم الذي كان حاضرا طول الوقت عبر عن اعتقاده بأن ذلك لون من الجبن لا الصبر.

وقد تطرق الملك إلى عدد آخر من الموضوعات ابلغ بها روبرت أصدقاءه بعد عودته إلى انجلترا . ثم اعطاه عددا من الهدايا القيمة من الذهب والفضة ومختلف أنواع المجوهرات والأقمشة الحريرية وودعه بروح من الود . أما المبعوثان الآخران فإنهما لم يحظيا منه لا بالهدايا ولا حتَّى بالتحية . وقد عاد الجميع إلى الوطن بعد ذلك وأخبروا ملكهم بما رأوا وسمعوا ، لم يتمالك جون نفسه من البكاء بمرارة نتيجة للاهانة التي لحقته من الملك المغربي ونتيجة لفشل مشروعه.

ويستطرد « ماثيو باريس » في روايته فيشير إلى أن روبرت قد أعطى الملك جون عددا من الهدايا التي حصل عليها من الحاكم المغربي وان الملك قد منحه مقابل ذلك رئاسة دير سانت البان أبي . وهناك أظهر روبرت الهدايا التي حصل عليها لبعض الرهبان كما أنه روى لهم قصته مع ملك الموحدين ، وكان من بين هؤلاء ماثيو باريس صاحب الرواية الوحيدة المفصلة عن البعثة.

وبالرغم من تلمس بعض المبررات لذلك التحامل الذي جاء في سجل الدير ضد الملك جون ، فإن تلك القصة عن أول اتصال بين الحكام الإنجليز والمغاربة يعوزها الثقة فيها على عكس الاتصالات اللاحقة . ثم إنه عندما عادت تلك الاتصالات بعد ثلاثة قرون ونصف فقد عادت على أسس من الصداقة والاحترام ، وهي أسس استمرت في النمو أصبحت من تقاليد العلاقات بين البلدين.

الفصل الثاني

التجارة والسياسة في عهد اليزابث[1]

بدايات الاتصال الأوربي بالمغرب :

كانت أبعد نقطة وصلتها التجارة الأوربية في العصور الوسطى هي ميناء أصيلا الواقع على ساحل الأطلنطي المغربي إلى الجنوب من طنجة ببضعة أميال . بيد أن البرتغاليين والاسبان قاموا خلال القرن الخامس عشر ، ولأسباب عديدة ، بحملات كشفية كبرى تمخض عنها الوصول إلى أراض جديدة وتأسيس امبراطوريات استعمارية .

وكان البرتغاليون روادا في التقدم تدريجيا نحو الجنوب بامتداد ساحل افريقيا الشمالي الغربي وقد أسسوا خلال هذا التقدم عددا من المستعمرات . كانت أولاها سبتة التي استولوا عليها عام 1415 ، وتبعوا ذلك بالاستيلاء على القصر الكبير 1452 ثم أصيلا فطنجة (1471) وفي عام 1506 تمكنوا من احتلال آسفي ومازاكان (الجديدة) وموكادور (الصويرة) وسانتا كروز دي أجوير (أكادير) ثم استولوا على أزمور عام 1513 .

لعب الاسبان في نفس الوقت دورا نشطا في إقامة مستعمراتهم في المغرب خاصة بعد أن أتموا القضاء على مملكة غرناطة المغربية ، وكانوا قد أسسوا 1476 مستعمرة لأعمال الصيد على الساحل الأطلنطي للمغرب وسموها « سانتا كروز دي مار

---

(1) اليزابث الأولى (اليصابات) ملكة انجلترا تولت العرش 1558 وحكمت بلادها لخمسً وأربعين عاما كان من أهم ما حدث خلالها ظهور قوة مملكتها البحرية خاصة بعد نصرها عام 1588 على اسطول الغزو الإسباني « الارمادا » وما صحب ذلك من ولوجها لميدان التجارة والاستعمار . (المترجم)

باكوينا » (افني فيما بعد) غير أنهم أخلوها عام 1524. وقد احتل الاسبان « مليلية » عام 1497، كما استولوا عام 1506 على جزيرة صخرية صغيرة تقع على ساحل البحر المتوسط المغربي جنوب شرق سبتة أسموها « بنون دي فيليز دي لاجوميرا ». وقد طردهم الأتراك منها عام 1522 غير أنهم نجحوا في استعادتها عام 1564 واستمروا في احتلالها.

وقد تنوعت العوامل التي دفعت البرتغاليين والاسبان إلى التعدي على التراب المغربي. غير أن العاملين الديني والتجاري كانا أهم تلك العوامل. فمن ناحية كانت قد بدأت موجة صليبية أخرى ضد الإسلام زادها سقوط غرناطة اندفاعا، مما استتبعه انغماس البرتغاليين والاسبان في حماس ديني استهدف عبور جبل طارق وإعادة المسيحية إلى شمال افريقيا.

ولم يقل العامل الاقتصادي أهمية عن العامل الديني ان لم يفقه. فسواحل الأطلنطي المغربية غنية بالأسماك التي تحتاجها أوربا. كما انتشرت القصص عن كميات الذهب الوفيرة التي تجلبها القوافل المغربية من مناطق افريقية مجهولة تقع جنوبي المغرب، وكان لهذا المعدن النفيس اغراء خاص بالنسبة للأوربيين سواء بسبب الرغبة في اقتنائه أو لأهميته في التبادل الاقتصادي.

من ثم فقد توفرت لكل من البرتغاليين والاسبان الأسباب الكافية لمحاولة مد نفوذهم إلى المغرب، وقد عزز من هذا الاتجاه الأوضاع الداخلية في البلاد خلال القرن الخامس عشر، فقد كان المغرب حينئذ واقعا تحت حكم دولة بربرية هي المعروفة بالدولة الوطاسية، وكان حكام تلك الدولة في حالة من الضعف والعجز لا تسمح لهم بمقاومة تذكر للتعديات البرتغالية والاسبانية. أدى ذلك إلى أن تتقدم قوة جديدة هي « الأشراف السعديين » من جبال أطلس في الجنوب لتحل محل الوطاسيين. وفي عام 1551، وفي بداية عهد هؤلاء، عقد التجار الإنجليز أول اتصالاتهم مع المغرب، وبدأت عندئذ علاقة بين البلدين استمرت دون انقطاع الى الحقب المعاصرة.

علاقات انجليزية مبكرة:

دفع هؤلاء إلى السعي لعقد ذلك الإتصال ما علموه عن المتاجر التي كان

يتبادلها البرتغاليون من مستعمراتهم مع المغاربة . صحيح أن حجم هذه التجارة كان محدودا غير أن القصص انتشرت عما يجلبه المغاربة من الذهب والسكر ونترات البوتاسيوم (التي تستخدم في صنع البارود) مما دعا التجار الانجليز إلى السعي للمشاركة في تلك التجارة التي كان يتم فيها أيضا الحصول على ريش النعام والشمع واللوز « وكل سلعة قابلة للبيع » كما كتب المعاصرون.

وقد قامت أول رحلة انجليزية معروفة إلى المغرب عام 1551 اشتركت فيها سفينتان احداهما هي « ليون أوف لندن » التي كان يقودها » الكابتن توماس ويندام » وكان في نفس الوقت قائدا للرحلة ، وتمت رحلة ثانية في العام التالي تحت قيادة ويندام أيضا وإن ضمت ثلاث سفن هذه المرة . وموّل الرحلتين عدد من تجار لندن . وقد غادرت السفن الثلاث بريستول في أوائل ماي عام 1552 اتجهت إلى آسفي وهي محملة بالأقمشة والمرجان والكهرمان بنوعيه الأصفر والأسود وغيرها من البضائع . وفي آسفي تم انزال بعض البضائع لنقلها إلى مراكش ثم استأنفت القافلة رحلتها إلى سانتا كروز (أكادير) محملة ببقية البضائع [2] . ومنها قفلت السفن راجعة وقد حصلت في مقابل حمولتها على السكر والبلح واللوز ، وهي الحمولة التي بيعت في لندن لدى عودة القافلة اليها في اكتوبر عام 1552.

وكانت بداية العلاقات التجارية بين البلدين ناجحة وذات عائد وفير ، حيث ثبت أن كل بلد يستطيع أن يمد البلد الآخر باحتياجاته . فعلى الناحية المغربية رأى السلاطين انه بامكانهم من خلال هذه العلاقة الحصول على السلاح والذخيرة كما رأى التجار امكانية الحصول على الأقمشة الإنجليزية التي يتزايد الطلب عليها يوما بعد آخر . أما على الناحية الأخرى فقد اهتم الإنجليز بنترات البوتاسيوم المغربي لما تمتاز به من نوعية متفوقة . ونظروا نفس النظرة للسكر أيضا والذي تزايد الطلب عليه في أوربا خلال القرن السادس عشر . ومن المعلوم أن سلاطين السعديين قد استزرعوا مساحات واسعة في جنوب مراكش بقصب السكر وأوكلوا إدارة تلك المزارع إلى اليهود . وقد جلب تصدير السكر على هؤلاء السلاطين دخلا عظيما بسبب ارتفاع

(2) نجح الحاكم السعدي محمد الشيخ في استعادة أكادير من البرتغاليين عام 1541 وما لبث هؤلاء أن أخلوا فيما بعد كلا من آسفي وأزمور . وفي عام 1570 لم يكن قد بقي في أيدي البرتغاليين سوى سبتة وطنجة ومزكان.

معدل استهلاكه في أوربا . مثل على ذلك أن إدارة مخازن الملكة اليزابث قد اشترت عام 1589 ما لا يقل عن ستين صندوقا من السكر من المغرب يحوى كل منها ما لا يقل عن ثلاثمائة رطل[3] . وتحوى وثيقة في المتحف البريطاني[4] احصاءاً بما استوردته انجلترا من المنتجات المغربية خلال عام 1874 — 1875 ومقدار المكوس الجمركية التي فرضت عليها . ويشير الاحصاء إلى الأهمية المبالغة التي حظى بها السكر غير أنه لم يهمل السلع الأخرى مثل اللوز والبلح واليانسون وريش النعام وجلد الماعز ، وكان الإحصاء كالآتي :

السلعة	القيمة بالجنيه الاسترليني
سكر مكرر (2068 صندوقا)	20 ،680 ، 0—0
سكر غير مكرر (585 برميلا كبيرا)	3 ،873 ، 0—0
مولاس (277 طنا)	2 ،170 ، 0—0
لوز (604 أردبا)	1 ،208 ، 0—0
ينسون (52 أردبا)	69 ، 6—8
ريش نعام (190)	47 ،10—0
بلح (120 أردبا)	240 ، 0—0
لحم مسكر (1400 رطلا)	64 ، 3—4
مربي (600 رطلا)	20 ، 0—0
جلد ماعز (3200)	266 ،13—4
المجموع	28 ،638 ،13—4
الرسوم الجمركية	1 ،431 ،19— 0

ومع الوقت وتزايد الأرباح الناتجة عن التجارة مع المغرب زاد عدد التجار المشتغلين بها وزادت حدة المنافسة بينهم مما أدى إلى انخفاض الأسعار ، فقد امتلأت السوق المغربية بالأقمشة الإنجليزية وغيرها من السلع ورأى التجار أرباحهم تتآكل بشكل سريع . دفع ذلك عدداً من هؤلاء لتقديم ملتمس إلى الملكة اليزابيث عام

(3) SP 12/225 F. 76

(4) BM Cotton Ms. Nero. Bx I. f. 298

1567 للتصريح لهم بتأسيس شركة لاحتكار تجارة المغرب أو ما كان يعرف حينئذ باسم « بلاد البربر ».

بالرغم من ذلك لم تتخذ أية خطوة لتحيق هذا الطلب مما دعا إلى تقدم عدد من تجار لندن عام 1574 مرة أخرى بنفس المطلب متذرعين هذه المرة بمجموعة من الأسباب كان منها أن عددا من التجار الإنجليز يتعاملون مع المغرب بشكل ضار بالمصالح القومية حيث أنهم يستبدلون السكر الذي يحصلون عليه من تلك البلاد بالذهب بدلا من استبداله بالأقمشة[5] وإنهم في ذلك لا يحرمون الملكة فقط من الرسوم الجمركية المفروضة على الصادرات بل إنهم يدمرون تماما صناعة المنسوجات الانجليزية . بالإضافة إلى هذا فهناك ذلك العنصر الخطير في الموضوع الناتج عن قيام بعض التجار بشحن الأسلحة وذخائر الحرب إلى المغاربة.

« يغريهم في ذلك الربح الكبير الذي يغلبونه على سلامة المسيحيين المساكين الذين يأخذهم هؤلاء كأسرى خلال غاراتهم البحرية عليهم »[6]

احتجاجات برتغالية على التجارة الإنجليزية مع المغرب :

لما كان المرسوم البابوي الذي قسم أراضي ما وراء البحار بين اسبانيا والبرتغال يطلق يد الأخيرة في المغرب فقد نظر البرتغاليون بمرارة إلى ما أسموه بتطفل الإنجليز على التجارة المغربية ، بل انهم اعترضوا أصلا على التجارة الإنجليزية مع المغرب مدعين ان ما فعله التجار الإنجليز من تقديم الأسلحة والذخائر إلى المغرب هو الذي مكن السعديين من استعادة أكادير وغيرها من المستعمرات البرتغالية . دعاهم ذلك إلى ابداء الامتعاض من التجارة الإنجليزية مع المغرب حتّى ان سفراءهم في انجلترا قد استمروا لفترة طويلة (1562 ـ 1576) في السعي لحث الملكة اليزابيث للموافقة على حظر ، أو على الأقل تحديد ، هذه التجارة . وقد رفضت اليزابيث الاستجابة لهذا الإلحاح على ضوء ما أبداه تجار لندن من آراء ، وقد أعرب « اللورد

(5) سيطر على الأوروبيين في ذلك العصر الذي عرف بعصر الثورة التجارية الاتجاه القائل بأن قوة الدولة تتواكب مع ما تملكه من معادن ثمينة ، ذهبا أو فضة ، زيادة ونقصانا وهو الاتجاه الذي عرف بعدئذ بالمذهب التجاري والقومي والذي تبلور تماما خلال القرن السابع عشر (المترجم).

(6) SP 12/99/F. 27

ماير » أحد كبار هؤلاء عام 1575 عن رأيه في هذا الصدد فأشار إلى أن التجارة الإنجليزية مع المغرب غاية في الأهمية ، خاصة بالنسبة لصادرات الأقمشة الانجليزية ، وإنه إذا ما كان مطلوبا فرض حظر فمن الأفضل أن يفرض حظر على الإنجليز بالاتجار مع البرتغاليين بدلا من فرضه على هؤلاء المتاجرين مع المغرب[7]

تجارة الأسلحة :

لم تكن اتهامات البرتغاليين للانجليز بامداد المغاربة بالأسلحة والذخائر بدون أساس . فقد حدث عام 1576 ان قام انجليزي يدعى « جون وليامز » والذي كان يعمل وكيلا « لادموند هوجان » أحد كبار تجار لندن ..قام ببيع كمية كبيرة من قنابل المدافع إلى الحاكم السعدي « المولى عبد المالك[8] . وقد حصل الإنجليز في مقابل هذا من المغاربة على كمية من نترات البوتاسيوم . وكان هذا بمثابة تنازل هام لأن حكام المغرب السعديين كانوا قد منعوا تصدير هذه المادة وقصروا استخدامها على قواتهم .

وكان « عبد المالك » في مسيس الحاجة إلى قنابل المدافع خاصة وإنه كان قد اشتبك قبل ذلك بوقت قصير (يوليوز 1576) في قتال مع ابن عمه « محمد المسلوخ »[9] وقد سعى بعد ذلك القتال إلى تدعيم مركزه في مراكش . وكان ما أبداه من استعداد لتقديم نترات البوتاسيوم إلى النصارى إنما يعبر عن تلك الحاجة ، ذلك أن المسلمين الحقيقيين كانوا يستنكرون مثل هذا العمل شأنهم في ذلك المسيحيين الذين أدانوا بيع السلاح والذخيرة إلى « الكفرة » المسلمين.

وقد سلم « عبد المالك » بعد محادثات مع « وليامز » لهذا الأخير خطابا للملكة

---

(7) BM Harlerian Ms. 6991, f. 16

(8) هو أبو مروان عبد المالك بن محمد الشيخ المهدي حكم البلاد من 1575 إلى 1578 ويرتبط اسمه بمعركة وادي المخازن الشهيرة التي انتصر فيها المغاربة على البرتغاليين (المترجم)

(9) هو محمد المتوكل الذي حكم بعد وفاة أبيه الغالب عام 1573 إلى أن نجح عمه عبد المالك من خلعه عام 1575 وقد التجأ للبرتغاليين واشترك معهم في موقعة وادي المخازن التي لقي حتفه فيها غرقاً . فسلخ جلده وحشي تبنا ولقب بسبب ذلك بالمسلوخ (المترجم).

اليزابيث[١٥] غير أنه لم يتم العثور على هذا الخطاب أو على رد الملكة عليه المؤرخ في 8 أبريل عام 1577 .

بعثة هوجان :

وفي أبريل عام 1577 أرسلت الملكة اليزابيث خطابا ثانيا إلى الحاكم المغربي حمله هوجان شخصيا وقام بتسليمه لصاحبه في أول يونيه من نفس السنة . وكانت التعليمات التي لدى هوجان تقضي بأن يبلغ شكره لعبد المالك لتأكيداته على أن التجارة الإنجليزية مع المغرب سوف تستمتع بكل الامتيازات التي كانت تستمتع بها من قبل . كذا أن يطلب باسم الملكة من العاهل المغربي إزالة كل القيود التي كانت موضوعة حينئذ على قيام التجار الإنجليز بتصدير السكر المغربي . وقضت نفس التعليمات بأنه إذا ما طلب عبد المالك سلاحا أو ذخيرة فإنه على هوجان ابلاغه صراحة بأن الملكة ، بالنظر لعلاقتها مع سائر الأمراء المسيحيين ، لن تستطيع تقديم الأسلحة إلى غير المسيحيين . بيد أن انجلترا سوف توفي بحاجة الملك وشعبه من أية سلعة تنتجها وذلك عن طريق التجارة الحرة .

ويكتب هوجان في 11 يونيه عام 1577 أثناء وجوده في مراكش وصفا لبعثته فيذكر أنه قد وصل هناك في أول يونيه عن طريق آسفي . وقد بدأ بعثته بتسليم رسالة الملكة إلى عبد المالك الذي قدم له الشكر ثم اقتيد بعد ذلك إلى المكان الذي تقرر لإقامته في مراكش . وفي نفس الأمسية استدعاه عبد المالك ثانية وجرت بين الرجلين محادثة طويلة كتب عنها هوجان...

« أخذني من يدي وعبر بي قاعة طويلة إلى مكان به نافورة جميلة حيث جلس على مقعد خاص به .وطلب مني الجلوس على مقعد آخر بجواره واستدعى عددا من الموسقيين . حينئذ تقدمت له بعود ثمين فقبله شاكرا . وسألني بعد ذلك عن الموسقيين الذين يستخدمونه فقلت ان احضارهم يحتاج إلى عناء كبير وأشرت إليه بأنه ما أن أعود حتّى يجيئوا على أول سفينة وقد أبدى استعداده بتقديم ما يحتاجون

(10) أول خطاب معروف بين العرشين المغربي والإنجليزي هو الخطاب الذي بعث به عبد الله الرابع (الغالب) إلى الملكة اليزابيث المؤرخ في فاتح جمادي الأولى عام 977 هـ (12 أكتوبر 1569) يسألها أن تعطي عهد أمان لاثنين من التجار من رعاياه لعبور المضايق المائية في طريقهم إلى انتويرب .

اليه من رعاية ومأكل ، كذا بأن يتيح لهم الحياة وفق نظامهم ورغباتهم ، وإني أراه إنسانا يعيش في مخافة الله وعلى دراية بالكتاب المقدس سواء العهد القديم أو الجديد وهو يحمل أشد مشاعر المودة لامتنا بأكثر مما يحمل لغيرها من الأمم بسبب ديننا الذي يحرم عبادة الأوثان ويدعوه المغاربة بالملك المسيحي».

وفي احدى جلسات المحادثات ابلغ عبد المالك هوجان أن ملك اسبانيا قد طلب التصريح له منه بإرسال سفير إلى مراكش ، بل أكثر من ذلك فإنه طالب الحاكم المغربي برفض استقبال أي مبعوث من انجلترا . وقد صرح عبد المالك لهوجان بأنه حتى بعد وصول السفير الاسباني إلى مراكش سيظل المغاربة معلقين أهمية أكبر على بعثة هوجان الانجليزية أكثر من أية بعثة اسبانية . وقد كتب هوجان مشيرا إلى أن عبد المالك لا يميل للملك الاسباني فيليب لأنه يراه واقعاً تحت تأثير البابا ومحاكم التفتيش ، بينما أبدى من جهة أخرى ودا ملحوظا نحو الإنجليز ، كما أبدى رغبة في منح تجارهم مزايا خاصة . بل أكثر من ذلك قال هوجان إن عبد المالك قد أكد له بأنه لن يطلب من الملكة اليزابيث أن تفعل أي شيء يشينها أمام سائر الحكام من المسيحيين . واستجابة لمطالب هوجان كذا الرجاء الذي جاء في خطاب الملكة أصدر عبد المالك مرسوما يستمتع بمقتضاه التجار الانجليز ، فيما يتصل بتصدير السكر ، بنفس الحقوق التي كانوا يستمتعون بها في السنوات السابقة ، كما أنه وضع حداً للأسعار الباهظة التي كانت تفرض على أصناف السكر بتسليم ما كان قد تعاقد عليه التجار الإنجليز من هذه السلعة من قبل.

ورد عبد المالك على اليزابيث برسالة مؤرخة في 10 يوليوز 1577 وقد عنون الخطاب باسم « صاحبة السمو والعظمة الملكة اليزابيث »، ثم أشار إلى نفسه ، « بأمير المؤمنين خليفة الرسول وامبراطور مراكش وملك فاس والسوس ».

وتحدثت الرسالة عن وصول ادموند هوجان بخطاب الملكة إلى بلاطه ، وعبر عن سروره البالغ عما جاء في هذا الخطاب . ووعد عبد المالك بأن يرسل سفيرا[11] لعقد معاهدة تحالف بينه وبين اليزابيث . وقد أبلغها أنه اتخذ من الخطوات ما يكفل إزالة

---

(11) ليس هناك ما يشير إلى أن هذا السفير قد وصل إلى انجلترا في أي وقت.

أية عقبات تشكو منها الملكة من تلك القائمة في طريق التجارة الإنجليزية مع المغرب . وختاما وبشكل من أشكال الفروسية وضع عبد المالك كل ما يمكن أن يخدم الملكة اليزابيث في مملكته تحت تصرفها[12]

ووصل هوجان عائدا إلى انجلترا في غشت 1577 ، وبعد أن استمعت اليزابيث منه لتقرير عن رحلته وبعد أن قرأت ترجمة اسبانية لرسالة عبد المالك بعثت للملك المغربي برد مؤرخ في 2 شتنبر. جاء في هذا الرد شكرها على الاستقبال الطيب الذي لقيه هوجان في البلاط الملكي المغربي كذا على الإجراءات التي تقرر اتخاذها لإزالة أسباب شكوى التجار الإنجليز. وعرجت رسالة اليزابيث إلى موضوع رغبة عبد المالك في إرسال مبعوث إلى انجلترا وطلبت منه أن يكون خبر هذه الزيارة في طي الكتمان ووعدت في الختام باستقبال هذا المبعوث استقبالا وديا.

أحمد المنصور ومرحلة جديدة :

غير أن العلاقات بين البلدين لم تستمر على اضطرادها نتيجة لسلسلة الأحداث التي أدت إلى المعركة الكبرى المعروفة باسم معركة القصر الكبير[13](4 غشت 1578). ذلك أن سباستان ملك البرتغال ، مدفوعا بروح صليبية ، قد تقدم بجيش كبير إلى المغرب مستهدفا إخراج شعبه عن الإسلام ، بيد أن المحاولة قد اخفقت تماما حيث قتل سباستيان نفسه في القصر الكبير وإن كان عبد المالك أيضا قد لقي حتفه في نفس الموقعة[14]. وقد خلفه أحمد الخامس الملقب بالمنصور (1578 — 1603) والذي لم تقل رغبته عن سلفه في تطوير العلاقات التجارية والسياسية مع انجلترا. وانطلاقا من هذه الرغبة كتب من مراكش في 22 ربيع الآخر عام 987 هـ (18 يونيه 1579) رسالة إلى الملكة اليزابيث ردا على رسالة كان قد تلقاها منها تسأله الاستمرار في معاملة التجار الإنجليز معاملة حسنة. وقد أكد حاكم المغرب الجديد للملكة بأن تجارها سوف يلقون نفس الاستقبال الودي الذي كانوا يلقونه من قبل ، كما وعد أحمد المنصور بالاستجابة إلى مطلب الملكة

---

(12) BM Cotton Ms. Nero B VIII. f. 70.

(13) والمعروفة في التاريخ المغربي بوقعة وادي المخازن (المترجم)

(14) كان محمد المسلوخ الذي عزله عبد الملك قبل ذلك بعامين بصحبة جيش الملك سباستيان . وقد غرق بينما كان يعبر احد الأنهار سباحة في محاولة للهرب بعد أن لحقت الهزيمة بالبرتغاليين.

اليزابيث بدفع اليهود الذين يديرون مزارع قصب السكر الديون التي كانوا قد اقترضوها من التجار الإنجليز ، وذلك في خطاب آخر له مؤرخ في مارس 1581 .

وكان من أهم الأسباب التي دفعت العاهل المغربي إلى تشجيع التجارة مع انجلترا حاجته إلى أصناف جيدة من الأخشاب المتوفرة في أوربا لاستخدامها في بناء سفنه الجديدة غير أنه على الجانب الآخر كانت اليزابيث حريصة على الاحتفاظ بهذه الأصناف من الأخشاب لبناء اسطولها الخاص . ومع ذلك فإنه عندما قدم أحد التجار اللندنيين من المتعاملين مع المغرب ، ويدعى « جون سيمبكتس »، ضماناً للملكة في يونيه 1581 بأنه سوف يستبدل الأخشاب بنترات البوتاسيوم اعطته تصريحا بقطع ستمائة طن من النوع المطلوب من الأخشاب من كل من سسكس وهامبشير لتصديرها إلى المغرب .

تأسيس شركة بلاد البربر :

وتبدو قيمة ما بلغته الاتصالات بين اليزابيث وأحمد المنصور من أن واحداً من أكثر المقربين للملكة وهو الإيرل أوف ليسستر وعددا من رجال البلاط قد شاركوا في التجارة مع المغرب . بدا ذلك في الخطاب الذي بعثت به اليزابيث إلى أحمد المنصور في أبريل 1585 تقدم شكرها لما أبداه من رعاية للإنجليز الذين وصلوا للمغرب للاتجار لحساب ليسستر. وفي 5 يوليوز وبعد فترة قصيرة من إرسال هذا الخطاب أصدرت الملكة مرسوما بتأسيس « شركة بلاد البربر » لاحتكار التجارة المغربية لمدة اثني عشر عاما . وتدين هذه الشركة بوجودها للجهود التي بذلها لدى البلاط كل من ايرل أوف ليسستر وأخوه ايرل أوف وارويك وكانا يسيطران تماما على تجار لندن الأربعين الذين كونوا هذه الشركة.

وقد استهدف تأسيس « شركة بلاد البربر » تحقيق غرض آخر وهو أن يقف تجار لندن حائلا في مواجهة من اسموهم « بالمتطفلين » الذين قاموا بالاتجار في السلاح والذخيرة كذا في الأقمشة الرخيصة بكميات كبيرة مما أدى إلى تدمير السوق وإلى انزال الأضرار بالتجارة والتجار الشرعيين.

وكان أول القرارات التي اتخذتها الشركة الجديدة ارسال وكيل لها إلى البلاط في

مراكش ليحافظ على العلاقات الودية بين البلدين . وقد وصل هذا الوكيل والمدعو « هنري روبرتس » إلى آسفي في 14 شتنبر عام 1585 وتقدم فورا إلى مراكش حيث استقبله أحمد المنصور بحفاوة عظيمة ومنحه دارا جميلة في الحي اليهودي حيث أقام للسنوات الثلاث التالية . وبالإضافة إلى قيام روبرتس بعمله كممثل لشركة بلاد البربر فقد كان واسطة الاتصال بين أحمد المنصور والملكة اليزابيث . مثل على ذلك أنه قد أرسل في احدى المناسبات للملكة يبلغها برغبة أحمد المنصور في أن ترسل له بعض الأغراض من انجلترا . وقد كتبت اليزابث في 20 يوليوز 1587 رسالة إلى الحاكم المغربي تبلغه انها قد أرسلت له بعض ما طلب وتعرب عن أملها أن يكون ما أرسلته قد وصل سالما.(15)

وقد انعكس تحسن العلاقات بين المملكتين في المرسوم الذي أصدره أحمد المنصور في 2 ربيع الآخر عام 996 هـ (أول مارس 1588) والذي قدم فيه الحماية والرعاية الخاصة للتجار الانجليز . أكثر من ذلك انه عندما غادر هنري روبرتس المغرب عائدا إلى بلاده لحقه في سانتا كروز (أكادير) في 2 نوفمبر عام 1580 مبعوث مغربي إلى الملكة اليزابيث يدعى « مرزوق الرايس ». وقد ذكر روبرتس أنه قد وصل هو والمبعوث المغربي إلى « سانت ايف » في أول يناير 1589 وانهما قد سافرا بعد ذلك عن طريق البر إلى لندن . ويستطرد روبرتس :

« استقبلنا كبار تجار شركة بلاد البربر خارج المدينة الذين تراوح عددهم بين أربعين وخمسين وقد امتطى كل منهم جوادا وخصصت لي أنا والسفير مركبة كبيرة ، وتقدم بنا الموكب لندخل المدينة غسق يوم الأحد 12 يناير 1589(16)

وقد أخذت أحوال « شركة بلاد البربر » في التدهور بعد عودة روبرتس إلى انجلترا ، فبالرغم مما تمتعت به من حق الاحتكار فإن نشاط « المتطفلين » استمر في النمو ذلك انهم تمتعوا برعاية أحمد المنصور طالما استمروا يمدونه باحتياجاته من السلاح والذخيرة خاصة وانه لم يكن يعترف بحق الاحتكار الذي حصلت عليه

---

(15) R. Hakluyt. the Principal Navigations Vol II. P. 2 p. 119

(16) Ibid p. 117

الشركة ، وقد استورد هؤلاء اللوز والبلح والمولاس . في نفس الوقت اهتز موقف الشركة في انجلترا وتعالت الشكاوى منها لأنها تستغل حقها الاحتكاري في رفع اسعار السكر المغربي الذي تستورده ، كذا لأنها لا تصنف السكر تبعا لنوعه كما كان يحدث من قبل ، ولأنها على العموم تسيئ استغلال وضعها المتميز . وبالإضافة إلى مسببات الضعف الآنفة واجهت الشركة منافسة حادة من الأقمشة الفرنسية في السوق المغربي . وبدا واضحا قرب أواخر عهد اليزابيث ان مستقبل الشركة لا يبشر بخير إذا لم يجدد عقد امتيازها مع انتهائه عام 1597 وفتح باب التجارة مع المغرب لكل التجار الانجليز.

التحالف بين اليزابيث والمنصور :

كان من أسباب توثق العلاقات الإنجليزية مع الملوك المغاربة على عهد اليزابيث تلك العداوة المشتركة من جانبهما تجاه اسبانيا . ذلك ان اليزابيث والحكام الاشراف قد تخوفوا بحق من الروح الصليبية لفيليب الثاني وكانت نتيجة هذا التخوف توثق العلاقات الودية بين الملكة البروتستنتية والملوك المسلمين . وقد تبع ذلك معركة للذكاء بين الطرفين حاول كل منهما خلالها أن يدفع الآخر إلى مواجهة محددة ضد اسبانيا ويتحمل بذلك وطأة الصراع ، وكان مخلب القط في هذه المعركة دون انطونيو المطالب بعرش البرتغال.

فمعلوم أن الملك سباستيان ملك البرتغال قد قتل في موقعه القصر الكبير في 4 غشت 1578 ولم يكن له ابن يخلفه على العرش فخلفه عمه الكاردينال هنري الذي جاوز عمره آنذاك السابعة والستين : بيد أنه لم يعمر طويلا فقد توفي في 31 يناير 1580 . وتبع ذلك ان ادعى الملك الاسباني فيليب الثاني بحقه في ارث العرش بصفته حفيدا للملك البرتغال الاسبق ايمانويل . ولكن نازعه في ذلك ابن أخ غير شرعي للملك المتوفى اسمه دون انطونيو غير أن فيليب سرعان ما وضع ادعاءه موضع التنفيذ وأرسل جيشا إلى البرتغال عام 1580 وقطع الطريق على تقديم أي عون لدون انطونيو الذي لقي الهزيمة وفر من البلاد .

واتخذ دون انطونيو من انجلترا ملجئا له ، ذلك أن اليزابيث التي تخوفت من

تعاظم قوة فيليب الثاني إذا ما جمع بين تاجي اسبانيا والبرتغال قد قدمت العون منذ البداية للمطالب بالعرش البرتغالي . وقد حاولت الملكة اغراء أحمد المنصور لتقديم العون لدون انطونيو حتّى يعتلي هذا العرش ، وقد استمرت هذه المحاولة من جانب الملكة وتحركات أحمد المنصور الرشيقة لتجنب مبادراتها هي المحور الذي دارت حوله العلاقات بين المملكتين حتّى وفاة دون انطونيو عام 1595 .

صحيح أن أحمد المنصور كان سيسعد كثيرا إذا ما تمت ازاحة فيليب الثاني عن عرش البرتغال ، بل عن العرشين معا ، غير أنه تعامل مع الموقف بمنتهى الحذر ، ذلك ان فيليب الثاني كان يمسك في تلك اللعبة الديبلوماسية المعقدة بسلاحين خطرين في مواجهة الملك المغربي . فقد كان هناك المولى[17] الناصر والمولى الشيخ وكان أولها شقيقا وثانيهما ابنا للسلطان السعدي المخلوع المولى محمد الحادي عشر (المسلوخ) الذي تولى العرش عامي 1574 و 1576 حتى خلعه عمه عبد المالك ثم غرق اثناء محاولته الهرب بعد معركة القصر الكبير .

وقد شارك كل من مولاي الناصر ومولاي الشيخ في صف دون سباستيان أثناء محاولته القضاء على عبد المالك ، ولكن بعد هزيمة القصر الكبير عاد المولى الشيخ إلى البرتغال . ولما تم اتحاد التاجين الاسباني والبرتغالي عام 1580 حظي المولى الشيخ برعاية فيليب الثاني بل انه تنصر في الاسكوريال في 3 نوفمبر عام 1593 وكان فيليب الثاني نفسه أباه في العماد . واحتفظ الملك الإسباني بعدئذ بالشاب المغربي لاستخدامه في المطالبة بالعرش واستخدمه بذلك وسيلة للضغط على أحمد المنصور إذا ما أبدى السلطان مزيدا من علامات الصداقة تجاه الملكة اليزابيث ، أو إذا ما قدم معونة لها قيمة لدون أنطونيو . وقد امتلأت المراسلات بين أحمد المنصور والملكة اليزابيث بوعود المعونة من كل طرف للطرف الآخر أو لدون أنطونيو غير أن هذه الوعود لم تنفذ ابدا نتيجة للضغوط التي مارسها فيليب الثاني على كل من اليزابيث وأحمد المنصور من خلال مناوراته تجاهها .

---

(17) المولى لقب تلقب به جميع الأشراف ومن ثم فقد تمتع به حكام المغرب وأقاربهم . وقرب أواخر القرن السادس عشر بدأ الإنجليز في استخدام لقب الأمبراطور كمكافئ للقب السلطان الذي اتخذه الحكام الأشراف بالإضافة إلى لقب الأمير.

وقد شجعت هزيمة الارمادا الاسبانية عام 1588 أحمد المنصور على ارسال مبعوث هو مرزوق الرايس إلى انجلترا في نوفمبر من هذا العام . وقد حمل مرزوق الرايس معه اقتراحات سرية لعقد محالفة انجليزية – مغربية ضد اسبانيا بهدف تمكين دون أنطونيو من اعتلاء عرش البرتغال . وقد ذكر المبعوث المغربي ان السلطان على استعداد لتقديم الرجال والسلاح إذا ما تم تقدم أسطول انجليزي إلى مضيق جبل طارق وشن هجوما على اسبانيا . أيضا حمل مرزوق الرايس عددا من الطلبات لتقديمها إلى الملكة اليزابيث . أولها : إذا ما اشتبك السلطان في حرب مع أي من الدول المجاورة غير المسيحية يصرح له بتأجير سفن انجليزية واستخدام بحارة انجليز . ثانيا : طلب السلطان التصريح له بشراء مجاريف لسفنه الشراعية الكبيرة من انجلترا . ثالثا : اعرب عن رغبته في استخدام عدد من بناة السفن والنجارين الانجليز لبناء سفن له . وأخيرا : طلب السلطان تصريحا بشراء حاجاته من السلع الإنجليزية من وقت لآخر .[18]

وتضمن الخطاب الذي أرسلته اليزابيث إلى أحمد المنصور في فبراير 1589 ردها على مطالبه . وقد شكرت السلطان على كرمه لإرساله سفيرا إليها وعلى ما أبداه من تعاطف نحو دون أنطونيو . وأكدت له أنها سوف تبذل غاية جهدها لتلبية مطالبه في اطار قوانين وعادات بلادها وفي اطار ما يتفق مع شرف وسلامة مملكتها . وقد أشارت في نهاية الخطاب الى يقينها بأن أسطولها الذي يستعد للقتال ضد اسبانيا سوف يحصل على سائر احتياجاته من الموانئ المغربية وبأنه سوف يتم استقبال الانجليز استقبالا وديا في المغرب .[19]

وبينما كان مرزوق الرايس بانجلترا في بداية عام 1589 تم وضع خطة يقوم بمقتضاها أسطول انجليزي بمعاونه السلطان بغزو البرتغال وتنصيب دون أنطونيو على عرشها . وقد أبحر هذا الأسطول الذي تولى قيادته كل من دريك وسير جون نوريس إلى البرتغال في أبريل . وبالرغم من نجاح القوات التي حملها هذا الأسطول في النزول إلى البر فإنها فشلت في الاستيلاء على لشبونة حيث تبعثرت نتيجة لتفشي المرض بين إفرادها ونتيجة لتعرضها المستمر للهجمات الاسبانية . وقد عاد من تبقى

(18) SP 71/12. f. 26
(19) SP. 102/2. f. 82

من تلك القوات إلى انجلترا في يونيه 1589 يلاحقها الخزي . وفي خلال تبادل الاتهامات مما جرى بعد ذلك تم تبين حقيقة مؤداها أن أحمد المنصور لم يوف بما تعهد به من عون.

وفي مارس 1590 سافر إدوارد برين كمبعوث خاص إلى المغرب ليتفاوض على شروط محددة للتحالف بين اليزابيث وأحمد المنصور ضد اسبانيا والعمل على تولية دون أنطونيو لعرش البرتغال ، وكان وراء اسباب اختيار برين لهذه المهمة اجادته للبرتغالية لانحداره من أم ذات أصل برتغالي وما ترتب على ذلك من قيامه بدور المترجم لدون أنطونيو في انجلترا.

وكانت مع برين رسالة حمَّلتها له الملكة اليزابيث إلى السلطان في مراكش وقد أشار الى أن أحمد المنصور قد تسلم الرسالة « مبديا مظاهر الفرح وبعد أن سأل عن حال جلالتها ذكر أنه أحب الملكة وأنه يتمنى لجلالتها النصر على كل أعدائها ».

وبالرغم من كلمات السلطان المزوقة لم يجد فيها برين أي تعهدات محددة . وقد كتب المبعوث في 12 يونيه 1590 إلى الملكة يقول ان السبب في تردد السلطان مرجعه خوفه من اسبانيا . وقد كتب أحمد المنصور نفسه إلى إليزابيث من مراكش في 19 شعبان 998هـ (23 يونيه 1590 م) واصفا إياها « بالملكة اليزابيث المشهورة والمتميزة والعظيمة ». وقد أبدى اعتذاره عن احتفاظه ببرين لوقت طويل في مراكش ، وحتَّى يلطف من موقفه فقد أخذ يشرح للملكة الاستعدادات الكبيرة التي يقوم بها لإرسال حملة إلى جنوب الصحراء ، ووعد انه ما إن تترك هذه الحملة مراكش فإنه سوف يولى كل اهتمامه إلى مشكلة دون انطونيو ، وانه ينتظر في تلك الأثناء أن يصله خطاب من الملكة إليزابيث توضح له فيه غاياتها في هذه المسألة تفصيلا .

أجابت الملكة على هذه الرسالة في 20 غشت 1590 ، وقد لامت أحمد المنصور على تقصيره في نجدة حملة دريك على البرتغال عام 1589 وادعت أن نقص المعونة المغربية هو الذي أدى إلى فشل الحملة . وقد رد السلطان على ذلك بأنه كان لا يستطيع الاهتمام بدون أنطونيو ومشاكله قبل الانتهاء من ارسال حملة

الصحراء . وأجابت عليه اليزابيت بأنها سوف تنتظر مضطرة غير أنها ترجو في تلك الأثناء أن يسمح أحمد المنصور لمبعوثها « برين » بالرحيل بأسرع ما يمكن .[20]

وجاء رد السلطان على خطاب اليزابيث الأخير مؤرخاً في مارس 1591 وقد دافع فيه مرة أخرى بأن حملة الصحراء كانت السبب في تأخيره في موضوع دون أنطونيو[21] لكنه وعد بأنه إذا ما عاونت الملكة دون أنطونيو فسوف يبادر بدوره إلى تقديم المعونة له[22]. وبالرغم من تكرار الوعود من جانب السلطان بهذه المعونة غير أنه كان يعثر دائما على المبررات التي تمكنه من عدم الوفاء بها حتَّى لا يدخل في صراع غير مطلوب مع أسبانيا وقد انتهت أخيرا مسألة ادعاءات دون أنطونيو في العرش البرتغالي ، والتي ظلت مصدرا للتوتر في العلاقات الإنجليزية — المغربية ، بوفاة هذا المدعي عام 1595 .

وبالرغم من ذلك فقد استمرت العداوة المشتركة من جانب المغرب وانجلترا تجاه إسبانيا ، واستمرت تلك العداوة مصدرا لتقارب البلدين . فقد أرسل أحمد المنصور عام 1600 مبعوثا آخر إلى انجلترا هو عبد الواحد النوري بهدف عقد محالفة بين البلدين ضد اسبانيا . وقد وصل الرجل إلى دوفر في 8 غشت يحمل معه رسالة من السلطان إلى الملكة مكتوبة في مراكش ومؤرخة في 15 يونيه عام 1600. وقد شرح فيها أحمد المنصور الهدف من إرسال المبعوث وأبلغ الملكة إليزابيث انه مخول لبحث ما وصفه السلطان بمسائل محددة للأمن .

وقد بحث المبعوث المغربي المسائل الآتية : التحالف المقترح ضد إسبانيا ، وهي المسألة التي بحثها مع كل من الوزير روبرت سيسل ومع الملكة نفسها في شتنبر عام 1600 وقد كتبت اليزابيث في 20 أكتوبر خطابا إلى أحمد المنصور اشارت فيه إلى المباحثات التي عقدتها هي ووزيرها مع المبعوث المغربي . وإن هذه المسائل على قدر كبير من الأهمية والتعقيد مما لا تصلح معه ان تكون موضوعا للمراسلة ، ومن ثم

---

(20) SP. 102/2. ff. 42-45

(21) توغلت تلك الحملة حتَّى وصل إلى كاو وتمبكتو ونتج عن ذلك أن وافق سكان تلك الجهات على دفع جزية سنوية للحكام الأشراف.

(22) SP. 102/2 f. 48

فقد خولت « هنري برانل »، وهو انجليزي من المقيمين في المغرب ، ليتفاوض بشأنها مع السلطان .

وقد أجاب أحمد المنصور على الملكة في خطاب مرسل من مراكش في 23 شعبان عام 1009 (27 فبراير 1601). وجاء في هذا الرد أن مبعوثه الذي عاد به قد وصف ما لقيه في انجلترا من استقبال ودي . ولم يتم العثور بعد ذلك على ما يشير إلى أية مباحثات جرت بين السلطان وهنري برانل ، وعلى أي الأحوال فإن تلك السلسلة الطويلة من المفاوضات قد انتهت بوفاة العاهلين. فقد توفيت الملكة اليزابيث في مارس عام 1603 ولحقها أحمد المنصور في غشت من نفس السنة . وانتهت باختفائهما عن مسرح الحياة حقبة من حقاب العلاقات الإنجليزية — المغربية لتبدأ حقبة أخرى مختلفة جد الاختلاف.



الفصل الثالث

قراصنة[1] سلا

بينما اعتلى جيمس السادس[2] ملك اسكتلندة عرش انجلترا بهدوء بعد وفاة اليزابيث عام 1603 اختلف الأمر في المغرب إذ أدت وفاة أحمد المنصور إلى فترة من الحرب الأهلية نشبت بين أبنائه المولى محمد الشيخ والمولى زيدان والمولى ابو فارس . ولما كان الأخير هو المسئول عن مالية أبيه فقد نجح في ضمان ولاء الجيش واستطاع إن يحرز الانتصار في البداية على أخويه وان ينصب سلطانا في مراكش تحت اسم عبد العزيز الثالث . غير أن محمد الشيخ ، وهو الابن الذي رغب المنصور في توليته العرش بعده ، قد نجح في هزيمة الأخ الثالث المولى زيدان وأعلن نفسه سلطانا في فاس تحت اسم محمد السابع تم تبع ذلك باخراج أبو فارس من مراكش واعقب هذا مناورات معقدة استطاع خلالها المولى زيدان أن يسيطر على مراكش ، كما قام أحد ابناء محمد الشيخ بخنق أبو فارس (1609) ثم ان محمد الشيخ نفسه قد قتل عام 1613 . وخلا الجو بعد ذلك للمولى زيدان الذي ضمت قواته مائتين من البحارة الانجليز . والذي حكم البلاد حتّى وفاته عام 1627 .

مغامرة تشيرلي :

وقد حدث خلال العهد القصير الذي قضاه أبو فارس في مراكش ان وصلت إلى بلاطه بعثه يرأسها رجل انجليزي هو « سير انطوني تشيرلي ». وقد ولد تشيرلي عام

---

(1) بينما رآهم المغاربة **مجاهدون** فقد اصطلح الأوربيون على تسميتهم **بالقراصنة** . **(المترجم)**

(2) وكان ملكا على اسكتلندة باسم جيمس السادس منذ 1567 ، وتولى عرش انجلترا بعد وفاة اليزابيث التي لم تنجب باسم جيمس الأول منذ 1603 وحتّى عام 1625 (المترجم)

1565 وكانت حياته سلسلة من المغامرات ، فقد حارب في صفوف قوات « ايرل أوف ليسستر» ضد الاسبان في الأراضي المنخفضة . وخدم مع « ايرل أوف اسكس » في فرنسا في صفوف قوات هنرى الرابع[3] ، وقام عام 1596 بمغامرة بحرية في الكاريبي ، وبعد عدة رحلات تنقل فيها بين أركانجل وموسكو وبراغ ووصل إلى روما حيث التقى بالبابا . واتصل تشيرلي بعد ذلك بالامبراطور رودلف الثاني امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة والذي كان مشتركا آنئذ في حرب مع السلطان العثماني ، وقد اقترح عليه فكرة تستهدف تفتيت القوة العثمانية من خلال الاتصال بحاكم المغرب وحثه على شن هجوم على ولاية الجزائر المجاورة والتي تعتبر أقصى المناطق العثمانية غربا في شمال افريقيا.

ولقي اقتراح تشيرلي قبولا من الامبراطور الذي أرسله إلى المغرب فوصل إلى آسفي في 2 أكتوبر عام 1605 وما إن بلغ أبو فارس في مراكش نبأ وصوله حتّى دعاه إلى المثول أمامه ، غير أنه بقي هناك حتّى أرسل إليه أبو فارس قوة من خمسمائة رجل أتت به من آسفي إلى مراكش . وقد انتهت المحادثات بين الطرفين بالفشل لأن « أبو فارس » وهو يشعر بعدم ثبات مركزه رفض تماما الاقتراح بالقيام بهجوم على الجزائر .

وغادر تشيرلي مراكش في غشت 1606 وبعد أن مر في طريقه على كل من لشبونة ومدريد وصل إلى فينا حيث أبلغ رودلف الثاني بالنتائج السلبية لرحلته . بالرغم من ذلك فقد منحه هذا لقب «كونت الإمبراطوزية الرومانية المقدسة » لقاء خدماته . وعاد تشيرلي بعد ذلك إلى مدريد حيث منحه فيليب الثالث ملك اسبانيا معاشا سنويا . ويبدو أن المغامر قد قضى بقية حياته في العاصمة الاسبانية في حالة من النسيان كشهاب استنفد قوة لمعانه.

قراصنة سلا :

بعد أن دعم المولى زيدان مركزه في بلاده بوقت قصير حدث أمر كانت له

(3) ملك فرنسا (1589 — 1610) اقترن اسمه بمرسوم نانت الذي انهى الحروب الدينية في بلاده واكتسب شهرة في تنظيم أمور فرنسا بتحسين ماليتها (المترجم)

نتائج هامة على المغرب ونتائج أكثر أهمية على العلاقات الإنجليزية ــ المغربية . وذلك عندما تم طرد الموريسكيين[4] من اسبانيا عام 1610 وقد اتجه هؤلاء إلى إخوانهم المسلمين في شمال افريقيا واستقر اغلبهم في المغرب وبالذات في تطوان وعلى الجانب الأيسر من نهر أبو الرقراق حيث تقع الرباط . وعبر مصب النهر كان يبدو ميناء سلا القديم فأسمى المستوطنون الجدد موقعهم بسلا الجديدة تمييزا لها عن القديمة. وقد امتلأ الموريسكيون أو الأندلسيون، كما يسميهم الكتاب الإنجليز المعاصرون ، بالكراهية للإسبان وللمسيحيين على وجه العموم . وانطلاقا من هذا الشعور بالإضافة إلى سعيهم لكسب عيشهم فقد احترف هؤلاء القرصنة على نطاق واسع . ولم يمض وقت طويل حتّى كانت عمليات النهب التي قام بها « قراصنة سلا » كما أسماهم الإنجليز قد بلغت آفاقا بعيدة ، فقد وصل هؤلاء بسفنهم إلى القنال الإنجليزي والبحر الإيرلندي[5].

وبالإضافة إلى ما سببه قراصنة سلا للملاحة والتجارة من دمار فقد أخذوا عديدا من الأسرى المسيحين ، وقد ظلت المحاولة المستمرة لافتداء هؤلاء من اغلال الرق عنصرا شائكا وخطيرا في العلاقات الإنجليزية ــ المغربية . ويقدم أحد هؤلاء الأسرى واسمه روبرت آدمز وصفا لحالتهم البائسة في خطاب أمكن توصيله بطريقة ما إلى والديه في انجلترا ، وقد جاء في هذا الخطاب المرسل من سلا الجديدة والمؤرخ في 4 نوفمبر 1625 :

« والدي ووالدتي المحبان والحنونان ، أبعث إليكم بطاعتي أبدا كذا بصلواتي بالصحة لكما ولي . قد يسركما أن تعلما اني هنا في سلا ولكن في أتعس أسر وبين أيدي أقسى الطغاة . ذلك انه بعد بيعي يجعلني سيدي أعمل في طاحونة مثل

(4) وهي تسمية اطلقت أولا على السكان المسلمين في غرناطة ثم عممت على سائر المسلمين في الأندلس . وإن كان المغاربة قد اسموا المسلمين أو اليهود القادمين من الأندلس بالأندلسيين. (المترجم)

(5) لم يكن الموريسكيون وحدهم العاملين بالقرصنة على ساحل الأطلنطي خلال السنوات التي أعقبت وفاة أحمد المنصور . فقد تواجد القراصنة الإنجليز في المعمورة (المهدية) إلى الشمال من سلا . وقد بلغ عددهم عام 1610 الفين من القراصنة يتملكون أربعين سفينة . وقد صدر العفو عن زعيم هؤلاء « هنري مينورنج » الذي انهى حياته قائدا لحصن دوفر . وقد تمكن الاسبان من طرد القراصنة الإنجليز من المعمورة في غشت 1614.

الحصان من الصباح حتَّى الليل وساقي مربوطتان باثقال تزن 36 رطلا في كل ساق ، ولا أذوق اللحم اطلاقا ولا آكل سوى قليلا من الخبز والماء . أما مرقدي ففي زنزانة تحت الأرض ينام فيها بين 150 و 200 رجلاً لا يدخل إليها الضوء إلا من ثقب صغير وترحف فيها أنواع الحشرات ، وحيث أننا لا نملك الوقت لتخليص اجسادنا منها فهي تنهش باستمرار في تلك الأجساد . ويضربوني كل يوم حتَّى أتحول للاسلام أو حتَّى تدفع الفدية عني . وإذا لم يحدث هذا أو ذاك فعلي أن أتحمل أسوأ عذاب يمكن أن يتحمله مخلوق في العالم . لذا أتوسل إليكما وأنا راكع وبكل التنهدات الصادرة عن القلب لترثيا لحالي البائس وتبحثا عن أية وسيلة لانقاذي من عبوديتي التعسة ..والدي العزيز أتضرع إليك بكل خشوع ولأجل خاطر المسيح أن تبحث عن أية وسيلة لتخليصي ، وإذا لم يستطع الملك أن يجد هذه الوسيلة وإذا لم تأت الفدية فقد ضاع كل أمل في عودتي إلى بلدي».[6]

وقد بعث الآباء الملتاعون لآدم وأمثاله بالخطابات التي أرسلها إليهم أبناؤهم إلى الملك شارل الأول[7] بأمل أن يعمل على تحرير الأسرى الإنجليز . وكانت ترد باستمرار إلى الملك أو إلى البرلمان التماسات وقعها أقارب هؤلاء الأسرى أو أصدقاؤهم ، كذا كان يتم بين الحين والآخر جمع الأموال في الكنائس بهدف افتدائهم . وكان من الطبيعي والأمر على هذا النحو أن تظل مسألة استرداد الأسرى الإنجليز في المغرب تخيم بكآبتها على العلاقات الإنجليزية — المغربية .

بعوث هاريسون :

غير أن مسائل التجارة ومشاكلها ظلت بدورها تشغل حيزا هاما في تلك العلاقات وقد وقعت بالتجار الإنجليز خسائر فادحة خلال الصراعات التي أعقبت وفاة أحمد المنصور مما دعاهم إلى التقدم بالتماسات لجيمس الأول يطلبون فيها التعويض . وقد دعا ذلك الملك الانجليزي إلى الكتابة للمولى زيدان وأرسل في مايو عام 1610 مبعوثا إلى المغرب يحمل كتابه . وكان المبعوث هو « جون هاريسون » أحد أفراد حاشية أمير ويلز وقد وصل إلى آسفي في يونيه 1610 حيث تقدم منها إلى

(6) SP 71/12. f. 107

(7) الابن الثاني لجيمس الأول وقد حكم انجلترا بين 1625 و 1649.

مراكش . وعندما علم المولَى زيدان بشكاوى التجار الانجليز أمر بالتحقيق فيها ثم أرسل بنتيجة هذا التحقيق في رده على جيمس الأول . وكان خطابه مؤرخا في 2 محرم 1020 (مارس 1611) وقد جاء فيه أن التجار الإنجليز لم يعانوا من أية خسائر بشكل غير مشروع كما ادعوا . صحيح أنه قد تمت مصادرة الأحجار الكريمة وغبار الذهب الذي عثر عليه معهم غير أن هذا قد حدث لأنهم لم يلتزموا بالقوانين المغربية . فهم أولا حاولوا التهرب من دفع الرسوم الجمركية على المجوهرات التي أحضروها للبيع في المغرب ، وهم ثانيا حاولوا كسر القانون القاضي بمنع تصدير غبار الذهب إلى البلاد المسيحية . وبالرغم من كل التجاوزات من جانب التجار الانجليز فإن المولى زيدان لم يأمر بسحب الامتيازات التي منحها لهم أسلافه بل أكدها . وقد قفل هاريسون عائدا من مراكش في أبريل عام 1611 حاملا معه رسالة المولَى زيدان إلى جيمس الأول ومصطحبا مبعوثا من السلطان إلى الملك[8]

بيد أن العلاقات بين الحاكمين لم تحرز التقدم المرغوب فيه حيث لم يلق موقف السلطان من شكاوى التجار الإنجليز القبول في انجلترا . وقد زاد من تدهور هذه العلاقات التقارير التي وصلت من الأسرى الإنجليز في المغرب سواء ممن غرقت سفنهم قرب شواطئه أو ممن أسرهم قراصنة سلا ثم بيعوا في سوق الرقيق . ومرة أخرى يرسل جيمس الثاني المبعوث هاريسون إلى المغرب عام 1613 لبحث هذه المسألة . وقد سافر هذا أولا إلى لاهاي حيث رحل من هناك بصحبة صمويل بالاش ممثل السلطان في الأراضي المنخفضة فوصلا إلى آسفي في مايو عام 1614. وتقدما من هناك إلى حيث كان يعسكر المولى زيدان قرب مراكش فوصلاها في نوفمبر .

وقد استقبل السلطان هاريسون ووعده بتلافي أسباب شكوى التجار الإنجليز إذا ثبت صحتها كما وعد بتحرير كافة الأسرى الإنجليز الموجودين في ممتلكاته . وأعطى السلطان لهاريسون خطابا للملك جيمس الأول يؤكد فيه على الصداقة الإنجليزية — المغربية كما أعطاه خطابات لكل من ملك فرنسا ومجلس طبقات الأمة ورجاه في

(8) لم يتم العثور على اسم المبعوث أو على منجزاته في انجلترا. أما بالنسبة للنص العربي من الرسالة انظر ملحق رقم (1) (المترجم)

توصيلها . وقد وصل هاريسون إلى انجلترا في مارس 1615 وقام بدوره كرجل بريد وجمع الردود المطلوبة ثم قفل عائدا إلى المغرب في يونيه عام 1615 حيث سلم السلطان تلك الردود ثم تركه راجعا إلى انجلترا . غير أنه بعد فترة قصيرة أرسل جيمس الأول هاريسون مرة أخرى برسالة إلى السلطان في مراكش . وكانت هذه البعثة الرابعة للرجل الذي لا يكل ، وعندما وصل إلى آسفي كتب إلى المولى زيدان يطلب منه الإذن بالتقدم إلى مراكش غير أنه لم يحظ برد ، وبعد أن انتظر في آسفي لعامين بأمل أن يرق السلطان ويقابله اضطر إلى العودة لانجلترا التي وصلها عام 1618 . وقد قرر جيمس الأول التوقف عن تقديم عروضه للحاكم المغربي بعد ما لقيه من إعراض .

محاولات التحالف مع الموريسكيين :

وفي مارس عام 1625 توفي جيمس الأول وخلفه ابنه شارل الأول الذي اشتبك في حرب مع اسبانيا . وأعدت في هذا الصدد حملة لتهاجم قادس وقد انتهز هاريسون الفرصة واقترح على الملك الجديد لفائدة الحملة وتسهيل مهمتها طلب العون من الموريسكيين في المغرب ضد الأسبان . وتبنى شارل الأول اقتراح هاريسون وأرسله إلى المغرب بكتاب إلى المولى زيدان كما خوله صلاحيات التفاوض مع الموريسكيين في تطوان وسلا الجديدة . وقد أشار في الخطاب الموجه إلى السلطان إلى الصداقة العظيمة التي كانت تربط بين الملكة اليزابيث ووالد المولى زيدان ، أحمد المنصور ، والتي قال شارل الأول بأنه يأمل أن تستمر لصالح البلدين ، كما طلب الملك الإنجليزي من السلطان اطلاق سراح أي اسرى من الإنجليز موجودين في بلاده .

ووصل هاريسون في يونيه 1625 إلى تطوان حيث توجد طائفة كبيرة من الموريسكيين وقد اتفق معهم على التعاون مع الإنجليز ضد اسبانيا ، وذلك بالهجوم على سبتة مثلا . غير أن فشل الحملة الإنجليزية على قادس في نوفمبر 1625 قد افرغ مفاوضاته من أهميتها . في تلك الأثناء كان الموريسكيون في سلا الجديدة ، أو قراصنة سلا ، قد سمعوا بمفاوضات هاريسون مع اخوانهم في تطوان ، ولما كانوا يرغبون في اعلان الجمهورية المستقلة في سلا الجديدة والخروج عن طاعة السلطان

فقد بعثوا برسالة إلى هاريسون يبلغونه فيها باستعدادهم لعقد محالفة مع ملك انجلترا.

وقد قبل هاريسون دعوتهم للمجيء إلى سلا الجديدة التي وصلها في أوائل 1626 . وعقد محادثات مع سيدي محمد العياشي صاحب النفوذ الواسع في شمال المغرب والذي شجع محاولات الموريسكيين في تطوان وسلا الجديدة للاستقلال . ولما كان العياشي أيضا خصما متعصبا للاسبان فقد كان ميالا لصداقة الانجليز . وقد صحب هاريسون من تطوان إلى سلا الجديدة وكتب خطابا إلى شارل الأول مؤرخا في 2 رمضان 1036 (17 ماي 1627) نوه فيه بتأييده المطلق لإقامة علاقة وثيقة بين انجلترا وسلا الجديدة .

وفي أثناء محادثات هاريسون مع موريسكي سلا الجديدة في أوائل 1626 وعده هؤلاء بأنه إذا ما سلمهم الملك الإنجليزي الأسلحة والذخائر فإنهم سوف يطلقون سراح الأسرى الإنجليز . وقد غادر هاريسون سلا الجديدة عائدا إلى انجلترا التي وصلها في ماي 1626 محملاً بهذا العرض . وبعد سلسلة من المناقشات في مجلس البلاط تمت الموافقة على استبدال الأسرى الإنجليز بالأسلحة والذخائر ، وغادر هاريسون ، درتموت في يناير 1627 في رحلته السادسة إلى المغرب ليتفاوض مع « الملك والأمراء والحكام والقواد في كل مناطق البربر » لتحرير الأسرى الإنجليز وليقيم مع المغاربة « وسيلة للتفاهم تكون ضمانا لصالحنا العام وسلامتنا[٥] ».

وأخذ هاريسون معه لافتداء الأسرى أربعة من الأبواق النحاسية ومدفعين محمولين على عربات بارودهم وطلقاتهم كذا مائة وخمسين رمحا .

ووصل إلى سلا الجديدة في مارس 1627 ليجد ان السلطان قد أمر بقدومه إليه . وبدلا من أن يستجيب الموريسكيون لأوامر المولى زيدان طردوا حاكمهم عبد العزيز الزروم ممثل السلطان وأعلنوا استقلالهم واسسوا جمهورية كان لها مجلس عام وعدد من القباطنة والقواد كسلطة تنفيذية . وعقد الموريسكيون في 10 ماي 1627 اتفاقية حصلت بمقتضاها السفن الإنجليزية على حق التجارة مع سلا الجديدة ، كذا على حق الحصول على الأغذية والامدادات منها ، كذا على ضمانة بعدم هجوم

BM Additional Ms. 21 993 f. 284 (9)

قراصنة سلا عليهم في أعالي البحار ، والأهم من ذلك ، تعهدوا باطلاق سراح الأسرى الانجليز وعددهم مائة وتسعين.(10).

وعاد هاريسون إلى انجلترا في 27 يونيه 1627 يصحب الأسرى المحررين ويحمل الخطابات من حاكم سلا الجديدة إلى الملك شارل ومجلس البلاط ، كما أرسل الموريسكيون اثنين من المبعوثين مع هاريسون ، محمد بن سعيد وأحمد نارفايز ، للتصديق على اتفاقية المعونة التي عقدها هاريسون مع سلا الجديدة . ولسوء حظهما فقد رفض شارل هذا التصديق ، ذلك أنه كان قد أرسلها لمجلس البحرية لابداء الرأي ، وكان هذا الرأي بالسلب . فقد اعتبر الموريسكيون قراصنة وخارجين عن طاعة سيدهم الشرعي ، سلطان المغرب ، ومن ثم لا يمكن اعتبارهم اكفاء لعقد معاهدة مع ملك انجلترا . وغادر المبعوثان انجلترا في نوفمبر عام 1627 دون أن يؤديا المهمة التي كلفا بها . غير أنهما رغم ذلك لم يغادراها مكروبين ذلك أنهما قد عوملا أفضل معاملة خلال وجودهما بها ، أضف إلى ذلك أنهما قد حملا عددا من الهدايا الثمينة لملكهما .

وقد حملوا معهما أيضا خطابا يتسم بالاسترضاء غير أنه يتسم بطابع التملص في نفس الوقت ، وقد وجه إلى « حكام وقواد مدينة سلا الملكية المعروفين .. وإلى بقية الأندلسيين في تلك الجهات ، » ، وكان مكتوبا في وستمنستر ومؤرخا في 12 أكتوبر 1627 وقد عبر الملك في هذا الخطاب عن شكره لاطلاق سراح الأسرى الإنجليز ، ولوعد الموريسكيين بضمان حرية التجار الانجليز وعدم التحرش بهم في اعالي البحار . وأكد في هذا الصدد للموريسكيين ان عليهم الاطمئنان إلى تلقي نفس المعاملة من جانب الإنجليز .

غير أن الأمور بقيت بعد ذلك على ما هي عليه ، فقد توفي المولى زيدان عام 1627 وخلفه ابنه عبد المالك الثاني حتى عام 1631. وفي مارس 1630 قام هاريسون برحلته السابعة إلى المغرب وقد حمل معه خطابا من الملك شارل إلى السلطان الجديد ، كما كانت تقضي التعليمات التي صدرت إليه بالاتصال « بقراصنة سلا » ذلك أنهم قد أسروا مزيدا من الإنجليز بعد فشل مفاوضات 1627 وقد

SP 103/1. ff. 373-5 (10)

تذرعوا في ذلك بأن السفن الإنجليزية ظلت تهاجم سفنهم وتضع الجوائز للقضاء عليها وأسر رجالها. وقد خول هاريسون بمحاولة اقناع القادة الموريسكيين بأن تلك الهجمات كانت تتم دون علم من الملك شارل الأول وانه ستتخذ الاجراءات الكفيلة بمنع مثل هذه الحوادث في المستقبل. وقد مكنت تلك التأكيدات هاريسون من العودة إلى انجلترا في شتنبر يحمل معه مقترحات جديدة من موريسيكي سلا الجديدة. وبعد تدارس هذه المقترحات بعث شارل الأول هاريسون في رحلته الثامنة والأخيرة إلى المغرب. وكان مطلوبا من المبعوث الإنجليزي بذل غاية جهده لتحرير الأسرى الانجليز في سلا الجديدة، كما صدرت إليه التعليمات ليتقدم إلى مراكش حيث كان المولى الوليد قد خلف أخاه الأكبر عبد المالك الثاني سلطانا على البلاد منذ شهر مارس 1631. وكان الهدف من هذه الرحلة ضمان معونة الحاكم المغربي في اطلاق سراح الأسرى الانجليز.

محاولات الاتفاق مع المولى الوليد :

وقد غادر هاريسون انجلترا في غشت 1631 ووصل إلى سلا الجديدة في 15 شتنبر. وهناك واجه الإعراض من جانب الموريسكيين ذلك أن السفن الإنجليزية استمرت في الهجوم عليهم كما أن الانجليز ظلوا يضعون الجوائز للقبض على رجالهم، كما كان الحال من قبل. وعندئذ رأى هاريسون أن لا جدوى من محاولة التفاوض في سلا الجديدة — ورحل منها إلى آسفي ثم تقدم إلى مراكش للقاء المولى الوليد. وهناك سلمه رسالة شارل الأول المكتوبة في وستمنستر والمؤرخة في 19 يوليوز 1631، وقد هنأ فيها الملك السلطان الجديد على توليته العرش وأبلغه أنه قد أرسل هاريسون إليه «لتجديد العلاقة القديمة في السلم والتجارة التي كانت قائمة بين اسلافنا الطيبي الذكر». وقد أعرب شارل في رسالته عن أمله بأنه على ضوء علاقة الود القديمة سوف يحرر السلطان أسرى الإنجليز كما فعل هو نفسه بالنسبة للرعايا المغاربة الذين فروا من اسبانيا إلى انجلترا[11]

وبروح من المسئولية واجه السلطان مقترحات هاريسون فتم وضع مسودة اتفاقية أشارت إلى أنه ينبغي أن يتم بصورة متبادلة وبشكل ودي انهاء كافة أسباب الخلاف

---

(11) SP 102/2. f. 97

والشكوى السابقة وان يتمتع التجار الانجليز بكافة ما كانوا يتمتعون به من حقوق من قبل ، وأن يتم تحرير الأسرى الانجليز[12] . وقد شرح المولى الوليد في رده على خطاب الملك شارل المؤرخ في 7 جمادي الآخر عام 1041 هـ (دجنبر 1631) كيف وقع الإنجليز أسرى وعزا وذلك إلى تعاملهم مع رعايا السلطان الثائرين عليه[13] . وانه إذا ما رغب شارل في عودة علاقات الصداقة بين حكام المغرب وانجلترا فعليه أن يمنع رعاياه من الاشتغال بالتجارة المحرمة.

وعاد هاريسون إلى انجلترا ومعه مسودة الاتفاقية وخطاب السلطان إلى الملك شارل الأول . وبالرغم من الشروط الطيبة التي حوتها الاتفاقية المقترحة فإن الملك لسبب أو لآخر لم يصدق عليها ، أكثر من ذلك فإنه لم يرسل في استدعاء هاريسون مرة أخرى . غير أن الرجل لم يبق هادئا وسجل خبراته عن المغرب في كتاب بعنوان « مأساة حياة ووفاة المولى عبد المالك ، ملك بلاد البربر الأخير» تم نشره عام 1633 . ويروى هاريسون في هذا الكتاب عددا غير قليل من القصص الممتعة حول علاقة المولى عبد المالك بالأسرى الإنجليز ممن وظف بعضهم لديه كمدفعيين . وكيف تعلم منهم عددا من الكلمات الإنجليزية . ويروى هاريسون أنه لدى عودته متأخرا إلى معسكر السلطان سمع هذا الأخير يصيح بالإنجليزية « اطلقوا النيران » فانطلقت المدافع فورا ونتج عن ذلك تدمير واسع ومقتل عم السلطان . وأشار هاريسون إلى أن المولى عبد المالك كان يبدى عطفاً خاصا تجاه الأسرى الإنجليز . وأورد مثلا على هذا أنه دعا مرة واحداً منهم ليركب وراءه على صهوة الجواد. وهذا شرف لم يحظ به أحد الأجانب من قبل ، ويعلق هاريسون « غير أنه منعه من الالتصاق به لاعتقاده بأنه مليئ بالنجاسة ».

وقد حذر هاريسون الملك شارل الأول ومستشاريه بأنه إذا لم يصل رد للمولى الوليد فإن أحوال الأسرى الإنجليز في المغرب ستزداد سوءا . بالرغم من ذلك لم يصل هذا الرد سريعا مما دعا السلطان إلى أن يكتب للملك شارل الأول ثانية في

---

(12) SP 103/1, ff. 179-81

(13) فبالإضافة إلى الموريسكيين الثائرين في تطوان وسلا الجديدة وقعت منطقة واسعة في السوس تحت سيطرة سيدي علي بن محمد بن أحمد موسى الذي أعلن الثورة على السلطان في ذلك الوقت. انظر رسالة سيدي علي الى شارل الأول ـــ ملحق 2 ـــ (المترجم)

يوليوز 1634 مشيرا إلى رسالته السابقة المؤرخة في دجنبر 1631 مسجلا شكواه مرة أخرى من استمرار التجار الإنجليز في التعامل مع رعاياه الثائرين عليه . وأن جانبا كبيرا من السلع التي يبيعونها لهم تتكون من الأسلحة والذخائر ، وقد كرر المولى الوليد الرجاء لشارل الأول لإيقاف هذه المساوئ.

وبالنظر إلى تزايد اعداد الأسرى الإنجليز في المغرب فقد تقرر أخيرا وجوب اتخاذ الاجراءات لتحريرهم وذلك من خلال استرضاء السلطان . وتمثل أول هذه الاجراءات في المرسوم الذي أصدره مجلس البلاط في فبراير 1635 بمنع التجار الانجليز من التعامل مع ميناء ماسة في جنوب مراكش حيث كان اتباع سيدي علي يحصلون على الأسلحة والذخيرة في مقابل ما يقدمونه من سلع . أما الاجراء الثاني فقد تقرر في اجتماع ثان في مجلس البلاط انعقد في 11 مارس 1635 بإرسال مبعوث إلى السلطان يحمل معه عددا من الهدايا ليحثه على اطلاق سراح الإنجليز في المغرب .

العمل على اطلاق سراح الأسرى :

وقد ظهر على المسرح في هذه الظروف من يدعى روبرت بليك الذي وصل إلى المغرب عام 1636 كوكيل لاثنين من أهم التجار هما وليام كلوبري وسيربريان جونسون — وكانا من كبار المهتمين بالتجارة المغربية . وقد نجح هذا في اعقاب وصوله إلى مراكش ، بطريقة أو بأخرى ، في اكتساب ثقة محمد الشيخ (الصغير) الذي خلف المولى الوليد منذ 1636 كسلطان على البلاد — وكدليل على ثقته منح السلطان الجديد بليك حق احتكار صناعة وتصدير نترات البوتاسيوم من المغرب ، على أن تجمع الرسوم الجمركية عند آسفي وميناء آخر ، وتحرير ثلاثة وثلاثين من الأسرى الانجليز.

وقد أثارت الامتيازات الخاصة التي حصل عليها بليك الحسد وعدم الثقة بل والامتعاض من جانب سائر التجار الإنجليز في المغرب ، وفيما يبدو فإنه كانت هناك أساليب ميكيافيلية استخدمها بليك حيث أنه من المؤكد أنه قد كاد للكابتن ادموند برادشو المبعوث الذي أرسله مجلس البلاط الملكي تنفيذا لقراره الصادر في 11

مارس 1635. والذي وصل إلى المغرب في شتنبر 1636 لافتداء الأسرى الانجليز هناك.

وقد تقدم برادشو من آسفي إلى مراكش حيث قدم رسالة شارل الأول إلى السلطان. وكان الأخير قد أطلق منذ وقت قصير سراح الثلاثة والثلاثين عبدا انجليزيا الذين اصطحبهم روبرت بليك مما دعاه إلى أن يرسل أحد موظفيه إلى سلا الجديدة في محاولة لإغراء الموريسكيين على إطلاق سراح الأسرى الذين بين إيديهم. غير أن هؤلاء رفضوا طلب السلطان متذرعين بأن الإنجليز قد أنزلوا اضرار بالغة بسفنهم كما أخذوا عديدا من الأسرى الموريسكيين. وقد أدى فشل بعثة برادشو إلى اتخاذ انجلترا لإجراءات قوية، فقد تم إرسال اسطول تحت قيادة الكابتن وليام رينبرو إلى سلا الجديدة في فبراير 1637 لاطلاق سراح الأسرى الانجليز، بالقوة إذا لزم الأمر.

ولدى وصول رينبرو إلى سلا الجديدة في مارس 1637 وجد سيدي محمد العياشي يحاصر عددا من الموريسكيين المنشقين هم « الحرناشيون »[14] في قصبة المدينة بينما كان قد وقع في يديه سائر انحاء سلا الجديدة حيث كان يوجد بقية الموريسكيين. وبعد سلسلة من المفاوضات مع سيدي محمد العياشي تم توقيع معاهدة على ظهر سفينة رينبرو المدعوة « ليوبارد » في 5 ماي 1637[14]. وبمقتضي هذه المعاهدة وافق العياشي على تحرير سبعين من الأسرى الانجليز ممن وقعوا تحت يديه دون أية فدية كما تعهد بعدم أسر أي انجليزي. وفي مقابل ذلك قبل رينبرو بالقيام بفرض الحصار على قصبة سلا الجديدة من ناحية البحر بينما يحكم سيدي العياشي الخناق عليها من جهة البر.

ولقد رحب رينبرو بالقيام بهذا العمل ذلك أنه كان قد حاول التفاوض مع الموريسكيين في اعقاب وصوله ولكن لم يلق منهم سوى كل إعراض. وأثمرت الجهود المشتركة النتائج المرجوة في منتصف يونيه، ذلك أن « الحرناشيون » خروجا من المأزق قبضوا على قائدهم وبعثوا به إلى السلطان للنظر في شأنه، غير أن هذا الأخير بدلا من انزال العقوبة به عفا عنه واعاده إلى سلا الجديدة وبصحبته روبرت

---

(14) نسبة إلى المكان الذي أتوا منه وهو استرامادورا في اسبانيا.

(14) نص المعاهدة ملحق رقم 3 (المترجم)

بليك وقائد آخر تأكيدا على الدلالة بعودة سيادة السلطان عليها.

وكانت ثمرة الجهود المشتركة التي بذلت مع « الحرناشيون » اطلاق سراح ثلاثمائة واثنين من الأسرى الإنجليز من بينهم احدى عشرة امرأة تم إرسالهم فورا إلى سفن رينبرو. بعد ذلك أرسل هذا الأخير مبعوثين مع بليك إلى مراكش لعقد معاهدة سلام وتجارة مع السلطان. وقد وقعت هذه المعاهدة فعلا في 2 جمادي الأول 1047هـ (20 سبتمبر 1637). وأصبحت الأساس الذي قامت عليه كل المعاهدات الانجليزية المغربية التي أبرمت بعد ذلك. وقد حوت احدى وعشرين مادة وأعطت بالتبادل لرعايا كل حاكم حرية ممارسة شعائرهم الدينية في بلد الآخر، كذا حرية التجارة، وألا يأسر المغاربة الانجليز أو يأسر الإنجليز المغاربة. وقضت المعاهدة كذلك بألا يتاجر الانجليز مع رعايا السلطان الثائرين عليه في اكادير وماسة وموكادور أو في أية جهة أخرى تخرج عن طاعته. وان السفن التي تفعل هذا تعتبر معادية للسلطان وتعامل على هذا الأساس. كما تضمنت المعاهدة مادة طريفة تقول أنه إذا ما احتاج السلطان إلى سفن للقضاء على الثورات ضده فإن على ملك انجلترا أن يمد يده بهذه السفن إذا ما استطاع ذلك[15]

مبعوث مغربي في لندن :

بعد توقيع المعاهدة بوقت قصير كتب محمد الشيخ في 3 جمادى الأول عام 1074 (22 شتنبر 1637) رسالة من مراكش إلى الملك شارل. وقد أبلغ فيها السلطان الملك بأنه رغبة في تقوية اسباب السلام والصداقة بين البلدين فهو يرسل أحد قواده واسمه جؤد بن عبد الله مبعوثا له إلى انجلترا بصحبته روبرت بليك الذي أثنى عليه لتفانيه واجتهاده في تصريف شئون السلطان.[16]

وقد ركب السفير السفينة «ليوبارد» من آسفي في أواخر سبتمبر ووصل إلى دين في 8 أكتوبر 1637. وكان الرجل برتغالي الأصل. وقع في الأسر ولما يبلغ الثامنة، فتم ضمه إلى جماعة الخصيان لكنه ما لبث أن اكتسب ثقة بل ومحبة محمد الشيخ الذي أنعم عليه بلقب « القايد » وأوكل إليه أهم أعمال الدولة قبل أن يرسله

---

(15) SP 103/1. ff. 243-6
(16) SP 102/2. ff. 106-107

في بعثته إلى لندن، ومن ديل استقل مركبة متجها إلى كانتربري ومنها إلى كْرفسند. وقد بقي هناك مع روبرت بليك ورجال الحاشية حتَّى 19 أكتوبر. وفي هذا اليوم وصل سيرجون فيميت رئيس التشريفات في بلاط شارل الأول ليصحب السفير المغربي إلى لندن عن طريق التيمس. ولدى مغادرة الركب لكْرفسند اطلقت حصون كنت واسكس مدافع التحية، وعندما مر بولويش استطاع السفير أن يشاهد فخر الأسطول الإنجليزي، السفينة الحربية الضخمة المعروفة باسم «سوفرين أوف سيز» (سيدة البحار) والتي قام ببنائها أكبر المهندسين الملكيين في تشييد السفن فينياس بت وابنه بينفر.

وعندما وصل الموكب إلى جرينوتش انتقل السفير إلى سفينة ملكية كانت قد أعدت خصيصا له، وبصحبته عدد من موظفي البلاط وتحركت السفينة بالسفير وسط دقات الطبول حتَّى وصلت إلى جسر لندن ورست عند برج وارف حيث قبع آلاف من المشاهدين لتحية السفير عند دخوله إلى عربة الدولة التي كانت في انتظاره. وقد تبع هذه العربة ما لا يقل عن مائة عربة أخرى كانت تقل محافظ لندن وأشرافها وممثلها التشريعي كذا التجار المتعاملين مع المغرب وغيرهم من الشخصيات البارزة. وكان الجميع في كامل هيئتهم تكريما للسفير، فقد ارتدوا العباءات القرمزية والسلاسل الذهبية حول أعناقهم، ولما كان الظلام قد أخذ يزحف مع بداية تحرك الموكب فقد زاد من هيبة المناظر الأضواء المنعكسة من مئات المشاعل التي أضيئت.

وعلى هذا النحو انتقل السفير وحاشيته ومعهم روبرت بليك إلى حيث تقرر إقامتهم في منزل في وود ستريت يملكه سير مارتن لوملي نائب لندن ومحافظها السابق[17] غير أنه نتيجة للاجهاد والضغوط التي عاني منها السفير بطول الرحلة فقد توعكت صحته واستمر مريضا لاسبوعين كان خلالها تحت رعاية الأطباء الخصوصيين للملك شارل الأول. وما إن استرد صحته حتَّى عقد لقاءه الأول مع الملك في 5 نوفمبر 1637، وكان التمهيد لهذا اللقاء مؤثرا حقا.

فقد حمل السفير معه الهدايا التي أرسلها محمد الشيخ إلى الملك شارل وكانت

---

(17) حصل لوملي على 130 جنيها لقاء بقاء السفير المغربي في منزله لستة شهور.

أربعة صقور وأربعة خيول بسروج موشاة بالذهب بالإضافة إلى ركابات من الذهب ، وصحبه وهو في طريقه إلى هوايتهول سبعة من قارعي الطبول من رجال ليوبارد على طول الطريق بين وودستريت والقصر ، وكان يركب الخيول الأربعة التي كانت من أفضل خيول المغرب رجال من حاشية السفير وقد ارتدى كل منهم بزة حمراء ثمينة . وشارك في الموكب أيضا ثمانية عشر من الثلاثة والثلاثين أسيرا الذين حررهم السلطان بناء على طلب بليك . وقد بقي هؤلاء في المغرب بعد رحيل الآخرين ليعملوا في خدمة السلطان كرجال مدفعية غير أنهم عادوا مع بليك والمبعوث المغربي .

وبينما يتحرك الموكب قام حرس من حاملي الرماح يتقدمهم اثنان من رجال التشريفات بالمدينة بحراسة السفير والخيول الأربعة والأسرى الثمانية عشر من ضغط الجماهير المتدافعة ، وسار وراء الحرس رئيس التشريفات وعدد من أبناء الأسرة المالكة . أما فيما يختص بالسفير نفسه فقد امتطى جواداً وكان على يمينه ايرل اوف شروزبرى وعلى يساره روبرت بليك وعلى جانبيه أربعة من المشاة في بزات خاصة . وسبق السفير اثنان من المغاربة يحمل أحدهما سيفه المعقوف ويحمل الثاني ملابسه ومركوبه بينما ركب وراءه ثمانية من رجال الحاشية ووراءهم عدد من العربات مليئة بأصحاب المقامات السامية في لندن الذين كانوا يشكلون نهاية الموكب .

وبعد أن مر الموكب بمبنى التمبل بار وأصبح خارجا عن نطاق مدينة لندن التحق به أربعمائة من جماعة المواطنين المدربين على حمل السلاح تحت قيادة المستر « انديميون بوتر » ولدى اقترابهم من قصر هوايتهول اطلقوا وابلا من القذائف تحية للضيف . وهناك اصطحب واحد من رجال الحرس الملكي السفير إلى حيث التقى مع الملك إلى قاعة بانكتنج ، وفي تلك الأثناء اقتيد الصقور والخيول الأربعة والثمانية عشر أسيرا إلى سانت جيمس بارك حيث أتى الملك شارل بصحبة السفير لاستعراضها بعد انتهاء لقائهما . بعد ذلك استأذن السفير من الملك وعاد مع حاشيته الى المنزل الذي خصص لإقامته في وود ستريت على ضوء المشاعل وهكذا انتهت بالنسبة له تجربة لابد وانها كانت متعبة غير أنها لا تنسى .

وقد ترك الرجل انطباعا ممتازا في لندن ، فقد نشر بعد فترة قليلة من لقائه مع

الملك في نوفمبر 1637 تحت عنوان « وصول واستضافة السفير القائد جرار بن عبد الله مع رفيقه مستر روبرت بليك قادمين من لدن سمو وعظمة الأمير مولاي الشيخ امبراطور المغرب وملك فاس والسوس .. »، نشر ما نصه تحت رسم للقائد جؤدر « أبدى هذا القائد السفير ميلا لكل شيء نبيل وقيم ويستحق اهتمام الجنتلمان ؛ وهو مخلص وغيور على كل شيء يتصل بدينه ..وهو لطيف وكريم ومحسن وشجاع ويعاقب بقسوة كل من تسول له نفسه الخروج عن جادة الأخلاق في بيته مثل معاقرة الخمر أو ما شابه ذلك . وهو يتحدث الاسبانية والإيطالية والعربية ؛ باختصار فهو على درجة من الإنسانية والأخلاق والكرم يمكن القول معها أنه الجنتلمان الكامل ».

وكان من أهم المستفيدين من زيارة القائد جؤدر بن عبد الله إلى انجلترا المستر بليك وذلك من خلال ما اكتسبه من سمعة من صحبته للمبعوث بالإضافة إلى دوره كوسيط بينه وبين الحكومة الإنجليزية . وقد رغب الملك شارل الاستفادة من معرفة بليك بالمغرب ونفوذه فيه فعينه معتمدا رسميا هناك ؛ وفي مقابل ذلك حصل بليك من الملك على وعد بشراء ما يأتي به من نترات البوتاسيوم من المغرب ، كما صرح له الملك أن يقوم هو وعدد آخر من التجار بتأسيس « شركة بلاد البربر » وتم تبادل الخطابات الخاصة بتسجيلها في 18 ماي 1638 . وسرعان ما حصلت هذه الشركة على امتيازات ملحوظة من السلطان . ففي مقابل ستة آلاف من الجنيهات دفعتها له منحها حق جمع الرسوم الجمركية من كل الموانئ المغربية وحق منع تجار أي بلد من توريد بضائعهم إلى المغرب إذا ما رأت الشركة ضرورة لذلك.

معاهدة 1638

أمضى جؤدر بن عبد الله أغلب وقته في لندن يعاونه بليك في وضع معاهدة سلام وصداقة بين البلدين تم اعدادها أخيرا في 8 ماي 1638. وقد أكدت هذه المعاهدة على علاقات الصداقة التقليدية كذا على حرية التجار بين البلدين . ثم انها قضت بالا يقوم أي من العاهلين باسترقاق أو بأسر أحد من رعايا العاهل الآخر ، وانه إذا ما قبض على أي من هؤلاء الرعايا يطلق سراحه دون دفع

أية فدية . وتعهد السلطان بمنع أهالي سلا الجديدة من القيام بأي من أعمال القرصنة ومقابل ذلك تعهد شارل الأول أن يمنع رعاياه من ممارسة التجارة المحرمة مع العناصر الثائرة على السلطان في المغرب . وتم التصديق على هذه المعاهدة من جانب شارل الأول في 8 ماي 1638 ومن جانب محمد الشيخ في مراكش في 13 ربيع الأول 1048 (يوليوز 1638).

وما ان تم توقيع المعاهدة من الجانب الإنجليزي حتَّى عاد بليك بصحبة القائد جؤدر بن عبد الله إلى المغرب . وقد استقلوا السفينة كونفرتيف التي كان يقودها الكابتن جورج كارتريت . وقد غادر يارموت ، بجزيرة وايت ، بصحبة خمسة سفن أخرى متجهة إلى المغرب في 21 ماي 1638 . وقد حمل بليك وجؤدر بن عبد الله معهما عددا من الهدايا التي أرسلها شارل الأول إلى السلطان ، وكانت عربة وسبعة من الخيول ورسوم لشخوص الملك والملكة وهنريتا ماريا ومائة وأربع وثلاثين قطعة من الأقمشة الإنجليزية الفاخرة وثلاثين قطعة من الأقمشة الهولندية وخمس قطع كاملة وثلاث متبقية من الأقمشة الاسبانية الجميلة »[18].

ووصلت الباخرة إلى سلا الجديدة في 9 يونيه 1638 ولكنها وجدت الموريسكيين المنشقين من « الحورناشيين » مرة أخرى في ثورة ضد حكم السلطان وقد حاصروا القائد وعددا من اتباعه المخلصين في القصبة وقد نجح بليك والسفير في ارسال بعض المؤن عن طريق البحر للقائد واتباعه لتمكينهم من الصمود ، ثم ابحرت كونفرتيف بعد ذلك إلى آسفي حيث نزل بليك وجؤدر بن عبد الله وتقدما منها قاصدين مراكش عن طريق البر . وقد نفق خلال الطريق أربعة من الخيول السبعة التي أرسلها الملك شارل نتيجة لحرارة صيف المغرب التي لم تحتملها ، غير أن بليك والسفير وصلا سالمين مع بقية الهدايا في 2 يوليوز 1638 .

وبعد أن وقع محمد الشيخ على المعاهدة الأخيرة أرسل بليك إلى آسفي بتعليمات للكابتن كارتريت ، وقد اتسقت هذه التعليمات مع ما جاء في المعاهدة من أن الملك

SP. 71/13. F. 73 (18)

شارل سوف يساعد السلطان ضد الثائرين عليه ، وكانت هذه التعليمات تقضي أن يبقى كارتريت في سلا الجديدة ويستمر في حصارها إلى أن يصل السلطان ويرفع الحصار عن القصبة . أما إذا لم تصل قوات محمد الشيخ إلى سلا الجديدة حتَّى يوم 26 غشت فيحل لكارتريت العودة إلى بلاده . وحدث فعلا وانتظر كارتريت ليومين أكثر من المتفق عليه وحين لم تصل حملة الانقاذ حتَّى يوم 28 غشت رفع الحصار عن القصبة واقلع عائدا إلى بلاده .

تجارة غير شرعية

وقفل بليك عائدا إلى مراكش التي وصلها في 9 شتنبر حيث علم أن السلطان في شدة الغضب ، وكان السبب كما عرف بليك الأنباء التي وصلت إلى مراكش بأن سفنا انجليزية تتاجر مع الثوار في سانتا كروز (أكادير) بالرغم من المعاهدة الأخيرة . وكان السلطان في حالة من السخط والغضب رفض معها استقبال بليك لفترة من الوقت . غير أنه هدأ وأرسل للرجل الإنجليزي في 15 أكتوبر ، ويصف بليك ما جرى في هذه المقابلة فيقول :

«. ما إن رآني حتَّى ابتسم متسائلا عما كنت أفعل طوال تلك الفترة . فأجبته بأن ملكي ما كان يتوقع اهانة وكيله بهذا الشكل . فرد علي بأن سفينة انجليزية كانت تتاجر مع اعدائه وسألني عن ردي على ذلك العمل المناقض لمواد معاهدة السلام ، واجبته بأن لملكي رعايا عديدين وان من هؤلاء بعض القراصنة كما أن من رعاياه في هذا البلد من يثور ضده ..»[19].

وقد نصح بليك محمد الشيخ أن يرسل سفيرا آخر إلى انجلترا بشكوى رسمية من استمرار التجار الانجليز في تجارتهم المحرمة ، وأخذ السلطان مذكرة بالنصيحة ، وتبع ذلك أن قام بتوبيخ بليك لانضامه إلى عدد من التجار في تكوين شركة حصلت من شارل الأول على حق احتكار التجارة مع المغرب . وشكا السلطان من أنه نتيجة لهذا الاحتكار سوف يتمكن التجار من تقاضي الثمن الذي يفرضونه على السلع التي يبيعونها ويستغلون بذلك محمد الشيخ ورعاياه ، بينما تؤدى المنافسة الحرة إلى انخفاض أسعار السلع الإنجليزية المطلوبة . وردا على ذلك نجح بليك في اقناع

SP 71/13. f. 76 (19)

السلطان ان احتكار شركة من التجار المحترمين للتجارة مع المغرب هي الوسيلة الوحيدة لايقاف التجارة غير الشرعية مع الثوار. واقتناعا بهذه الحجة وافق محمد الشيخ على الشركة الجديدة ، وانتهى اللقاء بعودة تقريب السلطان لبليك.

وتبنى محمد الشيخ اقتراح بليك بإرسال سفير إلى انجلترا ، واختار هذه المرة القائد « محمد بن عسكر » لأداء المهمة . واصطحب بليك المبعوث الجديد الذي حمل رسالة من السلطان إلى الملك شارل ، كذا قائمة بالمشتروات التي أراد محمد الشيخ ابتياعها من انجلترا وكانت تتضمن أسلحة نارية ورماحا . وأقلع بليك والمبعوث من آسفي في 6 دجنبر 1638 ووصلا إلى بورتسموث في 26 من نفس الشهر . وقد توجها فورا إلى القصر الملكي حيث سلما رسالة محمد الشيخ . وقد شكا هذا في رسالته من التجارة المحرمة مع أكادير وأشار إلى سفينة بعينها تقوم بهذه التجارة وهي السفينة « سنتوريون ». وطالب السلطان بالتحقيق في شكواه وان يعاقب المسئولون إذا ما ثبت صحتها . وليس هناك ما يشير إلى أنه قد حدث أي شيئ من ذلك غير أن الملك شارل قد بعث برسالة استرضاء إلى محمد الشيخ[19] حملها بليك ومحمد بن عسكر لدى إبحارهما إلى المغرب في ربيع 1639.

ولا تتوفر أية معلومات عن زيادة بليك إلى المغرب هذه المرة غير أنه لم يبق به سوى وقتاً قصيراً عاد بعدها إلى بلاده ، وأبحر مرة أخرى من انجلترا إلى المغرب في يناير 1640 ليتفاوض مع السلطان بالنيابة عن تجار شركة بلاد البربر. ولا توجد أيضا أي تفاصيل عن هذه الرحلة التي لم يلبث أن عاد منها في نفس السنة 1640 حين غادر المغرب الى اسبانيا . وقد رجع إلى انجلترا عام 1641 ، وقدم في غشت من هذه السنة اقتراحا لمجلس اللوردات يقضي بأن يخوله الملك صلاحيات التفاوض مع المدافعين عن قصبة سلا الجديدة . ذلك أن هؤلاء كانوا في حالة ياس تام لما يعلموه عن سوء مصيرهم إذا ما نجحت قوات السلطان في هزيمتهم ، وأكد أنهم يرحبون بتسليم القلعة لأي حاكم مسيحي يضمن لهم نقلهم هم وأملاكهم إلى منطقة أخرى من العالم يقضون فيها بقية أيامهم في هدوء . وأشار بليك إلى القيمة الاستراتيجية وغيرها من المزايا التي يمكن أن تجنيها انجلترا من تملك قصبة سلا

(19) يتضح من رد محمد الشيخ على شارل أن رسالة الأخير كانت رسالة شكوى أكثر مما كانت رسالة استرضاء. انظر ملحق 4 (المترجم)

الجديدة . بيد أن هذا الاقتراح لم يلق أي اهتمام . وقد نشبت بعد قليل الحرب الأهلية في انجلترا ، وحدث في حياة بليك ، كما حدث في حياة غيره من الانجليز تحول كامل . فقد تورط في مؤامرة ضد الملك شارل انتهت بشنقه في 2 نوفمبر 1643 بأمر من الأمير روبرت.

أسـرى جـدد

ونتيجة لفشل شارل الأول في تنفيذ تعهداته لمنع الانجليز من الاتجار مع الخارجين على طاعة السلطان فقد تحلل محمد الشيخ بدوره من تعهده بعدم أسر الإنجليز . فوق ذلك انتهز قراصنة سلا الجديدة فرصة انشغال الإنجليز بالحرب الأهلية التي بدأت عام 1642 ليعاودوا هجماتهم على السفن الإنجليزية وأسر بحارتها . وكان هناك عام 1653 أكثر من ثلاثين من الأسرى الإنجليز في سلا الجديدة . ولسنوات عديدة لم تتخذ أية خطوة لتحرير هؤلاء سوى من خلال قيام بعض التجار ، الذين عملوا كوسطاء ، بدفع الفدية لاطلاق سراح عدد منهم . وفي غشت 1653 أمكن تحرير اثنين وعشرين من هؤلاء بهذه الطريقة غير أنه لم يمض وقت طويل حتّى كان قراصنة سلا قد نجحوا في أسر أعداد أخرى ممن بيعوا في سوق النخاسة طالما لم يفتدهم أحد .

واستمر قراصنة سلا لا يلوون على شيء طالما استمرت الحرب الأهلية وطالما استمر الكومنولث[20] لا يملك الأسطول القوي . غير أنه بدا أخيرا أن نمسيس[21] قد جاءت . فقد ظهر أمام سلا الجديدة في غشت 1656 أسطول قوي يقوده القائد البحري المشهور روبرت بليك (وهو غير بليك الآخر) ، بهدف استخدام القوة ضد قراصنة سلا . وحاول بليك ، قبل استخدام القوة ، اللجوء إلى المفاوضات لتحرير الأسرى الإنجليز . بيد أنه بينما كانت تجري هذه المفاوضات تم استدعاؤه ، هو وأسطوله ، للاشتراك فيما تقرر من فرض الحصار على اسبانيا ، وقد ترك بليك ثلاثة من سفنه للاستمرار في المفاوضات ولحصار سلا الجديدة إذا ما كان ذلك ضروريا حتّى يخضع القراصنة.

---

(20) Commonwealth : الحكومة الانجليزية في ظل أوليفر كرومويل وابنه 1649 — 1660 (المترجم)
(21) Nemsis اهة الإنتقام عند الاغريق (المترجم)

وكان من نتائج الحرب التي اشتعلت مع اسبانيا في فبراير 1656 أن بدت الحاجة إلى ميناء قريب منها يمكن اصلاح السفن الإنجليزية فيه والحصول على إمداداتها منه. وكان بليك بمعرفته بالمغرب قادرا على الحصول على التسهيلات المطلوبة من قائد تطوان المستقل. وقد تم ذلك فعلا من خلال اتفاق عقده مع القائد عبد الكريم النقسيس في يونيه 1656 وأمكن بمقتضاه استخدام ميناء تطوان. ذلك أنه بعد موت سيدي محمد العياشي في أبريل 1641 وقعت المناطق المحيطة بتطوان تحت سيطرة محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية، ووصلت هذه السيطرة إلى الفروع العليا لنهر ام الربيع. وقد استمرت أسرة النقسيس القوية، وبموافقة محمد الحاج، مستقلة بتطوان، متحدية إرادة السلطان.

وفي يونيه عام 1656 اقترح عبد الكريم النقسيس على بليك ارسال ممثل عن انجلترا إلى تطوان ليكون همزة وصل مع تلك المدينة، وتم فعلا تنفيذ الاقتراح بعد عودة بليك إلى بلاده[22]. ولم يرسل الشخص الذي عين قنصلا في تطوان من انجلترا بل انه كان من الانجليز الموجودين في المدينة. كان اسمه ناثانائيل ليوك[23]، وقد صدر تفويضه من مجلس الدولة في 3 مارس 1657 وجاء في مقدمة هذا التفويض:

«حيث وجد أنه من الضروري والمفيد لتجارنا وغيرهم من المتعاملين في بحار الليفانت تعيين قنصل لنا في موانئ سلا وأصيلا وتطوان وآسفي وسانتا كروز (أكادير)، على السواحل الافريقية، وذلك ليعاون هؤلاء ويرشدهم إلى شئونهم من وقت لآخر..

ثم يشير التفويض إلى تعيين ناثانائيل ليوك «ليصبح قنصلنا في سلا وأصيلا وتطوان وآسفي وسانتا كروز المذكورة آنفا، وهو مخول بالأصالة أو بالتفويض، بمعونة وإرشاد التجار أو سواهم من السابق ذكرهم في تجارتهم وأعمالهم، أو في غير ذلك من الواجبات التي يقوم القناصل بتأديتها».

---

(22) توفي بليك في 7 غشت 1657 بعد ان اقتربت سفينته من لسان بلايموث.

(23) لم يكن ليوك أول قنصل انجليزي في المغرب فقد نال هذا الشرف جيلز بن. وهو تاجر انجليزي في تطوان وجد مؤسس بنسلفانيا اذ عين معتمدا وقنصلا في سلا الجديدة في دجنبر 1637 بناء على مطلب التجار الانجليز هناك. وليس معروفا كيف تواجد بن في سلا الجديدة أو في تطوان، أو الوقت الذي قام خلاله بعمله.

وخول ليوك في مقابل الخدمات التي تقرر أن يقوم بها ، الحق في الحصول على اثنين في المائة من قيمة البضائع الانجليزية المباعة على السفن او على البر « مع كل الحقوق الأخرى والامتيازات والصلاحيات المقررة بشكل قانوني للبقعة التي يقيم فيها القنصل ، على الأمتعة أو على غيرها »[24]

وقد اقترح عبد الكريم النقسيس على بليك ، خلال زيارة هذا الأخير إلى تطوان في يونيه 1656 ، بأن توقع معه انجلترا معاهدة سلام وتجارة ، غير أنه نتيجة لتطور الأحداث الناشئة عن الحرب الإسبانية غادر بليك تطوان دون البت في الأمر. ومع ذلك فقد تم إرسال الادميرال جون ستوكس مع قوة بحرية من انجلترا إلى تطوان عام 1657 لعقدة معاهدة سلام وتجارة مع « ملك الزاوية »[25] وحاكم تطوان. وتم توقيع المعاهدة في 9 غشت وقد نصت على منح سفن الطرفين المتعاقدين حق الدخول في مواني الطرف الآخر للتجارة أو للتموين أو لأي غرض آخر. ثانيا : ألا تقوم سفن أي طرف بعرقلة أو التحرش بسفن الطرف الآخر. ثالثا : ألا يقوم أي طرف بأسر رعايا الطرف الآخر. وأخيرا : أن يمارس أي انجليزي يقيم في أرض المرابط حريته الدينية دون أي قيد.

وقد أضفت هذه المعاهدة درجة من الاستقرار على العلاقة بين انجلترا ومنطقة أقصى شمال المغرب. غير أن هذه العلاقة قد أخذت في الاضطراب نتيجة لتطورين. تمثل أولها في نهاية دولة السعديين وحلول الفرع الفلالي من السلاطين الأشراف محلها والذي ينتمي إليه الملك الحسن الثاني حاكم المغرب الحالي. وكان المولى شريف أول الفلالية الذي انتهز فرصة تدهور القوة السعدية ليزيد من قوته ، ثم قام ابنه المولى رشيد (1666 — 1672) بتدمير سلطة الزاوية الدلائية واستولى على فاس ومراكش ؛ وقبل نهاية عهده كان قد نجح في مد سيطرته على مناطق السوس والأقسام الجنوبية من المغرب. وقد عاشت البلاد حالة من الفوضى قبل أن يدعم هذا السلطان نفوذه ، وكنتيجة لتلك الفوضى حدث التطور الثاني وتمثل في الاحتلال الإنجليزي لطنجة عام 1662 والذي يشكل طورا جديدا في العلاقات الإنجليزية — المغربية.

---

(24) SP 71/13. f. 100

(25) هو سيدي محمد الحاج ، المرابط الذي رأس الزاوية الدلائية . وبالإضافة إلى تطوان وقعت تحت سيطرته سلا الجديدة . كذا المناطق الممتدة من تطوان جنوبا إلى المناطق المحيطة بفاس ومكناس .

الفصل الرابع

الانجليز في طنجة

حدث عام 1640 أن أعلن البرتغاليون انفصالهم عن اسبانيا واختاروا دوق باركنزا ملكا عليهم باسم جون الرابع وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الحدث على الميدان الاستعماري فقد حاول الاسبان الاستمساك بالأملاك البرتغالية عبر البحار غير أنهم بالنسبة لشمال افريقيا لم ينجحوا الا في استبقاء سبتة اذ ثارت عليهم سائر المستعمرات على الساحل المغربي في مزاكان وطنجة واعلنت ولاءها لجون الرابع. وبالنسبة لطنجة فقد افلح البرتغاليون في التخلص من الاسبان عام 1643 غير أنهم وجدوا بعدئذ ان الاستمرار في امتلاك المدينة تحوطه الصعاب من كل النواحي ذلك أن الاسبان قد أبقوا على حصارها بحرا بينما تابع المغاربة هجماتهم عليها من البر. ومن ثم فقد أضحى تموين المدينة والابقاء على تبعيتها لهم أمرا محفوفا بالمخاطر وباهظ التكاليف.

دعا هذا الوضع جون الرابع إلى التنازل بدون ندم عن طنجة لشارل الثاني كجزء من دوطة الأميرة كاترين أوف براكنزا التي اتفق شارل على الزواج منها في ماي 1661. أما من ناحية الملك الانجليزي فلا شك أنه نظر لمسألة امتلاك طنجة كمرحلة أولى في التوسع في شمال افريقيا، دون أن يلقي بالا للعواقب حيث أنه كان لا يعرف سوى القليل عن أحوال المغرب آنئذ، كما أنه لم تكن لديه أية فكرة عن المؤامرات والمحن التي سوف تتعرض لها حاميته في طنجة.

فقد اعقب وفاة أحمد المنصور عام 1603 حقبة من الصراعات الأسرية سقطت خلالها أقسام كبيرة من الإمبراطورية، ولفترات متفاوتة، تحت سيطرة الزعماء الدينيين. فقد وقعت فاس وقسم كبير من الشمال الغربي تحت سيطرة سيدي

محمد العياشي منذ عام 1637 حتّى وفاته عام 1641 . بعد ذلك وقعت المنطقة تحت نفوذ سيدي محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية . وقد أوقع سيدي محمد الهزيمة بمحمد الشيخ في اكتوبر 1638 مما دفع السلطان إلى التراجع إلى مراكش والكف عن السعي لتأكيد سيادته على شمال المغرب . وبعد وفاة الشيخ عام 1654 تولى ابنه المولى أحمد السادس (أبو العباس) العرش غير أنه اغتيل 1659 . بعد ذلك تولى خاله المدعو عبد الكريم بن أبو بكر ، المعروف باسم كروم الحاج ، السلطة إلى عام 1668 حين تم اسقاطه .

وبينما كانت الفوضى تضرب باطنابها في الشمال كانت هناك أسرة أخرى من الاشراف ، هي أسرة الفلالي ، تدعم نفوذها في المناطق الواقعة جنوبي الأطلس الكبير والتي عرفت باسم تافيلالت . وقد تمكن واحد من أشراف الفلالي هو المولى رشيد من اخضاع فاس في ماي 1666 ثم نجح في هزيمة قوات سيدي محمد الحاج وقوات الخضر غيلان أحد الاتباع السابقين لسيدي محمد العياشي والذي تمكن عام 1652 من السيطرة على القصر الكبير وما حواليها . وفي عام 1668 استطاع المولى رشيد طرد ذلك الدعي الذي اغتصب العرش في مراكش منذ 1659 ودمر سلطة الزاوية الدلائية ونفى سيدي محمد الحاج الذي توفي في تلمسان عام 1671 . ويمكن القول أن المولى رشيد كان قد نجح في هذا الوقت أن يجعل من نفسه سيدا على المغرب من مضيق جبل طارق في الشمال حتّى نهر النون في الجنوب . وانه استطاع توطيد أسرته على عرش البلاد اللهم الا في منطقة طنجة حيث كان غيلان لا يزال على قدر من القوة مكنته من الاستمرار في الحفاظ على مظاهر السيادة عليها لبعض الوقت.

تملك الانجليز لطنجة :

في هذه الأوضاع التي كان يمد فيها غيلان نفوذه على المنطقة بين القصر الكبير وطنجة ، وفي تلك الظروف التي كان يمارس من خلالها ضغوطا مستمرة على طنجة تم توقيع اتفاقية الزواج الإنجليزية — البرتغالية عام 1661 التي سلم البرتغاليون بمقتضاها المدينة للانجليز . وقد نزلت إلى الميناء بناء على الاتفاقية المذكورة في 14 يناير قوة بحرية من الأسطول الذي يقوده ايرل أوف ساندويتش واشتركت مع قوة

الدفاع عن طنجة إلى حين تلحق بها الحامية الانجليزية الدائمة والتي وصلت فعلا إلى خليج طنجة في 29 يناير 1662 وكانت تتكون من ثلاثة آلاف من المشاة والفرسان بقيادة ايرل أوف بيتربرو. وتم تسليم المدينة للقوة الإنجليزية في اليوم التالي وبدا عهد الحكم الإنجليزي لها.

وتم تصدير تعليمات شارل الثاني إلى بيتربرو بمقدمة جاء فيها:

« يتمثل مخططنا الأساسي من تلك الإضافة إلى ممتلكاتنا في فوز رعايانا بتجارة بلاد البربر وتوسيع املاكنا في ذلك البحر، وعليك أن تحافظ على شرف تاجنا وعلى تجارة ومصالح رعايانا[1] »

وقد حمل بيتربرو بالإضافة إلى تلك التعليمات العامة كتيبا صغيرا بعنوان « قوانين ونظم الحرب الموضوعية لحسن قيادة قوات جلالته في ممالك سوس وفاس ومراكش والتي تحت قيادة فخامة ايرل أوف بيتربرو ».

وكان واضحا من التنظيمات التي احتواها هذا الكتيب انه قد تقرر اتباع نظام صارم في طنجة التي اعتبرت قاعدة نائية للجيش الانجليزي. مثل على ذلك ما جاء في الكتيب المذكور من أنه:

« وإذا ما قام كائن من كان بمحاولة أخذ الغنائم أو النهب أو الابتزاز أو السرقة. فيعاقب إلى الموت أو بعقوبة قاسية أخرى.. ولا يقتل العدو إذا ما استسلم وألقى سلاحه.. وعلى القادة أن يقوموا بحزم بالتأكد من الاهتمام بالرعاية الالهية ومن القيام بتأدية المناسبات الدينية والصلوات بانتظام[2] ».

ولم يمض وقت طويل حتى كانت شجاعة وانتظام قوات بيتربرو محل الاختبار من جانب غيلان الذي بدأ في الضغط عليها منذ الأيام الأولى لاحتلالها المدينة. وقد نتج عن هذا العمل تزايد الحاجة داخل طنجة للوقود والمواد التموينية وما يترتب على تلك الحاجة من متاعب. ولم يمض وقت طويل حتى أيقن الانجليز أن احتلال

---

(1) Co 279 1 f. 29

(2) Co 279/1 ff. 99-110

المدينة كان عملا معقدا ومكلفا وتشكلت في نوفمبر 1662 لجنة من الأشراف بامانة صمويل بيبس للنظر في شئون طنجة.

وبدا واضحا حجم العبئ المالي الناتج عن الاستمرار في الوجود بالمدينة ، وعندما حل في ماي 1663 ايرل أوف تيفيوت حاكما لطنجة محل بيتربرو وكانت الأوامر التي لديه بتقليل قوة الحامية إلى الفين فحسب كذا محاولة عقد معاهدة مع غيلان أو على الأقل هدنة ، ثم أن يبذل أقصى جهده لمنع وقوع قصبة سلا الجديدة في يد غيلان ، أكثر من ذلك قضت التعليمات التي تلقاها تيفيوت بأنه إذا ما رغب الموريسكيون في تسليم سلا الجديدة للانجليز فعليه القبول ووضع حامية انجليزية بها .

تحصين المدينة وبداية الهجمات المغربية :

وكان من أهم مسببات زيادة العبئ المالي لاحتلال طنجة ما تقرر من إقامة لسان في البحر بالإضافة الى عدد من التحصينات . وقد تضمن اتفاق بناء هذا اللسان الذي عقد في 30 مارس 1663 القيام بعمل ضخم يمتد باتجاه شرقي وشمالي شرقي داخل الخليج على أن تتخذ قاعدة لها البقعة المحصنة المعروفة باسم يورك كاسل من حيث تتجه التحصينات لمسافة مائتي ياردة باتجاه الشرق والجنوب الشرقي . وقد تقرر أن يكون عرض اللسان عند قاعدته ثلاثين ياردة وست ياردات تحت سطح الماء مباشرة وأربع ياردات فوقه . وبينما كانت عملية بناء اللسان تدخل حيز التنفيذ كان تيڤيوت يشرف بنفسه على إقامة أربع قلاع لإحاطة طنجة بحزام حماية يكفل للمدينة دفاعا معقولا.

وقد استفزت هذه الأعمال الإنجليزية غيلان الذي شن هجوما على المدينة في 14 يونيه 1663 . غير أنه أمكن صد الهجوم وتكبد المهاجمون خسارة بلغت ستين قتيلا . أعقب ذلك تبادل الرسائل بين ايرل أوف تيڤيوت والزعيم المغربي والتي تلقي الضوء على طبيعة المشاعر التي حكمت الرجلين.. كتب تيڤيوت :

« عينني مولاي الملك لحكم هذه القلعة ، وقد توقعت من فخامتكم نفس المعاملة المجاملة التي شملت بها سلفي[3] ، ولكن العكس قد حدث إذ حرمتني من ساعة

(3) فقد تبادل بيتربرو المجاملات مع غيلان وتفاوض الرجلان لعقد هدنة بينهما .

الغذاء وهي الساعة التي لا أستقبل خلالها ضيوفا عادة[4]. ومع ذلك، وبالرغم من الماضي، إذا ما أردت تفاهما أفضل، في السلم والحرب، لن تجدني أقل ميلا منك لهذا التفاهم، وفورا. ولما كنت أحترم القانون العسكري فقد قمت بدفن القتلى الذين تركتهم في الميدان اما إذا كنت راغبا في دفنهم بطريقتكم فلك الحرية لترسل من يأخذها».

ورد غيلان على ذلك في 15 يونيو 1663

«تسلمت خطاب. فخامتكم المؤرخ في 14 الجاري والذي تشكو فيه بأني لم أرحب بك. وبالعكس فانا صاحب الحق في الشكوى لأنه في بلادنا ينبغي على رجل في مركزك أن يبلغنا بوصوله لا أن يفعل كما فعلت بإصدار الأوامر في أراضينا..أما فيما يتصل بالسلام فقد كنت دائما من أنصاره كما هو معلوم.. فيما يتعلق بالموتى فلم أتوقع أقل من هذه المجاملة التي أشكرك عليها. وإذا رغبت أن ترسل لي مبعوثين فأنت حر في ذلك[5]»

الهدنة مع غيلان:

بعد هذه الخطابات المتبادلة تقدم غيلان مرة أخرى بعرض لبحث احتمال عقد هدنة بين الطرفين، وقد ذهب تيفيوت في 21 يوليوز 1663 إلى معسكر الزعيم المغربي بعد أن حصل على عهد أمان من هذا الأخير، وتم توقيع هدنة بين الجانبين مدتها ستة شهور. وقبل ذلك اجتمع الرجلان على مائدة الطعام وحدث نوع من القبول المتبادل تحول إلى صداقة بينهما بالرغم من عداوتهما التي حكمت بها الظروف.

وبعد هذا اللقاء ببضعة أسابيع قام ايرل أوف تيفيوت بزيارة إلى انجلترا ليقدم تقريرا عن الأوضاع في طنجة وحمل معه خطابا أرسله غيلان إلى الملك شارل الثاني. وفي هذا الخطاب المكتوب في أصيلا والمؤرخ في 10 شتنبر 1663 يشير

---

(4) تم هجوم غيلان يوم الأحد ظهرا أثناء تناول الإنجليز لوجبة الغذاء

(5) Co 279/2 ff. 100-101

غيلان إلى علاقته الطيبة بايرل أوف تيفيوت وإلى الهدنة التي تم توقيعها ويختم خطابه بالتعبير عن نياته الطيبة تجاه ملك انجلترا[6].

وفي يناير عام 1664 عاد تيفيوت إلى طنجة ومعه تعليمات تقضي بإطالة أمد الهدنة مغ غيلان وبرفض مطلب من هذا الأخير بالتوقف عن إقامة التحصينات في طنجة . بيد أنه بامتداد فترة إقامة الحاكم الإنجليزي في بلاده نجح نائبة الكولونل فيتزجرالد في الحفاظ على العلاقات الشخصية الودية التي كان قد عقدها رئيسه مع غيلان . فقد قابل فيتزجرالد الزعيم المغربي في 24 نوفمبر 1663 وقدم له تحياته ثم خرج الرجلان في رحلة صيد لمدة ساعة . وأهدى له فيتزاجرلد احد المغاربة ممن كانوا قد وقعوا في أسر الانجليز ، وبينما كان غيلان يغادر ضواحي طنجة بعد نهاية اللقاء أمر فيتزجرالد مدفعية المدينة باطلاق سبع عشرة طلقة تحية للضيف[7].

عودة الهجمات المغربية

غير أن فيتزجرالد كان موقنا أنه بالرغم من علامات الصداقة التي يبديها الزعيم المغربي إلا أنه مصمم على طرد القوات الإنجليزية من طنجة ، وتحقق هذا اليقين لدى انتهاء أجل الهدنة بعد فترة قصيرة من عودة تيڤوت إلى طنجة في يناير عام 1664 حين عاود غيلان هجماته . وتبع ذلك سلسلة من الصدامات قتل في واحدة منها ، وهي التي جرت في 3 ماي ، تيڤيوت مع تسعة عشر من ضباطه وأربعمائة من الجنود . وبالرغم من الكارثة التي لحقت بالحامية الإنجليزية فقد وقع أفدح منها في صفوف غيلان الذي خسر نحو ألف رجل في هذا اليوم ولم يستطع أبدا أن يهجم بنفس القوة مرة أخرى ، ومن ثم فقد انتهى خطر غزو طنجة.

وقد تأثرت معنويات حامية طنجة نتيجة لوفاة اللورد تيڤوت كما يحدث عادة عند وفاة رجل مرموق . وبالرغم من أنه كان قد تم آنئذ بناء احدى عشرة قلعة حول طنجة أوكانت في مرحلة الانتهاء فإن الحامية كانت قد استنزفت بشكل محزن بحيث أصبح عدد رجالها ألفاً وأربعمائة من المشاة ومائة وأربعين من الفرسان ، أضف

Co 279/2 f. 118 (6)
Co 279/2 f. 173 (7)

إلى ذلك انخفاض معنوياتهم بسبب تأخر الرواتب ونقص المئونة ، وفي هذه الظروف غير المواتية وصل اللورد بلاسيس خليفة تيڤيوت في أبريل 1666 .

معاهدة سلام وتحالف مع غيلان

من حسن حظ الحاكم الجديد أن هجمات غيلان كانت تضعف يوما بعد آخر نتيجة لاضطراد قوة الشريف الفلالي « المولى رشيد » واتساع سيطرته على مناطق شمال المغرب . وقد وصل شعور غيلان بخطورة موقفة ، نتيجة لاستمرار تقدم الشريف ، إلى ان عقد معاهدة سلام وتحالف مع اللورد بلاسيس في 2 أبريل 1666 جاء في مقدمتها أنها قد أبرمت بين : .

« جون لورد بلاسيس القائد العام لكل القوات التابعة لجلالة ملك بريطانيا والموجودة في افريقيا ، والفيس ادميرال للاسطول الملكي الموجود على سواحل بلاد البربر ، وحاكم مدينة طنجة ».

« وبين صاحب الفخامة سيد حامد خضر بن على غيلان أمير غرب بلاد البربر وأصيلا والقصر وتطوان وسلا ... الخ ..

وقد قررت المعاهدة قيام سلام أبدي بين الطرفين وكفالة الحرية التامة للتجارة بين مناطقهما . وتعهد غيلان بامداد طنجة باحتياجاتها التموينية على أن تدفع ثمن ما يمدها به ، كما تعهد الإنجليز بعدم بناء حصون جديدة خارج اسوار طنجة بعد توقيع المعاهدة. وجاء في أحد الشروط تعهد غيلان بأن يحارب كحليف للانجليز إذا ما هاجمت طنجة أية دولة مسيحية ، وشرط آخر ، كان ذا قيمة كبيرة لغيلان بالنظر لحرج موقفه ، وهو امداد الانجليز له بمائتي برميل من البارود الجيد .[8]

وبعد فترة قصيرة من توقيع معاهدة السلام مع غيلان استقال اللورد بلاسيس من منصبه كحاكم لطنجة وقام بأعماله « الكولونل نوروود » إلى حين تعيين آخر . وقد واجه الرجل أثناء قيامه بعمله في يوليوز 1668 موقفا حرجا فقد ثار سكان أصيلا على غيلان وطردوه منها . تبع ذلك أن لجأ الزعيم المغربي مع حريمه وثلاثمائة

---

(8) SP. 103/1. f. 301

من اتباعه المخلصين إلى طنجة . وقد استقبله نوروود باكرام بالغ وأبدى اهتماما كبيرا بوصول النساء من حريم غيلان . وفي خطاباته إلى الوطن يعبر بحرية عن جمالهن أو قبحهن فقد كان مما ذكره أن كثيرا من محظيات غيلان كن مسنات وقبيحات على أن البعض الآخر كن صغيرات وجميلات[٩] .

ولم يمض وقت طويل حتّى رحل غيلان وحاشيته ، وكان هذا بلاشك مدعاة لارتياح نوروود ، فقد سبب له وجودهم كثيرا من المشاكل في التعامل مع الإدارة المدنية في طنجة ، بالإضافة إلى ما واجهه من تعقيدات لتدبير الأماكن اللازمة لإقامة هذا العدد الكبير من المغاربة .

وفي محاولة لتطوير التجارة وتشجيع المدنيين على البقاء في طنجة تقرر أن تكون المدينة منطقة حرة معفاة من الضرائب الجمركية . وبالرغم من ذلك لم تغر طنجة الانجليز إلى الحد الذي يقومون معه برحلة طويلة من بلادهم بقصد الاستقرار فيها ، من ثم فقد استمرت اقتصاديات المدينة تزداد تدهورا وكانت السلعة الوحيدة التي لقيت رواجا هي المشروبات ، فقد تزايدت المؤسسات التي تتولى بيع النبيذ والمشروبات الروحية ، والتي كانت تقوم حتّى بدون ترخيص مما أدى إلى زيادة المدمنين بين رجال الحامية . ذلك أنه لم يكن امام هؤلاء وهم في تلك البقعة النائية يحيط بهم الملل من كل مكان سوى اللجوء إلى معاقرة الخمر ، دعا ذلك الكولونل نوروود إلى أن يطلب من محافظ المدينة ومجلسها البلدي انزال « أشد العقاب » بكل الأشخاص الذين يبيعون للجنود مشروبات كحولية دون ترخيص[١٠]

بعثة هيوارد :

وفي محاولة أخرى لتنمية تجارة المدينة ، مع داخل المغرب هذه المرة ، تم في يوليوز 1669 ارسال هنري هيوارد (بارون هيوارد أوف كاسل ريدنج وأخيرا دوق أوف نورفولك) في بعثة خاصة من انجلترا إلى المولى رشيد صاحب النجم الصاعد في البلاد . وكانت المهمة الأساسية لهيوارد أن يعمل على اطلاق سراح الأسرى

(9) Co 279/10. ff. 145-8

(10) Co 279/10 f. 92 تم توحيد ادارة طنجة في 4 يونيو 1668 بحيث أصبح لها محافظ يعاونه مجلس استشاري عام.

الانجليز في المغرب وتوقيع معاهدة سلام وتجارة. وحتّى يحقق هذه الأهداف فقد حمل معه عددا من الهدايا للمولى رشيد كما حمل معه أيضا رسالة من شارل الثاني إلى السلطان جاء في بدايتها :

« إلى الأمير المنتصر الأعظم المولى رشيد امبراطور مملكة مراكش وفاس وتافيلالت والسوس »

ثم جاء فيها

« الأمير المنتصر الأعظم ، وقد شدتني شهرة أعمالكم الرائعة ونجاحكم العظيم مما دعاني إلى تقدير شخصكم وفضائلكم ، وبالنظر إلى الصداقة والمراسلات الطيبة التي ظلت متبادلة طوال العصور بين اسلافنا الملكيين وأسلافكم في تلك الأمبراطورية ، والتي كانت تستهدف فائدة ومصالح رعايا التاجين فإننا نرغب في عقد معاهدة صداقة في أقرب وقت بين أشخاصنا وبين ممتلكاتنا ، ونرسل لكم ساعدنا الأيمن وابن عمنا المحبوب هنري لورد هيوارد... مبعوثا فوق العادة لتهنئتكم بأعمالكم البطولية ونجاحكم الكبير وأمجادكم التي ملأت العالم اعجابا بكم ولأؤكد لكم على الأهمية العظيمة التي نعلقها على شخصكم وعلى صداقتكم. ونحن نرجوكم أن تحسنوا استقباله والسماع إليه خاصة فيما يتصل بما نقترحه عليكم من إقامة سلام وصداقة دائمين بين شخصينا وبين رعايانا ، كذا بشأن اقامة تجارة شرعية مع ساحل بلاد البربر الواقع أو الذي سيقع تحت سلطانكم وذلك كما كان يحدث في الماضي لصالح شعبينا. وأيضا ، وإذا وجد ذلك مناسبا ، فإننا نرغب فيما يتصل بمدينة طنجة التي تملكناها كجزء من دوطة عزيزتنا الملكة ، إقامة صلات حرة بينها وبين المناطق المجاورة لها من أملاككم[11].

وقد وصل هيوارد إلى طنجة في 11 غشت 1669 وبصحبته حاشية تربو على السبعين فردا كان من بينها سكرتيره توماس وارن وهو تاجر لندني ذو مصالح متشعبة في المغرب. وقد تكلف تجهيز الهدايا التي حملها هيوارد جهدا كبيرا حتّى تترك الأثر المطلوب على السلطان ، وكان من بينها عدد من المغاربة ممن كانوا في الأسر في انجلترا ، كذا صورة زيتية للملك شارل الثاني ، وعشر مدافع ، وأربعين جرابا

(11) SP 71/13 f. 295

للغدارات وكمية كبيرة من الأقمشة الانجليزية الممتازة ، وقد بلغت تكلفة مجموع تلك الهدايا نحو أربعة آلاف جنيه .

ولما كانت الشكوك قد ساورت هيوارد في طبيعة استقبال السلطان فقد قرر قبل تسليم الهدايا إرسال بعثة للتأكد من حسن هذا الاستقبال ، وتشكلت هذه البعثة من وارن وآخر من الحاشية اسمه بوركيل . وقد توقف وارن في سلا الجديدة بينما تقدم بوركيل إلى فاس حيث كان بلاط المولى رشيد ، وفي 14 شتنبر عاد إلى طنجة معه تصريح من السلطان لهيوارد بالمجيء . غير أن المبعوث الإنجليزي الذي بالغ في وساوسه ، ولا نريد القول في جبنه ، لم يترك طنجة ذلك إنه كان قد اشترط استحضار عدد من كبار المغاربة واستبقاءهم في طنجة كرهائن طول مدة رحلته وإلى حين عودته سالما من لدن الملك وهو ما فشل بوركيل في اقناع الملك به .

وأعطى هيوارد خطابا لبوركيل ليسلمه إلى المولى رشيد ويتضح منه مخاوف السفير على سلامته الشخصية ، وقد عنون الخطاب باسم :

« الأمير الأعظم والأشهر والمنتصر المولى رشيد الشريف ملك تافيلالت وفاس ومكناس وامبراطور مراكش »

واسترسل هيوارد في شرح مطلبه بالتأكد بأنه سيتم استقباله لدى البلاط « بشكل يليق بشرف العرشين ، وضمان سلامتي الشخصية بالرهائن أو بما ترونه جلالتكم خلال فترة بقائي عندكم »(12)

وفي محاولة لابداء حسن النوايا أرسل هيوارد طبيبه دكتور بارندال إلى فاس وبناء على طلب شقيق السلطان ليعالج هذا الأمير الذي كان متوعكا بعض الشيء.

وبالرغم من المجاملة لم يستجب السلطان لطلب هيوارد بارسال الرهائن إلى طنجة واكتفى بكلمته بضمان سلامة المبعوث . ولم يقتنع هيوارد بالضمان فمكث في طنجة بينما أرسل وارن وبوركيل إلى فاس أكثر من مرة لحث السلطان على الموافقة على الشروط التي أصر عليها هيوارد قبل مغادرة ملجئه الآمن في طنجة .

---

(12) SP 71/13. f. 118

وبلغ غضب المولى رشيد منتهاه في أواخر أبريل 1670 نتيجة لتأخر المبعوث الإنجليزي في القدوم مما دعاه الى احتجاز وارن في فاس حتّى يصل إليه البارود الذي تعهد التاجر الإنجليزي ببيعه له . ورأى هيوارد إرسال البارود المطلوب لاطلاق سراح وارن وان كان هذا قد زاد من اقتناعه بانه سيخاطر بحياته أو بحريته إذا ما سافر إلى فاس بدون الاحتياطات الكافية ، حتى لو كان هذا السفر بصفته سفيرا لملك انجلترا . وتحت هذه القناعة كتب إلى لورد ارلنجتون وزير الدولة خطابا بتاريخ 15 أبريل 1670 جاء فيه انه على يقين بأن المغاربة « لا يسعون أبدا إلى سلام حقيقي معنا ، ولكنهم يعملون على اقتناصي أنا ومن معي بأمل استرجاع طنجة »(13)

وقرر هيوارد عندئذ بأنه لا فائدة من الاستمرار في سفارته وأرسل مبعوثا الى انجلترا لشرح الموقف . وعاد المبعوث بالرد المنتظر حيث استدعاه الملك شارل الثاني وترك طنجة في 9 يوليوز 1670 إلى قادس في طريقه إلى انجلترا وقد استعاد معه أغلب الهدايا الثمينة التي كانت مرسلة إلى المولى رشيد غير أنه ترك الأقمشة في طنجة لسبب أو لآخر . وقد باعها الحاكم أخيرا قبل أن تأكلها الحشرات مما شكل نهاية غريبة لبعثة فاشلة .

اتفاقية جديدة مع غيلان :

قرب أواخر 1672 بدا غيلان وكأنه يستعيد قوته مرة ثانية مما دعا حاكم طنجة الجديد ايرل أوف مدلتون والذي تم تعيينه في ماي 1668 ، إلى عقد اتفاقية أخرى معه بتاريخ 2 يناير 1673 وقد نص الاتفاق على هدنة مدتها ستة شهور وتتجدد عند انتهائها لستة شهور أخرى وهكذا وإلى الأبد ، كما جاء فيها بصورة تفاؤلية . وشهد عام 1674 وفاة لورد ميدلتون ليخلفه في حكم طنجة لورد اينشيكوين الذي عرف عهده مزيدا من تدهور الوضع في المدينة . وقد نتج هذا التدهور عن رفض الحكومة أو عجزها عن ارسال التعزيزات الى الحامية ، ثم وعلى الجانب الآخر عدم دفع الرواتب بانتظام للقوات في المدينة .

SP 71/14. f. 117 (13)

الإنجليز والمولى اسماعيل :

كان من الطبيعي أن ينعكس. نقص الرواتب على معنويات الحامية التي شعر رجالها بأن حكومتهم تنظر إلى المدينة باعتبارها عبئا مكلفا . وكان تأثير ذلك خطيرا بالنظر لما كان يجرى في المغرب آنئذ من متغيرات . فقد خلف في عام 1672 واحدا من أعظم سلاطين المغرب ، هو المولى اسماعيل ، المولى رشيد ، ونجح هذا في العام التالي في انهاء قضية غيلان بهزيمة قواته في معركة قرب القصر الكبير قتل فيها غيلان نفسه . وكان على حامية طنجة المنهكة أن تواجه عندئذ هجمات السلطان نفسه ضد ما نظر إليه باعتباره وكرا للكفار في أراضيه.

ومع ذلك فقد نجح سير بالم فيربورن نائب حاكم طنجة في 28 غشت 1676 في عقد هدنة بحرية مدتها عامان مع سيدي الحاج عبد القادر مارين حاكم سلا الجديدة المعين من قبل المولى اسماعيل . وقد حوت هذه الإتفاقية مادة ذات أهمية بالغة ، ذلك لأنها مست تلك المشكلة المعقدة الخاصة بالتحول إلى المسيحية أو إلى الاسلام عن طريق الإكراه ، جاء فيها.

« إذا ما حدث وأبدى احد رعايا صاحب جلالة ملك بريطانيا ميلا للتحول الى الاسلام في أي جزء من املاكه الامبراطورية (يقصد املاك المولى اسماعيل) فينبغي سؤاله في حضور القنصل الإنجليزي ، أو أحد من ملته ، ما إذا كان يفعل ذلك بكامل إرادته ودون أي اكراه أو معاملة سيئة أو تهديد من أي نوع ، وإذا ما أجاب بالإيجاب يصرح له بما يريد اما إذا كانت الإجابة بالنفي فيبقى على عقيدته . ويلقى رعايا جلالة الأمبراطور نفس المعاملة في ممتلكات جلالة ملك بريطانيا »[14]

بداية تصفية الوجود الإنجليزي في طنجة :

في يناير 1678 هاجمت قوة مغربية قلعتي قندال وهنريتا ودمرتهما ، وقد أرخ هذا التدمير لنقطتين من أقوى نقاط الحزام الخارجي للمدينة بداية النهاية للاحتلال الإنجليزي لطنجة . صحيح أن المغاربة قد انسحبوا في اعقاب ذلك وأعيد بناء القلعتين ، غير أنه قد حدث في مارس 1679 هجوم مغربي آخر شنه ألوف من

SP 71/14 f. 50 (14)

الرجال على القلاع الخارجية استطاعوا خلاله الاستيلاء على عدد منها . وقد شجع هذا النجاح المهاجمين على فرض حصار دائم على طنجة واكبه نقص الدفاعات الخارجية للمدينة . وفي مارس 1680 حفر المهاجمون خنادقا عميقة بين قلعتي شارل وهنريتا وبين المدينة نفسها وذلك بهدف عزل القوتين المتواجدتين فيهما . وكان لدى رجال هاتين القوتين البالغ عددهم مائتين وأربعين ، من الإيرلنديين في غالبيتهم ، إمدادات تكفيهم لخمسة شهور . وكانوا يبعثون في كل ليلة برسائلهم إلى الحامية في طنجة عن طريق دقات الطبول كما أنهم حرصوا على الحديث فيما بينهم بالايرلندية القديمة حتّى لا يفهمهم الخونة الإنجليز ممن انضموا إلى صفوف القوات المغربية.

ولدى عودة سير بالم فيربورن نائب لورد انشكوين إلى طنجة من انجلترا في 7 أبريل 1680 أزعجته الحالة التي وجد المدينة عليها . وقد كتب الى السير ليونل جنكنز الوزير الأول لشارل الثاني في 13 أبريل 1680 يقول في نبرة يائسة :

« ينبغي أن أعترف بأني لم أر مكانا مدمرا مثل هذا ، فلا يوجد به شيئ واحد في حالة قادرة على الصمود ، والأسوأ من ذلك عدم توفر رمح واحد في المخازن فيما عدا قلة من البنادق القصيرة المدى التي جلبتها معي . وإني أتوسل اليكم أن ترسلوا 1200 منها بأقصى سرعة ، ذلك أن الفصائل الاسكتلندية فقيرة التسلح للغاية وانه اذا ما واجهنا صداما حادا فسنقع في محنة كبيرة »[15]

ولم يصل أبدا السلاح أو الذخيرة أو الرجال مما كانت المدينة في أشد الحاجة إليه ونتج عن ذلك حتمية سقوط قلعتي شارل وهنريتا . وقد استسلم رجال قلعة هنريتا إلى المغاربة المحاصرين لهم في 13 ماي 1680 بعد تفجير لغم اطاح بنصف قلعتهم . وفي الساعات الأولى من اليوم التالي غادر رجال قلعة شارل موقعهم الحصين وقاموا بمحاولة جريئة لاقتحام طريقهم عبر التحصينات المغربية عائدين إلى طنجة . ومن الغريب أن ينجح أربعون منهم فعلا في الهرب غير أن الباقين لاقوا حتفهم فيما عدا ثلاثة عشر من الرجال وصبي واحد وقعوا في الأسر.

وبعد تلك النتيجة النكدة بالنسبة للانجليز أرسل قائد القصر الكبير الذي كان

---

(15) Co 279/25 ff. 183-4

على رأس القوات المغربية رسالة إلى اللورد أنشكوين يبلغه فيها باعداد وأسماء الأسرى الذين وقعوا بين يديه ويعرض عليه الاذن للانجليز بدفن موتاهم واعدا بعدم التعرض لهم وأضاف القائد بأنه لو كان الإنجليز مستعدين لاخلاء كل القلاع الخارجية التي لا زالت بين أيديهم وتدميرها ، والبقاء في طنجة فحسب كما كان الحال أيام البرتغاليين فإنه سوف يرفع الحصار. اما إذا لم تتم الاستجابة إلى هذا المطلب فقد هدد بأنه لن يغادر المنطقة قبل تدمير الدفاعات الخارجية. وجاء رد اللورد أنشكوين برفض الجلاء عن النقاط المتبقية غير أنه اغتنم فرصة عرض القائد وأرسل جماعة من أربعين رجلا لدفن الموتى وهي ترفع الراية البيضاء.[16]

وفي يونيه عام 1680 تم استدعاء اللورد أنشكوين إلى لندن للتشاور في وضع طنجة الذي كان يسير من سيئ إلى أسوأ ، وقررت الحكومة الإنجليزية أخيرا ارسال التعزيزات التي كانت المدينة في أشد الحاجة إليها. بيد أنه في أثناء غياب أنشكوين تلقت الحامية ضربة أخرى فقد أصيب سير بالم فيربورن بجراح مميتة في صدام جرى في 24 أكتوبر 1680 ، وتوفي متأثرا بجراحه بعد ذلك بثلاثة أيام. وتولى مكانه في القيادة الكولونل ادوارد ساكفيل الذي كان قد وصل إلى طنجة قبل ذلك بشهور قليلة. وقرر ساكفيل القيام بمناورة جريئة إلا أنها كانت في غاية الخطورة غير أنها نجحت لحسن حظه. ذلك انه شن هجمة مفاجئة بكافة القوات التي تمكن من جمعها ، وقد بلغت ألفا وخمسمائة من المشاة وثلاثمائة من الفرسان. وبالرغم من أن خسارته قد بلغت سبعة وعشرين ضابطا وتسعين جنديا من القتلى بالإضافة إلى أربعة وعشرين ضابطا وثلاثمائة وثمانية وأربعين جنديا من الجرحى فإنه قد أنزل بالمغاربة خسائراً جسيمة. دعا ذلك قائد القصر الكبير إلى الاقتراح بعقد هدنة لستة شهور كان ساكفيل تواقا لقبولها.

محاولة جديدة لعقد السلام :

ساد بعد ذلك الشعور في انجلترا بوجوب القيام بمحاولة لعقد سلام دائم مع المولى اسماعيل وارسلت لندن سير جيمس لسلي إلى طنجة للتفاوض لعقد هذا

Co 279/25. f. 211 (16)

السلام . وقد رحب ساكفيل بهذه الخطوة لأنه اعتقد اعتقادا راسخا بأنه من الغباء الاستهانة بالمغاربة . ففي رسالة له إلى لجنة طنجة مؤرخة في أول يناير 1681 كتب ما نصه :

« من جانبي لا أعلم إذا كانت المصلحة أو الخطأ أو كلاهما هما اللذان دعيا اسلافي إلى تزويد الوزراء في انجلترا بمعلومات تساعد على تكوين آراء سيئة عن هؤلاء الناس . وأستطيع بكل تواضع أيها السادة وبعد أن عركتهم في السلام والحرب أكثر مما عركهم أي واحد ممن سبقوني .. أستطيع القول أن هذا الاعتقاد كان ضارا بشئون جلالته . ومع اني اتحدث عنهم كأعداء فأنا لم أجد أشجع منهم في الميدان عندما يرون سببا معقولا للقتال ، ولا أحرص منهم على تجنبه إذا رأوا أن الحكمة تقتضي ذلك ، ولا أعتقد أن هناك بين أجناس البشر شعبا يقظا ، متحملا للمشاق ، صبورا ، جاداً مثل هذا الشعب وهي الصفات التي تعوز الجندي لو أضيف إليها النظام الذي اعتاده الأوروبيون فلن يكون هناك عدو أخطر منهم في العالم . وهم يبحثون الأمور اثناء التفاوض معهم بهدوء وبحكمة ، ومن ثم فلا أفهم أبدا السبب وراء ازدرائهم ».[١٧]

وقد حدث أن تأخر وصول الهدايا من انجلترا التي كان مفروضا أن يحملها لسلي معه إلى المولى اسماعيل ، وكان مفهوما بأنه السفير لن يقوم برحلته إلى البلاط المغربي بدونها . وقد تقرر ، لمنع تململ المولى اسماعيل إرسال الكولونل كيرك من رجال حامية طنجة إلى مكناس بصحبة القائد عمر بن حدو الحماني قائد القصر الكبير ، وحمل كيرك معه خطابا من لسلي إلى السلطان يعتذر فيه ويشرح أسباب تأخره سعيا لتهدئة الأخير .

وقد غادر لسلي طنجة إلى مكناس في 9 مارس 1681 ووصل إلى القصر الملكي في 20 من نفس الشهر حيث استقبله الملك بجفاوة ظاهرة ووافق على أن يعقد المبعوث الانجليزي مع القائد عمر بن حدو الحماني معاهدة سلام تم إبرامها في مكناس في 29 مارس 1681 . وقد قضت هذه المعاهدة بقيام هدنة بين الطرفين

Co 279/27. f. 2 (17)

فيما يتصل بطنجة مدتها أربع سنوات بشرط أن يوقف الإنجليز كل أعمال التحصينات خارج المدينة . وكما تم تخويل لسلى حق ابرام المعاهدة فقد كان مخولا أيضا بالتفاوض لإطلاق سراح الأسرى الإنجليز لدى السلطان الذين بلغوا حوالى مائة وثلاثين أسيرا كان من بينهم سبعون من رجال حامية طنجة تم أسرهم في أوقات متفرقة . وكان هناك ستون من الإنجليز من الذين يسترقهم عدد من الشخصيات المغربية أمل لسلي في تحريرهم أيضا . غير أن الرجل وجد نفسه عاجزا عن تحرير أياً منهم حيث أن الثمن الذي طلب عنهم ، والذي بلغ المائتي ريال لكل ، كان أكثر مما هو مخول أن يدفعه .

وكان المولى اسماعيل بدوره تواقا لاطلاق سراح المغاربة الذين أسرهم الانجليز في طنجة وقد أمر القائد عمر بالكتابة إلى الكولونل كيرك ، الذي خلف ساكفيل حاكما وقائدا عاما في طنجة ، بدفع فدية لهؤلاء على شكل أبقار . وقد رد كيرك في 4 يوليوز 1641 بأن هؤلاء الأسرى من أملاك الملك شارل الثاني وانه لا يستطيع التصرف فيهم دون أوامر من جلالته . وبالرغم من ذلك ، وإرضاء للسلطان ، أرسل كيرك إليه ستة من الأسرى المغاربة كهدية . وكتب بذلك في 15 يوليوز إلى السير ليونل جنكنز قائلا « فعلت ذلك حتّى أبدو أقل نكرانا للجميل لأمير أعلم أنه صاحب مزاج قلق ومتقلب »[18].

سفير مغربي في انجلترا 1681 :

كان السلطان المولى اسماعيل قد قرر من قبل ارسال مبعوث إلى انجلترا وصل إلى طنجة في 28 نوفمبر 1681 حيث استقبل هناك استقبالا حافلا ، ذلكم هو القائد محمد بن حدو العطار ، الذي كان حاكما سابقا لتطوان ، وقد كتب عنه كيرك إلى السير ليونل جنكنز في 8 أبريل قائلا :

« يبدو السفير لي شخصا حسن المعشر ومتفهما ، وهو ينتمي من جهة أبيه إلى أسرة من أعرق الأسر اما من جهة أمه فيبدو انها كانت امرأة انجليزية »[19]

---

(18) Co 279/28. f. 125

(19) Co 279/28. ff. 360-1 ليس هناك ما يؤكد ما جاء بشأن أم السفير بيد أنه ليس هناك ما يشكك فيه.

وقد تأخر رحيل السفير عن طنجة بسبب نزاع نشأ حول انجليزي مرتد يدعى جونس أو جوناس رغب محمد بن حدو العطار في اصطحابه كمترجم معه . وقد كتب كيرك حول هذه القضية إلى سير ليونل جنكنز في 2 دجنبر 1681 .. قال :

« لما علمت بأن مرتدا انجليزيا يدعى جوناس هرب من هنا (طنجة) مرتين ، وهو خبيث ونذل صفيق كان يصحبه السفير وكان مطلوبا أن يصحبه إلى انجلترا كمترجم ، رأيت ان امنع ذلك خاصة لما يسببه ظهور رجل ناقص الدين والولاء في حضرة مولاي الملك من قلة احترام ، أضف إلى ذلك أنه سيكون من أسباب انزعاج الحكومة وجود رجل مثل هذا إلى جانب السفير ليقدم له الرأي في شئوننا في انجلترا والتي ينبغي اخفاؤها عن هؤلاء كما يعملون هم على ابقائنا في جهل بشئونهم . وحتى أخيفهم فقد قلت لهم انه إذا اختار العودة إلى المسيحية في انجلترا فلن يمكن اجباره على البقاء في خدمة الامبراطور أو العودة إلى المغرب »[20]

ولما أحيلت مسألة جوناس المرتد إلى السلطان ، وبالرغم من اعتراضات كيرك رأى أن يصطحب الرجل سفيره كما كان مقررا من قبل . وترك الأخير طنجة في 9 دجنبر 1681 مصحوبا بسير جيمس لسلي ووصل إلى ديل في 29 من نفس الشهر . ومن هناك سافروا في عربة ملكية إلى لندن حيث استقبلهم الملك شارل الأول في قاعة بانكتنج بقصر الهوايتهول في 11 يناير 1682 ، ووصف جون ايفلين هذا اللقاء كما يلي :

« حضرت اللقاء مع السفير المغربي ، كانت حاشيته قليلة العدد وقد تم استقباله في قاعة بانكتنج وحضر جلالة الملك وجلالة الملكة المقابلة ، وقد تقدم إلى العرش دون أن يبدي أي نوع من التوقير فهو لم يحن رأسه أو قامته ، وقد تحدث من خلال انجليزي مرتد كان قد حصل على وعد بالعودة سالما .

« وكان الجميع يرتدون الزي المغربي ، وهو عبارة عن لباس من القماش الملون أو الحرير بازرار وعراوى ، وفوق هذه ارتدوا الحاجة وهي عبارة عن عباءة فضفاضة تجمع الرأس والجسد بالإضافة إلى عمامة صغيرة ، وبقيت الأيدي والسيقان عارية

---

(20) Co 279/28. f. 342

وان كانوا قد انتعلوا أحذية جلدية خفيفة[12] مثل الأتراك .. وكانت عمامة السفير مرصعة بعدد من المجوهرات . وأتصور انه لم يكن ثمة اختلاف كبير عن زي الرومان الأقدمين خاصة فيما يتصل بالعباءة والأطراف العارية.

« أما السفير فقد كان مهندما على درجة من الوسامة ذا مظهر حكيم ورقيق وحضاري إلى أبعد حد . وكانت الهدايا التي أتوا بها من الأسود وريش النعام .. الخ .. أما مهمتهم فقد كانت حول السلام في طنجة . وبلغت الحشود والجلبة حولهم حداً لا يطاق إلى الدرجة التي عجز الضباط معها عن حفظ النظام مما كان مثار دهشة هؤلاء الأجانب ذلك أن مثل هذه المناسبات في بلادهم تتسم بالنظام والهدوء والانضباط أكثر من أية مناسبات أخرى »[22].

وقد خلف السفير وحاشيته تأثيرا عميقا على المجتمع اللندني آنئذ ليس فقط بسبب ذلك الطابع الغريب للزي المغربي ولكن أيضا بسبب ما أظهروه للعامة من وقار طبيعي ومن كياسة . ويعلق جون ايفلين اعجابا بسلوكهم في مأدبة اقامتها على شرفهم الخليلة الفرنسية لشارل الثاني « لويزدي كوروايل » دوقة بورتسموث في 24 يناير 1682 يقول :

« حضرت الليلة استقبال السفير المغربي في الجناح الفاخر لدوقه بورتسموث في الهوايتهول حيث كانت هناك مأدبة عظيمة من اللحوم المحلاة تصاحبها الموسيقى . وكان سلوك السفير وحاشيته تجاه المأدبة بتسم باتزان وتواضع غير عاديين . وقد اقتيدوا إلى مائدة طويلة حيث جلست سيدة بين كل مغربيين كما جلس بينهم أطفال الملك الشرعيين . وكان من هؤلاء السيدات ليدي ليشفيلد وسسكس ، دوقة بورتسموث ، وناللي .. الخ وغير هؤلاء من المحظيات وقد تزين بأقصى ما يمكن من المجوهرات وحسن المظهر . ولم يعجب المغاربة بل لم يبدوا أنهم نظروا الى أي شئ مثل الأثاث وغيره بالانبهار المطلوب ولكنهم جلسوا بهدوء يتناولون الطعام . وقد شربوا قليلا من اللبن والماء غير أنهم لم يذوقوا الخمر ، كما شربوا أيضا عصير التفاح

---

(21) يعني هنا في الغالب « البلغة » (المترجم)

Memoirs of hohn Evelyn (2 Vols London. 1818) Vol 1 p. 505 (22)

والشيكولاتة . ولم ينظروا أو يحدقوا في السيدات أو يبدو منهم أي تعبير ينم عن الاندهاش بل اتسمت كل تصرفاتهم بالكياسة والتؤدة يجيبون فقط على ما يوجه إليهم من أسئلة بقدر كبير من التعقل واللباقة ، وعندما غادروا المكان وسط أسى الجميع أعربوا عن تمنياتهم بأن يبارك الله دوقة أوف بورتسموث وابنها الأمير . وكانوا يعنون به دوق أوف ريتشموند الصغير . وقد وصل الملك متأخرا بينما كان السفير يهم بمغادرة المكان »[23]

وكان من أكثر الأشياء المحببة إلى السفير المغربي وبطانته أثناء وجودهم في لندن ركوب الخيل في الهايدبارك . ويروي جون ايفلين في يومياته أن السفير «كان يذهب دائما إلى الهايدبارك ممتطيا حصانه حيث كان يظهر هو وحاشيته براعة غير عادية في الفروسية وهم يندفعون ممسكين بالجمة خيولهم بأقصى سرعة ، كما أنهم كانوا يستطيعون الجري بنفس السرعة شاهرين رماحهم برشاقة ملحوظة . وكان (أي السفير) يذهب أحيانا إلى المسارح حيث تعرض بعض الأعمال الهزلية أو الخيالية وكان لا يستطيع أن يكتم ضحكته غير أنه كان يحاول اخفاءها باصطناع التواضع أو الأسى . باختصار فإن السفير الروسي لدى البلاط كان يبدو كفلاح بالمقارنة بهذا الهمجي المتمدن »[24] .

وقد خلفت أعمال الفروسية الشجاعة التي كان يقوم بها السفير في هايدبارك تأثيرا عميقا على رسام القصر سير جودفري كنلر ، ذلك أنه لدى تكليفه برسم صورة لمحمد بن حدو العطار فقد صوره ممسكا برمحه ممتطيا صهوة جواده الذي يبدو منتصبا نتيجة لبعض الرماح الطويلة الموجهة إلى جانبيه[25] . ولم يقصر المبعوث المغربي تجوله على لندن خلال فترة بقائه في انجلترا والتي زادت عن ستة شهور وإنما قام بزيارات إلى مناطق أخرى مثل وندسور ونيوماركت واكسفورد وكمبردج . ولم تمر كل هذه الزيارات دون حادث يذكر . ففي خلال زيارته لكمبردج حضر مأدبة اقامها على شرفه نائب رئيس الجامعة وعمداء الكليات وكان غريبا منه أن يأكل بكميات كبيرة خاصة من السمك المملح والخفش[26] والسلامون . وكانت النتيجة ان توعك إلى

---

(23) Memoirs of John Evelyn Vol 1 p. 506

(24) Ibid Vol. 1 p. 506

(25) الصورة معروضة في شيزويك هاوس .

(26) سمك ضخم يستخرج منه الكافيار (المترجم) .

الحد الذي قام معه ليرقد لبعض الوقت في منزل عميد كلية الكنجز كولدج ، ولم يتمكّن من النهوض والرحيل في عربته قبل الخامسة مساء.

وفي 31 ماي 1682 تم منح السفير المغربي وساما رفيعاً جدا حيث أصبح زميل شرف للمجتمع الملكي . في نفس الوقت تم استقباله في جامعة اكسفورد ، وقد أقام هو وحاشيته خلال مدة بقائه في المدينة التي استمرت ليومين في فندق انجيل .

ولم تحظ الأنشطة الديبلوماسية لمحمد بن حدو العطار بنفس الانتشار الذي حظي به نشاطه الاجتماعي ويعود ذلك بلا شك إلى أن اغلب مباحثاته قد جرت في نطاق من السرية . وكيفما كان الأمر فقد تم في 23 مارس 1682 توقيع مشروع معاهدة للسلام والتجارة ليأخذها المبعوث معه ليصدق عليها الثولى اسماعيل . غير أنه بعد توقيع المعاهدة بقي محمد بن حدو العطار في انجلترا لما يزيد عن أربعة شهور أخرى لكنه غادر أخيرا إلى المغرب في 23 يوليوز 1682 على ظهر السفينة الحربية المسماة « ولويش » التي وصلت إلى طنجة في 30 غشت.

وبينما كان السفير غائبا في انجلترا أخذ خصومه في الدس له لدى الملك فقد أرسلوا رجلا يهوديا إلى انجلترا للتجسس على محمد بن حدو العطار واستخدموا التقارير التي أرسلها هذا اليهودي لاقناع المولى اسماعيل بأن مبعوثه قد أهمل واجباته وانه قد اختلط مع النصارى وكان على الرجل أن يواجه موقفا عصبيا لدى ظهوره أمام السلطان في مكناس غير أن محمد بن حدو العطار تمكن من اقناع المولى اسماعيل بأن التقارير التي وصلته عنه ليست إلا أكاذيب ذنيئة ونال بذلك رضاءه مرة أخرى . غير أنه فشل في اقناع السلطان بالتصديق على مشروع المعاهدة التي تم توقيعها في انجلترا . وبدلاً من ذلك طلب المولَى اسماعيل من شارل الثاني أن يرسل سفيرا إلى المغرب مخولا بصلاحيات اعادة التفاوض حول المعاهدة .

فشل محاولة الاتفاق

كان مصدر رفض السلطان التصديق على المعاهدة نابعا في جانب منه من غضب السلطان من استمرار التجار الإنجليز في التعامل مع رعاياه المتمردين في جنوب المغرب. ولنفس السبب رفض المولى اسماعيل اطلاق سراح الأسرَى الإنجليز

حتّى بعد أن وافق الانجليز في فبراير 1682 على دفع مائتي ريال أسباني مقابل كل أسير. غير أن الموقف المناهض لتنفيذ المعاهدة لم يصدر عن المولى اسماعيل وحده ذلك أن شارل الثاني بدلا من أن يبعث سفيرا له كل الصلاحيات لإعادة التفاوض حول معاهدة السلام والتجارة، كما طلب السلطان، فإنه أرسل مع الملازم نيكلسون مجرد رسالة، ولم يخوله أية صلاحيات للتفاوض. وقد وصل نيكلسون إلى طنجة في 15 يناير 1683 وقصد فورا مقر السلطان في مكناس. وكانت التعليمات التي لديه بأنه إذا أثار السلطان مرة أخرى مسألة ارسال سفير انجليزي عليه أن يبلغه بأن شارل الثاني يرى أن مفاوضات محمد بن حدو العطار قد بحثت بالتفصيل كل المسائل المطروحة. كما قضت نفس التعليمات بأن يطلب من السلطان التصديق على المعاهدة التي وقعها مبعوثه في لندن، ثم ان يسأله أخيرا القيام بتنفيذ ما تم التوصل إليه من اتفاق باطلاق سراح مائة وثلاثين من الأسرى الانجليز وعشرين من الأسرى البرتغاليين[27] في مقابل مائتي ريال عن كل أسير.

وقد غادر نيكلسون مكناس في 23 يناير 1683 وذلك بعد أن فشل في الحصول على موافقة المولى اسماعيل على طلبات شارل الثاني؛ هذا من جانب، أما على الجانب الآخر فقد نتج عن زيارته ان ازداد موقف السلطان حدة تجاه ملك انجلترا. فقد غضب المولى اسماعيل لما استشعره من عدم الكياسة التي تضمنتها بعض فقرات خطاب الملك شارل الثاني. وكان الدكتور هايد أحد اساتذة اكسفورد هو الذي ترجم الخطاب إلى العربية ويبدو أنه قد وقع خطأ غير مقصود في الترجمة شوه المعني الذي أراده شارل الثاني. على أي الأحوال لم تكن لهجة الخطاب وحدها السبب في اغضاب المولى اسماعيل ذلك أنه قد رأى في رفض شارل الثاني ارسال مبعوث لمفاوضته اهانة لكرامته. ومن ثم رفض في رده على الملك المؤرخ في 21 فبراير 1683 التصديق على المعاهدة التي وضعت في انجلترا، ثم كتب بعد ذلك بيومين خطابا آخر إلى الكولونل كيرك في طنجة جاء فيه:

« عليك أن تعلم أن مولاك قد كتب لنا خطابا وأجاب علينا بما لا نرتضيه.. »

واسترسل السلطان مشيرا الى الزيارة الخاصة التي قام بها الكولونل كيرك إلى

(27) توسطت الملكة كاترين زوجة شارل الثاني من أجل اطلاق سراح أبناء جلدتها وقدمت بنفسها المال اللازم لافتدائهم.

مكناس في يناير 1681 ، ثم علق بحدة على ما ارتآه امرا شاذاً بالنسبة اليه فقال :

« لما جئت مع ثلاثة من كبار النصارى ودخلتم إلى دارنا السامية ، وجدت فيك العاقل والمتفهم والمحب لمصالحنا والضليع في شئون الملوك والأمراء مما جعلنا نتعامل بيسر في المسائل الخاصة بطنجة . وبإذن الله تمنيت لو كنت من ديني لما اتصفت به من تعقل وكياسة وحكمة ادخلتك قلبنا . وإني لم اتمنَّ أن يدخل اي نصراني إلى ديننا سواك فالإنسان لا يملك أثمن من دينه ولا ينبغي على أحد حثه على تركه إلا لمن يكون محل حبه . لهذا السبب تحدثنا إليك وسمحنا بأن تكون أقرب لنا من أي نصراني آخر وانه لولا خاطركم لما عقدنا البتة سلاما مع طنجة »[28].

إخلاء طنجة

بلا جدال كان رفض المولى اسماعيل التصديق على معاهدة السلام التي عقدها سفيره من أهم اسباب التغيير الذي أصاب السياسة الإنجليزية تجاه طنجة والذي انتهى أخيرا بقرار شارل الثاني باخلاء المدينة وبالتخلي عن حلمه بالتوسع الإنجليزي على الساحل المغربي . وقد اتسم هذا التحول السياسي الذي وافق عليه الملك بعدم الحكمة ، فهو لم يبذل أي جهد سواء لبيع أو لمقايضة طنجة مع المولى اسماعيل أو مع أية قوة مسيحية بل قرر ببساطة الجلاء عن المدينة بعد تدمير التحصينات واللسان البحري .

وقد وقع على كاهل ايرل أوف دارتموث تنفيذ هذه العملية القاسية بكل ما تحمله من وأد الآمال وفشل المحاولات واحباط البطولات . وليقوم الرجل بتنفيذ المهمة فقد تم تعيينه قائدا عاما وحاكما على طنجة واصطحب معه قوة ضمت عددا من المدنيين ، وكان صمويل بيبس أحد هؤلاء.

وقد تقرر أن تتسم هذه المهمة بالسرية حتَّى أن بيبس لم يعرف بطبيعتها إلا بعد خمسة أيام من الانضمام إلى الأسطول الذي رحل من بلايموث في 23 غشت 1683.

---

(28) Co 279/31. f. 169

وقد وصل دارتموث وسفنه إلى خليج طنجة في 14 شتنبر غير أنه لم يبلغ سكان المدينة إلا في 4 أكتوبر انه قد جاء بناء على أوامر الملك لا لتعزيز الحامية بل لاجلاء كل فرد عن طنجة وتدمير اللسان والتحصينات . وبدأت بعد ذلك بفترة قصيرة عملية الجلاء . وبالرغم من وجود القوات المغربية خارج طنجة غير أنه لم يبدر منها أية محاولة للتدخل فيما بدا لها عملية جلاء على نطاق واسع . ومن ثم فقد تمت عملية الاخلاء دون عراقيل في 5 نوفمبر 1683 . ورحل أولا سكان المدينة وامتعتهم على ظهر السفن متجهين إلى انجلترا .

أعقب ذلك عمليات النسف ، ومع انه كان هناك نحو الفي رجل تحت تصرف دارتموث لتنفيذ تلك العمليات فإنها قد استغرقت ما يقرب من الشهور الثلاثة . وكانت العقبة التي أطالت تلك العمليات ما تقرر من نسف اللسان الذي كان قد تكلف مبالغا طائلة لبنائه . ولم يكن في هذا غرابة حيث أنه كان قد تم رغم توقف العمل فيه عام 1680 بسبب حصار المغاربة لطنجة ، بناء ما بلغ أربعمائة وثمانية وسبعين قدما ونصف من طوله . ومرة أخرى وقفت القوات المغربية خارج طنجة موقف المتفرج مما يجري وذلك خلال عمليات تدمير اللسان وغيره من الأعمال ، ولم تقم بأية محاولة للتدخل . ولم يحدث أي اعتراض حتّى بعد أن قامت مؤخرة القوات الإنجليزية بتفجير آخر الألغام وهم يغادرون طنجة تحت قيادة اللورد دارتموث نفسه قرب منتصف ليلة 5 فبراير 1684.

وقد سجل دارتموث في خطاب له مؤرخ في نفس اليوم إلى سير ليونل جنكنز كيفية تنفيذ الانسحاب النهائي من طنجة ، كتب ما نصه :

« منتهزا فرصة الجو المناسب ، الذي لم تشهد تلك المناطق اسوأ منه خلال السنوات الأخيرة ، قمت بسحب الحامية وتدمير قلعة بول واخلاء المراكز الخارجية متوخيا توفير أقصى قدر ممكن من السلامة للرجال ، وكل احترام وتقدير لجيش جلالته . أو على الأقل دون السماح للقائد بالادعاء أنه قد قام بطرد الانجليز من بلاد البربر . وقد وقف جيشه مراقبا على الجانب الآخر واعتقد أننا قد رحلنا عنهم مخلفين أفضل تقدير عند المغاربة وهو تقدير لم يحملوه لأي من المسيحيين الذين

انسحبوا من أي جزء من افريقيا على مر العصور ».[29]

والحقيقة أنه أثناء انسحاب دارتموث النهائي أبدى لونا من المجاملة للقوات المغربية المرابطة خارج المدينة والتي استحقت التقدير. فقد جدث ولم ينفجر لغم موضوع في احد المعاقل التي تقرر تدميرها فبعث دارتموث برسالة إلى المغاربة يحذرهم من ذلك ، غير أنه مع هذا ومع رحيل الانجليز النهائي دخلت القوات المغربية المعقل وانفجر اللغم بعد قليل وقتل ثمانية من جنودها.[30]

وفي 6 ربيع أول عام 1095 بعث المولى اسماعيل برسالة إلى شارل الثاني وصلت إلى لندن في أبريل 1684 اتضح منها أن السلطان هو الذي منع قواته من التدخل أثناء انسحاب الانجليز وذلك تنفيذا للهدنة التي كان قد عقدها معهم في مارس 1681 لمدة أربع سنوات. أكثر من هذا يبدو من تلك الرسالة أن السلطان كان متخوفا لبعض الوقت من أن الأنجليز قد يكونون في سبيلهم لتسليم طنجة إلى الفرنسيين ، وكان على القوة المغربية التي رابطت خارج المدينة أن تتدخل لتمنع مثل ذلك التطور ، وقد كتب المولى اسماعيل في رسالته :

« لما رأى المسلمون رجالكم وقد بدأوا يدمرون ويسوون الأرض بلغهم أن الفرنسيين أبدوا رغبتهم في شراء طنجة فتخوف المسلمون من أن يتطفل الفرنسيون على أراضيهم مما دعاهم إلى المرابطة لمدة شهر في هذه المناسبة وانه لو لم يكن الأمر كذلك لما جاءوا أبدا وبعون الله طالبني المسلمون بالقيام بازعاجكم لما شهدوكم وقد بدأتم تسوون طنجة بالأرض ، غير أني منعتهم من ذلك ولم أوافق وأبلغتهم بأنه لن يلحق بكم أي أذى منا بطول الأربع سنوات التي وافقت على الهدنة خلالها ، ومنعتهم بهذه الوسائل من الحاق أي أذى بكم وأبقيتهم بعيدا عنكم .. وعندما تتوقفون عن الأحداق بنا وعندما تسلمون لنا بلادنا ، عندئذ فقط تظهر قيمة صداقتكم لنا .. ولو كنتم قد تركتم اللسان الذي دمرتموه كما كان لدفعنا لكم ثمنه. وكان لهذا الابقاء قيمته لكم حيث انكم تبعثون بسفن عديدة إلى الهند وغيرها من المناطق وكان بالإمكان أن يصبح هذا اللسان مكانا لا يوائها وللحصول على

Co 279/33. f. 55 (29)

Co 279/ 33. f. 61 (30)

اختياجاتها من الماء العذب في الغدو والرواح ..وإذا ما رغبتم الان في الود ولم يكن لديكم أية مقاصد نحونا فإننا سوف نبادلكم نفس الشعور وسوف تنمو بيننا الصداقة الطيبة وسوف نمدكم بكل ما تحتاجونه من موانئ المسلمين بإذن الله والسلام عليكم ورحمة الله »[31].

وقد انعكس رضاء المولى اسماعيل عن القرار الإنجليزي بالجلاء عن طنجة في قراره بإطلاق سراح عدد من الانجليز والبرتغاليين ممن طالت فترة أسرهم. وقد أبلغ قائد تطوان ذلك للورد دارتموث مما دعا الأخير إلى البقاء بسفنه في خليج طنجة انتظارا للأسرى الذين تقرر تسليمهم له مقابل كمية كبيرة من براميل البارود كما سبق الاتفاق. ولما وصل الاسرى تم تسلمهم مقابل البارود وبعث بهم دارتموث إلى انجلترا على السفينة « جريبوند » التي سارت في مقدمة سفنه. وقد كتب الى ليونيل جنكنز في 19 فبراير 1684 :

« يشهد العالم على مدى اهتمام جلالته باستعادة رعاياه من تلك الجهات بصورة مشرفة عما فعل أي من ملوك المسيحين من قبل[32] »

وقد بلغ عدد الأسرى الذين تم تسليمهم إلى اللورد دارتموث ثلاثة وأربعين بدلا من المائة والثلاثين الذين وعد السلطان الكولونل كيرك عام 1681 باطلاق سراحهم مقابل الثمن. وقد تم الافراج بعد ذلك عن أحد عشر آخرين فبلغ المجموع الكلي أربعة وخمسين. غير أن هؤلاء الأحد عشر لم يتمكنوا من اللحاق بجريبوند حيث انهم استبقوا لبعض الوقت في تطوان. ومن ثم لم تتحقق آمال دارتموث باطلاق سراح كافة الأسرى الإنجليز في المغرب. وقد بقيت مسألة تحرير الانجليز من الاسترقاق في أراضي السلطان تعكر صفو العلاقات الإنجليزية المغربية لبضع سنوات تالية.

---

(31) SP 102/2. f. 127

(32) Co 279/33. f. 63

الفصل الخامس

أسرى في بلاد البربر

بدا وكأن العلاقة الديبلوماسية بين المغرب وانجلترا قد توقفت خلال العهد القصير لجيمس الثاني[1]، ويعزى ذلك بلا شك إلى انشغال الجانب الإنجليزي بمشكلاته ابان هذا العهد. وكيفما كان الأمر فقد استؤنفت تلك العلاقات مع تولي وليم الثالث العرش عام 1689[2]، فقد وصل إلى الملك الجديد بعد توليته بفترة قصيرة رسالة من جان سميت هبندورب القنصل الهولندي في سلا الجديدة مؤرخة في 30 شتنبر من نفس العام، وقد ألقت هذه الرسالة أضواء مهمة على حالة العلاقات الإنجليزية — المغربية. ذكر هبندورب انه قد التقى قبل ذلك بوقت قصير مع المولى اسماعيل في مكناس، وإن السلطان قد عبر عن سروره الشديد بما علمه من تولية الأمير وليم أوف أورانج لعرش انجلترا التي يرغب في أن يعقد معها معاهدة سلام وصداقة. وان هذا العمل يمكن أن يؤدى إلى تحرير الأسرى الانجليز في المغرب. (قدرهم هبندروب بحوالي أربعمائة)[3]. وأضاف القنصل الهولندي بأن المولى اسماعيل « أبلغني بأني أستطيع الكتابة إلى جلالتكم إذ أنه يعتقد بقرب اتحاد البلدين (يقصد انجلترا وهولندا) خاصة وانه لم يمثل الأمة الانجليزية هنا قنصل أو وزير عام منذ سنوات عديدة..وفي تلك الأثناء حدث نتيجة لتضرعات وتوسلات العبيد

---

(1) تولى لثلاث سنوات فقط (1685 — 1688) بعد أخيه شارل الثاني وقد أطيح به في الثورة البيضاء المعروفة بالثورة المجيدة (المترجم)

(2) تولى عرش انجلترا بعد الثورة المجيدة (1689 — 1702) وكان زوجا لابنة الملك المخلوع وأميرا على هولندا باسم وليم أوف أورانج. وقد احتفظ بالإمارة في البلدين (المترجم).

(3) المصادر التي تشير إلى معاملة الأسرى في هذا الفصل اعتمدت على أقوالهم مما قد تتسم معه بقدر كبير من المبالغة.

الانجليز ، الذين كانوا في أسوأ حال من البؤس والاسترقاق ، مما لم يكن له مثيل في أي جزء من العالم ، ان تمكنوا من اقناع الامبراطور بأن يسمح لأحدهم بالعودة إلى انجلترا للبحث عن وسيلة لتحريرهم ، وقد تقدموا بضمان بعودته ثانية إلى المغرب مع المبعوث الذي سيرسله الامبراطور بخطاب إلى جلالتكم »[4].

محاولات مبكرة لاطلاق سراح الأسرى الانجليز :

ذكر هبندروب أيضا أن السلطان عبر عن رغبته في إرسال سفيرين انجليزي وهولندي ، « وهو يعتقد أنهما قد أصبحا على درجة من الاتحاد إلى الحد الذي يعتبرهما معه أمة واحدة وشعبا واحدا ». وذلك للتفاوض لاطلاق سراح الأسرى وعقد معاهدة سلام وتجارة . وقد كتب السلطان نفسه رسالة إلى وليم الثالث في 15 غشت 1690 يعرض عليه فيها اطلاق سراح الأسرى الانجليز الذين لديه بنفس الشروط التي تم بها اطلاق سراح الأسرى الهولنديين ، بيد أنه لم يتخذ أي اجراء أو يأتي أي رد حتى مارس 1694 حين قرر مجلس البلاط تكليف هبندروب ببذل مساعيه لاطلاق سراح الأسرى الانجليز على نفس الأسس وبنفس الشروط التي تم الاتفاق عليها بشأن الأسرى الهولنديين . كما طلب من القنصل الهولندي تقديم صيغة رسالة باللغة العربية ليرسلها وليم الثالث إلى المولى اسماعيل.

تمخض عن هذه المبادرة ان بدأت المباحثات بين ممثلين عن كل من وليم الثالث والمولى اسماعيل لاطلاق سراح الأسرى الانجليز ، كذا عدد من البروتستنت الفرنسيين ممن كان وليم الثالث تواقا لفك اسارهم . وقد طلب المغاربة مائتين وسبعين ريالا اسبانيا فدية مقابل كل أسير غير أن الجانب الإنجليزي اعتبر المبلغ باهظا بالنظر للسنوات الطويلة التي قضاها الانجليز والفرنسيون التعساء في الأسر.

ونتيجة لاخفاق الطرفين في تسوية الخلاف حول هذا الموضوع توترت العلاقات بينهما إلى حد دعا المولى اسماعيل إلى ارسال خطاب الى الملك المخلوع جيمس الثاني ، الذي كان يعيش آنئذ في المنفى في سان جرمان أون لاي بفرنسا سجينا تحت

SP 71/14 ff. 301 – 2 (4)

رحمة لويس الرابع عشر. وكان الخطاب مؤرخا في 15 شعبان عام 1109 (25 فبراير 1698)، وقد أبدى فيه السلطان براعته الدينية ودرايته الواسعة بالقرآن من خلال محاولته اقناع جيمس بتفوق الإسلام على المسيحية كدين وكطريقة حياة. ودلف المولى اسماعيل من ذلك إلى نصح جيمس باعتناق الإسلام، أما إذا رفض النصيحة فقد أوصاه بالتخلي عن الكاثوليكية واتباع الكنيسة الانجليزية حتَّى يمكنه استعادة ولاء رعاياه. وعند هذه النقطة قال المولى اسماعيل انه مما يسعده الاسهام في اسقاط وليم الثالث وتقديم المعونة لجيمس إذا ما قرر الملك المنفي غزو انجلترا واستعادة عرشه. وقد نصح المولى اسماعيل جيمس بمغادرة فرنسا إلى البرتغال. فهناك، كما قال السلطان، سيجد جيمس زوجة شقيقه كاترين أوف براكنزا[5]، ذات العلاقات الوثيقة بأصحاب النفوذ، أضف إلى ذلك أنه، أي جيمس بتواجده في البرتغال سيكون قريبا من المغرب مما سيمكنه أكثر من التباحث مع السلطان في مسألة الغزو المقترح.

لم تكن فورة الغضب التي اعتملت في نفس المولى اسماعيل من موقف وليم الثالث من قضية الأسرى وحدها وراء ما أبداه السلطان من مد يد الصداقة للملك المخلوع جيمس الثاني بل كان هناك سبب آخر؛ ذلك انه قد حدث في عهد شارل الثاني، وبينما كان جيمس دوقا ليورك وقائداً أعلى للأسطول ان أسرت احدى السفن الانجليزية عبد الله بن عائشة أشهر قراصنة سلا والذي كان يعتبره المولى اسماعيل أكبر قواده البحريين وقائد أسطوله. وقد بقي ابن عائشة أسيرا في انجلترا لثلاث سنوات حتى توسط له جيمس دوق يورك فتم اطلاق سراحه دون دفع أية فدية. ولم ينس عبد الله بن عائشة أبدا هذا العمل من جانب دوق يورك. ولما تولى جيمس الملك بعد أخيه عام 1685 أرسل المولى اسماعيل الأسير المغربي السابق كمبعوث له إلى لندن ليقدم تهانيه للملك الجديد.

ولم يؤد سقوط جيمس بعد ذلك بثلاث سنوات إلى انقطاع علاقة الصداقة بين المولى اسماعيل وبين الملك المنفي، ومن المؤكد أن الخطاب المؤرخ في 15 شعبان عام

(5) كانت قد عادت إلى البرتغال في مارس 1692 وعاشت بقية حياتها هناك إلى أن توفيت في 31 دجنبر عام 1705. انظر نص رسالة المولى اسماعيل الى جيمس الثاني. ملحق رقم 5. (المترجم)

1109 هـ والذي احتفظ به الارشيف الفرنسي ليس الخطاب الوحيد الذي أرسله السلطان إلى جيمس وان كان الخطاب الوحيد الذي تم الاحتفاظ به.[6]

تجدد المحاولات والاتفاق :

حوالي نفس وقت كتابة المولى اسماعيل لخطابه إلى جيمس الثاني في فبراير 1698 كان يجري البحث في انجلترا حول أفضل طريقة لاطلاق سراح الأسرى الموجودين في المغرب. وتم على ضوء هذا البحث ارسال قوة بحرية كبيرة في نفس العام تحت قيادة ادميرال ايلمر وكان عليه ، بناء على ما تلقاه من تعليمات ، الدخول في مفاوضات مجددة لتحرير الأسرى الانجليز والبروتستنت الفرنسيين المتواجدين في المغرب. وقد رست سفن إيلمر في خليج قادس في 15 أكتوبر عام 1698 ومن هناك تم ارسال الكابتن جورج ديلافال إلى طنجة وتطوان للبحث عما إذا كانت هناك أية امكانية لاطلاق سراح الأسرى. وهناك قابل ديلافال حاكم المدينتين القايد علي بن عبد الله والذي كان في نفس الوقت الوزير الكبير والقائد العام لساحل البحر وقائد قوات السلطان التي كانت تحاصر عندئذ مدينة سبتة. وقد نقل القائد اقتراحات ديلافال إلى المولى اسماعيل في مكناس وجاءت الإجابة مشجعة.

ولما كان ديلافال قد ذهب الى المغرب لمجرد استطلاع الرأي ، ولم يكن مخولا للتفاوض فقد عاد إلى حيث الأسطول في قادس ليبلغ بما حدث ويتلقى التعليمات. وفي فبراير عام 1699 تم تخويل ايمر بإعادة ديلافال إلى المغرب بسلطة كاملة للتفاوض لاطلاق سراح الأسرى بأفضل الشروط الممكنة. ولما استأنف ديلافال محادثاته مع القايد علي بن عبد الله وجد أن شروط السلطان أكثر شدة من تلك التي كانت معروفة من قبل ، وكان الفيس أميرال ايمر قد طلب من ديلافال أن يبذل أقصى جهده لتقليل الثمن المطلوب من المولى اسماعيل. وتبع ذلك عقد مفاوضات مطولة مع القايد علي بن عبد الله تم في نهايتها التوصل إلى اتفاقية تقضي بأن يقدم

---

(6) النص الكامل للخطاب وظروف كتابته موجودة في كتاب هنري دي كاستري تحت عنوان Moulay Ismail et Jacques II : un apologie de l'Islam par un sultan du Maroc (Paris 1903) ويحلل المؤلف في هذا الكتاب الهام بتبصر وفهم الشخصية المعقدة للمولى اسماعيل.

الجانب الانجليزي مائة من ازندة البنادق وستمائة وزنة من البارود عن كل أسير، وأن يسلم الانجليز أسيرا مغربيا مقابل كل أسيرين منهم، ثم أن يدفعوا أخيرا عشرة آلاف ريال وان يتمتع السلطان بكامل الحرية في انفاق هذا المبلغ في انجلترا على المشتريات التي يريدها.

وسافر ديلافال إلى مكناس للحصول على موافقة السلطان على شروط الاتفاق الذي تم التوصل إليه. وعاد في 28 أكتوبر ومعه موافقة المولى اسماعيل على الاتفاق. وقد ذكر السلطان بأنه لن يرسل الأسرى إلى طنجة قبل أن يصل إلى قادس المطلوب من اجزاء البنادق والبارود والأموال لتحريرهم. ثم أضاف بأنه على أي الأحوال لن يمكن اطلاق سراح الأسرى بشكل سريع لأنهم كانوا يعملون انئذ في اتمام بعض الابنية السلطانية، وفوق ذلك فقد كان ابقاء عدد من الانجليز ضروريا بالنظر لأنهم الاشخاص الوحيدون في المغرب الذين يعرفون كيف يشكلون الرخام وبالتالي إقامة الأعمدة في قصور السلطان.[7]

عقبات أمام الاتفاق :

عاد ديلافال إلى انجلترا في أواخر دجنبر عام 1699 لاتمام التصديق على المعاهدة، بيد أنه في تلك الأثناء كانت العلاقات بين وليم الثالث والمولى اسماعيل قد تدهورت بسبب سبتة. ذلك أن السلطان كان قد قرر استعادة هذا المركز الاسباني الحصين وأخذت قواته في حصار المدينة باصرار، بيد أن وليم الثالث الذي كان يسعى وقتئذ لضم اسبانيا إلى سياساته المناهضة لفرنسا في أوربا اقترح أن يتوسط في المسألة. وقدم النصح للسلطان بانهاء الحصار كخطوة مبدئية، غير أن النصيحة لم تنزل لدى السلطان منزلة حسنة وعندما جاءت السفينة الإنجليزية وينشستر بقيادة الكابتن جون موندن إلى خليج تطوان في 26 ماي عام 1700 لتلقي رد السلطان على اقتراح وليم الثالث أصدر القايد على بن عبد الله أوامره بعدم السماح لأي شخص من السفينة بالنزول إلى البر.

ولما كان مقررا أن تنتهي الهدنة البحرية بين البلدين والتي كان ديلافال قد

SP 71/14. f. 418 (7)

توصل إليها ، في 26 غشت عام 1700 ، فإن موندن الذي لم تزعجه أوامر القايد بعث إليه برسالة يطلب منه فيها مد الهدنة لستة شهور أخرى لامكان الاستمرار في المفاوضات . وعندما وافق السلطان على ذلك عاد الحديث حول اطلاق الأسرى الانجليز . وفي يونيو عام 1700 أجاب الملك وليم على رسالة اسماعيل التي كان ديلافال قد حملها معه لدى عودته إلى انجلترا والتي اعلنت الاتفاقية التي تم التوصل اليها بشأن اطلاق سراح الأسرى . وقد اصطحب ديلافال إلى انجلترا اثنين من المغاربة لشراء متطلبات السلطان تنفيذا للاتفاقية . وكان هذان الاثنان هما محمد قردناش والحاج علي الصبان ، وقد كتب الملك وليم للمولى اسماعيل مؤكدا أنهما سوف يلقيان كل معاملة طيبة خلال تواجدهما في لندن . وتعهد الملك أيضا بالاستجابة لكل احتياجات المولى اسماعيل وارسالها اليه على وجه السرعة.

تنفيذ الاتفاق :

في 30 شتنبر عام 1701 وصل الكابتن جورج ديلافال مع مبعوثي السلطان عائدين إلى طنجة على ظهر السفينة الحربية « تريبوري » وبصحبتهم كميات البارود وغيرها من المواد المطلوب استبدالها بالأسرى ، وعلق ديلافال في خطاب له مؤرخ في 31 أكتوبر عام 1701 بقوله «كانت السفينة في الحقيقة مملوءة بالبارود وكنا في خوف دائم من انفجارها حتّى ان الناس (الملاحين) لم يشعلوا نارا طول الرحلة لطهي اللحم[8] .

وقد تكللت مفاوضات ديلافال مع القائد علي بن عبد الله التي انتهت في 5 دجنبر عام 1701 بنجاح الأول في اطلاق سراح غالبية الأسرى فيما عدا ثلاثين أسيرا . وكان من أكبر الصعوبات التي واجهت تلك المفاوضات عدم توفر عدد كاف من الأسرى المغاربة للتبادل الذي تم الاتفاق عليه والذي كان يقضي بتسليم أسير مغربي مقابل كل أسيرين من الانجليز . دعا ذلك ديلافال إلى أن يشتري عددا من هؤلاء ممن كانوا مقدمين إلى محاكم التفتيش في اسبانيا وأمكنه من خلال هذا الشراء جمع ثمانية وعشرين أسيرا مغربيا ، بيد أن العدد كان لا زال قليلا لاتمام

SP 71/15, f. 27 (8)

عملية التبادل . وكانت النتيجة ان امكن اطلاق سراح مائة وأربعة وتسعين من أيدي المغاربة من مجموع الأسرى الانجليز البالغين مائتين وأربعة وعشرين أسيرا . وتم استبقاء الثلاثين الآخرين في طنجة إلى حين قيام القائد علي بن عبد الله بسؤال المولى اسماعيل عما إذا كان يأذن باطلاق سراحهم دون استلام 15 من الأسرى المغاربة في مقابلهم . أما فيما يتصل بالأسرى من الفرنسيين البروتستنت والبالغ عددهم أربعة وثلاثين فقد رفض علي بن عبد الله اطلاق سراحهم باصرار بالرغم من قسمهم يمين الولاء لوليم الثالث ، واكتفى بالادعاء بأنهم سوف يعاملون معاملة الإنجليز . وكان هناك أيضا ثمانية من الاسبان ممن رفض علي بن عبد الله اطلاق سراحهم مصرحا بأن الاسبان والفرنسيين أعداء الداء للمغرب وانه لا يمكن تحريرهم.

حرب الوراثة الاسبانية والعلاقات الإنجليزية — المغربية :

في 8 مارس عام 1702 توفي الملك وليم الثالث مخلفا للملكة آن التي اعقبته على العرش المشاكل المترتبة على حرب الوراثة الاسبانية التي كانت قد بدأت قبل ذلك بقليل ، وقد تزعمت انجلترا خلال هذه الحرب تحالفا ضد فرنسا ، وكان لها تأثير عميق على طبيعة العلاقات الإنجليزية — المغربية لما حدث خلالها من استيلاء الانجليز على جبل طارق في غشت عام 1704 .

غير أنه قبل ذلك ومع اشتعال الحرب دخل الأميرال روك إلى البحر المتوسط ، وما ان رست سفينة القيادة التي كان على ظهرها في قادس في أول شتنبر عام 1702 حتّى أرسل خطابا إلى القايد علي بن عبد الله يسأله ابلاغ المولى اسماعيل برغبة الملكة آن في استمرار العلاقات التي قامت مؤخرا بين الطرفين وتقويتها . وطلب روك في ختام خطابه التصريح لسفنه بالحصول على المياه العذبة من خليج طنجة ، وجاءت اجابة القايد مشجعة للغاية . فقد قال انه سيتم تموين السفن الإنجليزية بالماء أو بأي شيئ آخر تحتاجه حيث أن السلطان يقدر الانجليز عن أية أمة أخرى . واسترسل علي بن عبد الله في القول بأنه أبلغ المولى اسماعيل برغبة الملكة آن في تقوية علاقات الصداقة الانجليزية — المغربية ، وانثني الحاكم الى التذكير ببعض المسائل التي لم تسوَّ بعد مثل اطلاق سراح الأسرى الذين لم يتمكن الكابتن ديلافال من اطلاق سراحهم ، كذا ببعض الأمور الأخرى.

وعلى ذلك ، كما جاء في نهاية خطابه ، فمن الأفضل أن ترسل الملكة آن مبعوثا إلى السلطان ، وقد اقترح في هذا الشأن اسم تيرتيوس سبنسر وهو تاجر انجليزي مقيم في طنجة تم تخويله بعد رحيل ديلافال بالاستمرار في المفاوضات لاطلاق سراح بقية الأسرى والقيام بعمل قنصل انجلترا ومعتمدها في طنجة وتطوان .

وجاء رد الأميرال روك على رسالة علي بن عبد الله في 14 شتنبر عام 1702 وأشار فيه إلى أن الملكة لم تخوله بإرسال مبعوث آخر إلى السلطان « وانها تبعث بتحياتها لجلالته الأمبراطورية » ، لكنه ابلغ الحاكم بأنه قد سبق وأرسل عددا من براميل البارود لاطلاق سراح الأسرى البالغين اثنين وثلاثين . وذكر روك أنه كتعبير بسيط عن تقديره يرسل هدية خاصة عبارة عن ستة براميل من البارود إلى القايد علي بن عبد الله نفسه.[9]

ولدى وصول البارود إلى طنجة على السفينة بدفورد التي كان يقودها الكابتن نوتون نشب نزاع حول الكمية التي ينبغي تقديمها مقابل كل أسير ، وتم أخيرا تسليم خمسة عشر أسيراً فقط مقابل ثمانية وستين برميلا من البارود . غير أنه تم اطلاق سراح سائر الأسرى الانجليز بعد ذلك بفترة قصيرة وان كان قد بقي في حوزة المغاربة أربعة وثلاثين من الفرنسيين البروتستنت ممن اعتبر الانجليز أنفسهم مسئولين عنهم . وقد جاءت هذه التقديرات في مذكرة رفعها « أعضاء لجنة تحرير الأسرى » إلى الملكة آن عام 1703 وكان يرأس هذه اللجنة اسقف كنتربري وقد تشكلت في عهد وليم الثالث لتحرير الأسرى من الإنجليز والبروتستنت الفرنسيين الموجودين في مكناس . وقد حصلت اللجنة على الأموال اللازمة لتحرير الأسرى من التبرعات التي جمعها أعضاؤها من الكنائس في سائر انحاء البلاد ، وكذا من التبرعات من مصادر أخرى . كما كان هؤلاء يتوفرون على مائتي برميل من البارود كان قد أعطاها لهم الملك وليم الثالث لاستخدامها في عمليات المقايضة مع المغاربة . وفيما يتصل بالمال فقد كلف المائة والأربعة والتسعين أسيرا الذين أطلق الكابتن ديلافال سراحهم ..كلفوا اللجنة 15 ألفا من الجنيهات.

SP 71/15. f. 21 (9)

وكان ما تم من اطلاق سراح الأسرى الانجليز علامة على تحسن العلاقات الإنجليزية — المغربية خلال عهدي وليم الثالث وآن . وكان وراء هذا التحسن ، من وجهة النظر المغربية ، سعى المولى اسماعيل إلى الاستفادة من الصراعات الأوربية بالحصول على معونة الانجليز لاستعادة سبتة من أيدي الاسبان . وقد دفع حماس السلطان لتوثيق علاقاته مع انجلترا إلى تكرار الطلب بإرسال سفير لها إلى بلاده ، بل انه في عمله على تشجيع توثيق هذه العلاقة أرسل أسدين ونعامتين هدية للملكة آن .

وكان من الطبيعي أن تلقى تلك المبادرات كل استجابة من الطرف الآخر . فقد عين في 21 فبراير 1704 سير اندرو ليك ، قائد السفينة الحربية جرافتون ، التابعة لأسطول سير جورج روك في البحر المتوسط ، مبعوثا لدى المولى اسماعيل وخول بكل صلاحيات عقد معاهدة سلام وصداقة معه ، كما حمل عددا من الهدايا القيمة للسلطان ووزرائه . بالنسبة للسلطان فقد كان من هداياه : اثنتان وأربعون ياردة من القماش القرمزي ، أقمشة زرقاء وصفراء مطرزة بالذهب والفضة ، بارومتر بحري ، ميكروسكوب كبير منقوش عليه بالعربية « مما يدل على أن الله قد خلق أشياء غريبة وعجيبة لفائدتنا »، وتلسكوب آخر مغطى بالجلد التركي بينما موهت أطرافه بالذهب ، عدستان مقعرتان ، وتلسكوب ثمانية أقدام ، عدسة مكبرة للقراءة ، وزوجان من النظارات العظم الجميلة في غلافها ، وصندوقان باقفال فضية ومقابض ومفصلات ، ومبطنان بالجوخ القرمزي والأخضر وقد احتويا على امشاط من العاج والعظم ، وأمواس ، ومقصات ، وملاقيط ، وحاملان للمصابيح كل منهما بفرعين موشيين وقد زينا بالفسيفساء المذهبة التي نقشت عليها القاب السلطان ، وست من البنادق نقشت عليها بالذهب عبارات عربية ، وسيفان معقوفان بخطوط دمشقية متموجة وقد نقشت عليهما أيضا أحرف عربية ذهبية ».

ومن بين تلك الهدايا كانت هناك هديتان لهما أهمية خاصة هما :
« مطردان[10] حديثا الاختراع ، يتم توجيه كل منهما إلى ثلاث نقاط بالضغط

---

(10) المطرد سلاح قد. مؤلف من رمح وفاس حرب (المترجم)

على زنبرك به ، بينما يقتصر على نقطة واحدة بالضغط على آخر ، وبه كرة في نهاية الرمح ممسكة بمغرفة بها كومة قابلة للاشتعال يمكن فتح الغلاف المحيط بها أو اغلاقه ».

وأخيرا فربما كانت أقيم الهدايا

« ساعة دقاقة بارقام وحروف عربية وقد كتب في أعلى صحفتها بالعربية (الله الحق وحده) وعند الساعة الثانية عشر تجيء الإشارة إلى اليوم في الشهر العربي مع الدقائق والثواني ، وعلى رأس الساعة هلال موشي ، كذا حفر لقب السلطان ؛ أما على الجانب الآخر فقد نقشت عبارة تقول « من الأمبراطورة المجيدة آن امبراطورية المسيحيين .. الخ .. »[11]

ولسبب أو لآخر لم يذهب ليك في سفارته عام 1704 ، مما دعا الملكة آن إلى اصدار أمرها في 26 دجنبر بتكليف بول مثوين[12] بالتفاوض مع السلطان لعقد معاهدة سلام وصداقة وتقرر تعيين جزريل جونس كاتب القصر الملكي معاونا لمثوين وكان هذا قد قام خلال عامي 1700 — 1701 برحلتين إلى المغرب كما كان يجيد العربية . وبينما انشغل مثوين خلال شهري مايو ويونيه عام 1705 بالتفاوض في طنجة مع القايد علي بن عبد الله تقدم جونس برسالة الملكة وهداياها إلى مكناس . ومع أن مثوين قد اخفق في عقد معاهدة سلام وتجارة مع ممثل السلطان كما أنه فشل في تنفيذ تلك المهمة الاضافية التي ألقيت على عاتقه ممثلة في العمل على اطلاق سراح الأسرى من البروتستنت الفرنسيين ، غير أنه قد حصل على موافقة علي بن عبد الله بمد حامية جبل طارق بالأغذية الطازجة كما نجح في مد أجل الهدنة البحرية القائمة لعام آخر ابتداء من 15 يونيه عام 1705 . ولقي جزريل في القصر الملكي بمكناس نفس الفشل حيث لم يستجب المولى اسماعيل لمقترحات مثوين وعاد الرجل بمجرد رسالة إلى الملكة آن . وقد تضمنت هذه الرسالة شكر السلطان للملكة

---

(11) SP 71/15 ff. 163-4

(12) ابن جون مثوين ، السفير الانجليزي في البرتغال والذي عقد معها عام 1703 المعاهدة المشهورة باسم معاهدة البورت واين (وهي المعاهدة التي تقرر بمقتضاها استيراد النبيذ البرتغالي برسوم جمركية مخفضة — المترجم)

على هداياها مؤكدا لها أنه قد أصدر التعليمات للقايد علي بن عبد الله ليقدم كل معونة لسفنها كذا لرعاياها.

وعاد مثوين إلى لشبونة بعد مفاوضاته الفاشلة، وكتب من هناك في 5 يوليوز عام 1705 تقريرا إلى سير شارلز هدجز. وزير الدولة جاء فيه:

«إنه من المستحيل زحزحتهم (يقصد المغاربة) عن اعتقادهم بأن المقترحات التي نقدمها إليهم لا نستهدف بها خداعهم أو غشهم.. ومهما كان صحيحا أن المغاربة يقدرون الانجليز أكثر من غيرهم أو يكرهونهم أقل من غيرهم غير أنه من الأفضل ألا نقول انهم يحبونهم أكثر من غيرهم من المسيحيين، وليس من شك ان امبراطور المغرب يفضل العيش في سلام وصداقة مع حكومة جلالتها أكثر من أية حكومة مسيحية أخرى يدفعه إلى ذلك ما يمكن جنيه من فائدة من تجارتنا مع بلاد البربر، وقوتنا البحرية العظيمة، وأسطولنا الكبير الذي تواجد مؤخرا في تلك الجهات»[13]

ونصح ميثوين سير تشارلز هدجز بان ترسل لجنة تحرير الأسرى مبعوثا خاصا للتفاهم حول اطلاق سراح البروتستنت الفرنسيين الذين لا زالوا في قبضة المغاربة ولفحص الشكوى التي تقدم بها المغاربة من أن الانجليز لم يوفوا تماما بتعهداتهم السابقة، فهم لم يوفوا بما كان مفروضا أن يقدموه من ازندة البنادق وبراميل البارود وأسرى المغاربة في مقابل الأسرى الانجليز الذين تم اطلاق سراحهم.

وقد وافق المغاربة بعدئذ على افتداء الأربعة والثلاثين من الأسرى البروتستنت الفرنسيين، وبلغت هذه الفدية بمقتضى اتفاق تم عقده مع المولى اسماعيل مائتين وأربعة من براميل البارود، وثلاثة آلاف وأربعمائة زناد بندقية، وسبعة عشر من الأسرى المغاربة، أو ما يساوي كل ذلك من مال. غير أن المغاربة لم يتسلموا من هذه الفدية سوى مائة برميل واثنين أرسلها الأميرال روك مما أدى إلى ابقاء الفرنسيين في طنجة حيث كان قد تم نقلهم من مكناس منذ يناير عام 1705. وقد نجح أربعة منهم في الهرب أثناء وجودهم في طنجة اما بقيتهم فقد تكفل بايوائهم

---

(13) SP 71/15. f. 251

وتغذيتهم اثنان من التجار الإنجليز في المدينة هما انطوني باركر وجوين ناش ، وكانا قد احضروهم من قبل من مكناس . وقد اعتنق أحد الفرنسيين الإسلام غير أنه توفي بعد قليل ، ومن ثم لم يبق منهم في النهاية سوى تسعة وعشرون كانوا في انتظار تحريرهم على أحر من الجمر .

وفد مغربي إلى لندن عام 1706

وفي مارس عام 1706 أرسل المولى اسماعيل أحمد بن أحمد قردناش مبعوثا خاصا له إلى لندن يصحبه وفد مكون من ثلاثة عشرة شخصا . وقد وصل هؤلاء إلى بورتسموث في أوائل أبريل من حيث اصطحبهم جرزيل جونس إلى العاصمة ؛ وهناك أقام السفير وحاشيته في قصر شيزويك على نفقة الملكة آن . وكانت التعليمات التي تلقاها قردناش تقضي بأن يطلب من الملكة ارسال مبعوث آخر لاتمام المفاوضات التي بدأها مثوين لعقد معاهدة سلام وصداقة . من ناحية أخرى كان على قردناش الضغط للحصول على بقية البارود وأزندة البنادق والمال ، وهي البقية التي لم يكن الانجليز قد أدوها بعد لقاء تحرير الأسرى من الإنجليز والبروتستنت الفرنسيين ، من جانب ثالث ، وهو أهم الجوانب من وجهة نظر اسماعيل ، فقد كان على المبعوث طلب مساعدة قوات الملكة آن في استعادة سبتة من الاسبان . وقد أشارت التعليمات التي لدى قردناش بابلاغ الجانب الإنجليزي بأنه بعد الحصول على سبتة فسوف تسلم إليهم بالموافقة الكاملة للسلطان . وإلا فإن المولى اسماعيل مصمم على تسويتها بالأرض وتخريبها تماما . وكان آخر ما تلقاه قردناش من تعليمات يقضي بالتأكيد للملكة آن بأن السلطان على استعداد ، كصديق ، بامداد حامية جبل طارق باحتياجاتها التموينية في كل الأوقات .

وكان الخطاب الذي حمله قردناش من المولى اسماعيل إلى الملكة آن موجها إلى « صاحبة العظمة ، الأكثر كرما ، الكبيرة التي لا تقهر ، الأكثر قوة من كل أسلافها الملكيين الملكة آن[14] ». ولما التقي بالملكة في 5 يوليوز عام 1706 أشار إلى الانتصارات الأخيرة التي أحرزها الانجليز في حرب الوراثة الاسبانية وعلى وجه

---

(14) SP 102/2, f. 149

الخصوص الانتصارات الكبرى التي احرزها مارليورو في بلنهايم وراميلي بأرض الفلاندرز ، وقد قال « ابتهج مولاي أشد الابتهاج بانتصاراتكم في اسبانيا ، وقد أبلغته مؤخرا بنجاح قوات جلالتكم في الفلاندرز ..فليصفق العالم لإدارة جلالتكم العظيمة ولينير بهائكم ويمنحكم الله السعادة إلى الأبد . آمين ، آمين[15] »

بيد أن جهود قردناش الديبلوماسية قد انتكست بشدة نتيجة للأنباء التي وصلت إلى لندن في يوليوز عام 1706 عن قيام القراصنة المغاربة بأسر مركبين انجليزيين وارسال بحارتهم البالغ عددهم خمسة وخمسين إلى مكناس . وقيل ان تلك الحادثة قد جرت في يونيو قبل انتهاء الهدنة التي كان قد عقدها مثوين ، وكانت مدتها عاما .

وتلقى جزريل جونس التعليمات بابلاغ قردناش بالحادث المشئوم ، وقد سجل هذا في خطاب الى سير تشارلز هدجز مؤرخ في 23 يوليوز رد الفعل لدى السفير ، فقال « لم ينطق وكأنما أصيب بصاعقة ، ثم تحسس جبهته بيده ، وفجأة انتفض واقفا قائلا : ان هذا لمستحيل »[16]. وبعد أن أفاق من صدمة النبأ السيئ طلب من جرزيل جونس أن يسوق له كافة التفاصيل عن ذلك الانتهاك للهدنة حتّى يكتب للسلطان يطلب تفسيرا ، بل واطلاق سراح السفن والبحارة إذا ما كان ذلك ضروريا .

وقد دخل قردناش آنذاك في محادثات حول ما قيل عن الأموال التي لم تدفعها بعد الحكومة الانجليزية عن الأسرى الذين أطلقهم السلطان . وكان السفير قد احضر معه اثني عشر من البروتستنت الفرنسيين هدية للملكة[17] ، وقد ادعى أعضاء لجنة تحرير الأسرى أن ما لم يتسلمه السلطان ليس إلا كمية من البارود والأزندة والريالات الاسبانية (في مقابل الأسرى المغاربة الذين لم يكن لدى الإنجليز منهم

(15) SP 102/2. f. 151

(16) SP 71/15. f. 143

(17) ضمت هذه الهدايا أيضا صندوقا مليئا بالملابس المغربية للملكة وزوجها . سيفا ذهبيا . حزاما وخنجرا . سرجا مغربيا موشحا بالذهب . الجمة من الذهب . ركابات ومهاميز . حزمتين من أفضل أنواع الجلود المغربية تحتوي على جلود مصبوغة باللونين القرمزي والأصفر . صندوقا يحتوي على أقمشة وأوشحة واحجبة حريرية.

أحد) وفي مقابل البقية الباقية من البروتستنت الفرنسيين الذين اطلقهم المولى اسماعيل مؤخرا[18].

واجه قردناش بالأضافة إلى المصاعب الديبلوماسية المتاعب من الخدم الذين اصطحبوه خلال اقامته في لندن ، وقد كتب جزريل جونس إلى سير تشارلز هدجز في هذا الصدد في 28 أكتوبر عام 1706 « وهو ، أي قردناش يشكو من خدمه ، فهو لا يستطيع استخدامهم بالشكل الذي يرغبه .. وأرجو أن تصدروا أوامركم بتخويله بعقاب من يشاء أو يتم عقابهم على أساس قوانيننا »، وأضاف جونس « وأرجو أن تأذنوا لي بالقول بأني اعتقد بصعوبة التعامل مع هؤلاء الخدم ..ويوجد اثنان من الحاشية المغربية الآن بالسجن بناءاً على طلبه ، كما أنه طرد اثنين آخرين من منزله وهما الآن يعانيان من الفاقة غير أنه لا يريد اعادتهما إلى بلادهم كما عبرا عن رغبتهما[19] ».

وكان السفير المغربي سيئ الحظ في مفاوضاته الدبلوماسية بنفس قدر سوء حظه في علاقاته بخدمه . فقد رفضت الملكة آن بأدب عرض السلطان بتحالف ضد اسبانيا لاخراجها من سبتة وعللت ذلك بتحالفها مع شارل الثالث ، والذي تحدثت عنه باعتباره الملك الشرعي لاسبانيا على ضوء كونه المرشح الذي أيدته هي وحلفاؤها في حرب الوراثة الاسبانية . وان كانت الملكة آن قد وعدت بأنه بعد توطد دعائم عرش شارل الثالث فإنها ستبذل مساعيها لتشجيع حسن العلاقات الاسبانية المغربية . أما فيما يتصل بادعاءات قردناش حول مستحقات السلطان التي لم يحصل عليها مقابل الأسرى الذين أطلقهم فقد سلم الجانب الانجليزي بحق السلطان في الحصول على ثلاثة وثلاثين من الأسرى المغاربة أو ما يعادل قيمتهم من البارود وازندة البنادق أو المال وذلك في مقابل الأسرى الإنجليز الذين حصل عليهم الكابتن ديلافال ، وقبل المفاوضون الانجليز أيضاً مسئوليتهم عن البروتستنت الفرنسيين الذين تم تحريرهم . وقد حددوا عدد هؤلاء باثنين وعشرين فقط من مجموع العدد البالغ

(18) وقع الفرنسيون لدى وصولهم إلى طنجة وثيقة تذكارية يعبرون فيها عن امتنانهم للملكة لتحريرهم

SP 71/15. f. 1 (19)

أربعة وثلاثين على أساس أن المولى اسماعيل قد أرسل للملكة آن اثني عشرة من هؤلاء كهدية . وعلى ذلك أبدى الإنجليز استعدادهم لتحرير أحد عشرة من الأسرى المغاربة (على الأساس المتفق عليه مغربي واحد في مقابل اثنين من المسيحيين) أو دفع المبلغ المتفق عليه عنهم . ولم يلب ما اعترف به الانجليز المطالب التي كان قردناش قد تلقي التعليمات بتقديمها ، وهكذا لم يتم التوصل إلى اتفاق في هذا الشأن بالرغم من المحادثات المضنية التي جرت بين الطرفين

وعاد السفير إلى المغرب بعد رحلة لا يمكن وصفها بالنجاح . وحتّى تزداد الأمور سوءا بالنسبة لقردناش فقد تقدم تركي من حلب ، كان من بين رجال الحاشية التي صحبته ، بادعاءات خطيرة ضده اتهمه فيها بالفسق وبأنه « ارتكب اعمالا بغيضة وشاذة » خلال فترة اقامته في انجلترا وانه قد سلبه مبلغا كبيرا من المال . وما ان سمع السلطان بتلك الادعاءات حتّى الَقي قردناش السيئ الحظ في السجن إلى حين وصول معلومات من انجلترا تنفي أو تؤكد اتهامات الرجل التركي .

مبعوث مغربي آخر إلى انجلترا عام 1710

بالرغم من فشل بعثة قردناش فقد استمرت رغبة السلطان في الحفاظ على علاقاته مع انجلترا ، ووصل في غشت عام 1710 مبعوث آخر أرسله المولى اسماعيل إلى لندن . وكان ارمنيا مسيحيا اسمه بنتورا دي زاري والذي حمل رسالة من السلطان للملكة آن جاء فيها أن بنتورا دي زاري مخول بالصلاحيات التي تسمح له بالنيابة عن السلطان بالتفاهم فيما يخص شئون التجارة . وظل دي زاري منتظرا تحديد مقابلة له حتّى منتصف دجنبر عام 1710 ، وقد كتب في 16 من هذا الشهر إلى وزير الإدارة الجنوبية يطلب التصريح له بتقديم أوراق اعتماده.

ويبدو أن المقابلة المطلوبة قد تمت على وجه السرعة ، ذلك أن زاري كتب في 2 مارس عام 1711 إلى اللورد دارتموث معربا عن شكره عما علمه من أن الملكة آن تنوي ارسال عشرين من الأيائل المنقطة بصحبته هدية للمولى اسماعيل . وحتّى يفوز زاري بمزيد من الحظوة لدى السلطان فقد اشترى لحسابه مزيدا من الأيائل لاهدائها للأخير ، بيد أن ثمن هذا الشراء بالإضافة إلى تكاليف حفظ الحيوانات قد أوقع الرجل في النهاية في مصاعب مالية . فقد كتب في 21 مارس عام 1711 إلى

اللورد دارتموث ما نصه :

« منذ أن تركت قصر مولاي وأنا أعيش على حسابي الخاص ، وقد ازدادت نفقاتي زيادة كبيرة نتيجة لما أتحمله من مرتبات هؤلاء الذين اضطررت لاستخدامهم للعناية بالأيائل التي اشتريتها ، لتصحب تلك التي أرسلتها جلالة الملكة لمولاي ، والتي تكلفني ما تكلفه فرقه من الخيل في بلادي ، ذلك ان أثمان كافة الأغذية مرتفعة في هذه المدينة الكبيرة حتّى أصبحت خالي الوفاض . يدعوني ذلك إلى التماس عون جلالتها بما عرف عنها من كرم ، وكما حدث بالنسبة لمن سبقني من مبعوثين ينبغي أن أحيا على نفس النحو الذي أشار به على مولاي .. »[20].

وقد تأثرت بعثة بنتورا دي زاري ، كما حدث بالنسبة لسابقتها ، بالأنباء التي جاءت إلى لندن عن قيام القراصنة من سلا الجديدة وغيرها من الموانئ المغربية بأسر مزيد من السفن مما أدى بالتالي إلى مزيد من الأسرى الانجليز في بلاد البربر . وفي يونيه عام 1711 طلب لورد دارتموث من دي زاري ابلاغ المولى اسماعيل بشكاياته من أسر السفن الانجليزية وبحارتها وأن يطلب منه اطلاق سراحهم . وكان قد سبق ذلك ارسال الكولونيل جوزيف بنيت إلى مكناس في فبراير من نفس السنة ومعه رسالة من الملكة آن تشكو فيها من أسر السفن الانجليزية في العرايش وتطالب بفك اسارها هي والتجار الذين كانوا عليها . وقد وافق المولى اسماعيل على هذه المطالب بيد أنه كان عاجزا عن منع قراصنته من شن مزيد من الهجمات على السفن التجارية الانجليزية . وقد أدى هذا الوضع إلى حرج موقف دي زاري في لندن مما دعاه إلى كتابة رسالة للوزير الكبير في 4 غشت عام 1711 يشير فيها إلى الهدايا التي تم اعدادها في انجلترا لإرسالها إلى السلطان ويعبر عن مخاوفه من أن يؤدى الاستيلاء على السفن الانجليزية إلى التأثير على النوايا الطيبة التي لمسها...

« فقد تم اعداد اختراع عجيب لآخذه معي عبارة عن عربة تستطيع السير

---

(20) SP 71/15 ff. 277-8

فرسخين في الساعة بدون حصان[21]. وبالإضافة إلى ذلك فهناك اثنا عشرة من الأيائل الجميلة هدية من دوق نيو كاسل ومعها أشياء أخرى إلى مولاي ومولاتي السلطانة وهي أشياء ذات أهمية كبيرة ، وقد صدمتني الأنباء التي سمعتها في القصر في ذاك اليوم والتي تشير إلى أن سفن مولاي قد استولت على سفن يمتلكها رعايا جلالة ملكة بريطانيا[22] »

وحتى مارس عام 1712 كان المبعوث المغربي لا زال في داره في فوكسهول حيث كان يعاني عديدا من المتاعب ؛ فقد ألقي طباخه ، وكان رجلا انجليزيا يدعى توماس بوست ، في السجن لعدم سداده دينا عليه ، كما واجه خادم آخر من خدمه نفس المصير لذات السبب . وفي يونيه كان ثالث في طريقه ليلقى المصير نفسه وبذات التهمة ، وكان السفير لازال موجودا في انجلترا حتّى هذا الشهر وإن كان لا يوجد ما يشير إلى أي نشاط ديبلوماسي كان يقوم به خلال ذلك الوقت فيما عدا أنه أرسل الأيائل المنقطة إلى السلطان في سفينة متجهة إلى المغرب . وقد تقدم فيما بعد إلى وزير الدولة بفاتورة قيمتها 18 و1207 جنيها تمثل تكاليف حفظ الأيائل في حديقة وندسور الكبرى لثمانية شهور بالإضافة إلى تكاليف شحنها إلى المغرب[23].

وفي يناير عام 1713 تقرر تحديد اقامة دي زاري في مقره الخاص ووجد الرجل نفسه فيما يشبه المعتقل . وليس معروفاً بالضبط السبب الذي دعا إلى ذلك وان كان على الأرجح انه قد تم اتخاذ هذا الاجراء تنفيذا لأمر من اللورد دارتموث انتقاما من السلطان بسبب استيلائه على عدد من السفن التجارية الانجليزية . وكان دي زاري آنئذ مقيما في شارع دارتموث (دون سائر الأماكن !.) في وستمنستر ، وقد أرسل من هذا المقام عددا من الرسائل إلى اللورد دارتموث والتي أظهرت أن التقلبات التي ألمت به لم توهن من عزيمته بأية درجة . فقد كتب في 19 فبراير عام 1713 إلى وزير الدولة بلهجة بها كثير من الاعتزاز ان الحجر الذي فرض عليه إنما يمثل انتهاكا لقانون الأمم . واستمر في نفس اللهجة :

---

(21) قد تكون من العربات البخارية الأولى التي صممت لتسير على الطرق التي تسير عليها القاطرات البخارية والمحددة بالطبع بالخطوط الحديدية.

(22) SP 71 15. f. 334

(23) SP 71 16. f. 85

« أرى انه من غير المعقول أن أدفع من صحتي وحريتي ثمنا لعمل ارتكبه مولاي أو رعاياه بعد انتهاء مدة الهدنة »[24]

وفي 15 ماي عام 1713 ، وكان دي زاري لا زال رهن الإقامة الجبرية ، كتب الى سير وليم هدجز بأنه قد تسلم رسالة من السلطان يبلغه فيها بأن الانجليز الذين تم استحضارهم إلى مكناس لم يؤخذوا إلى هذا المكان إلا لحمايتهم حتّى يصل سفير انجليزي إلى المغرب ليوقع معاهدة سلام وصداقة . ثم كتب دي زاري رسالة أخرى بعد أسبوع من الرسالة السابقة يطلب فيها التصريح له بمقابلة مع الملكة ليسلمها رسالة ادعى أنها قد وصلته من المولى اسماعيل . وقد كتب :

« سيدي ، بالرغم مما لي من حق الشكوى بسبب سجني بهذا الشكل لخمسة شهور وابقائي على هذا النحو الذي اعتقد أنه مناقض لقوانين وعادات الأمم ولسائر أصول التعامل ، بيد أنه لما كنت لا أزال مسيحيا ، ولما كنت راغبا في بذل أقصى جهدي لخدمة جلالتها فلن أبدي أي تذمر من اعتقالي أو معاملتي إذا مكن ذلك فخامتكم من بلوغ هدفكم بالتوصل إلى حسن التفاهم والصداقة الدائمة بين الأمتين »[25] .

مبعوث انجليزي في المغرب 1713

وبينما كان بنتورا دي زاري يواصل ارسال خطاباته إلى اللورد دارتموث تقرر أن ترسل لندن مبعوثا آخر إلى المولى اسماعيل ليحاول تسوية المسائل المعلقة بين الطرفين ، خاصة ما اتصل منها باطلاق سراح الانجليز المحجوزين في مكناس . ووقع الاختيار على الكابتن جورج بادون قبطان السفينة الحربية روبي ليكون المبعوث الجديد . وقد حمل بادون رسالة تضمنت اقتراحات بعقد هدنة بحرية غير أنه تلقى تعليمات تقضي بأنه إذا ما فشلت مفاوضاته فعليه القيام بأعمال تأديبية ضد قراصنة سلا . وحتى يحقق هذا الهدف تقرر وضع عدد من السفن الحربية الموجودة في جبل طارق تحت قيادته بالإضافة إلى السفينة روبي .

---

(24) SP 71/16. f. 71

(25) SP 71/16. f. 102

ولحسن الحظ لم تستدع الحاجة القيام بهذه الاجراءات التأديبية فقد نجح بادون في 26 ماي عام 1613 في أن يوقع في طنجة تجديدا للهدنة البحرية وكتب إلى اللورد دارتموث بأن المولى اسماعيل قد وعد باطلاق سراح الأسرى الانجليز في مكناس حال ظهور بادون هناك. ولدى سماع هذه الأنباء أمر اللورد دارتموث برفع حظر الإقامة الذي كان مفروضا على بنتورا دي زاري وذلك حتَّى لا يعرض مثل هذا الوضع مفاوضات بادون المقبلة للخطر، وفي أوائل يوليوز عام 1713 عاد المبعوث المغربي ليتمتع بكامل حريته.

ومن المحتمل أن يكون قرار رئيس الوزراء برفع الحظر عن دي زاري قد تأثر أيضا بوصول رسالة من المولى اسماعيل إلى الملكة آن في يونيه 1713 مؤرخة في فبراير من نفس السنة. وقد أعرب الملك في هذه الرسالة عن شكره لهدية الملكة من الأيائل المنقطة والتي ذكر أنها قد وصلت سالمة، كما أوصى فيها «بخادمنا الوفي والصادق الولاء النصراني الدكتور بنتورا» (هكذا) وجدد تخويل الأخير تمثيل السلطان والتفاوض باسمه.[26]

وفي 2 غشت عام 1713 حظى دي زاري بمقابلة مع الملكة آن في قصر بكنجهام. وقد أبلغها بسرور السلطان لوصول الأيائل المنقطة وانه بالمقابل فسوف يرسل المولى اسماعيل هداياه للملكة، حيوانات افريقية ونعام، وقام دي زاري بتسليم رسالة السلطان إلى الملكة مما كان بمثابة مجاملة ملحوظة للمبعوث. وبالرغم من وضوح صدق الرسالة فإن اللورد دارتموث لم يكن مقتنعا تماما بأوراق اعتماد دي زاري مما دعاه إلى الكتابة إلى الكابتن بادون في 8 غشت عام 1713 يطلب منه فيها اجراء تحرياته عن دي زاري في كل من طنجة ومكناس.

وأجاب بادون في 4 شتنبر بأن المعلومات التي توصل اليها تفيد بأن بنتورا دي زاري كان تاجرا ذا سمعة مريبة، وهو غير مؤهل للتفاوض كسفير مطلق السلطات وأضاف بادون انه قد أرسل تاجرا انجليزيا يجيد العربية إلى مكناس لاجراء مزيد من التحريات. وقد أكد هذا الأخير بأن المولى اسماعيل لم يرسل دي زاري إلى لندن

SP 102/2 ff. 170-1 (26)

كسفير كامل الصلاحيات ، وانه إذا كانت قد جاءت إلى انجلترا رسائل تحمل هذا المعنى ففي الغالب يكون الوزير الكبير هو الذي أرسلها ، وهو اسباني مرتد يدعى محمد أندالوز (الأندلسي ؟) ، دون علم السلطان أو موافقته . وعلى أي الأحوال فقد أكد بادون انه كان لدى دي زاري توصية من السلطان غير أنها اقتصرت على تكليفه بجلب الأيائل وغيرها من السلع الانجليزية للمولى اسماعيل.

وفي 3 أكتوبر عام 1713 كتب بادون إلى اللورد دارتموث مؤكدا أن المعلومات عن زاري قد جاءته من مصادر موثوق فيها ، ونصح بإعادة الرجل إلى المغرب في أقرب فرصة حتَّى يمكن التقصي عن سلوكه في انجلترا كما كتب بادون إلى وزير الإدارة الجنوبية بأنه إذا لم يذهب شخصيا إلى مكناس بالهدايا التي تم اعدادها للمولى اسماعيل فلن يطلق السلطان ابدا سراح الانجليز الموجودين هناك . وكان سبب هذه الإشارة ما جاء في تعليمات اللورد دارتموث والتي حذر فيها بادون من المخاطرة بشخصه بالذهاب إلى مكناس وكان البارون هنري هيوارد أوف كاسل ريدنج هو الذي خلف عند دارتموث الشعور بالحذر في هذا الصدد .

غير أن مطلب بادون لقي القبول وتقرر أن يصطحبه اللفتنانت الكسندر كدس من ضباط السفينة فيفرشام حيث وصلا إلى مكناس في 14 يناير عام 1714 وقد التقى بادون بالمولى اسماعيل في 18 يناير ليبلغه بأنه قد جاء بهدف اطلاق سراح الأسرى الإنجليز وإقامة سلام دائم ووطيد بين انجلترا والمغرب . وقد رحب السلطان بهذا المطلب والتقي مرة أخرى مع بادون في 4 فبراير . ونتج عن الاجتماع الأخير ان صدر الأمر باطلاق سراح سبع وستين من الأسرى الإنجليز وتسليمهم إلى بادون . أكثر من ذلك فقد تم الحصول على امتياز شخصي بتحرير اثنين من الاسبان من العاملين في خدمة الانجليز في جبل طارق ، وكانا قد وقعا في أيدي المغاربة.

وغادر بادون مكناس بصحبة الأسرى ، وقد صحبهما أحمد بن علي بن عبد الله ، الذي كان قد خلف والده الذي توفي مؤخرا حاكما لطنجة وتطوان ، « وقائدا عاما للسواحل » ، ونائبا للسلطان وقايدا عاما في الميدان . ولما كان بادون قد تصور أنه سيكون للابن نفس مشاعر الأب الودية تجاه الانجليز فقد صعق عندما وصلته رسالة من القايد تتحدث عن الفدية المطلوبة مقابل اطلاق سراح الأسرى الانجليز

بينما أرسل الرجال إلى تطوان في انتظار ترحيلهم .

وقد صمم بادون على رفع الأمر للمولى اسماعيل غير أن السلطان أكد مطلب قائده ، أكثر من ذلك فقد حدد الفدية المطلوبة ، وبلغت ثلاثة آلاف جنيها نقدا . ثم ما يساوي مائة برميلا من البارود يتم انفاقها في شراء الأقمشة والأواني الصينية والشاي والأيائل المنقطة من انجلترا واما ان يطلق الانجليز سراح ستين مغربيا مقابل التسع والستين مسيحيا . وأن يؤتى بثلاثين من هؤلاء قبل السماح برحيل المسيحيين من تطوان ، أما الثلاثون الباقون فيسلمهم الإنجليز عندما يناسبهم ذلك بعد فترة محددة .

وفي خطاب كتبه بادون من طنجة إلى الوزير الجديد للإدارة الجنوبية اللورد بولنجبروك في 5 أبريل عام 1714 أوصى بالاستجابة الفورية لمطالب السلطان. وقال انه يعترف بقلة الموجودين من الأسرى المغاربة في أيدي الانجليز . ولكنه بصراحة مؤلمة يرى امكان شرائهم بثمن أرخص من الاسبان « فيوجد في المدن المنتشرة على الساحل الاسباني اعداد من المغاربة يمكن شراؤهم باسعار معقولة مثل المسنين والمكفوفين والمقعدين . ولا جدال في أن الكل سيقبل طالما فيهم الروح .. »[27]

وليس معروفا ما إذا كان قد تم شراء الأسرى المغاربة من الاسبان كما اقترح بادون أو ما إذا كان قد تم الاتفاق على مبلغ معين مع المولى اسماعيل بيد أن بادون قد استطاع تحرير الأسرى التسع والستين الذين كانوا في أيدي السلطان . بالإضافة إلى ذلك فقد أمكن توقيع معاهدة سلام وصداقة وتجارة في تطوان في 27 يوليوز عام 1714 وقد أمضاها بالنيابة عن السلطان القايد أحمد بن علي بن عبد الله . ومن بين المعالم البارزة لتلك المعاهدة ما تم الإتفاق عليه في احدى موادها من اعتبار جميع الأشخاص الذين يعيشون في جبل طارق أو في منورقة (التي كانت حينئذ تحت الحكم البريطاني) من الرعايا البريطانيين .

وقبل أن يغادر بادون مكناس طلب منه السلطان أن يعين من يراه كقنصل بريطاني مؤقت إلى حين تعيين قنصل دائم ، واستجاب بادون بأن عين المستر انطوني بالمر الذي اصطحبه معه للقيام بمهمة الترجمة ، وكان تاجرا في تطوان ، عينه في

---

71 16. F. 271 (27)

المنصب المطلوب وحدد مهمته بالعمل على الحفاظ على العلاقات الودية التي نشأت مؤخرا بين المغرب وانجلترا . بيد أنه لم يأت شهر نوفبر عام 1714 حتَّى عادت تلك العلاقات إلى التآكل مرة أخرى ذلك أن الانجليز لم يوفوا بكل ما تعهدوا به في الاتفاقية التي عقدها بادون ، وكان لا زال عليهم للسلطان كمية من الأواني الصينية والأقشة وغيرها من السلع ، بالإضافة إلى اثني عشر من الأيائل المنقطة ، ونتيجة لذلك عاد القراصنة المغاربة إلى أسر السفن الانجليزية وبحارتها ، وبلغ عدد الأسرى الجدد في ماي عام 1716 خمسة وتسعين .

احتدام أزمة الأسرى الانجليز :

وفي يونيو عام 1716 وصل الادميرال كورنوول على رأس قوة بحرية إلى جبل طارق وكتب من هناك رسالة إلى المولى اسماعيل يطلب فيها ارسال مبعوث إلى جبل طارق لبحث انهاء الصدامات البحرية القائمة وتبادل الأسرى . واستجاب المولى اسماعيل لتلك المبادرة وأرسل مبعوثا يدعى مولينياس وافق على هدنة بحرية مدتها عام وعلى تبادل الأسرى . وتبقى بعد ذلك تصديق السلطان على هذا الاتفاق بيد أنه لم يصل لكورنوول ما يفيد بهذا التصديق . دعاه ذلك إلى ان يضرب حصارا على الموانئ المغربية الرئيسية وإلى التهديد بالاستيلاء على السفن المغربية بالإضافة إلى أخذ المغاربة العاملين في جبل طارق كرهائن .

رغم ذلك استمر عدد الأسرى الانجليز في تزايد اذ بلغ عددهم في غشت عام 1716 مائة وخمس وعشرين . كما استمر مولاي اسماعيل ملتزما بالصمت إلى فاتح اكتوبر من نفس السنة حين بعث برسالة إلى الجانب الانجليزي يبلغه فيها بأنه قد أصدر أوامره بعدم تكليف الأسرى باشغال شاقة إلى حين انتهاء المفاوضات الخاصة بهم . وفي ماي عام 1717 وفي محاولة لتجاوز المأزق تم تعيين تاجر من تطوان هو انطوني هاتفيلد قنصلا ، على ألا يحصل على راتب وإنما يجمع رسوما قنصلية على شكل نسبة مئوية ضئيلة عن السلع المستوردة على السفن الإنجليزية . وقد راود الأمل حكومة لندن في نجاح هاتفيلد في اطلاق سراح الأسرى الانجليز الذين بلغ عددهم في مارس عام 1717 مائة وثلاث وخمسين أسيرا . وكان أصل مجموعهم مائة وثمان وتسعين غير أن واحدا وأربعين منهم توفوا خلال الأسر وتحول الأربعة

الآخرون إلى الاسلام كمنفذ للتخلص من تعاساتهم .

ويصف خطاب من أحد الأسرى ، ويدعى جون ويلدون ، أرسله إلى زوجته من مكناس في 6 يونيه عام 1716 ، يصف الحالة التعسة للأسرى الإنجليز فيقول :

« نوجد في أكثر المناطق بربرية في العالم وسوف أعطيك وصفا بسيطا لتعاساتنا في العبودية هنا . يتم اجبارنا على جر العربات بحبال في أكتافنا مثل الخيول . بالإضافة إلى ذلك نحمل قضبان كبيرة من الحديد على نفس الأكتاف بأقصى ما نستطيع حمله ، وأن نقف بها وقد غاصت أقدامنا في الطين حتَّى ركبنا . ثم ان نتزحلق بهذه الأحمال في أرض يصعب التحرك فيها بدون احمال . ونحصل على قطعة من الخبز كل ثمانية أيام وننتقل من باب إلى باب نتسول من سائر العبيد المسيحيين . أما مأوانا فهو الأرض الباردة ، ولم أرتد قميصا طوال الشهور الثمانية الماضية ولا يعلم سوى الله متى سأرتديه . وإني اعتقد بأن كل المسيحيين في انجلترا قد نسونا حيث انهم لم يرسلوا لنا أي عون منذ وقعنا في أسار العَبودية[28] »[29]

وبلغ تذمر أقارب الأسرى في انجلترا مداه في ماي وأصبح يشكل عنصر ضغط على الحكومة . ذلك أن الحصار الذي فرضه الأسطول على الموانئ المِغربية لم يؤت بنتيجة أو أتى بنتيجة غير مؤثرة ، إذ يبدو أن وزراء السلطان قد حرصوا على حجب حقيقة الأوضاع عنه . وفي خطاب كتبه المولى اسماعيل من مكناس مؤرخ في 18 جمادي الآخر عام 1129 (28 ماي 1717) عبر للأميرال كورنوول عن سخطه على الطريقة التي عامله بها الانجليز . فبعد أن تحدث عن عدم الوفاء بما جاء في الاتفاق مع بادون ، قال السلطان :

« في أيام الملكة اليزابيث والتي كانت على صداقة كبيرة ووثيقة مع عمي (هكذا) الملك مولاي حامد الذهبي (يقصد المولى أحمد المنصور) إلى درجة أن

---

(28) SP 71/16. f. 503 . لم يعش جميع الأسرى الانجليز في المغرب حياة العبيد . مثلا هناك طوماس بيلو الذي أسر وهو صبي صغير عام 1713 وأصبح مقربا للمولى اسماعيل وعاش حياة غنية بالمغامرات حتَّى تمكن من الهرب إلى جبل طارق عام 1738 ونشر في لندن عام 1739 تاريخ حياته بالمغرب.

(29) واضح من خطاب الأسير ومن تعليق المؤلف أن الخطاب يعتوره الكثير من أسباب المبالغة بهدف حث مواطنيه على العمل على تحريرهم ، ولعل ذلك كان يحقق أهداف الجانب المغربي أيضا ! (المترجم)

كلا منهما أحب الآخر كثيرا ، كان يتم تبادل رسائل الصداقة والهدايا فيما بينهما لحتّى ان الناسْ اعتقدوا أنهما ينويان الزواج ، أما أنت فلا تتبع مثل هذا الطريق ولكنك تبعث لي بالرسائل مع بعض الأشخاص ، وليست هذه هي الطريقة التي يمكن أن تنجز بها أي أمر معي ، لكن إذا كانت لديك الرغبة في الحديث معي ، وعندك ما تطلبه مني فعليك أن — تأتي إلى قصرنا العالي بالله وان تتحدث معي .. وإني ، عبد الله ، لا أستطيع الحديث معك بالبريد أو بالرسائل التي تذهب وتجيء . وإذا ما رغبت في ارسال شخص إلى قصري للحديث والتفاوض معي ، كعادة الملوك ، فسوف يتم تلبية كل مطالب الجانبين باذن الله ، وعليكم السلام ولكم موفور الصحة .. » (30)

أخيرا قرر الأميرال كورنوول ارسال أحد قواد أسطوله إلى مكناس ، ووقع اختياره على الكابتن نوربري والذي اصطحب القنصل هاتفيلد للقيام بواجب الترجمة . وعندما اكتشف السلطان أن نوربري لم يكن مخولا بكل الصلاحيات وانه ليس بدرجة السفير رفض أن يبحث معه مسألة اطلاق سراح الأسرى . الادهي من ذلك أن نوربري سلك سلوكا متعجرفا تنقصه أسباب اللياقة مما زاد من سخط المولى اسماعيل عليه فاضطر للعودة إلى سفينته دون انجاز أي شئ.

وجاءت المحاولة الثانية للتفاوض من الأميرال بينج الذي كتب في غشت عام 1718 رسالة إلى السلطان يسأله فيها عما إذا كان يسمح بارسال مبعوث بريطاني إلى تطوان لبحث مقترحات السلام واطلاق سراح الأسرى . وبعث الأميرال بينج مع خطابه هدية إلى السلطان عبارة عن ثلاثة كلاب من فصيلة البولدوج المدربة على الصيد ، وسر المولى اسماعيل كثيرا من الهدية التي ما ان وصلت الى مكناس حتّى أرسل موافقته على اقتراح بينج وبادر الأخير بارسال واحداً من قواده هو الكابتن فليب كافنديش إلى تطوان في أبريل عام 1720 . وأجرى هناك مباحثات مع القايد أحمد بن علي بن عبد الله بيد أنها لم تثمر شيئا اذ تبين القائد أحمد بن علي بن عبد الله ان كافنديش لا يتمتع بدوره بصلاحيات مطلقة ، وحين طلب التعليمات في هذا

---

(30) SP 71 16. f. 527

الشأن جاءته بقطع المفاوضات.

معاهدة 1721

على ضوء تلك الانتكاسات المتكررة قرر الجانب الإنجليزي أخيرا ارسال تشارلز ستيوارت كمبعوث كامل الصلاحيات في يوليوز عام 1720 وبعد مفاوضات مفصلة أمكن الحصول على موافقة السلطان على معاهدة سلام وتجارة تم توقيعها في فاس في 23 يناير عام 1721 . وقد ضمت هذه المعاهدة خمس عشرة مادة ، ومنحت للانجليز نفس الامتيازات التي تمتعوا بها في الإتفاقيات السابقة . وقد نصت المادة الرابعة عشر على :

« عدم تجاهل هذا السلام أو قبول أي اعتذار عن تنفيذه . وسوف يتم نشر هذا واعلانه لكافة رعايا الدولتين . كما سوف يتم توقيع هذا التصريح وحفظه من جانب كل من القوتين لمنع المنازعات ».

كما نجح ستيوارت أيضا أخيرا وبعد جهد في اطلاق سراح الأسرى الانجليز (البالغ عددهم مائتين وثلاث وتسعين) باستثناء واحدا . تمثل هذا الاستثناء في صبي رفض تحريره لأنه كان ملكا لواحد من أبناء المولى اسماعيل المقربين ، وقد رفض هذا الابن فراقه.

ويعزى نجاح ستيوارت في أحد جوانبه إلى السخاء الذي وزع به الهدايا ، ليس للسلطان فقط وإنما أيضا لعدد غير قليل من رجال البلاط بمن فيهم أصحاب المراتب الدنيا مثل هؤلاء الذين يحملون المظلة الملكية فوق رأس السلطان في الاحتفالات لحمايته من الحرارة . غير أن الجانب الأكبر من نجاح ستيوارت يعزى إلى براعته وفهمه لمشاعر المغاربة وأحاسيسهم . وفي الخطاب الذي بعث به المولى اسماعيل إلى الملك جورج الأول والمؤرخ في 7 غشت عام 1721 والذي حمله ستيوارت معه لدى عودته إلى انجلترا يلاحظ السلطان أن المبعوث قد أثبت بأنه « شخص ذكي ، حاذق في شئون الدولة ، وأفضل من أي شخص جاء من عند جلالتكم إلينا ..» ويمضي المولى اسماعيل ليعقد مقارنة بين ستيوارت وبين الكابتن نوربري الذي صرح

بأنه قد وجده « عديم الكفاءة في تقديم الأجابة الطيبة ، وعاجزا عن كسب أية ثقة ، نتيجة لقلة كياسته وكثرة جهله[31] . »

وازدادت العلاقات الديبلوماسية بين البلدين توثقا لما أرسل السلطان في نوفمبر عام 1723 عبد القادر بيريس في بعثة إلى الملك جورج الأول ، تبعه بمبعوث آخر عام 1725 هو محمد بن علي البقولي الذي وصل إلى ديل في غشت من ذلك العام بعد رحلة من جبل طارق استمرت لستة وعشرين يوما كان في أغلبها مصابا بدوار البحر . وبالرغم من بقاء هذا المبعوث في انجلترا لنحو العام ذلك أنه لم يعد إلى المغرب الا في يوليوز عام 1726 ، فلا يوجد سوى القليل المعروف عن مفاوضاته ويبدو أنه كان منشغلا بشراء البارود للمولى اسماعيل ، كذا فقد طالب بمعاملة عادلة لليهود المغاربة الذين يعيشون ويتاجرون في جبل طارق . ثم إنه كان يحمل التعليمات التي تؤكد على رغبة السلطان بارسال مبعوث آخر إليه من انجلترا للحفاظ على العلاقات الودية التي قامت أخيرا.

على أي الأحوال فما كان ينتظره القنصل أنطوني هاتفيلد من عون من الحكومة الإنجليزية لم يتحقق بالشكل الذي ابتغاه . دعاه ذلك إلى الشكوى بمرارة مشيرا إلى أن الوزراء المتتابعين مثل لورد كارتريت الذي كان وزيرا عام 1722 وخلفه دوق نيو كاسل (1724) لم يعلموا حتّى بوصول رسائله . فوق ذلك فقد أضاف بأنه لما كان لا يتقاضى راتبا ولا حتّى تعويضاً عن مصروفاته فإنه عاجز عن الاستمرار في تأدية واجباته بالكفائة المطلوبة . ولما لم يستجب المسئولون لطلبات هاتفيلد المتكررة حتّى بدفع النفقات التي يتحملها فقد استقال من منصبه عام 1727 ليخلفه جون راسل . وقد قدم هاتفيلد عام 1729 ملتمسا إلى الملك جورج الثاني يطلب فيه الحصول على نفقات قدرها بمبلغ 10 ، 15 ، 1972 جنيها ذكر أنه قد دفعها اثناء عمله قنصلا في تطوان ، وليس هناك ما يشير إلى أنه قد تلقى ردا مرضيا ، هذا إذا كان قد تلقى رداً على الإطلاق.

ولسوء حظ راسل ، خليفته ، أن توفي المولى اسماعيل في مارس عام 1727 بعد

SP 71/16. ff. 621-2 (31)

أن بلغ من العمر واحداً وثمانين عاما ، وما إن اختفت شخصيته القوية حتّى ساد الاضطراب المغرب . ذلك انه بعد وفاة المولى اسماعيل احتل مكانه أحد أبنائه وهو المولى أحمد الذهبي[32] ، غير أن الجيش اعتقله عام 1728 ووضع محله واحدا من اخوته على العرش باسم عبد الملك الثالث[33] ، بيد أنه لم يمض وقت طويل حتّى استعاد أحمد الذهبي عرشه واعدم أخاه عبد الملك . وبعد فترة قصيرة لقي نفس المصير ليعلن ابن ثالث للمولى اسماعيل نفسه سلطانا باسم عبد الله الخامس ، وقد نجح هذا الأخير في البقاء في السلطة حتّى عام 1757 بالرغم من المحاولات المتقطعة التي قام بها الجيش لعزله .

ونتيجة للنزاعات الداخلية في المغرب عاد راسل إلى انجلترا عام 1728 حيث تم تزويده بتعليمات جديدة . وقد قضت هذه التعليمات بأن يعمل على اطلاق سراح أي من رعايا الملك جورج المأسورين في المغرب سواء كانوا من بريطانيا أو هانوفر ، كما قضت نفس التعليمات بأن يشترى للملك جورج « بعض الخيول البربرية التي تم تربيتها في الجبال وفي المناطق المنعزلة » ، وحمل معه رسالة من الملك جورج لتسليمها إلى السلطان.

وعاد راسل إلى المغرب عام 1729 وقصد إلى فاس حيث المولى عبد الله الذي تربع على العرش . وهناك ، وفي يوم 10 يوليوز حصل راسل على تصديق السلطان على معاهدة السلام والتجارة التي وقعها ستيوارت عام 1721 ، وفاوض في نفس الوقت على اضافة أربع مواد للمعاهدة . تنص المادة الأولى على أن يغادر جميع رعايا السلطان الذين يعيشون في جبل طارق أو في منورقة تلك البقاع في خلال ثلاثين يوما حيث يعاد توطينهم في املاك السلطان . وتقضي المادة الثانية بأن تتم محاكمة الرعايا البريطانيين أمام القواد المغاربة فقط بالاشتراك مع القنصل البريطاني وليس أمام القضاة . أما المادة الثالثة فقد طالبت باطلاق سراح رعايا جلالة ملك بريطانيا ، هانوفريين أو بريطانيين ، الذين تأسرهم سفن السلطان الحربية ، وبشكل فوري . وكانت المادة الرابعة من وجهة نظر البريطانيين أهم تلك المواد وقد قضت

(32) هو المولى أبي العباس أحمد بن اسماعيل المعروف بالذهبي (المترجم)

(33) هو المولى ابي مروان عبد الملك ابن اسماعيل (المترجم)

بحق البريطانيين في شراء امداداتهم الغذائية وغيرها من الضروريات من موانى السلطان وذلك لسد احتياجات أسطولهم وحامية جبل طارق وبعدم دفع أي رسوم جمركية عن تلك المشتريات .

كما نجح راسل في احراز موافقة السلطان على افتداء ثلاثة وعشرين من الإنجليز ممن تم أسرهم مؤخرا . وقد سمح لهؤلاء بالرحيل مع القنصل راسل إلى انجلترا بالرغم من عدم استكمال الفدية المطلوبة . وفي تلك الأثناء خلف راسل كلا من ادوار بليك كنائب قنصل في تطوان وجيمس ارجات نائب قنصل في طنجة لرعاية المصالح البريطانية اثناء غيابه[34] وكيفما كان الأمر فإنه نتيجة لحالة الاضطراب التي سادت المغرب آنئذ ، ونتيجة لضعف نفوذ السلطان فقد ازداد نشاط قراصنة سلا كما تضاعفت جرأتهم ، وتم أسر المزيد من الانجليز بالرغم من التصديق الأخير على معاهدة السلام والتجارة.

تدهور العلاقات :

اغضب السلطان عدم الوفاء ببقية فدية الأسرى الذين تم تسليمهم لستيوارت وتقرر وضع ارجات نائب القنصل في طنجة تحت الاقامة الجبرية إلى حين الوفاء بالعقد . وزاد غضب السلطان على الانجليز ، وكان السبب هذه المرة ان السفن الحربية الاسبانية قد أخذت بالقوة عددا من المغاربة من السفن الانجليزية وتم بيعهم كأرقاء ، دون أن يبذل البريطانيون أية محاولة لتحرير هؤلاء من العبودية . وقد توفر بذلك المبرر لقراصنة سلا لاعتراض السفن التجارية البريطانية التي كثيرا ما كانت تحمل ركابا من الاسبان والبرتغاليين أو ملاحين من جبل طارق ومنورقة . وذهبت جهود اقناع قادة سفن القراصنة المتوترين بأن الأخيرين رعايا بريطانيون وليسوا من الاسبان ادراج الرياح.

في هذه الظروف وقد عادت العلاقات الانجليزية — المغربية إلى تدهورها وصل جون ليونارد سوليكوفر إلى المغرب في ماي عام 1732 قنصلا لبريطانيا خلفا لراسل الذي بقي في انجلترا لاسباب صحية . وقد سافر إلى مقر السلطان في نوفمبر عام

(34) خلف ادوارد بيكر بليك بعد فترة قصيرة.

1732 ليحاول فك اسار السفينة الانجليزية «الإيجل» وملاحيها وأسرى انجليز آخرين . وقد تذرع سوليكوفر بمعاهدة السلام والتجارة ليؤكد ادعاءه بأن اعتبار السفن الانجليزية غنيمة انما هو خرق من جانب المغاربة لالتزاماتهم في المعاهدة . غير أنه كان لدى السلطان حجته وهي انه طالما وجد على متن السفن الانجليزية اعداؤه من الإسبان أو البرتغاليين ، ركابا أو ملاحين ، فإنها تصبح غنيمة شرعية.

وبينما تجرى المناقشة على هذا النحو أشار أحد أفراد حاشية السلطان ، وهو عبد السلام قنديل ، أحد قواد قراصنة سلا الجديدة ، إلى مترجم سوليكوفر ، وهو يهودي يدعَى شالوم ناهياس، واتهمه بتلقين سوليوكوفر بما يقوله. وقد أغضب ذلك المولى عبد الله إلى حد أن أمر باحراق اليهودي حيا قبل أن يتمكن سوليكوفر من الدفاع عنه بكلمة . ولما كانت كلمة السلطان قانونا فقد دفع الاتباع شالوم نامياس السيئ الحظ خارجا مسوقا إلى حتفه العاجل[35]. ثم تحول السلطان المولى عبد الله إلى سوليكوفر وأمره بالرحيل ، وهكذا انتهت محاولة سوليكوفر الدبلوماسية الأولى في المغرب بكارثة . وكان فشلاً غالي الثمن ذلك أن الرجل قد طلب 9، 1043 جنيها قيمة ما أنفقه ، بالإضافة إلى 300 جنيها «بدل خطر» مقابل اقامته في مكناس[36].

وفي يناير عام 1734 استولى قراصنة السلطان المنطلقين من سلا الجديدة على أربعة سفن بريطانية بملاحيها البالغ عددهم تسعا وثلاثين كما تم الاستيلاء على مزيد من السفن . وفي تلك الظروف العصيبة أصدرت الحكومة الانجليزية تعليماتها إلى سوليكوفر للقيام بزيارة أخرى للسلطان في مكناس حاملا معه رسالة من جورج الثاني بالإضافة إلى الهدايا المعتادة . وقد ارتفع عدد الأسرى الانجليز في ماي . وبينما كان سوليكوفر يتأهب للرحيل ، إلى مائة واثنين وأربعين ، وازداد الموقف سوءا نتيجة لقيام سفينتين من الأسطول الملكي بتدمير مركبين مغربيين في موكادور .

وقد غادر سوليكوفر تطوان متوجها إلى مكناس في 17 يوليوز عام 1734 التي

(35) كانت تعيش في لندن أرملة اليهودي التي تركها مع أم عجوزة وطفلين صغيرين في حاجة إلى العون . وقد التمست الأرملة بعد ذلك من الملك الحصول على تعويض عن وفاة زوجها.

(36) SP 71/17. f. 489

وصلها بعد اثني عشر يوما . واستقبله السلطان في 2 غشت حيث أبلغه أنه يمكنه تسلم المائة والاثنين والأربعين أسيرا انجليزيا . غير أن المولى عبد الله قد أكد بأنه لن يتم تسليم الإسبان أو البرتغاليين ممن سبق وأسرهم المغاربة من على السفن الانجليزية . وأشار إلى رغبته في الإبقاء على علاقة ودية مع انجلترا وان كان لن يسمح بحال للإنجليز بنقل اعدائه مهما كان الثمن.

وعاد سوليكوفر إلى تطوان في 5 شتنبر عام 1734 وبصحبته مائة وستة وثلاثين من الأسرى فقط حيث كان الستة الآخرون قد توفوا في الطريق . ومن هناك كتب إلى الوزير دوق نيوكاسل يبلغه بأن القايد أحمد علي بن عبد الله حاكم طنجة وتطوان مصمم على تقاضي ثلاثمائة وخمسين كراونا انجليزيا[37] فدية عن كل أسير . وقد أصر القايد على اعتبار عدد الأسرى مائة وأربعا وأربعين ، وهو العدد الذي أبلغه إياه السلطان وهدد بإعادة الأسرى إلى مكناس إذا لم يوافق سوليكوفر على شروطه التي كان قد وضعها مقدما ، وقد قال سوليكوفر بأنه لم يكن ثمة خيار أمامه سوى قبول هذه الشروط .

وفي الحقيقة ، ومن جهة نظر انسانية ، لم يكن هناك ما يمكن عمله . فقد كان عديد من الأسرى في حالة من سوء الصحة مما كان سيؤدى إلى زيادة عدد الوفيات إذا أعيدوا إلى مكناس . وقد توفي واحد آخر من الأسرى قبل ابحارهم إلى جبل طارق بعد اطلاق سراحهم فبلغ عدد الباقي مائة وخمسا وثلاثين.

ولم يحظ سوليكوفر بأي ثناء على ما أنجزه فقد بعث دوق نيو كاسل في 3 دجنبر عام 1734 إلى القنصل السيئ الحظ بخطاب مليئ بالتوبيخ اللاذع ، قال الدوق « سر جلالة الملك سرورا بالغا لدى سماعه بأنك قد تمكنت من اطلاق سراح الأسرى الانجليز الموجودين بممتلكات امبراطور المغرب ، غير أنه لم يسر البتة بما وافقت على دفعه من ثمن كبير فيهم ، وإذا وضع في الحسبان الهدايا القيمة التي حملتها معك الى مكناس تتضح فداحة الثمن مما يعطي المبرر بأنه هناك سوء تصرف كبير من جانبك

---

(37) الكراون قطعة نقدية فضية بريطانية تساوي خمسة شلنات. (المترجم)

في القيام بهذا العمل »[38] .

وكان سوليكوفر السيئ الحظ مريضا عندما وصله هذا الخطاب وتوفي بعد ذلك بشهور قليلة في 12 يونيه عام 1735 . وقد تولى تاجر انجليزي من تطوان يدعى راندولف بارون العناية بأوراق سوليكوفر وأغراضه الشخصية إلى أن يتم تعيين آخر في منصبه . وقد كتب هذا إلى دوق نيو كاسل يبلغه أنه وجد من فحص حسابات القنصل المتوفى انه لم يدفع بعد 10، 4399 جنيها من حساب المغاربة عن المائة والأربعة والأربعين أسيرا الذين أطلقهم سوليكوفر في مقابل مائة وخمسين كراونا عن كل أسير.

غير أن مسألة هذا الدين لم تتحول إلى مصدر للخلاف بين السلطان والانجليز نتيجة لما شهده المغرب من اضطرابات داخلية وقتئذ . وهي الاضطرابات التي تمخضت عن عزل الجيش للمولى عبد الله في شتنبر عام 1735 وتولية أخيه المولى علي[39] مكانه إلا أنه مع استعادة المولى عبد الله للعرش أثار القايد أحمد علي بن عبد الله المسألة وقررت لندن ارسال وليم ولاتون ، الذي خلف سوليكوفر في منصبه ، إلى مكناس لبحث الأمر .

بيد أن تجدد الاضطرابات العنيفة في المغرب جعل الزيارة المقترحة بدون معنى فقد خلع الجيش مرة أخرى المولى عبد الله ووضع مكانه أحد أبناء المولى اسماعيل ويدعَى محمد بن عربية سلطانا للبلاد. وفي تلك الظروف عضد القايد أحمد بن عبد الله ابنا آخر للسلطان المولى اسماعيل يدعى المولى المستضيئ ، غير أن المولى عبد الله قد نجح مرة أخرى في استعادة سلطته وهزيمة المدعى في معركة قرب القصر
الله ابنا آخر للسلطان المولى اسماعيل يدعى المولى المستضيئ ، غير أن المولى عبد الله قد نجح مرة أخرى في استعادة سلطته وهزيمة المدعى في معركة قرب القصر
الكبير في غشت عام 1743 قتل فيها القائد أحمد بن علي بن عبد الله . ولم يضيع المولى عبد الله وقتا بعد استعادته لعرشه فقد طالب الانجليز على الفور بدفع ما عليهم من الأموال التي لم يدفعوها بعد لقاء اطلاق سراح أسراهم .

وفي شتنبر عام 1743 جرَى لقاء بين وليم بتكرو، الذي كان يقوم وقتئذ بأعمال

---

(38) SP 71/18. f. 98

(39) هو المولى أبي الحسن علي بن اسماعيل المعروف بالاعرج (المترجم)

لاتون في تطوان إلى حين عودة الانجليز لتولى مهام منصبه ، وبين المولى عبد الله . وقد أصر السلطان في هذا اللقاء على دفع بقية الفدية عن الأسرى الذين تسلمهم سوليكوفر غير أنه أبدى في نفس الوقت بعض مظاهر حسن النية : بالتصديق على معاهدة السلام والتجارة القائمة بين البلدين ، وبالسماح بتصدير الماشية لتموين حامية جبل طارق ، وبتقديم التسهيلات لسفن الأسطول الانجليزي التي تأتي للتزود بالمؤن من الموانى المغربية . وقد سلم السلطان أيضا لبتكرو رسالة إلى الملك جورج الثاني يؤكد له فيها صداقته غير أنه يذكره في نفس الوقت بالدين الباقي على الإنجليز لقاء الأسرى الذين أطلق سوليكوفر سراحهم .

بالرغم من هذه التذكرة لم يصل الدين حتَّى منتصف عام 1745 ، دفع ذلك المولى عبد الله الذي نفد صبره إلى القرار بفرض عقوبات على الجانب الانجليزي . فقد أوقف تصدير الماشية إلى جبل طارق وأمر قراصنته بأسر السفن الانجليزية كعمل انتقامي ، وأن يعامل البحارة الانجليز الذين تجنح سفنهم على الساحل المغربي نفس معاملة زملائهم المأسورين في البحر وأن يرسلوا إلى مقر السلطان كأسرى . وبناء على هذه الأوامر فحينما جنحت السفينة الانجليزية انسبكتور في خليج طنجة في يناير عام 1746 تم أسر جميع بحارتها البالغ عددهم ثمانية وسبعين وأرسلوا إلى فاس.

وقد قضى هؤلاء المساكين عاملا كاملا في الأسر قبل أن يعود وليام لاتون لتولى مهام منصبه قنصلا عاما لبريطانيا في المغرب ، وقد جاء لاتون ، الذي وصل إلى خليج تطوان على السفينة الحربية دنكرك في يناير عام 1747 ، بصلاحيات كاملة بالتفاوض مع السلطان لاطلاق سراح الاسرى الانجليز غير أن المولى عبد الله أصابه بالذعر حينما طالب بكل المبلغ الذي تعهد سوليكوفر بدفعه عن الأسرى الانجليز الذين حررهم (600، 12 جنيهاً). وعزا السلطان سبب ذلك بأنه لم يحصل على أي مبلغ مما قيل ان سوليكوفر قد دفعه لحاكم طنجة وتطوان السابق القايد أحمد بن علي بن عبد الله ، وأبلغ المولى عبد الله لاتون بأنه لن يطلق سراح الأسرى الموجودين آنئذ في المغرب إذا لم يدفع بالكامل المبلغ الذي كان قد تقرر على الأسرى ممن سبق اطلاق سراحهم .

وقد احتج لاتون على السلطان في الرد الذي بعث به إلى المولى عبد الله من

جبل طارق[40] في 19 ماي عام 1747 وأكد انه بناء على الحسابات التي تركها سوليكوفر فإن المتبقي هو 10، 4399 جنيها وقال لاتون انه إذا ما وافق السلطان على ذلك ، وإذا ما بعث إليه بضمان لسلامته هو ومن معه فسوف « نذهب إلى بلاطكم ونتقدم بعلائم الصداقة التي جئت بها لجلالتكم والتي من بينها الأقمشة الفخمة ، والأقمشة المطرزة ، والصيني ، والأقمشة القطنية البيضاء ، والأزندة والغدارات ، معها طلقات البنادق ، والساعات ، وكلاب الصيد ، وأشياء أخرى ، وإذا ما رغبتم ياصاحب الجلالة في شراء أي شيئ بالمبلغ المطلوب فسوف يكون لي شرف تنفيذ أوامركم[41] . »

وقد نجح لاتون بعد عودته إلى جبل طارق في الاتصال بالأسرَى الموجودين بفاس وأرسل لهم المال الذي يعينهم على البقاء على قيد الحياة ، وكان قد تلقى منهم في فبراير عام 1747 رسالة تفيض بوصف حياتهم التعسة ، جاء فيها : « تعمل الغالبية العظمى منا شبه عراة . وليس لدينا سوى عشر أقمصة مخصصة لنا جميعا ، وقد تحول لون جلدنا إلى ما يشبه لون الأحباش ، وبدلا من السراويل نلف قطعا من القماش حول وسطنا ، وتثير حالتنا التعسة شفقة المغاربة ..[42] »

وقد تحول اثنا عشرة من الأسرى إلى الإسلام سعيا للتخلص من الاسترقاق كما توفي البعض الآخر . وعندما أمر السلطان في نوفمبر عام 1748 بنقل الأسرى من فاس إلى تطوان انتظارا لنتائج المفاوضات مع لاتون لم يكن قد تبقى منهم على قيد الحياة سوى اثنان وخمسون . وقد أرسل لاتون إلى هؤلاء المعاطف والاقمصة والأحذية والجوارب يمكنهم من القيام برحلتهم .

ووصل القنصل نفسه إلى تطوان قادما من جبل طارق في 2 يناير عام 1749 ليدخل في مفاوضات صعبة مع القايد محمد تميم ، القايد الجديد بطنجة وتطوان . وعندما بدا فشل المحادثات استعرض الحاكم الاثنين وخمسين أسيرا انجليزيا أمامه في 2 مارس . وأبلغهم صراحه بأنهم إذا لم يستطعوا اقناع لاتون بدفع كل الفدية التي كان سوليكوفر قد تعاقد على دفعها عن الأسرى الانجليز السابقين فسوف يعاد

(40) تقرر أن يبقى القنصل في جبل طارق وقتئذ ضمانا لسلامته

(41) SP 71/18 f. 395

(42) SP 71/18 f. 401

الأسرى الحاليين إلى فاس .

وجاء هذا التهديد بما هو مطلوب منه فقد أخذ السجناء في التضرع إلى لاتون للاستجابة لمطالب القائد . وكما قال القنصل انهم استخدموا « أكثر الكلمات ذلا » لأن « قلوبهم كانت مثقلة بالأسى واليأس » مما دفع لاتون إلى الاستمرار في المفاوضات مع القايد . وتم أخيرا في 16 ماي عام 1749 التوصل إلى اتفاق كان بمثابة استسلام كامل من جانب لاتون . فقد تعهد في مقابل اطلاق سراح الاثنين والخمسين أسيرا بدفع 4399 جنيها خلال عشر أيام اما مبلغ الـ 8201 جنيها التي يدعي السلطان انه لازال يدين سوليكوفر بها فقد تعهد بدفعها خلال شهرين . بالإضافة إلى ذلك فقد وافق لاتون على دفع فدية عن الاثنين والخمسين أسيرا ممن تقرر اطلاق سراحهم مؤخرا.

غير أنه نشأ خلاف خطير في 29 ماي عام 1749 حين طلب القايد تميم من لاتون تدبير اثني عشرة بحارا من طاقم سفينة حربية انجليزية كانت راسية آنئذ في خليج تطوان للابحار الى جبل طارق بسفينة دانماركية كان قد غنمها قراصنة السلطان . ولما رفض لاتون هذا المطلب لما بين الانجليز والدانماركيين من صداقة ، حدد القايد مكان إقامة لاتون ووضع عليه حرسا ، وهدده بأنه سوف يضعه في الاغلال . في نفس الوقت تم نقل الأسرى الانجليز التعساء من المنازل المحتملة التي وضعوا بها المدينة إلى زنزانات تطوان .

وقد كتب لاتون إلى دوق بدفورد وزير الادارة الجنوبية يصف ما حدث ويراه « إهانة وجهت إلى جلالة الملك في شخصي .. واني أناشد بكل تواضع جلالة الملك ، من خلالكم ، لينقذني من هذا الهول الذي يفزع كل من يشاهده .. [43] »

وكان رد دوق بدفورد قاسيا إذ اتهم لاتون بأنه قد تصرف بحماقة في كل محادثاته ومن ثم فقد جلب على نفسه غضب جلالته . وصدر الأمر للقنصل بالتشاور مع اللفتنانت جنرال بلاند ، حاكم جبل طارق ، ليرى ما إذا كان يستطيع في ظل الوضع المأسوي الأخير اجراء مفاوضات ناجحة مع السلطان للتوصل إلى حل لهذا

SP 71/18. f. 550 (43)

الموقف . وقد أمكن فعلا الوصول إلى حل ولكن بعد أن وصل الكومودور كيبل على رأس اسطول حربي الى تطوان تم اطلاق سراح لاتون بعد استعراض القوة هذا . ومن خلال نفس الاجراء تم اقناع السلطان بقبول مبلغ 8200 جنيها عن الأسرى الذين أطلق سوليكوفر سراحهم ، كما اتفق على دفع فدية عن الأسرى الموجودين في تطوان والذين كان عددهم قد زاد آنئذ الى تسعين.

وبعد التوصل إلى هذا الحل الوسط تم استدعاء لاتون إلى انجلترا بشكل مهين في فبراير عام 1751 حيث رفت من منصبه . وقد التمس في دجنبر عام 1751 اعادته إلى عمله حيث أنه أصبح هو وأسرته في « ظروف مزرية » لأنه لم يتقاض مرتبا منذ 25 يونيه عام 1750 غير أن هذا الالتماس وجد آذانا صماء . وتقدم بالتماس آخر عام 1754 مصحوبا بمذكرة إلى وزير الدولة السير توماس روبنسون جاء فيها :

« المتقدم بهذه المذكرة عمل لاكثر من ستة عشر عاما وزيراً وقنصلاً عاماً لجلالة الملك في تطوان عاش أغلب وقته تحيط به المخاطر وسط الأوبئة والثورات ، وتحمل أقصى أنواع الحبس حتّى انه هدد بالتقييد في الأرض ، كل ذلك لانه اعترض على مطالبهم (يقصد المغاربة) المتعددة والقاسية التي تقدموا بها لجلالته ، كما انه لقي أسوأ الظروف لدوره في تحرير تسعين عبداً بريطانيا افتداهم جلالة الملك .

« وقد أوقف صاحب هذه المذكرة عن وظيفته المذكورة لنَحْو أربع سنوات ليس لسبب سوى غيرته الزائدة على الصالح العام ولم يشغل طول هذا الوقت وظيفة أخرى أو يتقاض معاشا.

« وهو يتقدم بكل تواضع إلى فخامتكم للتوسط لدى جلالة الملك لانصافه أو لالتماس العذر له كما يرى جلالته ، وإلى أن يبت في الأمر ، وكما يحدث في مثل هذه الأحوال يرجو صاحب المذكرة أن تعينوه هو وزوجته وأطفاله بوظيفة أخرى في خدمة جلالته (44) »

خلف لاتون في منصبه وليم بتكرو الذي سافر إلى فاس في مارس عام 1751

---

(44) SP 71/20. f. 573

وتمكن من تجديد معاهدة السلام والتجارة مع المغرب . وقد تشدد السلطان في موقفه من قضية السماح لرعاياه ، يهودا كانوا أو مسلمين ، بالعمل في جبل طارق ، إذ صمم على عدم منعهم من ذلك ، واضطر بتكرو إلى سحب المادة التي نصت على ذلك المنع .

استمرار التوتر :

وفي عام 1754 عادت العلاقات الانجليزية — المغربية إلى التوتر ذلك أن المولى المستضيء أخ السلطان قد نجح في فرض سلطانه على ميناء أصيلا ، وقد اتهم السلطان التجار الانجليز بالقيام بمعاملات غير مشروعة معه . أكثر من ذلك فقد اتهم سلطات جبل طارق باصدار وثائق مرور لسفن يقودها جنويون مما يوفر لهم الأمان في أعالي البحار رغم اقتناعه بأن هذه السفن تقوم بالاتجار مع الموانئ الاسبانية ومع أصيلا وغيرها من الأماكن التي يسيطر عليها أعداؤه.

ونتيجة لامتعاض للسلطان ، وسعيا للضغط على الانجليز ، فقد تم أسر بحارة سفينتين انجليزيتين جنحتا على الشاطئ المغربي في يناير عام 1754 . وبعد وقت اطلق قائد تطوان سراحهم غير أنه أصدر تحذيرا صارما عن النتائج التي سوف تترتب على استمرار التجار الانجليز في التعامل مع العصاة في أصيلا ، والاستمرار في اصدار وثائق المرور للسفن التي تنتهك قوانين السلطان .

وكان يحكم القسم الجنوبي من المغرب وقتذاك ولي العهد الأمير سيدي محمد ابن المولى عبد الله . وكان من الناحية الواقعية حاكم المغرب الحقيقي منذ أن تنازل له والده القابع في فاس عن كل سلطاته قبل سنوات . وقد أغضب سيدي محمد ما علمه من أن السفن الحربية البريطانية قد أسرت سفينة فرنسية في مرسى آسفي مما دعاه إلى اعلان الحرب على انجلترا . وفي شتنبر عام 1755 قام الأمير بزيارة إلى سلا الجديدة أو الرباط [45] ، والتي كانت ضمن مناطق ادارته ، حيث حكم على تاجر انجليزي يدعى وليم مونتيني بالموت واستولى على أغراضه . وعبر بيتكرو في خطاب له

(45) مع الوقت عاد الاسم القديم للمنطقة الواقعة جنوب شاطئ أبو الرقراق وهو الرباط ليبطل استخدام الاسم المستحدث سلا الجديدة.

إلى حاكم جبل طارق في 27 من نفس الشهر عن ظنه بأن سيدي محمد قد ارتكب فعلته لاعتقاده بأن مونتيني كان يبعث بتقارير عنه إلى بيتكرو وانه قد قام برشوة قائد الرباط لعصيان أوامر الأمير. كما اشتبه بيتكرو في الدانماركيين وانهم يحرضون سيدي محمد على الانجليز أملا منهم في الاستئثار بالتجار المغربية.

وأرسل بيتكرو بالخطابات للسلطان المولى عبد الله يشكو فيها مما أسماه « بالأعمال الشائنة » التي يقوم بها الأمير ، غير أن الوزراء الذين كانوا يرتعدون من الأمير قد منعوا وصول تلك الخطابات إلى السلطان. واستمر الأمير لا يلوى على شيء في طريق عداء الانجليز فقد أصدر في دجنبر عام 1755 الأمر للتجار الانجليز في أكادير بمغادرة المدينة ، وتبعه بمرسوم يقضي بالاستيلاء على السفن الانجليزية التي تصل إلى الموانئ المغربية.

غير أن سيدي محمد استجاب أخيرا للنصائح التي أبداها قواد سفنه بالتوقف عن مضايقة الانجليز لئلا يثأر هؤلاء بما لديهم من قوة حربية متفوقة. وتحول الأمير من النقيض إلى النقيض ، فقد أرسل مبعوثا يدعى عبد الكريم بن زاكور إلى انجلترا برسالة إلى الملك جورج الثاني تضمنت هذه الرسالة اسباب غضب الأمير ، وقد شكا خاصة من سلوك حاكم جبل طارق الذي اتهمه بالسماح بالتجارة غير الشرعية مع أصيلا. وأنهى الأمير رسالته بلهجة تنم عن رغبته في التفاهم إذ أعرب عن أمله في تسوية كل الخلافات القائمة بينه وبين الانجليز بشكل ودي.

رد الملك جورج على هذه المبادرة بأن أعاد المبعوث المغربي على السفينة الحربية سكويرل التي كان يقودها الكابتن هايد باركر ومعه هدايا للأمير ورسالة يدعوه فيها للتفاوض مع هايد باركر لتسوية كافة الخلافات. وقد سافر هذا من آسفي حيث وصل إلى مراكش في أول يوليوز عام 1756 يصحبه قائد بحري وسبعة رجال واثنين من ضباط الصف البحريين وطبيبه وطباخ ورئيس للخدم وسبعة منهم بالإضافة إلى أربعة من التجار الانجليز. وكيفما كان الأمر فقد منيت المباحثات بالفشل ، ذلك أن الأمير قد طالب بامداده بحبال السفن والأشرعة والسلاسل والبارود ليستخدمها القراصنة الموالون له في الرباط ، وفي مقابل الوفاء بكل تلك الاحتياجات وعد بشيء واحد وهو اطلاق سراح تسعة عشر من الرعايا البريطانيين

(ستة من الانجليز وثلاثة عشر من المنورقيين) كان قد أسرهم منذ أن اعلن الحرب على انجلترا . وقد رفض هايد باركر مطلب الأمير . وفي خطاب بعث به من على متن السفينة سكويرل الراسية في خليج آسفي في 19 يوليوز عام 1756 قارن بفخر بين سلوكه المستقل وبين سلوك الدانماركيين الذين كانوا قد أرسلوا في نفس الوقت مبعوثا إلى مراكش لاستجداء عواطف الأمير ، قال :

«كان يمكن أن أتميز غيظا مما لاحظته من افضلية يحظون بها (يقصد الدانماريكيين) في القصر لو لم أرهم يجرون يومذاك في القيظ عراة الرؤوس لنحو ميل بجانب حصان الأمير منحنين إلى الأرض مع كل كلمة يتفوه بها لهم . وفي رأيي أنهم كانوا يشترون عواطف الأمير بثمن لا أستطيع دفعه(46)

غير أن زيارة هايد باركر إلى مراكش لم تكن سلبية في كل جوانبها ، فقد انهى الأمير حالة الحرب مع انجلترا وصادق على معاهدة السلام والتجارة . غير أنه رفض اطلاق سراح الأسرى من الرعايا البريطانيين . وأكثر ذلك هدد باعلان الحرب مرة أخرى إذا ما استمر الانجليز في تموين عمه الثائر في أصيلا . ويتحمل هايد باركر مسئولية جانب من الفشل الذي مني به في مسألة اطلاق سراح الأسرى ، فقد كشف عن عجز في المهارة الديبلوماسية حتّى ان القائد عبد الكريم بن زاكور قد كتب إلى هنري فوكس وزير الإدارة الجنوبية وشكا له من سلوكه في مراكش . وذكر أن هذا السلوك قد اتسم بزهو ممقوت . وقد اتضح ذلك من لقائه الأول مع الأمير فلم يخلع قبعته ووضع ساقا فوق ساق بشكل فيه كثير من الاستهانة وحدج سيدي محمد وقد ارتسمت على وجهه علامات الاحتقار والغطرسة واستطرد بن زاكور قائلا بأن هايد باركر مجرد وحش غير متمدن ، وليس انجليزيا لبقا . وانهى القائد خطابه إلى فوكس بملاحظة تعوزها اللباقة اذ قال « أطلب منكم لدى اختيار مبعوثيكم في المستقبل بأن يتم هذا الاختيار على أساس من الكفاءة لا المحسوبية(47) .

SP 71/20. f. 73 (46)

SP 71/20. f. 81 (47)

وقد عاد هايد باركر إلى انجلترا في 21 أكتوبر عام 1756 ومعه رسالة من سيدي محمد إلى جورج الأول . وردا على هذه الرسالة تم في مارس عام 1757 ابلاغ ريتشارد هويتلي ، الذي تولى منصب القنصل العام في أوائل عام 1756 خلفا لبيتكرو الذي كان قد توفي آنئذ ، تم ابلاغه بالاتصال بجبل طارق لاستلام أوراق اعتماده والتعليمات الصادرة إليه كذا رسالة مكتوبة من رئيس الوزراء وليم بت إلى سيدي محمد[48]. غير أن المرض أعجز هويتلي عن الاتصال بجبل طارق مما أدى إلى تعيين جيمس ريد مكانه في يوليوز عام 1757 وقد خول ريد صلاحيات دفع مبلغ في حدود 1500 جنيها لاطلاق سراح الأسرى الانجليز في مراكش ممن سبق وأسرهم قراصنة السلطان من السفن السويدية والبرتغالية بالرغم من التصديق الذي حصل عليه هايد باركر على معاهدة السلام والتجارة.

وبالإضافة إلى الرعايا الانجليز كان هناك سبعة من المينورقيين سبق أسرهم قبل فوز فرنسا بالجزيرة عام 1756 ؛ وقد اعتبر هؤلاء أيضا رعايا بريطانيين. وأصبح الأمير قوة يعمل حسابها بعد أن توفر لديه ثمانية من السفن الحربية جيدة التسليح تقوم بعملياتها من الرباط وتطوان . ومن ثم فقد سافر ريد إلى مراكش في نوفمبر عام 1757 يحمل تعليمات تقضي باسترضاء الأمير بقدر الامكان لاطلاق سراح الأسرى.

غير أنه بعد وصول القنصل العام إلى مراكش بيوم واحد جاءت الأخبار بوفاة السلطان المولى عبد الله ، ورفض الأمير الذي أصبح آنئذ سلطانا بلقب سيدي محمد قبول رسالة وليم بت وصرح بأنه بعد أن تولى العرش فلن يقبل رسالة إلا من الملك جورج الثاني نفسه يأتي بها مبعوث تكون لديه صلاحيات مطلقة . وقد وافق السلطان الجديد على مد معاهدة السلام بين بريطانيا والمغرب لعام آخر ابتداء من أول دجنبر عام 1757 بشرط الموافقة على ما طلب.

حادثة القنصل ريد

وقد عاد ريد من مراكش إلى الرباط بصحبة اللفتانت كروزفنر وهو ضابط من

---

(48) هويتلي تاجر انجليزي في مرسيليا وقد بقي في فرنسا بعد تعيينه في انتظار تعليمات لندن.

ضباط السفينة الحربية سيرين التي نقلتهم من جبل طارق إلى آسفي وبقيت في انتظارهم . وما أن وصل ريد الى الرباط في منتصف دجنبر حتَّى علم بما قامت به السفينة سيرين أثناء غيابه بدفع احدى سفن السلطان الحربية إلى الشاطئ حيث دمرتها عند رأس سبارتل . وعزا قائد سيرين وقوع الحادثة بأن السفينة المغربية قد اشتبكت مع السفينة الحربية الانجليزية أثناء الليل ، وانها لم تكن ترفع أية اعلام تدل على جنسيتها عندما بدأ الاشتباك.

وانتقاما لفعلة السفينة سيرين تم حجز ريد في حجرة ، وكاتب البعثة والخدم المرافقين لها ولفتنانت كروزفنر في حجرة أخرى . وبعد أن بقوا في الحجز لبضعة أيام وصل السلطان نفسه إلى الرباط في طريقه من مراكش إلى فاس . وبعد أن علم بما حدث استدعى كروزفنر للمثول أمامه وأبلغه بأنه لن يسمح له أو لريد بالسفر إلى جبل طارق قبل الحصول على سفينة بدلا من التي اغرقت . بالإضافة إلى ذلك فقد أبلغه سيدي محمد انه سوف يمنع تصدير الماشية إلى جبل طارق لثلاثة شهور كإجراء انتقامي.

غادر السلطان الرباط إلى فاس بعد لقائه بكروزفنر بيومين ، ثم أصدر أمره بعد ذلك إلى الرباط لإرسال ريد وكروزفنر وخدمهم إليه في فاس . ووصل هؤلاء إلى المدينة يوم 29 يناير عام 1758 ولم يسمح لهم سيدي محمد بمقابلته إلا يوم 16 فبراير وكان في حالة شديدة من الغضب . فقد نعتهم بالأوغاد والانذال واعلن بأن الانجليز هم أسوأ الأمم وقال انه كان يتمنى لو كان في جبل طارق الفرنسيون أو حتَّى الاسبان ولا يكون فيه مثل هؤلاء الجيران الأشرار . وانثنى السلطان ليهدد بأنه سوف يعقد سلاما مع الفرنسيين ويساعدهم في تحطيم الانجليز . وشكا بمرارة من أن الانجليز قد عاملوا أباه وجده كما يرغبون لأنهما كانا يجهلان الشئون البحرية أما هو فلن يسمح لنفسه بالانخداع . وبعد أن استنفد ثورته أمر السلطان بأخذ ريد وكروزفنر إلى « نوع من الزنزانات » ، كما وصفها كروزفنر فيما بعد ، وبعث لهم برسالة تنذرهما بأنهما إذا لم يوقعا قبل صباح اليوم التالي على تعهد بأن يحصل السلطان على عشرين ألف ريال كتعويض عن سفينته الغارقة فسوف يتم أعدامهما.

وتحت هذا التهديد وافق القنصل العام ريد على مطلب السلطان مما أدى إلى

اطلاق سراح الرجلين. غير أن ريد بعث صباح اليوم التالي برسالة إلى سيدي محمد يبلغه فيها بموافقته على توقيع التعهد بشرط أن يوقع السلطان في نفس الوقت على اتفاق يقضي بمد معاهدة السلام عاماً آخر. وقد وافق السلطان على ذلك غير أنه بعد يوم، وفي 18 فبراير عام 1758، أرسل واحدا من عبيده إلى ريد ليبلغه بنية السلطان على أن يبعث به في صحبة ثلة من عبيده للاشغال الشاقة. أما كروزفنر فقد طلب منه المبعوث أن يصحبه لأن سيدي محمد يرغب في الحديث معه.

وبينما كان كروزفنر واقفا في فناء القصر في انتظار السماح له بمقابلة السلطان جاءه كاتب ريد وهو يجري ليبلغه بأنه قد سمع قبل قليل طلقة مسدس صادرة عن حجرة ريد. (وكان ريد بعد أن استمع إلى رسالة العبد قد عاد إلى حجرته وأبلغ كاتبه انه يريد الانفراد بنفسه لكتابة خطاب). وتم ابلاغ السلطان بما حدث فأصدر أوامره بكسر باب الحجرة الذي كان قد أغلقه ريد من الداخل. وبفتح الباب وجد ريد قتيلا بعد أن أطلق النار على نفسه. وكما كتب كروزفنر «وجدت الجثة وسط الحجرة غارقة في دمائها وقد تناثر مخه في سائر أنحائها»[49].

صدم انتحار ريد سيدي محمد، وأمر باحضار كروزفنر للمثول أمامه في اليوم التالي، وتحت تأثير الشعور بالندم أبلغه بشكل ودي عن نيته على مد معاهدة السلام لعام آخر ينتهي في أول فبراير عام 1759، كما انه قد اعاد التصريح بتصدير الماشية وغيرها من المواد التموينية إلى حامية جبل طارق. ثم أبلغ كروزفنر بأنه حر في الرحيل غير أنه أعرب عن أمله بسرعة عودته إلى المغرب مخولا بكافة الصلاحيات لإقامة سلام دائم.

ووصل كروزفنر إلى جبل طارق في 2 مارس عام 1758 غير أنه غادرها على الفور بناء على تعليمات حاكمها قاصدا إلى انجلترا ليقدم إلى الحكومة تقريرا أوليا كاملا عما حدث. وفي تلك الأثناء، وخوفا من الأعمال الانتقامية التي يمكن أن يقوم بها الأسطول البريطاني أسرع سيدي محمد بتقديم روايته للاحداث لرئيس الوزراء في لندن. وقد أوكل لعبد الكريم بن زاكور القيام بعملية التفسير، فكتب هذا إلى وليم بت في 6 مارس عام 1758 بشرح القضية من وجهة نظر المغرب

---

(49) SP 71/20, f. 270

بتفصيل شديد. قال: ان ريد كان شخصا ناكرا للجميل بالنسبة للسلطان لأنه قد أمد في الماضي العصاة التابعين لمولاي المستضيء في أصيلا بالأسلحة والذخائر. وثانيا فإنه لما طلب منه السلطان بطريقة مهذبة أول الأمر التعويض عن السفينة التي اغرقها الانجليز فإنه قد رفض الأمر برمته وبطريقة وقحة. ثالثا: عارض ريد بعد ذلك في مطلب السلطان بعشرين ألف ريال كتعويض. وبعدئذ. وبدون أي سبب أطلق النار على نفسه في حجرته وانتحر.

بعثة ميلبانك:

كان وصول هذا الخطاب إلى لندن مقترنا بشدة الحاجة إلى الحفاظ على العلاقات الودية مع المغرب تعزيزاً للجهد الحربي البريطاني (كانت حرب السنوات السبع تزداد استفحالا) مما أغرى الحكومة على النكوص عن رد فعل انتقامي بشكل فوري، وبدلا من ذلك فقد بذلت جهدا لتذليل كل العقبات. لتحرير الأسرى البريطانيين ولعقد سلام دائم مع المغرب. وتم في 25 أكتوبر عام 1758 تخويل الكابتن مارك ميلبانك بكافة صلاحيات التفاوض مع سيدي محمد. وقضت التعليمات الصادرة إليه بالتوجه إلى السلطان بصحبة القنصل العام جوزيف بوبهام الذي خلف ريد في 13 يونيه عام 1758. وحمل ميلبانك معه هدايا بلغت قيمتها ألفا من الجنيهات لتوزيعها على السلطان وموظفيه، غير أن التعليمات الصادرة إليه كانت تقضي بعدم تقديم أي هدايا إلا بعد نجاح المفاوضات. وان عليه الا يتعهد بدفع أي تعويض للسلطان عن سفينته الغارقة حيث لم تر الحكومة البريطانية وجها للوم قائد سيرين على العمل الذي قام به ردا على ما تعرض له من هجوم. أما إذا صمم السلطان على طلب التعويض فقد خول ميلبانك بأن يتقدم بما لا يزيد عن خمسة آلاف جنيها. كما صدرت التعليمات للمبعوث للعمل على اطلاق سراح الأسرى من الرعايا البريطانيين، وقد بلغ عدد هؤلاء آنئذ ثلاثمائة وخمسين شخصا. وكان مائتان وعشرون من هؤلاء من ضباط وبحارة السفينة ليتشفيلد، وتسعة وتسعون هم طاقم سومرست. وثلاثون طاقم ليديا. أما بقية الأسرى بمن فيهم السبعة المينورقيين الذين تم أسرهم عام 1752 فقد قبض عليهم أثناء سفرهم على سفن من البندقية وغيرها من السفن الأجنبية. ويبقى أخيراً أسير برتغالي رأى الانجليز أن الالتزام الأدبي يقضي عليهم بالسعي لاطلاق سراحه ذلك بسبب القبض

عليه وهو على متن سفينة بريطانية.

ولم يصل ميلبانك إلى تطوان إلا في 26 أكتوبر عام 1759 من حيث كتب إلى السلطان على الفور ليبلغه بأنه مخول بدفع الفدية عن الاسرى غير أنه أبلغه أيضا بأنه لن تبدأ أية مفاوضات إلا بعد اطلاق سراح هؤلاء وترحيلهم . وقد طالب السلطان في رده على ميلبانك بامداده بالأسلحة والذخائر ولكن لما كان الأخير غير مخول بالنسبة لهذا الأمر فقد انقطعت المفاوضات وعاد إلى جبل طارق.

ومع ذلك ، ونتيجة لمعاودة الاتصال ، عاد ميلبانك مرة أخرى بصحبة بوبهام ونزلا هذه المرة في الرباط في 4 ماي 1760 ، وما إن بدأت المفاوضات حتَّى تم اطلاق سراح الغالبية العظمى من الأسرى مقابل مائتي ألف ريال اسباني . وتمكن ميلبانك بعدئذ من عقد معاهدة سلام وتجارة ، على نفس الأسس التي قامت عليها المعاهدات السابقة ، تم توقيعها في فاس في 28 يوليوز عام 1760 ومن المواد الهامة التي جاءت فيها المادة التي نصت على أنه بالإضافة إلى المبلغ الذي تم دفعه لاطلاق سراح الأسرى يدفع خمسة وعشرين ألفا من الريالات الاسبانية للسلطان.

« لاتمام تسوية كل الصعوبات والاختلافات والادعاءات والنزاعات الناشبة بين الأمبراطور وجلالة الملك البريطاني أو بين رعاياهما أو بين أولئك القاطنين في ممتلكاتهما ولتقوية علاقات السلام والصداقة الحقيقية والمنيعة بين الأمتين »(50).

وفي نهاية المفاوضات سلم السلطان رسالة إلى ميلبانك لتوصيلها إلى الملك جورج الثاني ، وقد حوت ثناءاً عاطراً على المبعوث ، والذي قال عنه سيدي محمد « الذي تحدثت معه كثيرا ووجدته رجلا على قدر كبير من الوعي أكثر من أي سفير التقيت به من قبل ولهذا فقد ابديت له كل تكريم وكياسة ممكنة كدليل على عظيم تقديري له .. ولو كان سفيركم مارك ميلبانك قد أتاني من قبل لاستقر السلام منذ أمد طويل فإنه الرجل المناسب لهذا العمل وله طريقة في الحديث محببة ولبقة(51) »

وصل خطاب سيدي محمد إلى لندن في 16 دجنبر عام 1760 غير أنه قبل

(50) SP 71/20. f. 514

(51) SP 71/20. f. 578

ذلك بقليل وفي 25 أكتوبر كان قد توفي صاحب الخطاب الملك جورج الثاني وقعت بعض التقلبات في العلاقة بين البلدين التي عرفها أوائل عهد خلفه جورج الثالث وهو العهد الذي امتد حتَّى عام 1820 فقد حدث التحسن في تلك العلاقات التي أرساها ميلبانك فزادت صلابة وقوة . وإذا كان هذا التحسن قد أفاد الأمتين فإن الجانب البريطاني كان الأكثر استفادة بسبب ما حصل عليه من تموين من المغرب لحامية جبل طارق ولسفن الأسطول الملكي مما كان يشكل بالنسبة لانجلترا أهمية بالغة في الحرب والسلم .

الفصل السادس

تموين جبل طارق

تقرر في غشت عام 1761 متابعة الديبلوماسية الناجحة التي استنها الكابتن ميلبانك ، ومن ثم فقد رؤى ارسال ضابط بحري آخر هو الكابتن كليفلاند في بعثة إلى المغرب لابلاغ السلطان بتولية الملك جورج الثالث وللتصديق على معاهدة السلام والتجارة التي كان قد عقدها ميلبانك . واصطحب كليفلاند جوزيف بوبهام الذي عين مؤخرا في منصب القنصل العام لتقديم أوراق اعتماده .

بعثة كليفلاند

ووصل الرجلان إلى مكناس في ديسمبر حيث عقد السلطان مع كليفلاند ثلاثة اجتماعات . وقد سجل بوبهام فيما بعد أن السلطان كان في مزاج سيئ وانه شكا من تأخير الانجليز في التصديق على معاهدة السلام وصرح بأنهم لا يبدون نفس المودة التي يبديها الهولنديون والدانماركيون . وتعبيراً عن غضبه رفض سيدي محمد اطلاق سراح أربعة من الرعايا البريطانيين كان قد تم أسرهم قبل قليل .

بعثة عـديـل

مع ذلك فقد أرسل السلطان في أكتوبر عام 1762 سفيرا له إلى انجلترا هو الحاج عبد القادر عديل الذي سافر على السفينة الحربية بينفيسانت . وكان الهدف الأساسي من وراء سفره شراء الأسلحة والذخائر ومعدات الأسطول . وقد حصل على ثمن هذه المشتروات البالغ الثلاثة آلاف جنيها من السفير الدانماركي في لندن . وتم فعلا ارسال الأسلحة والذخائر والمعدات البحرية إلى المغرب . وتولى مواطن

مينورقي يدعى بدرو أومبرت ، كان قد عمل قبل ذلك لثلاث سنوات نائبا للقنصل البريطاني في الرباط ، تولى حسابات سائر المشتريات كذا حسابات إقامة السفير المغربي . بيد أنه اختفى عندما طولب بتقديم حساباته ولم يتم العثور عليه إلا بعد صيحات المطاردة التي أطلقتها وراءه السلطات البريطانية بناء على مطلب السفير.

العربـة الملكيـة

وفي شتنبر عام 1763 ، وكان عديل لا يزال في انجلترا . جاءت التقارير من بوبهام أن سفن السلطان قد أسرت سفينتين انجليزيتين وان سيدي محمد قد أبلغ القنصل العام بأنه لن يطلق سراح البحارة قبل أن يتلقى كمية من البارود في مقابلهم .

وقد جاء هذا العمل تعبيرا عن سخط السلطان لما لقيه من اهمال من الجانب الانجليزي لمطلبه باصلاح احدى عرباته الملكية ، مما يبدو فيما كتبه بوبهام إلى هالفاكس وزير الإدارة الجنوبية من تطوان في 28 يناير عام 1764 إذ قال : «كان السلطان قد أمرني منذ نحو ثلاث سنوات بارسال هيكل لعربة قديمة إلى اللورد هوم ، حاكم جبل طارق وقتئذ ، لإصلاحها مع غيرها من العربات واطقم الفرسان ..الخ . وقد بقيت العربة المذكورة في دار الحكومة منذئذ دون أن تمتد لها يد ، وكان سبب التأخير فيما يبدو عدم توفر المواد المطلوبة لإصلاحها . وقد تلقيت مؤخرا خطابا من الامبراطور يشكو فيه من عدم اعادة عربته ويتهمني باهمال شئونه وإني لا أستحق أن أكون قنصلا لانجلترا مع غيرها من التعبيرات المهينة ، وبأنه إذا لم تصله العربة فسوف يطردني من بلاده »[1].

وقد رأى بوبهام على ضوء غضب السلطان التوجه إلى جبل طارق بنفسه والتعرف على ما تم للعربة ، وكتب من هناك في 19 مارس « جئت هنا منذ بضعة أيام لأفعل شيئا في مسألة عربة الامبراطور التي أقام الدنيا حولها[2] ، وقد وجدت انه لا يمكن اصلاحها هنا ، وليس من حل سوى إرسالها إلى الوطن حيث أنه يصر

(1) F.O. 52/1 (no folio number)

(2) كان السلطان حريصا على الاحتفاظ بالعربة لأنها كانت عربة المولى اسماعيل

على استعادتها[3] »

عودة لبعثة عديل :

وبينما كان بوبهام مشغولا بقضية عربة سيدي محمد جاءت إلى السلطان التقارير من لندن بأن مبعوثه عديل يتعرض لمواقف صعبة في العاصمة البريطانية . وقد حدث فعلا أمر مشين في 15 فبراير عام 1764 حين تعرض مقر المبعوث لهجوم من بعض الغوغاء . وبعد أسابيع قليلة من الحادث أبلغ هاليفاكس عديل بوصول رسالة من السلطان من خلال حاكم جبل طارق وقد تضمنت التعليمات إلى سفيره بالعودة فورا إلى المغرب وتؤكد عليه باحضار بدرو أومبرت معه .

تأخر عديل أكثر بالرغم من أمر السلطان وكان موجودا في مقره في برومتون بارك حتى شهر ماي عام 1764 ففي يوم 21 من هذا الشهر طلب من اللورد هاليفاكس الحصول على موافقة الملك جورج الثالث ببقائه لوقت أطول في انجلترا « لانهاء بعض الأمور الصغيرة التي لا زالت معلقة » كما قال ، ثم أضاف إلى ذلك « أرجوكم أن تسألوا جلالته تمديد اقامتي ، ومع كوني امدح نفسي فقد تحركت هنا سواء من منطلق وضعي الخاص أو العام بما يتناسب مع حسن السمعة بالرغم من كل التقولات الخبيثة من جانب اعدائي العديدين والنكرات »[4]

لدى رحيل الحاج عبد القادر عديل من لندن إلى المغرب حمّله الملك جورج رسالة إلى سيدي محمد ، جاء في هذه الرسالة المؤرخة في 25 ماي عام 1764 والمكتوبة في قصر سان جيمس دفاع حار عن سلوك المبعوث المغربي إذ قال الملك جورج « نحن ممتنون لعناية جلالتكم التي تبدت في ارسالكم شخصية مرموقة مثل سفيركم المذكور والذي قام بتنفيذ أوامركم الامبراطورية بكل عناية ودقة وقد رأيت انه من المناسب لدى رحيله الادلاء بشهادتنا بالتقدير الكامل لسلوكه خلال الفترة التي بقاها في بلاطنا .. »

وذهب الملك جورج في قوله إلى أن القنصل بوبهام قد أبلغه بأن السلطان راغب

---

(3) F.O. 52 1 (no folio number)

(4) SP 71/20 ff. 655-6

في الحصول على بعض المنتجات البريطانية وان الملك قد أمر بإرسال تلك المنتجات الى سيدي محمد عن طريق جبل طارق «كرمز بسيط لما نحمله لشخصكم السامي ومقامكم العالي من صداقة وتقدير[5]».

بعثه الميستيري

وقرر السلطان في غشت عام 1766 ارسال مبعوث آخر الى انجلترا هو الحاج العربي الميستيري حاكم سلا القديمة وقائد أسطول السلطان. واصطحب معه الحاج محمد السعيدي واثنين آخرين من المغاربة. وقد سافروا على احدى سفن السلطان العسكرية وهي السفينة (النمر) ووصلوا إلى بلايموث في 17 أكتوبر. وكان الهدف الرئيسي من رحلتهم شراء سلع انجليزية متنوعة لسيدي محمد غير أنهم حملوا أيضا معهم رسالة للملك جورج الثالث. أكدت هذه الرسالة: «تستطيعون الاعتماد على حسن نوايانا في كل ما تريدونه من بلادنا أو موانينا وذلك بخدمتكم في كل شيء فيه مرضاة الله..[6]»

وبوصول (النمر) إلى بلايموث تبين انها في حاجة إلى فحص وتجديد شاملين بعد رحلتها عبر الاطلنطي. وكتب اللورد شلبورن وزير الإدارة الجنوبية إلى لجنة البحرية في 15 يناير عام 1757 يطلب منها اصلاح باخرة السلطان وتهيئتها للعودة إلى بلادها دون أي مقابل. وفي أثناء وجود السفينة بحوض الاصلاح، وحماية للبحارة المغاربة من قسوة الشتاء أو أي شيء آخر يسبب لهم الضيق طلب شيلبورن ايواءهم في بيت الضيافة الملكي في بلايموث وتقديم كل ما يحتاجون إليه، ومعاملتهم بنفس معاملة البحارة الانجليز في هذا البيت.

وفي خطاب آخر كتبه السلطان إلى الملك جورج الثالث في شتنبر عام 1766 رحب بسيادة الانسجام والسلام التام بين بريطانيا والمغرب وأشار إلى امكان ازالة أي سوء فهم ينشأ في المستقبل بين البلدين من خلال تبادل المراسلات بين العاهلين. وختم السلطان خطابه برجاء التصريح لمبعوثه بالعودة إلى المغرب وإرسال مهندس

SP 71/20 f. 661 (5)
SP 102/2 f. 15 (6)

وعشرة من العمال الانجليز المهرة في تشكيل الرخام بصحبة السفير(7).

أزمة بحارة لارك :

غير أن العلاقات السلمية بين البلدين تعرضت في مارس عام 1771 لحادث خطير ، فقد غرقت احدى سفن لفربول ، وهي السفينة لارك ، عند رأس بون.

وبعد أن نجح البحارة الناجون منها في الوصول إلى الشاطئ إذا بهم يجدون في انتظارهم رجال القبائل بالمنطقة الذين أسروهم وباعوهم مع قائد سفينتهم لحاكم أكادير ، مقابل ثلاثين ريالا اسبانيا لكل . وقد أرسل الحاكم الأسرى إلى السلطان في مراكش ، ومن هناك كتب جيمس هايز قائد السفينة إلى جيمس سامبسون . وهو الذي خلف بوبهام قنصلا عاما في تطوان في مارس عام 1770 ، وكان يعمل من قبل قنصلا بريطانيا في الجزائر .(8)وقد روى هايز ما حدث وطالب بنجدته هو ورجاله ، ومن ثم فقد كتب سامبسون إلى السلطان يرجوه اطلاق سراح الأسرى . غير أن سيدي محمد صمم على تعويضه قبل اطلاق سراح الأسرى طالما انه قد اشتراهم من خلال حاكمه في أكادير من القبائل الهمجية الخارجة عن نطاق سلطته.

وجاء في الخطاب الذي بعث به اللورد روشفورد وزير الدولة للشئون الجنوبية إلى القنصل العام سامبسون والمؤرخ في 29 مارس 1771 بأن هناك « سبب أساسي واحد للرغبة في الابقاء على صداقة وثيقة مع الامبراطور وهو التموين المطلوب لحامية جبل طارق »(9).

غير أن مسألة أسرى مراكش سرعان ما تطورت على نحو هدد الصداقة التي كان جورج الثالث حريصا على استمرارها مع السلطان . فقد تدهورت العلاقات بين

---

(7) SP 102/2 ff. 22-3 تشبه هذه الرسالة سائر الرسائل التي أرسلها السلاطين إلى الملوك الانجليز والمحفوظة في الأرشيف فهي نموذج جميل للخط الحسن . الملون بعناية بالألوان الحمراء والزرقاء والذهبية حتى إنه يبدو كعمل فني مثل مخطوط مزخرف من مخطوطات العصور الوسطى . وكان خطابات السلاطين توضع عادة داخل منديل من الحرير الثمين.

(8) كان قد تم استدعاء بوبهام بناء على رغبة السلطان

(9) F.O. 52/2

القنصل العام والسلطان إلى حد اضطر سامبسون معه إلى الهرب إلى جبل طارق لتجنب غضب سيدي محمد . ومن هناك كتب القنصل العام إلى اللورد روشفورد في 31 يناير عام 1772 يحدثه عن الأسباب المأسوية التي دفعته إلى ترك مقره ، قال :

« سيدي — نجوت بحياتي من بلاد البربر بعد صعوبات جسيمة واجهاد عصبي وخطر بالغ . ولقد وصلت إلى هنا صباح اليوم لا أحمل سوى بعض الملابس القديمة . فقد أصدر الأمبراطور في 26 الجاري أمرا نشر في تطوان وكان تنفيذه سيؤدى بي إما إلى الموت جوعا أو إلى الهياج الجنوني . ذلك انه فرض غرامة قدرها أربعة آلاف دوكات (ريال) على أي شخص يأتي إلى المنزل الذي أعيش فيه أو يتحدث معي ..[١٠] » —واسترسل سامبسون قائلا انه وجد لحسن حظه سفينة في تطوان على وشك الابحار إلى جبل طارق وانه قد تنكر هو وخادمان لديه في زي البحارة وسافروا متخفين إلى جبل طارق ».

جاء رد اللورد روتشفورد المؤرخ في 13 مارس 1772 وقد اتسم بالإدانة وعدم التعاطف ، فقد قال « لقد ورطت نفسك في الصعوبات والمحن التي أشرت إليها نتيجة لنقص في تدبر الأمور وفهم سليم لشرف الأمة ..[١١] » وقد قصد بهذا الإشارة إلى رفض سامبسون الذهاب إلى بلاط السلطان بعد أن دعاه الأخير إلى ذلك بدعوى أنه لم يكن يملك امكانيات القيام بهذه الزيارة ، خاصة ما اتصل منها بالهدايا التي اعتاد القنصل العام على توزيعها . أضف إلى ذلك ان سامبسون قد أبلغ السلطان بأنه لا يستطيع التوجه اليه بأي حال دون أمر من الملك جورج مما دعاه إلى أن يقترح على سيدي محمد انجاز كافة الأمور بينهما من خلال الرسائل المتبادلة . وقد أغضب هذا الاقتراح السلطان أشد الغضب وهو الذي دعاه إلى إصدار الأمر الذي تحدث عنه سامبسون في خطابه الى اللورد روتشفورد المؤرخ في 31 يناير . وقد استرسل الوزير في خطابه الذي كتبه إلى القنصل العام في 13 مارس عام 1772 يقول :

« إن ما ادليت به بشأن لقاءاتك كان غير كاف ومخطئ إلى أبعد حد ويعكس

---

(10) F.O. 52/2
(11) Ibid

المهانة لبعثة جلالة الملك . وعموما فإنه بعد ما وصلت إليه العلاقة بينك وبين الامبراطور من سوء حال وبعد ما أصبح يكنه لك الأمير من مقت شديد فإن هناك استحالة في بقائك في خدمة جلالة الملك في تلك البلاد[12] ».

تم استدعاء سامبسون بعد هذا التوبيخ العنيف وحل محله لفتنانت من الأسطول الملكي يدعى تشارلز لوجي . وقد تسلم لوجي في يوليوز عام 1772 رسالة من الملك جورج الثالث إلى السلطان يطلب منه فيها اطلاق سراح الكابتن هايز ورجاله وغيرهم من الأسرى الانجليز ممن سبق القبض عليهم . وحتّى يمكن ارضاء سيدي محمد فقد حمل لوجي معه بالإضافة إلى الهدايا المعتادة من الأقمشة والساعات وغيرها ، بندقيتي ميدان وكرسي منقوش مخصص للجلوس في الخلاء.

ووصل لوجي إلى مراكش في اكتوبر عام 1772 وسلم الخطاب والهدايا الملكية . ونجح فعلا في اطلاق سراح الأسرى الانجليز مقابل 697 جنيها ، غير أنه بالرغم من ذلك فقد رفض السلطان مقابلته تعبيرا عن غضبه من سلوك سامبسون بل انه أصدر أمرا باقتصار وجود النصارى في المستقبل على تطوان .

بعثة بن يدر :

قبل ذلك كان سيدي محمد قد أرسل مبعوثا خاصا إلى انجلترا وهو يهودي مغربي اسمي يعقوب بن يدر . وقد وصل هذا إلى لندن في أوائل غشت عام 1772 حيث أقام في شارع سافولك في بول مول . وجاء في الخطاب الذي حمله ما يفيد بأن السلطان قد أرسله لابلاغ الملك جورج بما عرضه عليه الاسبان في نوفمبر عام 1770 بدفع مائتي ألف ريال مقابل وقف التجارة الانجليزية عن المغرب والامتناع عن تموين جبل طارق وبأنه قد رفض هذا العرض لصداقته العظيمة مع بريطانيا. مقابل ذلك اعرب عن أمله في السماح لبن يدر بشراء المدافع وغيرها من الأسلحة التي يحتاجها السلطان من انجلترا لضرب القلعة الاسبانية في سبتة ؛ وختم سيدي محمد رسالته بالإشارة إلى سبب اختياره لبن يدر للقيام بهذه البعثة وهو انه كان شاهدا على العروض التي قدمها الاسبان كذا « بسبب سوء الصفقات التي عقدها

Ibid (12)

سفراؤه السابقون إلى انجلترا[13].

ولكن اتضح بعد قليل ان بن يدر كان أحد يهود جبل طارق. فاعتبر نتيجة لذلك رعية بريطانية، خاصة وانه كان قد عمل قبل ذلك لفترة نائبا للقنصل في موكادور. من ثم فقد أبلغ بأنه لا يمكن قبوله سفيرا للمغرب وان كان قد تم ابلاغه في نفس الوقت بأنه سوف يتمتع بما يتمتع به السفير المعتمد من تسهيلات، ومخصصات لازمة لإقامته، وحصانة ديبلوماسية. كذا طولب بن يدر بابلاغ السلطان ببعثة لوجي. وقد جاءت الأخبار في نوفمبر عام 1772 بوصول البعثة الى مراكش. وعلى عكس الحقيقة أفاد بأنه قد تم استقبال لوجي استقبالا حسنا.

ولم يستقبل لورد روتشفورد المبعوث المغربي استقبالا رسميا الا في 4 مارس عام 1773 واستمع منه لمطالب السلطان بالتفصيل. وكانت فيما يتصل بالمطالب الحربية: أربعين مدفعا وألفين من قنابلها وأربعة مدافع هاون وخمسمائة من قنابلها، أما فيما يتصل بغيرها من المطالب فقد رجا سيدي محمد ارسال خمسة من اطقم الشاي والقهوة الصيني، وكرة ارضية، واسطرلاب، وتلسكوب.

وعندما تم ابلاغ بن يدر بصعوبة الوفاء بكافة متطلبات السلطان رد على ذلك برسالة كتبها إلى اللورد روتشفورد في 28 يونيه عام 1773 أخذ يسوق فيها الأدلة المقنعة بأن مصالح انجلترا الخاصة تقتضي الاستجابة إلى مطالب سيدي محمد. قال:

« اسمحوا لي بالتأكيد لفخامتكم بأني لا أقصد القول بأن الأمبراطور لديه ما يتكافأ مع الأمة الانجليزية من أساطيل وجيوش. ولكن ينبغي التذكير بأنه في امكانه القيام وهو في أمان تام بأعمال غير محببة يترتب عليها متاعب ونفقات وفرص قد يقتنصها لتقديم طلبات عالية التكاليف، ومن ثم فإنه عندما يتقدم الآن وبشكل ودي للغاية بطلب الأشياء التي ذكرتها فإنه يفعل ذلك على ضوء علامات الصداقة المذكورة التي أبداها وعلى ضوء ما رفضه من عروض مجزية.. وقد أرسل مؤخرا رسالة إلى جبل طارق جاء فيها انه بالرغم من رفعه للرسوم المفروضة على تصدير

---

(13) SP 71/21

المواد التموينية من بلاده فإنه لن يطبق ذلك على تموين جبل طارق. على ضوء كل ما عرضت على فخامتكم الا ترون ان كل هذا السلوك الودي يستحق الرد عليه بمثله حتّى يمكن دوامه »[14]

بالرغم من ديبلوماسية بن يدر ذات الطابع الاغرائي فقد رد روتشفورد عليه في 6 يوليوز بعدم امكان تلبيته كافة طلبات السلطان وقام بن يدر بابلاغ سيدي محمد بالرد الإنجليزي. ترتب على هذا أن قلص السلطان طلباته الى عشرين مدفعا فقط. غير أن الطلب الجديد لقي بدوره الرفض. اثر ذلك أبلغ اللورد روتشفورد بن يدر أن ـ مخصصاته لن تستمر الا إلى أواخر شتنبر مما كان بمثابة إشارة مهذبة إلى وجوب رحيله في هذا الوقت.

بالرغم من ذلك بقي بن يدر في لندن، وقد كتب في 24 أكتوبر إلى اللورد يشكو تعرضه للعنف من رجل يدعى ويليامز كان قد كلفه بايجاد مسكن له، ذلك أنه لما رفض بن يدر دفع الفاتورة المطلوبة لما رآه فيها من مبالغة استصدر ويليامز أمرا باعتقاله وجاء مع أحد الضباط ليقتاده إلى سجن مرشلي ولم ينقذه سوى تدخل مستر مارش القاضي الذي استأنف أمامه أمر الاعتقال.

وقد كتب بن يدر في 29 أكتوبر خطابا إلى اللورد روتشفورد ينضح بالأسى تضمن شكواه بعدم اتخاذ اي اجراء حيال المعتدين عليه. غير أنّ اللورد روتشفورد لم يكلف نفسه بالرد على هذا الخطاب ولا على غيره من الخطابات التي أرسلها إليه مما دعاه أخيرا إلى الرحيل إلى المغرب في دجنبر عام 1773.

بعثة سيدي طاهر فنيش

بعد أيام قليلة وصل إلى لندن سفير آخر للسلطان هو سيدي طاهر فنيش الذي جاء على السفينة الحربية البريطانية « الارم » ونزل في سبيتهيد في 20 دجنبر عام 1773. وكان على السفير الجديد تقديم هدية من السلطان إلى الملك جورج الثالث عبارة عن فهدين وعشر من الخيول نقلتها سفينة أخرى من جبل طارق. وأرسل السلطان مع الحيوانات عددا من المدافع القديمة رجا اصلاحها في مصانع السلاح

---

(14) Ibid

الانجليزية.

وقد أكد اللورد روتشفورد في المحادثات التي أجراها مع السفير الجديد بأنه إذا ما استمر السلطان في التصريح بتموين جبل طارق والسفن الحربية البريطانية من المغرب سوف يكون هناك « مقابل مناسب في علاقات الصداقة » على حد تعبير روتشفورد . ثم ان لورد روتشفورد في محاولة منه لابداء المرونة قبل قرار السلطان باخراج النصارى ، بمن فيهم الانجليز ، إلى تطوان ، واستطرد قائلا إن الملك جورج يرى أن يستقر قنصله العام في طنجة ومع ذلك فهو يطلب الاذن بالاحتفاظ بمكتب انجليزي في مارتيل ميناء تطوان.

وفي الخطاب الصادر من سان جيمس بتاريخ 23 يونيه عام 1774 والمرسل مع طاهر فنيش كتب الملك جورج الثالث إلى السلطان « لقد تلقينا هداياكم التي بعثتموها مع سفيركم تعبيرا عن صداقتكم ، وقد أبلغنا هذا السفير انه ليس من شئ مرغوب منكم لدينا مثل عدد من المدافع الكبيرة ، ومن ثم فقد امرنا باعداد ثلاثين من هذه المدافع بعرباتها بكل ما يلزمها لإرسالها إلى جلالتكم كدليل مؤكد على ما نحمله لكم من ود وتقدير ... ولا نستطيع انهاء رسالتنا دون التعبير عن مدى تأثرنا مما ابديتموه من انسانية تجاه عدد من بحارتنا ورعايانا الذين غرقت سفنهم على سواحلكم واسترقهم العرب البدائيون . ونحن نعتمد تماما على استمراركم في ابداء مظاهر الصداقة في أية مناسبة تعيسة بهذا الشكل ، ولكم أن تثقوا بأن رعاياكم سوف يلقون نفس المعاملة الودية من كل قوادنا في البحر والبر والذين تلقوا منا الأوامر بهذا المعنى . ونتمنى لكم من قلوبنا كل صحة وسعادة وندعو لكم برعاية الرحمن [15] ».

تأخر الساعات :

وحمل سيدي طاهر فنيش الخطاب عائدا على السفينة الحربية الانجليزية التيمز فوصل إلى طنجة في 28 يوليوز عام 1774 ، وقد تبع ذلك فترة من حسن العلاقات استمرت حتى عام 1776 حين أعرب السلطان عن غضبه لتأخر

---

(15) F.O. 52/3

ساعتين ، احداهما حائطية والأخرى شخصية ، كان قد أرسلها للإصلاح في انجلترا قبل أكثر من ثلاث سنوات . وقد واجه القنصل العام لوجي الضغوط من جانب موظفي السلطان حول هذا الموضوع مما دعاه بدوره إلى الضغط على اللورد روتشفورد حتّى أن الوزير مدفوعا بالشعور بمسئولية ادارته عن التأخير كتب خطابا لاذعا إلى لوجي في 23 يونيه جاء فيه « فيما يتصل بكل من ساعة الحائط والساعة الشخصية الخاصتين بامبراطور المغرب واللتين تم ارسالها هنا للاصلاح فقد سكت عن الرد على هذا الموضوع لاقتناعي بعدم لياقة طلبكم بشأنه ، إلا أنه لتجنب المزيد من الازعاج فسوف يتم اصلاحها حالا وارسالها إليك ، غير أنه عليكم في المستقبل تجنب ازعاجي بمهام من هذا النوع[16] »

ولكن لم تصل الساعتان حتّى أول يناير عام 1776 وعاد لوجي ليكتب إلى اللورد ويموث الذي خلف اللورد روتشفورد في منصبه وزيرا للإدارة الجنوبية بأن السلطان في « غاية الغضب ». وكان القنصل العام محقا ذلك أن سيدي محمد اظهارا لغضبه قد رفع الرسوم المفروضة على المواد التموينية المرسلة إلى جبل طارق بمقدار الثلث . وقد صدرت التعليمات للوجي للاحتجاج على عمل السلطان الذي اعتبر انتهاكا لمعاهدة السلام والتجارة الإنجليزية — المغربية.

التـوتـر :

لم يعر سيدي محمد الاحتجاج اهتماما بل ان غضبته زادت من جراء ما حدث لدى جنوح احدى سفنه على الشاطئ بالقرب من جبل طارق حيث قام الانجليز باصلاحها وعندما لم تدفع تكاليف الإصلاح بيعت في المزاد العلني للحصول على هذه التكاليف . وفي هذه الظروف أرسل بيتر كوين نائب القنصل الانجليزي في موكادور إلى مراكش في يونيه عام 1778 للعمل على اطلاق سراح بعض البحارة الانجليز الذي غرقت سفينتهم قرب رأس نون في دجنبر عام 1776 واستردهم السلطان من بعض رجال القبائل الذين أسروهم مقابل فدية دفعها لهؤلاء.

استقبل السلطان كوين وبصحبته كل من قنصلي السويد والبندقية ، وكان لقاء سيدي محمد مع مثل هذه الصحبة مربكا للغاية . فقد بدأ السلطان بالقول لكوين

Ibid (16)

ان الانجليز خدعوه أعظم خديعة . وانه يعتقد بأن الملك جورج الثالث نفسه غير ملوم لكنه محاط بعدد من المستشارين الأشرار . واردف السلطان بأنه لم يسمع كلمة واحدة صادقة من القناصل البريطانيين في المغرب . غير انه اظهارا لحفاظه على كلمته فسوف يطلق سراح البحارة الانجليز كما وعد .

وطرد كوين بعد هذا الاستقبال السيئ من حضرة السلطان ولم يحظ بمقابلة أخرى . وقد غادر مراكش في 17 يوليوز عام 1778 ، راضيا حقيقة باصطحاب الأسرى معه ، غير أن هذا الرضاء قد شابه ايمان بأن العلاقات الانجليزية — المغربية قد أصابها انحسار شديد . ويبدو أن الأمر قد صدر فورا إلى القنصل العام لوجي بالتوجه إلى قصر سيدي محمد لاصلاح ذات البين.

ومن المؤكد أنه قد فعل ذلك لأنه بينما كانت بريطانيا مشتبكة عام 1779 في حرب مع اسبانيا خلال حرب الاستقلال الأمريكية ابدى السلطان كل روح ودية عندما حاصر الأسطول الاسباني جبل طارق اذ رفض المحاولة الاسبانية لرشوته للتوقف عن تموين جبل طارق كما رفض أيضا امداد الاسبان بقمح بلاده.

قطع العلاقات ثم اعادتها

غير أنه لسوء الحظ لم تستمر هذه الروح الودية لوقت طويل إذ استجاب السلطان أخيرا للاغراءات الاسبانية وعقد اتفاقا مع عدوه التقليدي . وتم بمقتضى هذا الاتفاق وضع كل من مينائي العرائش وطنجة تحت تصرف الإسبان لمدة سنة تبدأ من أول يناير عام 1781 في مقابل دفع مبلغ من المال واطلاق سراح مائة من الأسرى المغاربة . وقد تمخض عن هذه الاتفاقية طرد القنصل العام لوجي وعشرين بريطانيا من طنجة بدون .انذار وبدون أن يسمح لهم حتى بأخذ أغراضهم الشخصية ، ونقلتهم السفن الحربية الاسبانية تحت علم أبيض في 28 دجنبر 1780 إلى جبل طارق المحاصر.

وعندما انقضت مدة الاتفاقية مع اسبانيا في 31 دجنبر عام 1781 أعاد السلطان فتح طنجة والعرايش لسفن جميع الأمم بما فيها السفن الانجليزية . وقد كتب رسالة إلى الملك جورج الثالث سلمها مسعود دي لامار ، وهو تاجر يهودي

مغربي يقيم في امستردام . كتب سيدي محمد في هذه الرسالة انه قد طرد لوجي لأنه ، أي القنصل العام ، كان غشاشا ولأنه وصلت السلطان تقارير سيئة عنه . وانثنى سيدي محمد ليدعو الملك جورج إلى تغيير لوجي وارسال شخص آخر إلى المغرب كقنصل عام . وان مثل هذا التغيير سيلقى الترحيب كما أن القنصل الجديد سيلقى حسن الاستقبال.

وفي شتنبر عام 1782 نجح أسطول بريطاني في رفع الحصار الطويل المفروض على جبل طارق وفي انقاذ الحامية المنهكة ، ولكن وقبل أن تصل أنباء هذا النجاح إلى المغرب كتب السلطان ثانية إلى جورج الثالث يعرض تموين الأسطول البريطاني وحامية جبل طارق مرة أخرى . وقد عبر في هذه الرسالة ، ثانية عن صداقته لبريطانيا ، كما عاد ليؤكد سخطه على القنصل العام لوجي ، وقد وصلت رسالة السلطان خلال المرحلة الأخيرة الحرجة من مراحل حرب الاستقلال الأمريكية مما دعا الحكومة البريطانية إلى التعبير عن سرورها من سياسة الانفتاح التي عاد سيدي محمد لانتهاجها بالرغم من انتقاداته للقنصل العام.

بعثة روجر كيرتس

وأجاب الملك جورج الثالث في 16 يناير عام 1783 على سيدي محمد يبلغه بأنه يشاركه رغبته بتأكيد معاهدة السلام والتجارة وتمديدها . وعبر الملك عن أسفه للمضايقات التي سببها القنصل العام لوجي للسلطان وانه قد عين سير روجر كيرتس القائد العام للقوات البحرية في جبل طارق سفيرا في البلاط السلطاني ولتسليم الخطاب الملكي وللتفاوض حول اعادة العمل باتفاقية السلام والتجارة التي كان قد عقدها الكابتن ميلبانك في 28 يوليوز عام 1760.

وكان من الأهداف الأخرى لسفارة سير روجر كيرتس اطلاق سراح أي من الأسرى الانجليز ممن يمكن أن يكون السلطان قد قبض عليهم . وللتأكيد على تموين حامية جبل طارق . وتضمنت التعليمات التي صدرت لكيرتس تحذيره من ابداء أية غطرسة أو قلة كياسة مما تسبب في فشل بعض البعثات السابقة ، وقد طلب منه : « بأن تسعى بكل الوسائط لكسب محبة وثقة السلطان وكبار وزرائه والمقربين اليه

بأكثر انماط السلوك احتراما »[17]. أكثر من ذلك كان من بين ما تسلح به كيرتس لعقد علاقة ودية مع السلطان أن يتقدم لهذا الأخير بهدية ، هي الفرقاطة بوركوبين ، إذ رأى ذلك مناسبا. وهكذا تهيأت كل الظروف لنجاح بعثة كيرتس لدى رحيله من جبل طارق في 15 أبريل عام 1783 :

وقد وصل إلى طنجة في 17 أبريل حيث أعد له حاكمها سيدي طاهر فنيش ، السفير المغربي السابق إلى بريطانيا ، استقبالا حافلا ، شارك فيه عدد من الاشراف ، وقد حظي بشرف لقاء الأمير المولى عبد الملك أقرب أبناء سيدي محمد إلى قلبه. ورحب الأمير باسم أبيه بالسير روجر وقال ان السلطان قد أرسله ليعبر له عن سعادته بعودة الوفاق مع الإنجليز. وفي تقريو بعث به كيرتس الى لندن في 19 أبريل قال « يناهز الأمير نحو الثلاثين من العمر ، وهو يتميز بذكاء غير عادي بالإضافة إلى حسن سلوك وأدب مخاطبة يؤهله إلى البروز في أي بلاط أوربي .. وفيما رأيته من هؤلاء الناس خلال معاملتي معهم فإنه ليس من خطأ أكبر من النظر إليهم باعتبارهم متخلفين. وأخشى أن آراء من هذا القبيل تخلف أسوأ النتائج ... فالمغاربة شعب عنيف وفطن وهو حساس جدا فيما يتصل بمكانته ويستفزه إلى أقصى حد تصور بأنه يعامل بدون اعتبار ..»[18]

وقد أبدى السلطان لكيرتس تكريما لا مثيل له حين أرسل له خطابا بأنه سوف يقابله في الرباط ليريحه من القيام برحلة طويلة إلى المقر الملكي. وتم اللقاء في 10 ماي عام 1783 ، وقال كيرتس ان سيدي محمد كان مجاملا بشكل غير عادي ». وفي هذا الجو الودي وقع كيرتس في 24 ماي موادا جديدة تمت اضافتها إلى اتفاقية السلام والتجارة بين بريطانيا والمغرب. وقد أكدت هذه المواد على السلام والصداقة بين البلدين ، وعلى حق التجار الانجليز في التعامل مع المغرب واسترداد ديونهم التي لهم فيها. وقررت المادة الثالثة اعادة الدار التي كان يقيم بها نائب القنصل في طنجة إلى البريطانيين ، وبالرغم مما تقرر من عدم استرجاع لوجي لداره

---

(17) F.O. 52/5

(18) Ibid

فقد تم الاتفاق على أن يستعيد كل أثاثه وسائر متعلقاته الشخصية . وبدلا من المقر القديم للقنصل البريطاني العام منح دارا كان يقيم فيها من قبل الحاكم فنيش . وأكثر من ذلك فقد وعد السلطان بمقتضى المادة الخامسة ببناء دار للوكيل البريطاني في مارتيل ميناء تطوان . ومنحت المادة السادسة البريطانيين الحق في الحصول على « الامدادات والمنعشات » من كل الموانئ المغربية معفاة من الرسوم لمدة عام يبدأ من أول أبريل عام 1783 على أن يتفق بعد ذلك على قيمة هذه الرسوم.

وكانت مطالب السلطان ، في مقابل كل ما قدمه ، متواضعة للغاية . فقد طلب من كيرتس اصلاح ساعة لديه واضافة قرص فضي إليها . كذا طلب صنع ساعتين ذهبيتين مخصوصتين وترصيعها بالجوهرات ، وقدم سيدي محمد لكيرتس الجوهرات التي تستخدم في هذا الشأن . وقال السلطان أيضا انه يود إرسال كمية من النحاس الأصفر إلى انجلترا لصنع مدفع منها . وطلب أخيرا من سير روجر كيرتس أن ترسل له من انجلترا كمية من الملابس الكتانية بألوان ومواصفات محددة .

القنصل باين :

وتم في أبريل عام 1784 تعيين جورج باين قنصلا عاما في المغرب خلفا للوجي ، وقد سافر إلى المغرب يحمل تعليمات تقضي بزيارة السلطان بأسرع ما يمكن ليقدم له أوراق اعتماده ورسالة من الملك جورج الثالث . وتضمنت هذه الرسالة المؤرخة في 28 أبريل عام 1784 الشكر لسيدي محمد على ما قدمه من امتيازات خاصة ما اتصل منها بامداد جبل طارق بمواد تموينية معفاة من الرسوم لمدة عام . واسترسل خطاب الملك « ونرسل لكم مع قنصلنا هدية عبارة عن قماش من الجوخ وأشياء أخرى من مصنوعات بلادنا. كما أن قنصلنا المذكور مكلف بأن يسلم لجلالتكم الساعة التي كان قد سبق تسليمها للسفير الأخير سير روجر كيرتس والتي تم اصلاحها بالطريقة التي رغبتموها ومعها ساعة ذهبية جديدة بالإضافة إلى ساعة حائط موسيقية وكمية من الأقمشة الكتانية بالمواصفات التي طلبتموها من سفيرنا المذكور . ويقوم الآن أفضل صانعين في المملكة وبكل عناية باعداد الساعتين الأخريين اللتين أبديتم رغبتكم فيهما بأن تكونا في أغطية ذهبية ومرصعتين بالجوهرات »[19] .

F.O. 52/6 (19)

وقد تلكأ باين في السفر إلى مراكش مما دعا الوزير اللورد سيدني الى الكتابة اليه ينذره بالفصل إذا لم يغادر طنجة بدون أي تأخير. وقد رد باين على ذلك في 20 يونيه عام 1785 واتسم رده بقدر من الوقاحة المستغربة. جاء فيه: «تشرفت باستلام خطابكم المكتوب منذ أكثر من شهرين بعد أن أعددت العدة للسفر إلى بلاد البربر. وقد فهمت منه بانه سوف يحل محلي آخر إذا استمررت في الاهمال في تأدية الواجب الذي كلفتموني به. وإني أحيي بحرارة قيام فخامتكم بتنفيذ واجبات منصبكم على هذا النحو الحازم غير أنه بالرغم من ذلك فإن خطابكم لا يتفق مع الحكمة التي تعلمناها في المدرسة والتي تقول (قوى في العمل مجامل في السلوك)[20] »[21].

ووصل باين إلى مراكش اعقاب ذلك في أواخر يونيه عام 1785 واستقبله السلطان بحفاوة وان كان قد أشار إلى انه بالرغم مما وعده به روجر كيرتس من اصلاح سفنه الحربية في جبل طارق فلم يتم تنفيذ هذا الوعد. ودعا ذلك سيدي محمد إلى ارسال باين إلى انجلترا بخطاب للملك جورج الثالث. وتضمن الخطاب المؤرخ في 20 شعبان عام 1199 (5 يوليوز 1785) شكوى السلطان من أنه قد أرسل ثلاث سفن للاصلاح في جبل طارق فرفض حاكمها اصلاح اثنتين منها ووافق على اصلاح الثالثة فقط في مقابل خمسة آلاف من الجنيهات، وقد تساءل سيدي محمد عما إذا كان هذا السلوك يوحي بالصداقة أم بالعداء[22] ؟

وكانت لدى السلطان أسباب أخرى للسخط، فبعض الأقمشة التي أرسلت إليه كانت من النوع الرخيص. والأهم من ذلك أنه بالرغم مما وصل إلى سيدي محمد من شائعات بأنه سيحصل على سفينة هدية من البريطانيين لم يصله شيء. ذلك انه لما كان قد ترك لروجر كيرتس أن يقرر ما إذا كان تقديم الفرقاطة بوركوبين هدية للسلطان لازما أم لا، فقد كتب هذا المبعوث فيما بعد بأنه وجد سيدي محمد في مزاج طيب رأى معه أن لا داعي لتقديم بوركوبين مع سائر الهدايا.

---

(20) Ibid

(21) جاء هذا المثل باللاتينية وترجمه المؤلف إلى الانجليزية بالهامش (المترجم)

(22) F.O. 52/6

وقد بعث الملك جورج الثالث برده إلى السلطان في 7 مارس عام 1786 وشرح له فيه استحالة اصلاح السفن التي لم يتم اصلاحها في جبل طارق بسبب نقص الإعداد . غير أن الملك جورج أكد لسيدي محمد بأنه إذا ما تعرضت أي من سفن السلطان للعطب بسبب العواصف أو لأي سبب آخر يمكنها اللجوء إلى جبل طارق حيث ستستقبل بكل ترحاب . وتطرق الملك بعد ذلك إلى مسألة الأقمشة التي تم إرسالها إلى سيدي محمد وعبر عن أسفه الشديد مما علمه من أن بعضها كان من النوع الرخيص ووعد سيدي محمد بالتحقيق في شكواه وان الأشخاص المسئولين عن إرسال هذه الأقمشة سيلقون أشد العقاب . وأبلغ الملك جورج الثالث السلطان أخيرا بأنه سوف تصل إليه في وقت قريب الساعتان الذهبيتان المرصعتان بالمجوهرات.

وقبل رحيل القنصل العام باين إلى انجلترا بخطاب السلطان إلى الملك جورج الثالث كان قد عين في أول أكتوبر عام 1784 نائب القنصل في طنجة تشارلز آدم دف قائما بأعماله فترة غيابه . ولكن ما أن رحل باين حتّى أخذ دف في العمل على تدمير سمعة رئيسه ، فقد اتهم باين في تقارير متتالية بعث بها إلى الوزير بأنه يقوم بعمله على نحو مزر وانه قد أساء إلى هيبة البريطانيين في عيون المغاربة . ووصل دف إلى التأكيد بأنه إذا ما عاد باين إلى المغرب فسوف تتعرض حياته للخطر نتيجة لروح العداء التي أثارها هناك.

وقد اقنعت رسائل دف اللورد سيدني بأن الرجل منافق بلا أخلاق وان ما دفعه للحملة ضد باين إنما هو طمعه في منصب القنصل العام . ذلك انه عندما تم التحقيق في تلك الشكاوى تقدم مترجمه السابق والمدعو جيمس شو بشهادته في 17 ماي عام 1790 والتي جاء فيها انه قد قام بناء على أوامر دف بابلاغ حاكم طنجة القايد محمد بن عبد الملك بأنه إذا ما نجح في حث السلطان على توصية الحكومة البريطانية على تعيين دف قنصلا عاما لها فإنه سيدفع للقائد مبلغا سنويا طالما بقي في هذا المنصب .

بالرغم من كل ذلك يبدو أن خطابات دف التي أرسلها إلى اللورد سيدني حول باين قد خلفت بعض الأثر ، ذلك أن الوزير قد اتخذ موقفا عدائيا من القنصل بدا في الخطاب الذي وجهه إليه في أول غشت عام 1786 والذي جاء فيه « على ضوء

الظروف التي جدّت يبدو أنه لن تكون عودتكم لتلك البلاد (المغرب) ذات جدوى لحكومة جلالته »[23]. غير أن دف لم يحصد ثمار خيانته لباين ذلك أنه قد تعين في المنصب ماريو ماترا بينما تم استدعاء دف إلى انجلترا لنفس سبب استدعاء باين وهو طريقة قيامه بعمله . وقد استنجد دف في يونيه عام 1787 باللورد سيدني ليعاونه ضد ما اعتبره عملا موجها ضده وذلك عندما قامت المورننج هيرالد بنشر مجموعة من التقارير رآها دف تشهيرا بعمله في المغرب . ولم يأته رد مرضي من الوزير الذي أجاب عليه في 5 يونيه عام 1787 برفض تقديم أي عون ، أكثر من ذلك فقد جاء في هذه الاجابة « ينبغي أن تعلموا بأن ما فعلتموه في أكثر من مناسبة خلال قيامكم بإدارة الشئون الملكية في المغرب كانت من الأمور التي تستحق التوبيخ »[24].

القنصـل مـاتـرا :

وجد القنصل العام ماترا لدى وصوله إلى طنجة في 6 ماي عام 1787 ان كلا من باين ودف قد تركا البلاد وهما مديونان إلى عدد من المغاربة ، منهم بعض كبار رجال البلاط . وأدى عدم دفع هذه الديون إلى تسميم العلاقات الانجليزية — المغربية لفترة من الوقت ، غير أن ماترا قد قرر ارجاء النظر فيما خلفه أسلافه واتجه إلى البلاط الملكي ليقدم أوراق اعتماده . وقد حمل معه بالإضافة إلى الهدايا التقليدية رسالة من الملك جورج إلى السلطان . كما أحضر أخيرا الساعتين الذهبيتين المرصعتين بالمجوهرات واللتين كان سيدي محمد في انتظارهما على أحر من الجمر .

وقد استقبل السلطان ماترا في 29 ماي عام 1787 ، وكتب هذا إلى اللورد سيدني عن ذلك اللقاء يقول : « تم استقبالي الأول في 29 ماي ، وقد طلب مني (يقصد السلطان) فض رسالة الملك لأنه سوف يتعرف على توقيعه الملكي فورا . وقال انه أحب الملك جورج ملك الإنجليز حبا بالغا وان كل ما تم من خير لهؤلاء (يقصد المغاربة) تم على يديه أما ما حدث من أخطاء فمصدره وزراؤه .

---

(23) F.O. 52/6
(24) F.O. 52/9

« وقد سألني عما إذا كنا في سلام مع الجميع واستفسر طويلا عن السياسات الهولندية وروى لي تاريخ العلاقات بين الأمير أوف أورانج وبين أسرة جلالته وقد استفسر بوجه خاص عن أخبار الكابتن ميلبانك ..[25]

اقتنع ماترا بعد هذا اللقاء بامكانية اصلاح أي خلل يصيب العلاقات الانجليزية — المغربية . ومع ذلك فقد جاء سيدي محمد الزوين صهر السلطان للقاء ماترا في 8 يونيه ، وفي هذا اللقاء ادان الزوين الانجليز صراحة لعدم وفائهم بوعودهم . وتحدث في هذا الصدد عن عدم تسليم الفرقاطة ، بوركوبين ، وعن رفض تقديم تسهيلات الإصلاح في جبل طارق ، وعن الأقمشة المغشوشة التي أرسلت إلى السلطان ، وصرح أخيرا بأن المغاربة يشعرون بأنهم لن يستمروا في الالتزام طويلا بمعاهدة السلام والتجارة المعقودة بين البلدين.

وعند هذا الحد تساءل ماترا عما إذا كان يستطيع الحديث إلى السلطان نفسه ، وعندما رفض طلبه هدد بأنه سوف يكتب رأسا إلى الملك جورج الثالث يبلغه بما وجه إليه من أقوال . وتم ابلاغ التهديد إلى سيدي محمد الذي استقبل عندئذ ماترا استقبالا وديا خاصا . وقد أكد للقنصل العام أن وزراءه من الكذابين الأوغاد يقومون بالأعمال المزعجة. أما بالنسبة له فقد عاد إلى تكرار ما قاله في المناسبة السابقة من حبه للملك جورج والانجليز . وقد اقتبس سيدي محمد عندئذ قصة الرجل الذي تشاجر مع أحب أبنائه إليه ، وكيف تتغلب الطبيعة في مثل هذه الأمور فيستقبل ابنه لدى عودته بالاحضان والقبلات . وقال سيدي محمد ان هذا هو حال العلاقة بينه وبين الانجليز.

وأضاف ماترا في تقريره عن هذه المقابلة الذي رفعه إلى الوزير قوله :

« وانهى حديثه (يقصد السلطان) ببعض الملاحظات اللاذعة على سلوك وزرائه وعلق بأنهم جميعا بهذا الحال في كل البلاد وانه هو الرجل الوحيد الادراك في بلاده . وقد سألني عما إذا كنت قد تقابلت مع أي رجل في بلاده يعرف كل شيء مثله ، وكانت اجابتي على النحو الذي يتوقعه امبراطور المغرب مما سره ودعاه إلى أن

F.O. 52/7 (25)

يؤكد لي انه يحبني أكثر مما كان يحب الكابتن ميلبانك »[26]

غير أن مشاعر السلطان الودية تجاه الانجليز شهدت هبوطا ملحوظا خلال شهر شتنبر عام 1787 . ذلك انه اراذ اهداء سفينتين حربيتين إلى السلطان العثماني في استنبول وطلب اقتراض عدد من البحارة البريطانيين للابحار بالسفينتين إلى وجهتهما حيث انه تخوف من أن يقوم الروس أو المالطيين[27] بأسرهما خلال الطريق . وقد رفض البريطانيون طلب السلطان تجنبا لاستفزاز الروس مما اغضب السلطان إلى حد انه قرر التوقف عن إرسال التموين لجبل طارق . أكثر من ذلك ، كما علق ماترا ، كان هناك احتمال بوصول غضبة السلطان إلى حد اعلان الحرب على بريطانيا.

وعلى ضوء هذه الظروف قررت لندن في 24 أبريل عام 1788 ارسال قوة بحرية بقيادة الكومودور كوسبي إلى المياه المغربية لحماية الملاحة والتجارة البريطانية . في نفس الوقت حمل الكومودور رسالة من الملك جورج الثالث إلى السلطان تضمنت التأكيدات بنوايا بريطانيا السلمية. وبينما تتخذ تلك الاجراءات صدرت التعليمات للقنصل العام ماترا بدفع الديون التي كانت مستحقة على باين ودف لكل من طاهر فنيش وسيدي محمد زوين وغيرهما من كبار المغاربة بالرغم من أن الحكومة البريطانية كانت لا ترى اي وجه لمسئولية أدبية أو مادية لها عن تلك الديون غير أن الهدف كان تعزيز العلاقات بين البلدين ، كما أرسل إلى ماترا خاتم ماس بهدف أهدائه إلى ابن حاكم طنجة ردا على حصان كان القنصل العام قد حصل عليه من ابن الحاكم ووعده بخاتم من الماس مقابله غير أن باين نسي تنفيذ هذا الوعد .

ودخلت إحدى سفن الكومودور كوسبي وهي السفينة ساوثهامبتون إلى خليج طنجة في 26 يونيه عام 1788 وسلمت رسالة الملك جورج والخاتم الماسي إلى القنصل العام ماترا . وقد بادر هذا بتقديم الخطاب الى القصر الملكي اما الخاتم فقد سلمه شخصيا لابن حاكم طنجة مع ذلك ، وبالرغم من هذه الايماءات ، استمر السلطان في عناده وبعث برسالة إلى الكومودور كوسبي فيها بأنه إذا كان البريطانيون

---

(26) Ibid

(27) كان الروس آنذاك يشنون حربهم الثانية على الدولة العثمانية في عهد القيصرة كاترين والتي استمرت لخمس سنوات (1787 ـ 1792) . أما مالطة فقد كانت تعج بفرسان القديس يوحنا المتربصين للسفن العثمانية أو أية سفن تعاونها . (المترجم)

راغبين في الحصول على المواد التموينية من المغرب لحامية جبل طارق ، كما كان الحال من قبل . فإن عليهم الاستجابة لمطالب السلطان.

وواضح أن سيدي محمد كان يحمل قدرا كبيرا من الشعور بالامتعاض من حاكم جبل طارق لرفضه اصلاح سفنه الحربية أو امداده بالملاحين للابحار بالسفينتين اللتين اراد السلطان اهداءهما إلى الحاكم العثماني في استنبول . ومن ثم فقد تضمن الرد الذي بعث به من مراكش في 29 شتنبر عام 1788 إلى الملك جورج اشارة خاصة لجبل طارق . فبعد أن أكد للملك جورج بأنه لم يكن يقصد البتة اعلان الحرب عليه طلب منه الا يكتب له اطلاقا بعد ذلك عن جبل طارق . واستطرد سيدي محمد بلهجة تغلب عليها المرارة ان سلطات جبل طارق قد تخصصت في الخداع والأكاذيب ، وانه لن يقدم لها شيئا بعد ذلك ومع أنه سيتم تقديم كل التسهيلات في الموانئ المغربية للسفن الإنجليزية القادمة من انجلترا فإنه لن تدخل سفن جبل طارق تلك الموانئ بأي حال.

وفي أواخر عام 1788 تلقى ماترا دعوة من السلطان لاستقباله في مكناس حيث كان يقيم في قصره هناك . ووصل القنصل العام إلى المدينة في 26 دجنبر والتقى بسيدي محمد في 6 يناير عام 1788 حين تبين أسباب الاستدعاء فقد طلب السلطان بأن يصنع له في انجلترا ساعة دقاقة بمواصفات دقيقة . بأن يكون ارتفاعها 5، 40 بوصة وعرضها 5، 22 بوصة وتصنع من الأبنوس باطار من الفضة تنقش عليه العلامات الأربع العشرين . وان تدق أربع مرات يوميا في السادسة والثانية عشرة والثامنة عشرة والأربع والعشرين بأعلى صوت ممكن . وأخيرا تشير الساعة إلى الأيام والشهور تبعا للتقويم الميلادي وعلق ماترا في الخطاب الذي بعث به إلى اللورد سيدني متضمنا هذا المطلب فقال إن السلطان ينوى وضع الساعة في حجرة نومه وانه يريدها « لايقاظ كل من بالدار وقت الصلاة »[28].

قضية لايتون

كتب ماترا إلى اللورد سيدني بعد فترة قصيرة من عودته من زيارة السلطان يبلغه ان سيدي محمد « على حافة القبر »، وفي حالة من تخاريف الشيخوخة . وقد بدا

F.O. 52/8 (28)

رأي ماترا معقولا على ضوء ما فعله السلطان مع تاجر انجليزي في موكادور يدعى لايتون . فقد اتهم بأنه اشتبك مع اثنين من شركائه في شجار حدث خلاله ان وقعت سيدة مغربية عجوز على الأرض ففقدت بعض أسنانها . وجيء بالتجار الثلاثة إلى مراكش لمحاسبتهم على ما اقترفوه وأمر سيدي محمد بتكبيلهم بالحديد . بعد ذلك دعا حدادا ليقوم بخلع بعض أسنان لايتون بكلابته وأرسلها إلى السيدة العجوز في موكادور تعويضا لها عما فقدته.

ويبدو أن السلطان قد ساوره الشعور بالندم بعد تنفيذ اوامره بفترة قصيرة ذلك أنه قد أمر بإطلاق سراح الأسرى الثلاثة وصرح لاثنين منهم بالعودة إلى موكادور . وفي نزوة أخرى غير مفهومة قرر تعيين لايتون سكرتيرا له للشؤون الخارجية . وبهذه الوضعية وبناء على أمر السلطان كتب الرجل من مراكش في 30 ماي عام 1789 إلى ماترا يبلغه برغبة سيدي محمد في ارسال سفينتين من سفنه الحربية للاصلاح في جبل طارق وانه يطلب تأكيدا من الحكومة البريطانية باتمام هذه الاصلاحات . وقد نصح ماترا في رده على لايتون الأخير بالاستقالة من منصب سكرتير الشئون الخارجية وأبلغه بأنه إذا ما رفض السلطان قبول هذه الاستقالة عليه أن يبرز له رسالة من ماترا تقول ان لايتون غير مؤهل لشغل هذا المنصب بصفته رعية بريطانية.

وفي رسالة بعث بها ماترا إلى وزير الخارجية البريطاني في 17 يونيه عام 1789 شرح قضية لايتون بالتفصيل واعرب عن اعتقاده بسوء الموقف في البلاط المغربي إلى حد انه تشكك في السماح بوصول أي من خطاباته إلى سيدي محمد . وقال ماترا ان سيدي محمد أصبح يعاني تماما من تخاريف الشيخوخة وان عصبة من موظفي البلاط تستغل ضعفه لتحقيق مصالحها الخاصة بشكل شرير . ولسوء الحظ لم تكن تقديرات ماترا في هذا الشأن محل مبالغة كبيرة . ففي جلسة عامة في يونيه عام 1789 اعلن سيدي محمد ان لايتون قد أصبح وزيره المقرب وأمر أن يسمى بعد ذلك باسم ميلبانك تعبيرا عن رضائه السامي . غير أنه بعد شهر وفي نزوة مفاجئة أخرى طرد السلطان لايتون من منصبه العالي الذي كان الأخير عازفا عنه ، وسمح له بالعودة إلى موكادور لمباشرة اعماله ، مما اعتبره الرجل الإنجليزي انقاذا له .

غير أن فترة الانقاذ لم تطل ذلك ان سيدي محمد قد استدعى لايتون إلى

مراكش في غشت عام 1789 ليدبج له رسالة إلى الملك جورج الثالث. ذلك ان السلطان كان قد أرسل سفينة إلى جبل طارق لاصلاحها ، غير أن السفينة قد أعيدت مع خطاب من الحاكم وبأنه لا يستطيع اصدار الأمر بتلك الاصلاحات إلا بناء على أمر من لندن . ومن ثم فقد صدرت التعليمات إلى لايتون بالكتابة الى الملك جورج الثالث لسؤاله عما إذا كانت أوامره هي حقيقة التي تدعو حاكم جبل طارق إلى رفض طلبات جلالة الامبراطور . ولم يكن امام لايتون السيئ الحظ من خيار سوى القيام بما طلب منه انه قد تخوف كثيرا من هذا حتى انه كتب فيما بعد إلى ماترا يعبر له عن تخوفه من مواجهة المحاكمة في انجلترا بتهمة الخيانة أو العيب في الذات الملكية نتيجة لتنفيذه لأوامر السلطان .

وعاد سيدي محمد ليكرر في رسالته إلى الملك جورج الثالث انه قد حاول اصلاح ثلاثا من سفنه في جبل طارق دون جدوى . واعلن أن هذا الرفض بمثابة انتهاك للوعد الذي قطعه له سير روجر كيرتس وأكده القنصلان العامان باين وماترا والذي نص على تقديم كل التسهيلات في جبل طارق إليه . وأضاف السلطان انه في مقابل هذه التأكيدات قد خفض الرسوم المفروضة على الصادرات إلى جبل طارق بمقدار الثلث . غير انه قد قرر الآن دفع هذه الرسوم كاملة نتيجة لرفض اصلاح سفنه . وفي نهاية الرسالة تساءل سيدي محمد بصراحة عما إذا كانت السياسة التي يتبعها حاكم جبل طارق تجاهه تنفيذا لأوامر الملك جورج أم لا.

تولية مولاي يزيد وأثرها :

وقد توفي سيدي محمد في أبريل عام 1790 قبل وصول الرد على رسالته وخلفه المولى يزيد ، ابنه الذي أنجبه من أم ايرلندية . ومنذ البداية عبر السلطان الجديد عن روحه الودية تجاه البريطانيين فالتقى بالقنصل العام ماترا أربع مرات وخفض الرسوم المفروضة على الماشية المصدرة إلى حامية جبل طارق . وأكد في رسالة بعث بها إلى الملك جورج الثالث في 16 شعبان عام 1204 (27 أبريل عام 1790) باستمرار العمل بمعاهدة السلام والصداقة والتجارة ، وطالب الملك بارسال سفير لتدعيم العلاقات الودية بين بريطانيا والمغرب .

محاولة استعادة سبتة :

سيطرت على المولى يزيد الرغبة في استعادة سبتة من الاسبان ، ودفعته هذه الرغبة إلى أن يطلب من ماترا ضمان امداده بقنابل المدافع من جبل طارق . كما طلب السلطان أيضا مجيء اثنين من خبراء المدفعية من جبل طارق للقيام بتدريب قوات السلطان على اطلاق قنابل المدافع شديدة الانفجار . واستمرارا في نفس السياسة بتطوير المدفعية من أجل استرداد سبتة أرسل المولى يزيد في شتنبر عام 1790 واحدا من ضباطه إلى جبل طارق لجلب بعض الآلات الخاصة بالمدفعية . وكان حاكم جبل طارق قد وعد بتقديم هذه الآلات حينما كانت الحرب وشيكة بين بريطانيا واسبانيا ، غير انه لما كانت احتمالات تلك الحرب قد زالت وقتئذ فقد نكث عن تنفيذ الوعد وعاد ضابط السلطان من جبل طارق دون الآلات المطلوبة .

وفي نوفمبر عام 1790 وصلت تعليمات جديدة من لندن إلى ماترا حول هذا الموضوع جاء فيها انه لما كانت العلاقات مع اسبانيا قد تحسنت فان بريطانيا لا تستطيع الاشتراك في أية عمليات هجومية ينوى سلطان المغرب القيام بها ضد الممتلكات الاسبانية . وتضمنت نفس التعليمات أن يبذل ماترا جهوده لمنع نشوب حرب بين المغرب واسبانيا لأن نشوب مثل هذه الحرب سيضع بريطانيا في موقف صعب ، إذ من المؤكد أن السلطان سيطلب العون البريطاني ، وإذا ما رفض مطلبه فسوف يعتبر ذلك عملا غير ودي .

وكان مقررا ارسال مبعوث بريطاني هو الميجور جاردين لتهنئة المولى يزيد بتولية العرش غير انه مخافة من استشارة السلطان لهذا المبعوث في بعض الأمور العسكرية مما قد يعرض العلاقات البريطانية مع اسبانيا للخطر فقد تقرر الغاء سفارة جاردين وصدرت التعليمات إلى ماترا بأن يؤدى المهمة . واستقبل السلطان القنصل العام في الرباط في 8 أبريل عام 1891 حيث تم توقيع معاهدة سلام تحوى ثلاثا وأربعين مادة . وكان السلطان في أحسن حالاته ذلك ان ماترا قد أبلغه قبل توقيع المعاهدة ، وبناء على التعليمات الصادرة إليه ، بنية الملك جورج الثالث على تقديم فرقاطة هدية له.

ولما كان المولى يزيد منهمكا آنئذ في وضع خططه لعلمياته ضد سبتة وكان قسما هاما من هذه الخطط يستهدف العمل على تطوير المدفعية المغربية التي ستتولى عملية حصار المدينة ، ولما كان قد وجد بين الجماعة التي اصطحبت ماترا عدداً من ضباط الجيش البريطاني ، فقد طلب منهم الاشراف على عملية تدريب على اطلاق نيران مدافع المورتار مقاس عشرة بوصات التي كان مقررا اجراؤها في 27 مارس عام 1791 وتمت العملية تحت الاشراف البريطاني وثبت خلالها الدقة المتناهية للمدفعية المغربية مما ادخل السرور العظيم في قلب المولى يزيد حتّى انه وهب كبير الضباط مائة ريال في الحال . وقد وقع هذا العمل موقع الدهشة في قلب الضابط البريطاني غير أنه تذرع بالأسلوب الديبلوماسي وأخذ المال من السلطان شاكرا له كرمه لكنه وزعه فيما بعد على رجال طاقم المدفع من المغاربة.

وفي 18 غشت عام 1791 وصل السلطان إلى أسوار سبتة على رأس خمسة وعشرين ألف رجل وبدأ الحصار الذي كان قد استعد له منذ وقت طويل . وقد أشرف على العمليات مرتد انجليزي يدعى جويس كان من رجال الحرس المشاة ، وقد التحق بخدمة الاسبان في سبتة بعد طرده من هذا الحرس . غير انه فر بعد ذلك لاجئا إلى المغرب حيث اعتنق الاسلام . وقد تمكن من استمالة المولى يزيد حين تقدم له بخطة ضمن له من خلالها السقوط الحتمي لسبتة بين ايديه . غير انه بعد فترة قصيرة من بدء الحصار لقي جويس حتفه وبالرغم من استمرار الحصار بعد ذلك غير ان اهتمام المولى يزيد قد انصرف إلى محاولة جرت آنئذ لاسقاطه ، ومع انه تمكن من هزيمة خصمه غير انه أصيب اثناء القتال باصابة أدت إلى وفاته في مراكش في 16 فبراير عام 1792.

خلف المولى يزيد المولى سليمان[29] الذي اعلن سلطانا على البلاد في فاس في 14 مارس إلا أنه لم يتمكن من تدعيم مركزه إلا بعد صراع دام لثلاث سنوات مع اخوته الطامعين في العرش . وكانت بريطانيا عندما استقر سليمان في الحكم قد انغمست تماما في حرب ضد فرنسا الثورة . وقد طالت هذه الحرب تمتد ضد نابليون ولم تنته إلا بالنصر عليه في واترلو عام 1815 . وقد مثلت المواصلات

(29) أبو الربيع مولاي سليمان بن محمد (المترجم)

البحرية أهمية بالغة لبريطانيا خلال تلك السنوات العشرين من الحرب المستمرة ، وكان تأمين جبل طارق أمرا أساسيا لعمليات الأسطول الملكي في البحار الشرقية مما أدى إلى أن تكتسب علاقات بريطانيا مع المغرب أهمية خاصة خلال تلك الفترة ، ولم تدخر لندن أي جهد للابقاء على الطابع الودي لتلك العلاقات . فقد جاء في التعليمات التي صدرت إلى القنصل العام ماترا في 12 غشت عام 1796 ما نصه « لا تهمل أية وسيلة في مكنتك استخدامها للحفاظ على حسن التفاهم القائم بين جلالة الملك وامبراطور المغرب وانمائه »[30].

حروب الثورة ونابليون وأثرها

بيد أنه لم يمض وقت طويل حتّى واجه ماترا موقفا صعبا نتيجة للحصار الذي حاول الأسطول الملكي فرضه على السواحل الفرنسية والاسبانية . ذلك أن وزير خارجية السلطان بن عثمان كان ذا ميول ودية تجاه الاسبان كما كان يتلقى المال منهم . وفي مقابل ذلك فقد سمح للسفن الاسبانية بالابحار تحت اعلام مغربية أو سمح للسفن المغربية بحمل البضائع الاسبانية . وترتب على ذلك ان أوقف الأسطول الملكي عددا من تلك السفن واقتادها إلى جبل طارق حيث كان يتم تفتيشها . وقد كتب المولى سليمان في 26 مارس عام 1798 إلى ماترا يشكو له من تلك الأعمال التي رد عليها بايقاف تصدير الماشية والأغنام وغيرها من المواد التموينية إلى حامية جبل طارق . غير انه لحسن الحظ أمكن تدبير مورد آخر للتموين من وهران التي كان يحكمها داي الجزائر .

وفي 9 اكتوبر عام 1798 وصل اللورد سان فنسنت إلى خليج طنجة في طريقه إلى جبل طارق . وكان قد وافق من قبل على السماح بابحار فرقاطة اهداها الاسبان إلى السلطان من قادش الى أحد الموانئ المغربية دون أن يعترضها الأسطول البريطاني . وكان من الطبيعي أن يتوقع اللورد سان فنسنت التصريح له في مقابل ذلك بتموين سفينته من طنجة . غير أن طلبه رفض وكتب ماترا في 25 أكتوبر

F.O. 52/11 (30)

1798 يقول « غادر فخامته الخليج فورا في حالة من السخط الشديد »[31]. دفع ذلك القنصل العام إلى الشكوى للسلطان من هذه المعاملة غير الكريمة لواحد من كبار قواد الأسطول البريطاني مما دعا المولى سليمان إلى الكتابة في 2 دجنبر إلى القايد عبد الله بن عبد الملك حاكم طنجة يوبخه على فعلته ويأمره بأن يبدى للأسطول البريطاني في المستقبل كل احترام وبامداده بكل الاحتياجات التي يطلبها.

وفي أوائل العام التالي ، 1799 انتشر الطاعون بشكل سريع في سائر انحاء المغرب وأدى إلى افراغ عدد من المناطق من سكانها ، وجاءت في نفس الوقت اسراب الجراد لتزيد تعاسة البقية الباقية من السكان. دعا ذلك القنصل ماترا إلى مغادرة طنجة إلى جبل طارق في ماي 1799 ناجيا بجلده وتبع ذلك صدور أوامر الحاكم أوهارا بقطع كل العلاقات مع المغرب. وبعد ستة شهور من انقطاع الأخبار من طنجة أرسلت إليها في شتنبر عام 1800 سفينة لتحرى الموقف. وجاءت الأخبار بأن الطاعون قد اختفى إلى حد كبير مما أدى إلى عودة القنصل العام ماترا إلى طنجة في يناير عام 1801 لاستئناف عمله.

وقد بادر على الفور بالتفاوض من أجل استئناف صادرات الماشية ذات الأهمية الخاصة إلى جبل طارق ، وقد أبلغ بالقرار برفع الرسوم المفروضة على هذه الصادرات إلى ثلاثة أمثال ما كانت عليه من قبل. وجاءت التعليمات إلى ماترا من لندن بعد وقت قصير بالتوجه إلى فاس والالتقاء بالسلطان والعمل على ضمان امداد جبل طارق وأسطول البحر المتوسط بالتموين المنتظم. وتم فعلا لقاء ماترا بالسلطان في يونيه 1801 والذي اتفق خلاله على عودة العمل بالرسوم المنخفضة التي كانت مفروضة من قبل على الصادرات إلى جبل طارق. وقد انتهز القنصل العام فرصة زيارته إلى فاس لعقد معاهدة جديدة للسلام والتجارة تضمنت مواد المعاهدات السابقة ، وتم توقيع المعاهدة الجديدة في 14 يونيه 1801.

وكانت مخاوف السلطان من احتمالات قيام أسطول اسباني بانزال حملة فرنسية إلى المغرب وراء المرونة التي أبداها ، وقد أبلغ ماترا بصراحة تامة بأنه يرى في

---

(31) Ibid

بريطانيا الدولة الوحيدة القادرة على حماية المغرب من مثل هذا الغزو. وزاد توثق العلاقات الودية بين البلدين نتيجة لما حدث في يونيه عام 1802 من وصول مدفعي ميدان إلى السلطان كان البريطانيون قد وعدوه بهما من قبل ورد المولى سليمان على هذه الإيماءة الطيبة بأن بعث بعد ذلك بفترة قصيرة إلى انجلترا بأسد هدية إلى دوق كنت. وفي 5 أكتوبر عام 1803 وصل السلطان على رأس بعض قواته إلى نواحي طنجة في جولة من الجولات التي كان يقوم بها في ممتلكاته. وقد عقد اجتماعا مع ماترا في 10 من نفس الشهر أبلغه خلاله بأن المغرب سوف يستجيب إلى كل طلبات حكومته حتّى لو كان قد رفض مثل هذه الطلبات من أمم أخرى.

التموين المغربي لجبل طارق

كانت موافقة السلطان على تصدير الماشية إلى جبل طارق بالرسوم المنخفضة دليلا على رغبته القوية في الابقاء على حسن العلاقات مع بريطانيا التي اعتبرها المدافع الوحيد عنه في مواجهة الفرنسيين والاسبان. وكان الأسطول البريطاني هو الدرع الأساسي في القيام بهذا الدور، وكان هذا الأسطول بدوره يعتمد على حسن النوايا المغربية للحصول على الامدادات المطلوبة أثناء طوافه في البحر المتوسط أو المحيط الأطلنطي. وكان نلسون قائد هذا الأسطول قلقا من هذه الحقيقة أشد القلق. وقد عبر عن هذا القلق في الرسالة التي كتبها إلى القنصل العام ماترا من على ظهر سفينته فيكتوريا والتي كانت راسية أمام لشبونة والمؤرخة في 25 شتنبر عام 1805 قبل أسابيع قليلة من موقعة الطرف الأغر[32]، وقد جاء فيها:

«ينبه عليكم اللورد كاسلري باستخدام كل ما لديكم من نفوذ وبذل كل ما تملكون من جهد حتّى يحصل الأسطول في أي ميناء بالمغرب على احتياجاته من الثيران والأغنام والدجاج وأي شيئ آخر، وأن يؤتى بها إلى السفن وهي أحياء حالما أطلبها.. ولما كان من المرغوب فيه أن نكون على أحسن وفاق سواء مع الامبراطور أو

---

(32) الموقعة البحرية التي جرت في أول أكتوبر عام 1805 وأنزل فيها الأسطول الانجليزي الهزيمة بالأسطول الفرنسي وحليفه الاسباني عند الطرف الاغر أمام الشاطئ الاسباني. وإذا كان نلسون قد فقد حياته في هذه الموقعة فإنها قد انهت خطط نابليون لغزو انجلترا. وأسميت بهذا الاسم لوقوعها عند رأس الطرف الأغر بين قادش وجبل طارق. (المترجم)

مع حاكمي طنجة وتطوان أو غيرهم من الرجال في تلك الجهات فأكون شاكرا إذا ما ابلغتموني المطلوب مني تجاه هؤلاء الأشخاص وسوف أحصل عليه وأرسله إلى كل منهم مع الخطاب المناسب إذا ما كتبتم إلي باسمائهم والقابهم . باختصار ينبغي أن نكون على أحسن حال معهم .. وأرجو أن تقدم كل عون في ابقائنا على أفضل علاقة مع الحكومة والحكام ..الخ. الواقعين في دائرة قنصليتكم والتي تعتمد عليها حالة الأسطول تحت قيادتي إلى حد بعيد... (33) »

ولسنوات طويلة احتكرت مجموعة من اليهود المغاربة عمليات تموين جبل طارق والأسطول بالابقار ، وقد عمل هؤلاء متواطئين مع حاكم طنجة لتحقيق أكبر قدر من الربح . وقد نما إلى علم المولى سليمان الطرق الملتوية التي يعمل من خلالها اليهود في هذا الميدان وان كان لم يعلم بتواطؤ حاكمه مما دعاه إلى أن يصف هؤلاء لماترا بأنهم عصبة من الشياطين تثرى على حسابه . ورغبة من المولى سليمان في عدم مضايقة الانجليز بمنع تصدير الأبقار كلية ، ورغبة منه في منع استغلال اليهود من جانب وتوفير اللحوم لأبناء شعبه من جانب آخر فقد توصل السلطان إلى حل وسط بتحديد عدد الأبقار المصدرة بألفي بقرة كل عام . وبالرغم من المحاولات المضنية التي بذلها ماترا لزيادة العدد إلا أنه أخفق في ذلك ، ودون جدال كان وراء تصميم المولى سليمان على موقفه رغبته في تحسين أحوال شعبه.

وفي أوائل عام 1806 أصيب القنصل العام بمرض خطير ما لبث أن قضي عليه في 29 مارس . وخلفه في منصبه جيمس كرين ، ومرة أخرى تبدو أهمية قضية امداد المغرب لحامية جبل طارق بتموينها من خلال التعليمات التي صدرت للقنصل العام الجديد بمناسبة توجهه إلى البلاط المغربي لتقديم أوراق اعتماده . جاء فيها : « عليك أن تعلم ان واحدا من أهم اهداف سفارتكم يتمثل في بذل كل جهد ممكن لتوفير الامداد باللحوم والحبوب والخضروات والماء وكل أنواع التموين لاسطول جلالة الملك ولحاميتي جبل طارق ومالطة... »(34)

وبعد وفاة ماترا رفع السلطان الرسوم المفروضة على كل المواد التموينية المرسلة إلى

---

(33) F.O. 99/158
(34) F.O. 52/13

جبل طارق والأسطول وان كان قد أبقي نفس الرسوم القديمة على الألفي بقرة وقدرها خمسة ريالات عن كل رأس . وفي تلك الأثناء تعرض لضغط من تاليران وزير الخارجية الفرنسي الذي أرسل له خطابا يحثه فيه على قطع علاقاته مع بريطانيا وقد تضمن هذا الخطاب أخبار آخر الانتصارات الفرنسية وجاء فيه انه سوف يتم طرد بريطانيا قريبا من البحر المتوسط وسوف تحتل فرنسا سبتة . وختم تاليران خطابه بنصح السلطان بترك بريطانيا والانضمام إلى فرنسا في قضيتها.

يبدو أن تلك العروض لم تؤثر على المولى سليمان الذي استقبل القنصل العام كرين في فاس في شتنبر عام 1806 وأبدى له كثير من علائم الود اذ وعده بتخفيض الرسوم على المواد التموينية المصدرة لجبل طارق . كما تم الإتفاق على السماح بتصدير أبقار أخرى برسم مقداره ستة وعشرين ريالا على الرأس بالإضافة إلى الألفي بقرة التي يتم تصديرها بالرسوم المنخفضة . وكان من الطبيعي أن تسعى سلطات جبل طارق إلى تقليل الرسوم المفروضة على الأبقار الجديدة وعندما حاول كرين تذكير السلطان ببعض وعوده في هذا الشأن فإن هذا الأخير لم يرفض التقليل فحسب بل انه أصدر قرارا في ماي عام 1807 بمنع تصدير أية بقرة أكثر من الألفين المسموح بها أصلا .

وقد احتج كرين مطالبا المولى سليمان باظهار الود تجاه البريطانيين الذين يقوم أسطولهم بحماية المغرب من الغزو الفرنسي غير أن كل احتجاجات القنصل العام ذهبت سدا . وكانت وجهة نظر السلطان مفهومة وهي انه يضع أمام ناظريه مصلحة شعبه وانه طالما قلت الأبقار بسبب الجفاف أو لغيره من الأسباب فينبغي ايقاف التصدير لتحقيق الكفاية للاستهلاك المحلي . ومع ذلك فقد أبدى السلطان مرونة في الخطاب الذي أرسله إلى كرين من مراكش في 5 يونيه عام 1807 والذي وافق فيه على ارسال كميات اضافية من الأبقار بين الحين والآخر إلى جبل طارق في مقابل امدادات من احتياجات الأسطول والأسلحة والذخيرة . ثم ما لبث في دجنبر من نفس السنة أن تقدم بعرض أكثر اغراء وهو انه إذا ما استولى البريطانيون على سبتة وأعادوها إلى المغرب فسوف يحصلون على كل ما يريدون من مواد تموينية من المغرب على ألا تفرض عليها سوى رسوم منخفضة جدا . وأكثر من ذلك ألا يتم

تصدير سلع بعينها مثل الشمع وريش النعام سوى للبريطانيين فقط .

وبدا لبعض الوقت وكأن الجانب البريطاني على استعداد لقبول اقتراح السلطان . ذلك أن البريطانيين قاموا في مارس عام 1808 وبموافقة السلطان باحتلال جزيرة بريجيل الصخرية المتاخمة لسبتة ، وهي خطوة ضرورية لفرض الحصار على سبتة من جهة البحر . وفي أبريل عام 1808 كتب حاكم عام طنجة والذي كان في نفس الوقت وزيرا لخارجية السلطان إلى القنصل العام كرين يبلغه باستعداد المغاربة بالانقضاض على سبتة من البحر وينتظرون بداية حصار الأسطول البريطاني لها . بيد انه تدخل عندئذ اعتبار آخر فرض نفسه على الجانب البريطاني ذلك أن الشعب الاسباني هب وقتئذ في ثورة ضد الاحتلال الفرنسي ، واستقر رأى البريطانيين على مساندة الحركة الشعبية ، ومن ثم فقد سحبوا القوة التي نزلت في جزيرة بريجيل وتركوا سبتة تحت الحكم الاسباني.

بالرغم من هذا الاحباط استمر السلطان في التصريح بتصدير الأبقار وغيرها من المواد التموينية إلى جبل طارق . كما انه صرح في غشت عام 1809 بتصدير كمية اضافية بلغت ألفا من الثيران ومائتين من البغال إلى البرتغال لاستخدام القوات البريطانية التي أرسلت إلى شبه الجزيرة لطرد الفرنسيين . وأبدى السلطان مزيدا من مظاهر الود في يوليوز عام 1810 عندما صرح بتصدير ثلاثين ألف قنطارا من الحبوب لاستخدام القوات البريطانية في شبه الجزيرة والتي كان الماريشال مسينا قد نجح في تجميدها داخل خطوط تورس فدراس .

أما على الجانب الآخر فقد هرول البريطانيون في الاستجابة للمطالب التي تقدم بها المولى سليمان في غشت عام 1810 بالحصول على اثني عشر مدفع نحاسي زنة 18 رطلا مع كل منها مائتي طلقة ، كذا على عربة خاصة تم تصنيعها في لندن بناء على مواصفات دقيقة جدا وضعها السلطان . من هذه المواصفات كما كتب القنصل كرين إلى لندن أن تكون العربة بعجلتين بدلا من العجلات الأربع المعتادة ، وأن تصمم بشكل يمكن معه أن يجرها بغل واحد . أضف إلى ذلك ، على ما جاء في تقرير كرين ، أن تكون « قوية جدا على أن تجرى بخفة ويسر ، وأن تكون مغلوقة

من الأمام مع وجود نافذة على كل جانب من جانبيها ، وتحتوي على عتبة واحدة وتسع شخصا واحدا وان تغطى من الداخل بقماش أخضر فاخر وان تزخرف بالنحاس المموه بالذهب ...[35] »

بيد أنه كثيرا ما كان يعكر العلاقات الودية التي سادت بين البلدين آنئذ ، ذلك الحماس أو ماهو أكثر من الحماس الذي أبداه الأسطول الملكي اثناء قيامه بحصار الشواطئ الأوربية التي يسيطر عليها الفرنسيون. فقد كتب كرين في 23 يناير عام 1811 إلى لورد ليفربول وزير الحرب والمستعمرات[36] ما نصه : « آسف لابلاغ فخامتكم بأن سفننا الحربية لا تبدي الاحترام الواجب تجاه راية الامبراطور. وقد سبب لي ذلك حرجا شديدا. ومثل على ذلك ما حدث لآخر سفينتين غادرتا تطوان محملتين ببضائع من انتاج هذا البلد ومن ممتلكات رعايا جلالة الامبراطور مما كان واضحا من الشهادات الصادرة عن مكتبنا القنصلي ، فقد قابلتهما احدى فرقاطاتنا التي أمسكت بهما وأرسلتهما إلى جبل طارق للتحقيق. صحيح انه قد أطلق سراحهما على الفور ولكن بعد رحلة استمرت لثلاثة وثلاثين يوما وبعد الخسارة التي لحقت بها نتيجة لهذا التأخير وبعد ما نتج عن الحادث من ابداء عدم الاحترام لراية جلالة الامبراطور ، وإذا لم توقف مثل هذه الأعمال فإنها ستنزل أفدح الاضرار بمصالحنا في المغرب »[37].

وجاء الرد لكرين وقد تضمن تعليمات لابلاغ السلطان بأنه سوف تتخذ الخطوات العاجلة لمنع التعرض للسفن التجارية مستقبلا. وقد تلقى المولى سليمان هذا الابلاغ بسرور وزاد امتنانه بوصول الاثني عشر مدفعا زنة الثمانية عشر رطلا بالاضافة إلى طلقاتها كذا العربة الخاصة التي طلبها والتي تم تقديمها كعلامة اضافية على صداقة الملك جورج الثالث وامتنانه لما تم تقديمه من الحبوب والأبقار للقوات البريطانية في شبه جزيرة ايبيريا.

---

(35) F.O. 52/15

(36) في يونيه عام 1804 انتقلت تبعية قنصليات شمال افريقيا من وزارة الخارجية إلى وزارة الحرب والمستعمرات.

(37) F.O. 52/25

حج الأمير :

بعد ذلك بشهور قليلة وفي فبراير عام 1812 حصل القنصل العام كرين على تصريح باجازة لاسباب مرضية ووصل إلى لندن في 24 يوليوز . وحدث خلال غيابه أن أبدى البريطانيون علامة أخرى من علائم الصداقة زادت السلطان سرورا . ذلك ان العاهل المغربي كان قد قرر في ماي عام 1811 إرسال ابنه الأكبر المولى ابراهيم للحج في مكة وقد طلب ارسال سفينة حربية بريطانية إلى الاسكندرية في ماي عام 1812 لاعادة الأمير إلى المغرب . وتم فعلا ارسال فرقاطة للقيام بالمهمة وقد تأثر المولى سليمان أشد التأثير عندما علم بمدى ما حظي به الأمير من اهتمام واحترام خلال رحلته إلى طنجة . وعبر عن امتنانه بشكل عملي ليدخل السرور على قلوب البريطانيين وذلك بالتصريح بتصدير ألف ثور من المغرب إلى اسبانيا لاستخدام القوات البريطانية . أما الأمير فقد كتب الى الملك جورج الثالث خطابا عاطرا بالثناء على مزايا الكابتن باجوت قائد الفرقاطة . وذهب الأمير في هذا الصدد إلى حد مطالبة الملك بترقية باجوت لقيادة سفينة حربية من الدرجة الأولى . وليس هناك ما يشير إلى الاستجابة لهذا المطلب .

وفي يناير عام 1813 عاد القنصل كرين لتأدية مهام وظيفته في طنجة وقد جاء معه بأربعة خواتم ماسية كان السلطان قد طلب منه شراءها من لندن . وزاد كرين من امتنان السلطان عندما قام في 22 يوليوز عام 1816 بتسليم المولى سليمان في طنجة عددا من عربات المدافع وكمية كبيرة من البارود وقنابل المدافع وقنابل المورتار على شكل هدية وهي أشياء كان قد طلبها السلطان في يناير من نفس العام . وعندما شاع خبر الهدية تقدم السفير الإسباني في لندن في 21 شتنبر عام 1816 باحتجاج رسمي للحكومة البريطانية على أساس ان بريطانيا تقوم بمثل هذا العمل باحباط الجهود التي تبذلها الدول الأوربية لاجبار الدول البربرية « على العمل وفق الاعراف المتعامل بها بين الأمم المتحضرة »[38] .

---

(38) F.O. 52/17

قنصلية دوكلاس

وفي تلك الأثناء حصل كرين على اجازة أخرى بسبب مرض زوجته ، ولما نصحه أطباؤها بعدم العودة إلى طنجة طلب احالته على المعاش وأجيب إلى طلبه في يوليوز عام 1817 وخلفه في منصبه جيمس شولتو دوكّلاس غير ان القنصل الجديد اضطر إلى البقاء في جبل طارق بعد وصوله إليه بسبب انتشار وباء الطاعون مرة أخرى بالمغرب[39] ولما وجد دوكّلاس أنه مقيد بالحركة على الصخرة طلب التصريح له بالبقاء في إيطاليا حتّى يحين الأوان لقيامه بمهام منصبه في طنجة . وحصل فعلا على التصريح اللازم خاصة وان نائبا للقنصل اسمه ايزاك ابنسور بقي في طنجة على أن يرسل إلى دوكّلاس تقريرا شهريا عن الأوضاع في المغرب .

وفي أواخر عام 1820 أبلغ أبنسور القنصل العام بأن الطاعون في طريقه للاختفاء من المناطق الشمالية في المغرب ، وفي نفس الوقت وصلت أوامر لندن الى دوكّلاس بالعودة الى جبل طارق والتأهب للعبور الى طنجة بأسرع ما يمكن . ولكن وقبل أن ينفذ الأمر كتب دوكّلاس إلى حكومته في 22 يناير عام 1821 تقريرا عن حادثة كان لها أثر سيئ على العلاقات الانجليزية ـــ المغربية امتد لسنوات عديدة . ذلك أن قنصل السلطان ووكيله في جبل طارق المدعو أحمد بن عمر بجة[40] قد توفي تاركا خلفه ممتلكات قيمتها أربعين ألفا من الجنيهات . ولم يترك بجة وصية كما لم يخلف وريثا ، وعلى ذلك كتب السلطان إلى جورج دون حاكم جبل طارق مدعيا استحقاقه لكل ميراث بجة طبقا للقانون المغربي . على الجانب الآخر فقد رأت سلطات جبل طارق انه طبقا للقانون الانجليزي تؤول ممتلكات المتوفي الذي لم يخلف وريثا إلى التاج . ولم يقبل السلطان هذه المقولة وتمسك بادعائه ووصلت المسألة إلى طريق مسدود . وتبع ذلك ان هدأت القضية ولكن لم يتوقف النزاع وظل الحديث يتردد حول أملاك بجة وأيلولتها حتّى تمت تسوية المشكلة بصورة نهائية .

---

(39) جاءت زيارة الوباء هذه المرة ، مثل المرات السابقة ، مع عودة الحجاج المغاربة من مكة الذين حملوا العدوى معهم.

(40) من أكابر التجار المغربيين بمدينة جبل طارق التي يسيطر عليها الانجليز محمد داود : تاريخ تطوان : المجلد الثامن ص 39 (المترجم)

وقد استقر دوكلاس في طنجة في أكتوبر عام 1821 ، وقد التقى به السلطان عندما زار المدينة في نوفمبر. وفي هذا اللقاء سلمه القنصل العام رسالة وهدايا الملك جورج الرابع [41] الذي كان قد اعتلى العرش قبل ذلك بقليل ؛ ورد مولاي سليمان معبرا عن علاقته الحميمة بالملك البريطاني وشعبه وعن امتنانه على ما حصل عليه من بريطانيا من مختلف الامدادات. وبعد أيام قليلة من هذا اللقاء تسلم دوكلاس رسالة من السلطان إلى الملك جورج الثالث [41] شكر فيها الملك على رسالته وهداياه وأكد له رغبته في استمرار الصداقة القديمة بين بريطانيا والمغرب.

وفي مراسلة مؤرخة في 26 أبريل عام 1822 بعث بها دوكلاس إلى اللورد باتهرست وزير الحرب والمستعمرات سجل انطباعاته عن السلطان فقال انه «يبلغ نحو الستين عاما صاحب شخصية انسانية رقيقة وعلى درجة كبيرة من الأناقة ويقول المغاربة إنه يصلح امبراطورا في السماء أكثر مما يصلح حاكما لهذه الأمة حيث ينبغي عليه أن يمارس حكمها بدرجة من القسوة.. [42]» واستطرد دوكلاس في تقريره مسجلا موقف المغاربة من البريطانيين فقال «وإني على اقتناع كامل بالتأكيد لفخامتكم بأن الأمة البريطانية تقع في أعلى مكانة من تقدير كل الناس في تلك البلاد ، من الامبراطور إلى الفلاح ، ويكفي أن يعرفوا بأنك انجليزي ليستقبلوك بكل أدب..وهو مالا يحدث بالنسبة لأية أمة أخرى [42]».

وسجل دوكلاس في نفس التقرير أن البريطانيين يهيمنون على الجانب الأكبر من التجارة المغربية وساق تفصيلات ممتعة في هذا الشأن. وكانت الواردات المباشرة من بريطانيا تصل فقط عن طريق ميناء موكادور [43] ؛ أما العلاقات مع الموانئ المغربية الأخرى فقد كانت تتم من خلال جبل طارق. وقال دوكلاس انه يوجد في

(41) ليس واضحا من الذي اخطأ: المؤلف الذي أشار إلى رسالة (من) جورج الرابع وإلى رسالة (إلى) جورج الثالث. أم السلطان المغربي الذي تلقى رسال (من) جورج الرابع ورد عليها برسالة (إلى) جورج الثالث. والمعلوم أن جورج الرابع قد اعتلى العرش عام 1820 بعد وفاة أبيه وان كان قد عمل وصيا قبل ذلك بتسع سنوات بسبب ما أصاب أباه من اختلال عقلي وعمى. (المترجم)

(42) F.O. 25/23

(43) تمت اقامة موكادور في عام 1760 بأمر من سيدي محمد لتحل محل سانتا كروز (أكادير) التي لم يتمكن أن يفرض عليها سلطة فعالة دائمة. من ثم فقد اقتصرت التجارة الأوربية مع مناطق المغرب الجنوبية على موكادور.

موكادور وكالتان تجاريتان بريطانيتان وعدد من الوكالات اليهودية . أما في طنجة وغيرها من الموانئ المغربية فيتم التعامل في السلع البريطانية من خلال ممثلين يهود لتجار جبل طارق بشكل كامل . وكانت أهم الواردات إلى المغرب الأقمشة الكتانية والقطنية والحديد والأسلحة النارية والخردوات والصيني والشاي والسكر والبن والشيكولاته والصفيح والورق . اما ما كان يصدره المغرب فتمثل في الأبقار والبغال وشمع النحل والعسل والحرير الخام والجلد المدبوغ وجلد الماعز والعاج وريش النعام . وكانت ترسل كميات كبيرة من الدجاج والبيض والفاكهة والخضروات إلى جبل طارق ، وكان حجم هذه التجارة كبيرا إلى حد قال معه دوگلاس إن خمسة سفن تعمل فيها وان كل سفينة منها تقوم بثلاث رحلات شهريا بين جبل طارق والمغرب . وفي مراسلة أخرى مؤرخة في 5 يوليوز عام 1824 علق دوگلاس على أهمية الرسوم التي يحصل عليها السلطان من الواردات والصادرات إذ بلغت قيمة الرسوم التي تجمع في طنجة وتطوان وعلى المتاجر المتبادلة بينهما وبين جبل طارق حوالي 2 مليون ريال سنويا . وتشكل هذه الرسوم بالاضافة إلى ما يتم جبايته من رسوم على الصادرات والواردات من موكادور المصدر الرئيسي لدخل السلطان ذلك انه أضعف من أن يجمع ضرائبه في أكثر من ثلث المساحة التي تكون ممتلكاته.

وقد توفي السلطان المولى سليمان في مراكش في 28 نوفمبر عام 1822 وخلفه ابن أخيه المولى عبد الرحمن[44] الذي امتد عهده الطويل حتى عام 1859 . وقد غادر القنصل العام دوگلاس طنجة في اليوم الأخير من عام 1822 قاصدا زيارة السلطان الجديد في فاس وقد حمل معه رسالة وهدايا الملك جورج الرابع . وقد وصف استقباله الذي تم في فاس في 10 يناير عام 1824 في رسالة إلى اللورد بارتهرست فقال : « قبل أن نصل إلى فاس بميلين استقبلتنا فرق الأشراف ممتطين جيادهم وقد سارت أمامهم قوة من الأودايا (قوات السلطان النظامية) التي تدافعت ثم اطلقت النيران في وجوهنا تكريما لنا ومن هناك اخترقنا الطريق الرئيسي الذي يمر بين حقول القمح حتَّى وصلنا إلى سهل كبير حيث تواجدت أكبر قوة أمكن جمعها بالإضافة إلى كافة سكان فاس .. ذلك أن الامبراطور كان قد أعلن في الصباح ان أي انسان

(44) عبد الرحمن بن هشام (المترجم)

سيبقى داخل المدينة في هذه المناسبة ستقطع رأسه . وقد أفسحت القوة المرافقة لنا الطريق وسط تلك الجموع الهائلة بصعوبة بالغة . وما أن وصلنا إلى بوابات المدينة حتّى اغلقت وراءنا وبقي جميع السكان في الخارج مما يسر وصولنا إلى دار أحد الوزراء الذي كان قد أعد لإقامتنا .[45] ».

وانعقد اجتماع عام في 15 يناير عام 1824 حيث صرح المولى عبد الرحمن بأن بريطانيا ظلت لسنوات عديدة أفضل أصدقاء المغرب ، وقال إنه مهما كان هدف بعثة دوكلاس فإنها سوف تحققه حيث لن يرفض لها أي مطلب . وما لبث أن انعقد اجتماع خاص في 18 يناير بين السلطان ودوگلاس حيث قال الأخير إن هدفه الرئيسي هو تعديل المادتين السابعة والثامنة[46] من المعاهدة التي عقدها القنصل العام ماترا في فاس في 14 يونيه عام 1801 لتتفق مع القوانين الانجليزية وأن يصدق السلطان على هذا التعديل . وأبدى المولى عبد الرحمن قبولا تاما للمطلوب وتم اجراء التعديل في 19 يناير عام 1824 ووقع الطرفان موادا تفسيرية لمعاهدة عام 1801.

وقبل أن يغادر دوگلاس فاس كتب السلطان ردا على خطاب الملك جورج الرابع وسلمه إلى دوگلاس ليرسله إلى انجلترا . وكتب القنصل العام من طنجة في 5 فبراير 1824 إلى اللورد باتهرست يقول « ارسل لكم بالبريد الحالي صندوقا صغيرا معنونا باسمكم على رسالة من جلالة امبراطور المغرب إلى الملك ، وهي رد على رسالة جلالته التي سلمتها في فاس . ورفق الرسالة ترجمة لها من العربية . وأرسلها كما سلمت لي مطوية في منديل حريري من صناعة فاس . وينظر هنا إلى تسليم الرسالة للملك بدون المظروف الحريري على أنه نوع من عدم الاحترام وجهل تام بحسن الأخلاق[47] ».

لم يمض وقت طويل على رحيل دوگلاس من فاس حتّى تغيرت عواطف

---

(45) F.O. 52.25

(46) تتصل هاتان المادتان بالنزاعات بين البريطانيين والمغاربة.

(47) F.O. 52.25

السلطان تجاهه . وكان وراء هذا بالدرجة الأولى كيد حاكم طنجة الذي كان القنصل العام على علاقة سيئة به ؛ وترتب على ذلك أن بعث المولى عبد الرحمن برسالة إلى الملك جورج الرابع يطلب منه فيها استدعاء دوكلاس وإرسال آخر ليحل محله في طنجة ، وقد ازداد مقت السلطان لدوگلاس عندما استفزه القنصل العام بدفاعه عن سياسة الحكومة البريطانية في مسألة املاك أحمد بجة . ذلك أن المولى عبد الرحمن كان قد بعث برسالة إلى الملك جورج الرابع يدعى فيها أحقيته في أملاك أحمد بجة . وصدرت التعليمات لدوگلاس للرد على رسالة الامبراطور في رسالة يبعث بها إلى طالب بن زلول الوزير الكبير تم اعدادها في 7 يوليوز عام 1826 . وبناء على التعليمات استفاض دوگلاس في شرح وجهة النظر البريطانية والقاضية بوجوب حل مسألة املاك بجة على أن يفي المغاربة بوعد كانوا قد قطعوه على أنفسهم بأداء التعويض لعدد من الرعايا البريطانيين كانت سفينتهم قد غرقت على الساحل المغربي قبل ذلك بعامين ونصف .

سبب آخر لعدم رضاء السلطان عن دوگلاس نتج عن شكه في أن هذا الأخير كان مسئولا عن رفض الحكومة البريطانية لاستقبال يهودي يدعى مير بن مكنين كان المولى عبد الرحمن قد أرسله إلى لندن مبعوثا له . ومكنين هذا كان أحد رجال الأعمال في موكادور ولم يسدد بعض ديونه للتجار الانجليز هناك . ولما وصل تقرير بتلك المعلومات إلى لندن أبدى اللورد باتهرست ما يفيد بعدم موافقة حكومة جلالة الملك على قبوله سفيرا معتمدا لديها . ومع ذلك أرسل المولى عبد الرحمن خطابا تضمن اقتراحه بتعيين مكنين ممثلا له في لندن مما أدى إلى الرد عليه بخطاب موقع من الملك جورج الرابع ، ومع أن هذا الرد اتسم بالأدب غير أنه كان حاسما في التعبير عن رفض الحكومة البريطانية قبول مكنين مبعوثا للمغرب.

وكان مكنين قد رحل فعلا إلى انجلترا قبل وصول الرد على رسالة السلطان . وعندما وصل إليها في 27 أبريل تم ابلاغه بأنه سوف يصرح له بالنزول كمواطن عادي دون الاعتراف له بأية صفة رسمية . أكثر من ذلك فقد تم تحذيره بأنه إذا قبل النزول فعليه أن يقبل المخاطرة باعتقاله بسبب الديون التي لم يسددها للتجار الانجليز في موكادور .واستقبل مكنين التحذير بدون اكتراث وسافر إلى لندن ؛ حيث

استأجر دارا في شارع ساكفيل في بيكاديللي . ومن هناك كتب في 30 ماي عام 1827 إلى الفيكونت جودريش وزير الحرب والمستعمرات يشكو من اعادة أوراق اعتماده إليه دون تفسير . وليس هناك ما يفيد بما حدث بعد ذلك كما لا تتوفر أي تفاصيل عما واجه ماكنين اثناء بقائه في انجلترا . ومع ذلك فإنه كان بالمغرب عام 1832 وكان التجار البريطانيون لا زالوا على ادعاءاتهم بالأموال التي اقترضها منهم . وقد ادعت احدى الوكالات انه مديون لها بمبلغ 000، 24 جنيها ، ولكن عندما طلب من السلطان بيع ممتلكات مكنين في المغرب للوفاء بهذا الدين وغيرها من الديون المستحقة للتجار البريطانيين قال المولى عبد الرحمن ان مكنين مديون للسلطان نفسه بمبلغ من المال وان تصفية ممتلكاته في المغرب لن يفي بالتأكيد بديون السلطان والبريطانيين معا .

وفي يونيه عام 1827 ذهب دوكلاس إلى انجلترا لقضاء اجازته . وأثناء غيابه عن طنجة أصدر السلطان امره لحاكمها بعدم الاذن للقنصل البريطاني العام بالعودة إلى المغرب . ولما كتب تشارلز أليس نائب القنصل بذلك إلى لندن كتب الملك جورج الرابع في 25 شتنبر عام 1827 رسالة إلى السلطان يعرب فيها عن ثقته الكاملة في القنصل العام ويحث المولى عبد الرحمن على إلغاء أمره بطرد دوگلاس من المغرب . وأدى التدخل الملكي إلى تراجع المولى عبد الرحمن عن قراره وأمكن لدوكلاس العودة لمنصبه في 4 مارس 1828.

أزمة ميتيور وأوريستس

عادت المشاكل ثانية وكانت هذه المرة بسبب قيام السلطات المغربية بحجز سفينتين تجاريتين بريطانيين في غشت عام 1828 بحجة عدم وجود تصاريح الملاحة المطلوبة مع القائدين ، وقال البريطانيون ان مثل هذه التصاريح لا تطلب إلا في البحر المتوسط وان سفنهم لم تتجاوز المحيط الأطلنطي . وقد طولب المولى عبد الرحمن باطلاق سراح السفينتين ودفع التعويض اللازم عن حجزهما.

واستجاب السلطان للمطلب الأول ولم يلب المطلب الثاني . ادى ذلك إلى قدوم السفينتين الحربيتين ميتور وأوريستس إلى طنجة في 29 شتنبر عام 1828. وبعد التشاور مع قائديهما بعث دوگلاس برسالة إلى السلطان يطلب فيها التعويض -

كذا وعدا بعدم احتجاز السفن البريطانية في الأطلنطي مستقبلا . وتم ابلاغ السلطان بأنه إذا لم يصل رد مقبول على الرسالة خلال أربعين يوما فسوف تتخذ اجراءات أخرى لم تحدد طبيعتها.

وانتهى الأجل المحدد في 13 نوفمبر دون وصول رد المولى عبد الرحمن . وقد تصور دوكلاس ، وكان مصيبا ، ان التأخير ناتج عن سوء الأحوال الجوية التي قطعت طرق المواصلات ونصح بمد الأجل المحدد . غير أن القائدين البحريين رفضا الاستماع للنصيحة وفرضا الحصار على طنجة . ونتيجة لتدهور العلاقات على هذا النحو طلب دوكلاس في 17 نوفمبر مغادرة البلاد في اجازة ولكن جاء الرد بأن السلطان وحده هو الذي يملك منحه مثل هذا الاذن.

ووصل رد السلطان المنتظر على الانذار بعد أيام قليلة في 21 نوفمبر. وقد أشار فيه المولى عبد الرحمن بأنه قد أصدر أوامره الى قواده البحريين بعدم التعرض للسفن البريطانية في المحيط الأطلنطي مستقبلا ، غير أن السلطان أغفل مسألة التعويض . ونتج عن ذلك ان تحركت الحكومة البريطانية لتمارس مزيدا من الضغط ، وطلب من قيادة البحرية أن ترسل سفينة حربية أخرى إلى خليج طنجة لتنضم إلى ميتيور واوريستس ولضمان اطلاق سراح دوكلاس ونائبي القنصل وغيرهم من الرعايا البريطانيين في طنجة والذين بلغ عددهم نحو التسعين . وقد أبلغ حاكم طنجة بأنه إذا لم يسمح للبريطانيين بالرحيل فسوف يحتجز الرعايا المغاربة في جبل طارق كرهائن كما ستتخذ اجراءات عاجلة لتدمير السفن المغربية التابعة للسلطان . وإذا لم تثمر هذه الاجراءات فسوف تنزل قوة عسكرية إلى المدينة لضمان اطلاق سراح البريطانيين.

وقد دفعت هذه التهديدات المولى عبد الرحمن أخيرا إلى قبول دفع التعويض عن حجز السفينتين اللتين تم حجزهما في الأطلنطي . كما وافق على السماح لدوكلاس بمغادرة طنجة . بيد انه لما كانت قد تمت الاستجابة لمطالب الحكومة البريطانية فقد بقي القنصل العام بمقر عمله في طنجة التي رفع الحصار عنها في 19 يناير عام 1829 وطويت الحادثة عندما أطلقت السفن الحربية البريطانية الثلاث مدافعها تحية لدى مغادرتها الميناء وردت عليها البطاريات الساحلية بالمثل.

بعد ذلك بفترة قصيرة وفي 23 أبريل عام 1829 استقال دوڭلاس كقنصل عام اذ كان قد تعدى السبعين وأصابه ضعف شديد في عينيه . ولقد كان جادا وعلى خلق ولم يكن ذنبه ان تردت العلاقات بين بريطانيا والمغرب في فترة شغله للمنصب إلى هذا الحد المتدني . غير أن علاقات الصداقة التقليدية قد عادت لحسن الحظ في عهد خلفائه درمند هاي الأب والابن . واكتسب النفوذ البريطاني في بلاط السلطان مكانة ذات شأن.



الفصل السابع

عصر بالمرستون ولورد جون راسل

مجيء ادوارد هاي

وصل إدوارد وليام أوريول درمند هاي إلى طنجة في 25 غشت عام 1829 خلفا لدوگلاس في منصب القنصل العام في المغرب. وغادر طنجة في 9 نوفمبر متوجها إلى مقر السلطان في مراكش التي وصلها في 10 دجنبر لتقديم أوراق اعتماده ووجد في انتظاره استقبالا حافلا حيث استقبله خارج المدينة ثلاثة آلاف من الفرسان والفان من المشاة حفوا به في الجانب الأخير من رحلته وقد تزيوا بالخوذات التقليدية. واستقبله المولى عبد الرحمن في 17 دجنبر، وقد أكد خلال مراسم الاستقبال على مشاعره الودية تجاه بريطانيا وعلى رغبته في مزيد من قوة الروابط بين البلدين.

بالرغم من حرارة الاستقبال لم تتكلل بالنجاح المفاوضات التي أعقبت ذلك بين هاي وبين الوزير الكبير سيدي محمد بن ادريس. فلم يتم الاتفاق بشأن التصرف في أملاك أحمد بجة، كما رفض السلطان طلبا تقدم به هاي بقيام ضابط بحرية بريطاني، هو الكابتن بتلر من رجال السفينة الحربية «هيكلا»، بمسح الشاطئ المغربي واعداد خريطة أفضل له تقلل من احتمالات غرق السفن مستقبلا. وأخيرا لم يتم الاتفاق على مبلغ التعويض الذي طولب السلطان بتأديته في مقابل نهب ثلاث سفن تجارية بريطانية غرقت عند الساحل المغربي.

وفي 6 يناير عام 1830 التقى هاي بالسلطان مودعا، وقد حمَّله المولى عبد الرحمن رسالة إلى الملك جورج الرابع. كما كلفه بالتأكد من سلامة وصول هدايا

السلطان إلى الملك جورج الرابع وكانت عبارة عن انثى فهد صغيرة ، وذكر ضبع ، وأربعة غزلان من نوع نادر(1).

أثر الغزو الفرنسي للجزائر :

بعد شهور قليلة من رحيل هاي عن مراكش ، وفي 14 يونيه عام 1830 نزل جيش فرنسي إلى الجزائر وبدأ في غزو البلاد . وقد خلف هذا الحادث أثرا عميقا وحاسما على مسيرة العلاقات الانجليزية — المغربية ، فمنذ ذلك الحين فصاعدا كان على السلاطين أن يواجهوا على حدودهم الشمالية الشرقية جارا عدوانيا ذا جيش قوي بدلا من داي الجزائر الضعيف . وترتب على الاضطرابات التي نتجت عن هذا الوضع الجديد أن أخذ السلاطين وموظفوهم يتجهون أكثر وأكثر إلى طلب النصيحة والعون البريطانيين . وكان الأخيرون في نفس الوقت يشاركون المغاربة اهتمامهم في الابقاء على النفوذ الفرنسي في البحر المتوسط في اطار حدود معينة.

ومنذ المراحل الأولى للغزو الفرنسي وقد ثارت المتاعب ذلك ان السلطان قد عبر عن حقه في السيادة على تلمسان ورفض الفرنسيون قبول ذلك . ونتج عن نشوب ذلك النزاع ان أرسل الفرنسيون الكونت دي مورناي إلى مكناس في مارس عام 1832 لبحث المشكلة وغيرها من مظاهر الخلاف الناتجة عن الغزو الفرنسي للجزائر . وقد صدرت التعليمات إلى القايد محمد بن عبو بن عبد الملك ، القائد العسكري لمنطقة طنجة بحراسة الكونت إلى مكناس ؛ وقد ساد الاعتقاد لدى هذا القائد من ناحية ، ولدى الطيب البياز مدير الجمارك في طنجة الذي كلف بدوره بصحبة الكونت دي مورناي من ناحية أخرى بأن السلطان سوف يطلب رأيهما حول السياسة التي يمكن اتباعها تجاه الجزائر .

وقد التمس الرجلان من هاي ، والسبب كما كتب هاي إلى حكومته ، ماقالاه من أن بريطانيا هي أقوى أصدقاء المغرب وأكثرهم جدوى ، وكان الرجلان خائفين

---

(1) لسوء الحظ توفيت الغزلان وهي في الطريق الى طنجة أما الفهد والضبع فقد وصلا سالمين إلى بورتسموث في 14 مارس عام 1831 على السفينة الحربية وولف.

بوجه خاص من نشوب الحرب بين بلادهما وبين فرنسا حول تلمسان . ومن ثم فقد التمسا من هاي أن يخلص لهما النصيحة التي يمكن أن يقدماها للمولى عبد الرحمن حول الموضوع . وأبلغهم هاي أن الفرنسيين قد استولوا على الجزائر بحق الغزو ويمتد هذا الحق على كل الأراضي التي يدعون وجودها في أيديهم . ومن ثم تقع تلمسان ، وغيرها من المناطق التي تحكم فيها الدايات من قبل ، تحت سلطانهم بحق الغزو . ولا تستطيع بريطانيا الاعتراض على هذا الحق وعلى ذلك فإذا ما قرر السلطان أن يناضل الفرنسيين في هذا الموضوع فعليه ألا يعتمد على المعونة البريطانية . وحذر هاي أيضا من أن المولى عبد الرحمن سيواجه كارثة إذا ما تحدى فرنسا بسبب تفوقها الساحق في السلاح . وقد صرح هاي للمغربيين بتسجيل ما قال وأصر على أن سياسة السلام سوف تحقق أفضل المصالح المغربية

التجارة الانجليزية مع المغرب

بالإضافة إلى المشكلة الجزائرية كانت هناك التجارة الانجليزية — المغربية التي احتلت مساحة ملحوظة من اهتمام هاي . وقد كتب حول هذا الموضوع في رسالة له من طنجة مؤرخة في 20 فبراير عام 1834 ما نصه : « لي أن ألاحظ فيما يتصل بالتجارة المتداولة في هذا الجزء من العالم اننا نفقدها عاما وراء آخر ، ليس هذا فحسب بل اعتقد اننا فقدناها كلية ..ألا تنقل نصف التجارة المتداولة في البحر المتوسط الآن على سفن تحمل أعلام سردينيا ؟..وألا يتنافس الآن أبناء نابولي وتسكانيا[2] والنمسويون بدون هوادة مع السردينيين في هذا الميدان ؟.. ولقد تعرضت في رسائل سابقة لما اعتبرته غزوا من جانب التجار الفرنسيين لتلك البلاد مما يشكل مرحلة جديدة للتجارة هنا لن ينساها أحد... وهم ينحونا جانبا بسكرهم المكرر ، وبقطنهم ، وبمصنوعاتهم الصوفية .. »[3]

وأشار هاي إلى أنه قد استمر لعامين ينبه حكومته لتدهور نوعية مختلف البضائع البريطانية المعروضة في المغرب ، خاصة الأقمشة . وقال ان السمعة الطيبة التي

---

(2) سردينيا (بيومونت) ونابولي وتسكانيا ممالك وإمارات ايطاليا قبل اتمام وحدتها عام 1870. (المترجم)

(3) F.O. 52/38

اكتسبتها السلع البريطانية في المنطقة التي تمتد حتَّى تمبكتو يتم تدميرها حيث يقبل المغاربة على شراء منتجات البلاد الأخرى .

وكأنما أراد السلطان تأكيد ملاحظات هاي فقد قرر في يوليوز عام 1834 منع بيع نوع معين من ألبسة الأطفال الانجليزية في المغرب بسبب سوء صنفها . ورد هاي على ذلك ، وبناء على تعليمات لندن ، بتقديم احتجاج إلى السلطان في 18 نوفمبر عام 1834 جاء فيه ان هذا المنع يشكل انتهاكا لمعاهدة السلام والصداقة والتجارة بين البلدين الموقعة في عام 1824 . وقد أجاب المولى عبد الرحمان في أول شعبان عام 1250 هـ (3 دجنبر عام 1834) بأنه قد اتخذ قراره لحماية رعاياه من استخدام هذا النوع السيئ من الأقمشة .

وبالنظر إلى عدم الاقتناع برد السلطان فقد صدرت التعليمات إلى هاي في فبراير عام 1835 لاثارة الموضوع مرة أخرى . وأرسل هذا للسلطان أربع من العينات الجيدة من تلك الألبسة ، وقال ان سبب الشكوى ما فعله التجار المغاربة . ذلك أن هؤلاء قد اشتروا أنواعا رديئة من الأقمشة من تلك التي تخصص لاكفان الموتى. وجاءت اجابة المولى عبد الرحمن بأنه قد تم فحص العينات الأربع ووجدت اثنتان منها سيئتين وانه قد أكد أوامره بعدم ادخال أية أقمشة رديئة إلى البلاد حماية لرعاياه من ذلك الاستغلال اللاأخلاقي.

وفي مواجهة موقف المولى عبد الرحمن ارتأت السلطات في لندن ، في رسالة بعثت بها لهاي في اكتوبر عام 1835 ، بأنه ليس من الصواب القيام بأية محاولة أخرى لحث السلطان على سحب قرار منع الأقمشة الرديئة . وجاء في نهاية الرسالة ، وبأسلوب ينم عن القبول ، ما نصه « ينبغي أن نقنع الان بتأكيداته بأن هذا المنع سيطبق فقط على ألبسة الأطفال الرديئة الصنع جدا »[4].

قراصنة الريف :

أمر آخر ظل يشكل تهديدا مستمرا للعلاقات الودية بين بريطانيا والمغرب تمثل في أعمال القرصنة التي كانت تقوم بها قبائل الريف المتاخمة لشواطئ المتوسط . ذلك

F.O. 52/39 (4)

انه ما ان يهدأ البحر ، مما كان يؤدى في ذلك العصر إلى توقف السفن ، حتّى كان رجال تلك القبائل يتركون مخابئهم في سفنهم الشراعية ذات المجاذيف ويأسرون بحارة السفن التجارية الواقفة وينهبون ما فيها . وقد كتب هاي إلى السلطان في 20 شتنبر عام 1834 يشكو من القرصنة ويطلب ايقافها . وأضاف بأن التعليمات قد صدرت له للإبلاغ بأنه في حالة استمرارها سوف تواجه سفن الأسطول الملكي الموقف .

وفي الرد الذي كتبه السلطان في 10 جمادي الآخر عام 1250 (24 أكتوبر عام 1834) قال انه يعتبر قراصنة الريف عارا لبلاده . وأضاف بأنه قد تم ارسال تحذير إلى قبائل تلك الجهات ووعد ببذل الجهود لاستعادة البضائع التي نهبوها من السفن البرنطانية . وانه إذا أمكن استردادها فسوف تسلم بالطبع إلى أصحابها الشرعيين.

حركة عبد القادر وأثرها :

والى الغرب من بلاد الريف كانت هنا تلك المناطق التي شهدت حركة مقاومة جزائرية تحت قيادة عبد القادر شنت حرب مؤخرة عنيدة ضد الفرنسيين . وقد خلق عبد القادر مشكلة حساسة للسلطان ، ذلك أن المغاربة قد نظروا إليه كالجزائريين باعتباره بطلا وطنيا ومدافعا عن الاسلام . وقد كان عبد القادر نفسه زعيما ذا مكانة رفيعة كرس نفسه للقيام بهجمات محلية على الغزاة الفرنسيين . وقد كتب إلى الملك وليم الرابع ملك انجلترا يطلب مساعدته ، كما طلب عونه في تدبير لقاء بينه وبين سلطان المغرب ، وقال عبد القادر انه سوف يكون سعيدا لو ترتب على هذا اللقاء ان اصبح رعية مغربية . وقد قام أحد أعوان عبد القادر بتسليم هذا الخطاب الى هاي في يناير عام 1834 فبعث به القنصل العام إلى لندن في 13 من نفس الشهر(5) .

وجاءت الإجابة إلى هاي في فبراير عام 1836 وتضمنت التعليمات أن يكون الرد على عبد القادر على النحو الآتي « سوف تبلغ الرئيس باختصار ولكن بكياسة بأن حكومة جلالته لديها من المشغوليات ما يمنعها من الاستجابة إلى مطلبه . وانه

---

(5) F.O. 52/40

ليس من أمل لدى جلالة الملك بأن يتمكن من التوسط بينه وبين امبراطور المغرب »[6] . وتبع وصول هذه التعليمات وصول رسالة من اللورد بالمرستون وزير الخارجية[7] مؤرخة في 13 يونيه عام 1836 وقد جاء فيها ان على القنصل أن يتجنب بقدر الإمكان التورط في المراسلات مع عبد القادر وأعوانه . كما تضمنت أيضا التعليمات بعدم التورط بأي شكل في النزاعات بين الفرنسيين والسلطان . هذه النزاعات التي زادت حدتها من جراء المعونة من الرجال والسلاح التي كان يقدمها السلطان بشكل غير رسمي لعبد القادر . وقد وصل الموقف إلى حد من التأزم إلى درجة أن سفينتين حربيتين فرنسيتين قد تقدما في يوليوز عام 1836 إلى خليج طنجة تحملان مبعوثا جاء لتقديم احتجاج للسلطان على المعونة التي يحصل عليها عبد القادر من المغرب .

انجلترا والجنوب المغربي

بالإضافة إلى مشاكل شمال افريقيا التي سببتها مقاومة عبد القادر للفرنسيين في الجزائر تركزت اهتمامات القنصل العام على الجنوب الأقصى حيث المناطق التي يمارس فيها السلطان سيادته بشكل متقطع . ذلك انه قد تقدم إلى القنصلية العامة في طنجة في 13 نوفمبر 1835 رجل يدعى جون دافيد سون وقد جاء معه بخطاب توصية من الملك وليم الرابع إلى المولى عبد الرحمن . وقد أبلغ دافيد سون الذي اصطحب مغربيا يدعى شريف عبو ، أبلغ هاي بأنه يرغب في استكشاف المناطق الصحراوية حتى تمبكتو وان الملك يطلب من السلطان في رسالته اليه اعانته في تنفيذ مشروعه . وتم إرسال الخطاب إلى مراكش بينما انتظر دافيد سون في طنجة حتى 13 ديسمبر حين جاءه رد مشجع فبدأ رحلته إلى مراكش تحت حراسة قوة سلطانية . ومن هناك ، وبإذن من المولى عبد الرحمن تقدم دافيد سون إلى وادي نون استعدادا لعبور الصحراء إلى تمبكتو . وبينما كان في وادي نون أجرى محادثات مع الشيخ بيروك أحد المشايخ المحليين في المنطقة ، كتب بعدها دافيد سون إلى

(6) Ibid

(7) عادت مسئولية الاشراف على قنصليات شمال افريقيا إلى وزارة الخارجية في يونيه عام 1836.

بالمرستون في 16 غشت عام 1836 بالنيابة عن الشيخ ، قال : ان الأخير قد طالب بقيام علاقة تجارية مباشرة مع بريطانيا وجبل طارق وذلك بتأسيس مركز تجاري قرب مصب نهر واد نون.

وجاء رد لورد بالمرستون على دافيد سون في 30 شتنبر عام 1836 وقد طالبه باتخاذ أشد اجراءات الحيطة في الاتفاق مع الشيخ حول التجارة مع البريطانيين حتّى لا يثير حفيظة السلطان ، على حد تعبير بالمرستون . وكان من رأي وزير الخارجية انه بالرغم من الرغبة الشديدة في اقامة تجارة مباشرة مع مناطق الشيخ بيروك فإن الحفاظ على العلاقات الودية مع سلطان المغرب أمر بالغ الأهمية لبريطانيا حيث أن جبل طارق يتحصل على أغلب احتياجاته من أملاكه . وقد جاء رفق الخطاب إلى دافيدسون خطاب آخر من بالمرستون إلى الشيخ نفسه يدعوه إلى إرسال وكيل عنه في لندن لبحث المقترحات التي يراها .

وعندما وصلت السفينة الحربية البريطانية سكوربيون إلى موكادور في 28 نوفمبر عام 1836 تحمل رسالتي بالمرستون إلى دافيدسون والشيخ بيروك كتب نائب القنصل البريطاني في المدينة وليام ويلشاير إلى القنصل العام هاي يعبر له عن مخاوفه من الموضوع برمته خاصة إذا مانما إلى علم السلطان . وكان هاي يشارك ويلشاير تلك المخاوف حيث انه رد عليه في 14 دجنبر عام 1836 قائلا « لاشك أن أكثر من شخصية بالإضافة إلى حاكم موكادور قد كتبت إلى البلاط بهذه البعثة غير العادية »، وبدا المشروع برمته لهاي « محفوفاً بالمخاطر على علاقاتنا الهادئة بالمغرب ... » وقد توقع انه عندما يعلم السلطان به فسوف ينظر إلى فعلة الانجليز باعتبارها عملا « غير مخلص وغير ودي وانه تحت هذا الشعور يمكن أن تتغير نظرة الاحترام التي تنظر بها إلينا الحكومة المغربية نتيجة لمعاملاتنا المستقيمة ..»[8].

مشكلة وكلاء القناصل اليهود :

بالرغم من أن وفاة دافيد سون قد انهت مصدرا من أهم مصادر المتاعب

(8) F.O. 52 41 تم التخلي عن المشروع لما وصلت الأنباء بوفاة دافيد سون في منتصف ديسمبر عام 1836 في منتصف الطريق بين واد نون وتمبكتو حيث قتلته القبائل الجوالة بالصحراء.

الكامنة بين بريطانيا والسلطان فان موقف السلطات المغربية تجاه اليهود الذين تم استخدامهم كوكلاء قنصليين لبريطانيا في المواني المغربية قد هدد العلاقات بين البلدين لبعض الوقت . فقد أصدر السلطان في شتنبر عام 1836 مرسوما يمنع توظيف اليهود كوكلاء قنصليين ، دعا ذلك اللورد بالمرستون إلى اصدار تعلماته لهاي للاحتجاج على هذا المرسوم باعتباره خرقا للمادة الثانية من المعاهدة الانجليزية ــ المغربية المعقودة عام 1824 . مع ذلك فقد بقي المولى عبد الرحمن على تصلبه وجاء في الرد الذي أرسله إلى هاي والمؤرخ في 8 صفر عام 1253 (14 ماي عام 1837) ان مما شجعه على اصدار المرسوم الرغبة في الحفاظ على علاقات الصداقة الانجليزية ــ المغربية ذلك أن توظيف اليهود كوكلاء قنصليين سوف يؤدى إلى افساد هذه العلاقات ، وقال السلطان إن « شغل اليهود لهذه الوظائف يدفعهم إلى الغطرسة على المسلمين وتعدى الحدود .. »[٩].

وفي مواجهة رفض المولى عبد الرحمن سحب مرسومه بحث وزير الخارجية عن التفسير القانوني لحدود المادة الثانية من معاهدة عام 1824 والتي جاء فيها ان « للقنصل المذكور (البريطاني) أن يختار لخدمته من يرى من المغاربة أو من غيرهم... » وكان تفسير المستشار القانوني لبالمرستون ان هذه المادة لا تخول للحكومة البريطانية حق توظيف اليهود كوكلاء قنصليين في المغرب ذلك ان المقصود من الامتياز الذي جاء في هذه المادة يقتصر على المترجمين والخدم الذين يوظفهم القنصل العام . وبناء على ذلك كتب بالمرستون إلى هاي في فاتح أكتوبر عام 1838 « اكتب إليكم بتعلماتي على ضوء تلك الظروف بالامتناع عن أية محادثات أخرى مع حكومة المغرب حول هذه النقطة[١٠] ».

عودة لمسألة العلاقات الفرنسية ــ المغربية :

وفي أبريل عام 1840 عادت مسألة العلاقات الفرنسية ــ المغربية وانعكاساتها على بريطانيا لتفرض نفسها مرة أخرى . ذلك ان عبد القادر الذي لا يعرف الكلل قد عاود في فبراير عام 1840 الكتابة إلى حاكم بريطانيا العظمى ، وكانت عندئذ

F.O. 52/44 (9)
F.O. 99/1 (10)

الملكة الشابة فيكتوريا ، وقد ادعى عبد القادر في الرسالة التي سلمها لهاي ليبعث بها إلى لندن ان الفرنسيين قد انتهكوا بغدر معاهدة السلام التي كانوا قد عقدوها معه ، وقال انه في مثل هذه الظروف ينبغي التفاوض مع ممثل بريطاني لإقامة علاقة تجارية بين بريطانيا وبين الأراضي التي يسيطر عليها . أرسل بالمرستون في 21 أبريل عام 1840 تعليماته إلى هاي ردا على خطاب عبد القادر ، قال : ان سياسة الحكومة البريطانية تقوم على عدم مناصبة فرنسا أو عبد القادر العداء . ومن ثم رؤى على ضوء هذه السياسة الامتناع عن الاجابة على خطاب الرئيس الجزائري.

في تلك الآونة تزايدت احتمالات الحرب بين المولى عبد الرحمن وبين الفرنسيين نتيجة لتزايد العون الذي حصل عليه عبد القادر من المغرب . دعا ذلك الفرنسيين إلى تقديم الاحتجاجات والتحذيرات وازدادت الأمور سوءا عندما ضرب جندي مغربي أحد الرعايا الفرنسيين في موكادور في اكتوبر عام 1840. فقد طالب الفرنسيون بانزال العقاب بكل من الجندي وحاكم موكادور . وفي فبراير عام 1841 أرسل بالمرستون تعليمات إلى هاي تقضي بأن يؤكد هذا الأخير للسلطان بأن الحكومة البريطانية تنصحه بقوة بالاستجابة للمطالب الفرنسية لمصلحته . ومع ذلك ، زيادة في التأكيد ، طلب بالمرستون من هاي في 12 فبراير ابلاغ السلطان بأن « الحكومة البريطانية شعورا منها بالصداقة المخلصة تجاه الامبراطور ، ورغبة منها في الإبقاء على الامبراطور مستقلا وقويا . فان أفضل قاعدة يمكن أن يسترشد بها في علاقاته مع القوى الأخرى للابقاء على استقلاله والحفاظ على السلام تتمثل في الالتزام بالحرص الشديد على عدم اعطاء أية قوة أجنبية مبررا للشكوى ضده .. » واسترسل بالمرستون قائلا « وفي أية مناسبة من هذا النوع وعندما تواجه المتاعب الامبراطور أو تهدده المخاطر من الخارج فله أن يعتمد دائما وبكامل الثقة على صداقة انجلترا وأن يتأكد بأن الحكومة البريطانية سوف تعينه في كل الأحوال بالنصيحة والمساعي الطيبة .. [11] ».

F.O. 99/7 (11)

وقد أقر اللورد أبردين الذي خلف بالمرستون في وزارة الخارجية عام 1841 سياسة سلفه تجاه النزاع المغربي — الفرنسي بسبب عبد القادر. فقد كتب في 6 ماي عام 1842 إلى هاي خطابا تضمن تعليماته وطالبه بابلاغها للسلطان على اعتبار انها تمثل وجهة نظر الحكومة البريطانية حول العلاقات مع عبد القادر، كتب أبردين: «ترى حكومة جلالتها ان على الامبراطور أن يتصرف بحكمة ويبذل أقصى جهده لمنع رعاياه من القيام بأي دور في الصراع القائم بين عبد القادر والفرنسيين..[12]».

وقد زار هاي السلطان في مكناس، وفي اجتماع خاص بين الرجلين في 21 يونيه عام 1842 شرح القنصل العام آراء الحكومة البريطانية حول المشاكل التي ترتبت على ثورة عبد القادر ضد الفرنسيين وقدم نصيحة وزير الخارجية. وجاء رد المولى عبد الرحمن على القنصل العام بأنه سيضع النصيحة محل الاهتمام، وأضاف انه يعتبر ما تقوم به الحكومة البريطانية من اسداء النصح دليلا على صداقتها المخلصة للمغرب. واعلن أن هذا الرباط التقليدي هو الذي يدفع رعاياه إلى وضع انجلترا في أشرف مكانه، وإلى الارتباط بعلاقة وثيقة مع المغرب أكثر من أي بلد آخر. وبعد انتهاء الاجتماع مع هاي عبر السلطان عن مشاعره بأن يبعث إلى الملكة في يوليوز عام 1842 هدية عبارة عن فرس بربرية من تافيلالت، دلالة على شعوره الودي.

ومع ذلك فقد أدت الأحداث التي صاحبت تقديم هذه الهدية، وما ترتب عليها إلى مشكلة بروتوكول حرجة. ذلك أن القنصل العام هاي كان قد تسلم ابلاغا في فبراير عام 1835 يقضي بمنع الموظفين البريطانيين العاملين بالخارج مستقبلا من تبادل الهدايا مع الحكام الأجانب أو رجال حكوماتهم. وقد أبلغ هاي السلطان بهذا الأمر في أول مارس عام 1835، بيد انه كان من الصعب فهم هذه البدعة في بلد كالمغرب حيث جرت العادة على تقديم الهدايا وقبولها. من ثم فعند رحيل هاي من مكناس في يونيه عام 1842 اراد المولى عبد الرحمن تبعا للعادة المغربية وتعبيرا عن رضائه تقديم فرس بربرية إلى القنصل العام. دعا ذلك هاي إلى تذكير السلطان بالأمر الخاص بعدم قبول الموظفين البريطانيين للهدايا. غير انه ليبدد سخف

F.O. 99/9 (12)

الموقف الناتج عما بدا ردا جافا على ايماءة السلطان الودية اقترح قبول الفرس كهدية للملكة فيكتوريا ووافق السلطان على الاقتراح.

وقد شرح هاي ماجرى بالتفصيل في رسالة بعث بها إلى اللورد أبردين في 26 يوليوز عام 1842 وجاءه الرد بخطاب من وزير الخارجية قال فيه « أشعر بصعوبة في توجيهك للتقدم بشكر رسمي من جلالتها لامبراطور المغرب على فرس تافيلالت الذي بعث به في غشت الماضي .. فمن الواضح ان الامبراطور لم يكن ينوى تقديم الفرس إلى الملكة وهو قد فعل ذلك نتيجة لرفضك لقبول الحيوان لنفسك واقتراحك بأنك ستقبله هدية للملكة مما بدا معه الامبراطور كمن وهب الفرس لجلالتها . ولن يتفق مع كرامة جلالتها أن تتقدم بشكرها إلى الامبراطور على هدية ، إذ صح تسميتها بذلك ، قدمت بهذا الشكل ، وعلى ذلك فكل ما أخولك قوله في هذا الشأن ان الفرس قد وصلت سالمة إلى تلك البلاد ، وإن جلالتها قد سرت كثيرا بها »[13]

الوساطة بين المغرب واسبانيا :

وفي أوائل عام 1844 ساورت المولى عبد الرحمن المخاوف من أن الاسبان على وشك اعلان الحرب على المغرب . وقد انبعث ذلك الشعور من حالة التوتر التي نشأت بين البلدين في اعقاب تنفيذ السلطات المغربية لحكم الاعدام في وكيل قنصلي اسباني في مازاكان ، والادعاء بحدوث تعديات مغربية على سبتة . وقد أرسل هاي تقريرا بالوضع إلى اللورد ابردين . وجاء الرد الى القنصل العام يطلب منه ابلاغ السلطات بالخطوات التي ستتخدها الحكومة البريطانية لتخفيف التوتر (الحقيقة أن الحكومة البريطانية قد طلبت من الوزير البريطاني في مدريد ابلاغ الحكومة الاسبانية بأنها لا تعتقد بوجود أي مبرر لشن حرب ضد المغرب ، ومن ثم فهي تحث الحكومة الاسبانية على التخلي عن أية خطة في هذا الصدد ان وجدت).

ووصلت تعليات فورية إلى هاي لابلاغ المولى عبد الرحمن باستعداد الحكومة البريطانية بالتوسط بين اسبانيا والمغرب لتسوية أية خلافات قائمة بين البلدين وقد قبل كل من السلطان والحكومة الاسبانية العرض وتمكن هاي من خلال قيامه بدور

F.O. 99/11 (13)

الوساطة في غشت عام 1844 من انهاء الخلافات ووضع تسوية قبلتها اسبانيا في 9 شتنبر من نفس العام.

عودة أخرى للعلاقات المغربية — الفرنسية :

توفر سبب واحد على الأقل لترحيب السلطان بتسوية نزاعه مع اسبانيا وهو انه كان قد تورط خلال نفس الوقت بدرجة خطيرة مع فرنسا بسبب المشكلة الجزائرية. فقد هاجمت القبائل المغربية في أبريل ومايو عام 1844 الفرنسيين أثناء اقامتهم لقلعة في منطقة الحدود مع الجزائر. نتج عن ذلك أن قدم الفرنسيون على الفور انذارا للسلطان في 12 يونيه يطالب بتسريح القوات المغربية المرابطة قرب الحدود الجزائرية وابعادها، كما يطالب بمعاقبة المسئولين عن الهجمات الأخيرة، وتسليم عبد القادر للفرنسيين[14]، ثم أخيرا بالموافقة على تعيين الحدود النهائية بين الجزائر والمغرب.

وما أن تسلم اللورد أبردين أنباء هذا الانذار من هاي حتَّى أصدر تعليماته إلى القنصل العام بالتوجه إلى البلاط وتقديم وجهة نظر الحكومة البريطانية حول الموضوع إلى المولى عبد الرحمن. ووصل هاي إلى مراكش في 13 يوليوز عام 1844 ليجد السلطان قد رحل منها الى الرباط قبل ذلك بيومين. ومع ذلك فما ان علم المولى عبد الرحمن بوصول هاي حتَّى بعث إليه بسيدي محمد بن ادريس الوزير الكبير، وقد أبلغه هاي بنصيحة الحكومة البريطانية بشأن الأزمة التي تواجه السلطان. وقد وضعت هذه النصيحة في اعتبارها مصالح المغرب الخاصة قبل أي اعتبار آخر، وذلك بقبول المطالب التي تقدمت بها الحكومتان الفرنسية والاسبانية لانه سيترتب على نشوب الحرب مع احداهما أو مع كليهما وقوع كارثة بالاستقلال المغربي.

وبدا الوزير الكبير عازفا عن قبول النصيحة، وقد اعتقد هاي أن السبب في ذلك أن سيدي محمد بن ادريس يشارك السلطان اقتناعه الراسخ بأن بريطانيا العظمى لن يكون أمامها سوى الدفاع عن المغرب ضد العدوان الفرنسي والاسباني وذلك دفاعا عن مصالحها الخاصة. وتوفر من الأسباب ما دعا هاي إلى الاعتقاد

(14) أجبر الفرنسيون في نوفبر عام 1843 عبد القادر على الهروب من الجزائر واللجوء إلى المغرب.

بأن السير روبرت ويلسون حاكم جبل طارق كان مسئولا إلى حد ما عن ظن السلطان باستعداد بريطانيا لتدعيمه . دعا ذلك هاي إلى الكتابة إلى هنري بولوير السفير البريطاني في مدريد في 4 يونيه عام 1844 ليبلغه بأنه « منزعج بشدة » بسبب « التدخلات غير المسئولة » التي يقوم بها السير روبرت ويلسون في الشئون المغربية . وبناء على احتجاجات هاي كتب اللورد أبردين الى وزير المستعمرات يطلب منه ارسال التعليمات إلى السير روبرت للتوقف مستقبلا عن التدخل فيما يعتبر من مسئوليات القنصل العام هاي .

وفي 6 غشت عاد هاي إلى طنجة بعد أن استقل من موكادور السفينة الحربية فسوفيوس . وقد وجد أن قوة بحرية فرنسية كانت قد قصفت المدينة قبل ذلك بقليل ودمرتها بسبب عدم قبول المغاربة لانذار 12 يونيه وقد سبب قصف طنجة خيبة أمل شديدة لهاي لأنه بعد مغادرته لمراكش ذهب إلى الرباط حيث كان السلطان وتمكن من حث المولى عبد الرحمن في اجتماع خاص في 5 غشت 1842 على قبول المطالب الفرنسية.

وفي تلك الأثناء تقدمت القوات الفرنسية بقيادة الماريشال بيجو من الجزائر إلى وجدة التي احتلتها في 19 يونيه . وتقدم جيش مغربي بقيادة المولى عبد الرحمن إلى المدينة غير أن هذا الجيش الذي اتخذ مواقعه وراء نهر اسلي لقي الهزيمة الكاملة على أيدي الفرنسيين في 14 غشت عام 1844 وفي نفس الوقت تقريبا وصلت قوة بحرية فرنسية إلى موكادور واستولت على الجزيرة الواقعة على مدخل الميناء من حيث قصفت المدينة في 15 غشت ودمرتها.

ووقع المغاربة بعد هذه الضربات الساحقة تحت رحمة الفرنسيين . ولكن بريطانيا التي تخوفت من اتساع النفوذ الفرنسي في شمال افريقيا نجحت في اشاعة روح الاعتدال مما امكن معه توقيع معاهدة سلام في 14 شتنبر عام 1844 بين المغاربة والفرنسيين وقد تحددت بالاستجابة للمطالب الفرنسية التي تم تقديمها في انذار 12 يونيه .

ولم يتمكن القنصل العام هاي من الاشتراك في المناورات الديبلوماسية التي أدت إلى توقيع المعاهدة نتيجة لما أصابه من مرض في اعقاب عودته إلى طنجة بعد ما عاناه من اجهاد من حرارة صيف المغرب . ومع ذلك فقد ترك ادارة المفاوضات مع كل من المغاربة والفرنسيين لابنه جون إذ كان اللورد ابردين قد أصدر تعليماته في 2 غشت عام 1844 لهاي الصغير باللحاق بأبيه في طنجة . وكان جون درمند هاي قد التحق بالسلك الديبلوماسي في عام 1840 حيث عمل ملحقا في السفارة البريطانية باستنبول . وقد خدم هناك أولا مع اللورد بونسونبي ، ثم مع صاحب الشخصية المهيبة سير سترانفورد كاننج ، وبعد ذلك مع اللورد سترانفورد دي ردكليف الذي استمر لبضع سنوات سفيرا لبريطانيا لدى الباب العالي . وقد حدث ان كان جون درمند هاي يقضي اجازة في لندن عام 1844 عندما نشبت الأزمة الفرنسية — المغربية فتقدم بطلب للخدمة مع أبيه وهو الطلب الذي وافق عليه اللورد أبردين على الفور ، وتعزى هذه الموافقة بالأساس للمزايا اللغوية التي تمتع بها جون درمندهاي والتي كان منها تمكن غير عادي من اللغة العربية .

وقد أسندت عملية الوساطة البريطانية بين فرنسا والمغاربة لهنري بولوير السفير البريطاني في مدريد غير أن جون درمند هاي هو الذي تولى من موقعه في طنجة العبء الأكبر للمفاوضات وقد انجزه بجدارة . وكانت هذه الانجازة محل اعجاب من اللورد أبردين حتى انه عندما توفي القنصل العام ادوارد درمند هاي في 28 فبراير عام 1845 تقرر أن يخلفه ابنه جون في منصبه . وكان ذلك بمثابة البداية لفترة طويلة من الخدمة في المغرب أصبح جون درمند هاي خلالها المستشار الموثوق به للسلاطين المتتاليين كما انه نجح اثنائها في ربط بريطانيا والمغرب بروابط من الصداقة التي لم تتواجد بهذا الشكل من قبل .

الوساطة بين المغرب وبين كل من الدانمارك والسويد :

وفي 9 أبريل عام 1845 كتب القنصل العام الجديد إلى اللورد أبردين يزف له نبأ نجاحه في عملية وساطة ديبلوماسية أخرى . ذلك انه قبل سنوات طويلة ، بدأت منذ عام 1707 بالنسبة للدانمارك وعام 1803 بالنسبة للسويد ، كان حكام هاتين

الدولتين قد تعهدوا بدفع اتاوة سنوية لسلطان المغرب في مقابل تأمين سفنهم التجارية من هجمات قراصنته وسفنه الحربية . بيد انه بعد القضاء على أعمال قراصنة بلاد البربر منذ أوائل القرن التاسع عشر ساد الشعور بأن الاستمرار في دفع هذه الاتاوة لا يتفق مع مقتضى المتغيرات من جانب ، كما انه ينطوي على اهانة من جانب آخر ، ومن ثم فتحت كل من الدانيمارك والسويد باب المفاوضات مع المولى عبد الرحمن حول هذا الموضوع . وبناء على طلب الدولتين وبعد موافقة الحكومة البريطانية قام جون درمندهاي بدور الوساطة وتمكن من الوصول بالمفاوضات إلى بر النجاح في 5 أبريل عام 1845 عندما تم توقيع اتفاقيات قبل السلطان بمقتضاها مبلغا اجماليا من كل من الدانيمارك والسويد في مقابل انهاء الاتاوة السنوية . وقد أبدى كل من ملكي الدولتين رغبته في التعبير عن امتنانه بمنح هاي لقب الفروسية . ولما كانت تعليمات وزارة الخارجية تمنع ذلك فقد أبلغ اللورد أبردين هاي بأنه لا مانع لديه من أن يقبل هذا الأخير « أية هدية صغيرة » . وعلى الفور تقدم العاهلان بتلك الهدايا التي ترمز إلى امتنانهما[15] .

تعليمات يتبعها جون درمند هاي :

وفي 26 ماي عام 1845 تلقى جون درمند هاي التعليمات التي رؤى ان يسترشد بها في تعاملاته مع السلطان ، وقد جاء فيها :

« وتقديرا منا للحقائق التي فرضت نفسها والتي تشير إلى الاهتزاز الحاد لنفوذ السلطان وإلى أن أي اهتزاز آخر قد يؤدى إلى تعريض عرشه نفسه لخطر عظيم ، فإنه ينبغي أن يكون هدفنا الأول بذل أقصى ما نستطيع للمعاونة على الإبقاء على هذا النفوذ وتوقي أية حادثة يمكن أن تهدده بمزيد من الأخطار .. ويبقى استقرار عرش الامبراطور وتوفر الادارة الحسنة والأوضاع السلمية في أراضيه من أكثر الأمور أهمية لبريطانيا العظمى[16] . »

---

(15) منح الملك الدانيماركي كريستيان الثامن هاي زوجا من الشمعدانات الفضية بلغ وزنه 294 أوقية . وقد عرض في المزاد في سوثبي في 27 ماي عام 1971 حيث بيع بمبلغ 1450 من الجنيهات الاسترلينية.

(16) F.O. 99/24

وإلى جانب قضية استقرار العرش الامبراطوري فقد استحوذت مسألة التجارة الانجليزية ـــ المغربية على جانب كبير من اهتمام الحكومة البريطانية. فقد جاء في التعليمات التي بعث بها اللورد أبردين إلى هاي في 26 شتنبر عام 1845 بمناسبة سفر الأخير إلى القصر الملكي لتقديم أوراق اعتماده ما يلي :

« عليك أن تشير لوزير الامبراطور، وإذا كان ممكنا للامبراطور نفسه بأن الفرض المطلق للمكوس المتزايدة على المواد التي تشكل عصب التجارة بين انجلترا والمغرب كذا فرض الاحتكارات عليها سوف يكون لها تأثير ضار على التجارة بين البلدين[17].

عبد القادر مرة أخرى :

عندما تواترت الأنباء في 9 أكتوبر 1845 بأن عبد القادر قد قام مرة أخرى بغزوة مسلحة في الجزائر متخذا من أراضي الريف قاعدة له كتب ابردين إلى هاي يطلب منه بأن عليه لدى وصوله إلى البلاط ابلاغ السلطان بشكل حازم بالضرورة القصوى لطرد عبد القادر من ممتلكاته. وقد أكد أبردين على انه :

« من الضروري أن يفهم الامبراطور وأن يعلم بأنه إذا لم يكن بامكانه طرد عبد القادر فإن الحكومة الفرنسية تملك هذا الحق وسوف تستخدمه قطعا »[18].

وقد شرح هاي في مراسلة له إلى اللورد أبردين مؤرخة في 20 أكتوبر عام 1845 الموقف الحرج الذي يواجه السلطان بشأن عبد القادر. وأشار إلى أن الزعيم الجزائري كان منافسا مخيفا للسلطان في تأثيره على الشعب المغربي، واستطرد القنصل العام بأنه « إذا ما عارض السلطان الفرنسيين فلن يتمكن من تجنب الحرب معهم وإذا ما عارض عبد القادر فسوف تنشب حرب أهلية تطيح بجلالته عن عرشه »[19].

Ibid (17)
Ibid (18)
F.O. 99/26 (19)

هاي في مراكش :

وفي 3 مارس عام 1846 غادر هاي طنجة قاصدا زيارة السلطان ووصل إلى مراكش في 8 أبريل . وبعد ذلك بأربعة أيام تم استقباله استقبالا عاماً كتب عنه ما يلي :

« تم ارسال القايد مدني قائد الحرس الملكي وبصحبته حرس شرف ليقودني إلى البقعة التي تقرر استقبالي بها . وبعد المرور بميدان كبير حيث اصطف نحو ألفي رجل تم اقتيادي الى كشك صغير حيث وجدت السلطان المولى عبد الرحمن جالسا على مقعد بينما وقف عند المدخل وزيرا الدولة سيدي ابن ادريس وسيدي العربي مختار . وقد دعاني المستشار الرئيسي ، المشور ، وبناء على رغبة السلطان إلى التقدم وحدي على بعد خطوات قليلة من جلالته ، وعندئذ ، وعلى قدر ما تعيه ذاكرتي ، ألقى سيدي عبد الرحمن الكلمة الآتية :

« مرحبا بك. ان روابط السلام والصداقة التي ربطت بين اسلافنا واسلاف مولاتكم ستبقى وتتدعم . اننا ننظر لملكتكم وأمتكم باعتبارهما أكثر الملوك والأمم صداقة لذاتنا الملكية . لقد عرفنا أباكم وكان ميالا إلينا وقد برهن على أنه الخادم الأمين للحكومتين ومن ثم فقد حظى بالرعاية التي يحظى بها الرجال المحظوظون في الامبراطورية ولقد تعرفنا عليكم الآن ، وسوف ترثون ما حظى به أبوكم من صداقة ووداد من جانبنا »[20] .

وقد أكد هاي في مباحثاته مع وزراء السلطان على الضرورة القصوى ، ومن أجل صالح المغرب نفسه ، بمراعاة المعاهدات المعقودة مع سائر القوى الأوربية بدقة . كما انه أكد على ضرورة تحرير التجارة المغربية بتخفيض تعريفه الرسوم العالية التي فرضت على الواردات عام 1845 . وتم آخر لقاء لهاي بالسلطان في 18 أبريل حيث استقبله المولى عبد الرحمن استقبالا وديا وأعرب عن اعتقاده في حصافة هاي وبأنه سوف يعير مطالبه ما تستحقه من اهتمام إلا انه في حاجة لبعض الوقت لبحث

---

(20) F.O.99/31

كافة النقاط التي أثيرت .

عبد القادر مرة ثالثة :

دار الشاغل السلطاني الرئيسي آنئذ حول عبد القادر الذي استمر في التنقل بين المغرب والجزائر في حصانه كاملة وكان يستقبل كل مرة استقبال الابطال من جانب رعايا السلطان . وقد كتب هاي في 31 غشت عام 1846 إلى لورد بالمرستون ، الذي عاد إلى وزارة الخارجية ، يبلغه بوجود عصبة قوية في فاس تعمل على خلع المولى عبد الرحمن واحلال عبد القادر على العرش محله . وطلب هاي التعليمات لمواجهة الموقف وقد جاءته في الرسالة التي بعث بها بالمرستون إليه في 18 ماي عام 1847 وكان نصها :

« أبلغكم ان لبريطانيا العظمى مصلحة قوية في الابقاء على المغرب كدولة مستقلة ، غير أن الحكومة البريطانية غير مستعدة للتدخل في الصراع بين عبد القادر والامبراطور الحالي حول السيادة على المغرب . ومن ثم فعليكم ، وحتَّى صدور تعليمات أخرى ، أن تمتنعوا عن الاشتراك ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، في مثل هذا الصراع[21] ».

تغير وضعية ممثل بريطانيا في طنجة :

بعد وصول هذه الرسالة بفترة قصيرة سافر هاي إلى لندن . وبينما كان هناك تقدم بمذكرة إلى وكيل وزارة الخارجية ادينجتون في 21 يوليوز عام 1847 ، وأشارت هذه المذكرة إلى ما حدث عام 1846 من تغير وضعية الممثل الفرنسي في المغرب . الذي أصبح « قائما بالأعمال ». وتقدم هاي بنصيحة مؤداها أن يصبح للقنصل العام الانجليزي نفس الوضعية حفاظا على هيبة بريطانيا ونفوذها ، وتمت الاستجابة لهذا المطلب في 07 أكتوبر عام 1847.

نهاية عبد القادر :

وفي خريف عام 1847 أخذ نجم عبد القادر في الأفول السريع حيث كفت

---

(21) F.O. 99/34

قبائل الريف المغربية عن تقديم أي عون له . وأخيرا لم يكن أمام عبد القادر بعد أن واجه الموت أو السجن مدى الحياة إذا ما قبض عليه كمتمرد إلا أن يسلم نفسه للفرنسيين في 23 دجنبر . وقد أرسل أول الأمر إلى فرنسا وقضى بقية حياته في المنفى حتى توفي في دمشق عام 1883[22]

الخلاف حول الحدود الجزائرية ــ المغربية

بالرغم من أن وفاة عبد القادر قد أدت إلى زوال عامل من أهم عوامل تعكير العلاقات المغربية ــ الفرنسية فإن أسباب الاحتكاك ظلت تطفو بين الدولتين حيث نشبت النزاعات حول الحدود بين المغرب والجزائر . وكان قد تقرر بمقتضى معاهدة لالا مارنيا التي أبرمت بين البلدين في 18 مارس عام 1845 أن يمتد خط الحدود من مصب وادي كيس على ساحل البحر المتوسط إلى تنية الساسي بالداخل بطول مائة واثنين من الأميال ، وتم تعيين هذا الخط بالتفصيل . ولكن لم يتم تعيين خط الحدود الممتد بين تنية الساسي وفيجيج وكان كل ما فعلته المعاهدة في هذه المنطقة ان عينت القبائل التابعة للمغرب والأخرى التابعة للجزائر . ثم الى الجنوب أكثر حيث المناطق الصحراوية أشارت المعاهدة بأنها أراضي بلا ماء ولا بشر ومن ثم فإن تعيين الحدود فيها ليس له قيمة . وقد ترتب على غموض معاهدة لالا مارنيا فيما يتصل بالحدود بين المغرب والجزائر في الصحراء أن أصبحت مصدرا دائما للمتاعب بين فرنسا والمغرب على امتداد ما تبقى من القرن ذلك انه كلما امتد الفرنسيون بحكمهم جنوبا ادعى السلطان بأنهم يعتدون على ممتلكاته .

الموقف البريطاني من النزاع المغربي ــ الاسباني حول جزر شفارين :

وكانت اسبانيا ، شأنها شأن فرنسا ، تواقة إلى مد نفوذها على شمال افريقيا ، وتنفيذا لهذه الرغبة قامت في يناير عام 1848 باحتلال جزر شفارين[23] الواقعة على

---

(22) تم نقل جسده الذي دفن في دمشق إلى الجزائر في 4 يوليوز عام 1966 وأعيد دفنه في اليوم التالي في عاصمة الجزائر المستقلة في احتفال كبير.

(23) هي جزر ملوية وتسميتها الاسبانية شافاريناس اما تسميتها الفرنسية زافارين وان كان الأهالي يسمونها بحجر كبدانه. (المترجم)

ساحل البحر المتوسط المغربي بالقرب من الحدود الجزائرية . وقد احتل الاسبان الجزيرة ليسبقوا الفرنسيين الذين اعتقدوا انهم ينوون ضمها ؛ ولما كتب هاي بالحادثة إلى بالمرستون بدا وزير الخارجية وكأنه قد فقد بعض التوازن نتيجة لنقص المعلومات الدقيقة حول الجزر . وفي 21 فبراير عام 1848 أرسلَ بالمرستون تعليماته إلى هاي في هذا الشأن وكانت تقضي بـ :

« تحذير الحكومة المغربية من أي اذعان متسرع لادعاء الاسبان بملكية الجزر كحق من حقوقهم طالما ان هذا الحق لم يثبت .. على الجانب الآخر ينبغي أن تذكر لهم بأنه لن يكون من الحكمة في شيءٍ أن يتورطوا في صراع حول مسألة حقهم فيها مشكوك به .. [24]

وقد استنجدت الحكومة المغربية فيما بعد بالحكومة البريطانية في مواجهة الاحتلال الاسباني لجزر شفارين إلا ان بالمرستون رفض ممارسة أي ضغط على الاسبان لاجبارهم على الجلاء عن هذه الجزر . وقد كتب إلى هاي في 18 أبريل عام 1848 انه :

« ليس لدى حكومة جلالتها المعلومات الكافية التي تقيم كل من اسبانيا والمغرب ادعاءاتها على الجزر على أساسها وذلك حتَّى تستطيع أن تكون ذات فائدة للامبراطور في هذا الشأن »[25].

ولاشك انه كان وراء رفض بالمرستون مساندة دعوى السلطان الخوف من وقوع الفرنسيين تحت اغراء ضمها طالما انه لا تحتلها أو تحميها قوة أخرى . وإذا كان الخيار المطروح احتلالا فرنسيًا أو اسبانيا لجزر شفارين فقد كان بالمرستون يفضل الاحتلال الاسباني على اعتبار انه الأقل خطرا على المصالح البريطانية في البحر المتوسط وقد عبر عن مخاوفه من أن الفرنسيين لن يفوتوا أية فرصة لمد نفوذهم على حساب المغرب في خطاب بعث به إلى هاي في 10 ماي عام 1849 وجاء فيه :

« تعليماتي إليكم بأن تنصحوا الحكومة المغربية بقوة الا تسمح للحكومة الفرنسية

F.O. 99/38 (24)
Ibid (25)

بأي مبرر للشكوى إذ يجب أن يكون واضحا للمغرب انه لا يملك أية وسائل لمقاومة هجوم يشنه الفرنسيون سواء من البحر أو من البر»[26]

سفينة بريطانية لنقل الأمراء للحج :

ومع انه كان من الطبيعي أن يضيق السلطان بنقص المعونة البريطانية الإيجابية تجاه الخطط الفرنسية والاسبانية بيد انه قد استمرت علاقات الصداقة الانجليزية ــ المغربية في التنامي . فعندما عبر المولى عبد الرحمن في يونيه عام 1849 لهاي عن رغبته في ارسال اثنين من أبنائه للحج في مكة وطلب منه إرسال سفينة من الأسطول الملكي لنقلهم إلى مقصدهم فإن بالمرستون الذي رفع إليه الطلب رد على هاي يطلب منه ابلاغ المولى عبد الرحمن ان الملكة فيكتوريا قد استجابت بسرور لرغبة السلطان كمناسبة لابداء مشاعرها بالصداقة تجاهه.

ووصلت السفينة البريطانية كراولر إلى طنجة في 3 غشت عام 1849 من حيث حملت الأميرين وحاشيتهما التي بلغت أربعين شخصا . ثم اعادت نفس السفينة الأميرين من الاسكندرية ووصلت إلى طنجة في 12 يناير عام 1850 . وقد عبر الأميران لهاي عن امتنانهما من المعاملة الكريمة التي لقياها في رحلة الذهاب والأياب ، كذا عبر السلطان عن شكره باهداء قائد كراولر سيف الشرف . وكانت لندن قد وافقت بصفة استثنائية على قبول ستودارت لهذه الهدية نظرا للظروف الخاصة التي أحاطت بها .

رغبة سلطانية في تعيين هاي وسيطا دائما ورفض الأخير :

حدث في عام 1849 ان نشب خلاف حاد بين القائم بالأعمال الفرنسي في طنجة وبين حاكم المدينة نتيجة لما انزلته السلطات المغربية من عقاب بواحد من الخدم المغاربة للموظف الفرنسي . وقد نجح هاي من خلال مساعيه الحسنة في التوصل إلى حل للخلاف الذي كان بالإمكان أن يؤثر تأثيرات سيئة على المغرب مما دعا السلطان إلى التعبير عن امتنانه للممثل البريطاني أكثر من ذلك اعرب سيدي

---

(26) F.O. 99/42

بوسلهام بن علي وزير الخارجية لهاي في 14 يونيه عن رغبة السلطان في تعيينه وسيطا في كل المشاكل التي يمكن أن تنشأ في المستقبل بين الحكومة المغربية وبين أية حكومة أوربية . وفي الحقيقة كان كل من المولى عبد الرحمن وسيدي بوسلهام بن علي ميالين إلى مطالبة الحكومة البريطانية بالتصريح بتعيين هاي وكيلا لحل كل المنازعات التي تقوم مع الدول الأوربية وممثلاً في المحادثات التي تجرى مع الحكومات الأجنبية.

وكان من الطبيعي أن يدخل هذا المطلب السلطاني السرور إلى قلب هاي ، غير أنه ، كما كتب إلى بالمرستون في 15 يونيه عام 1849 ، أبلغ سيدي بوسلهام بن علي بأن يوصي السلطان بألا يفكر للحظة في مثل هذا العمل نتيجة لما يمكن أن يثيره من غيره وضغينة خاصة من جانب الفرنسيين . ومع ذلك فقد أكد هاي على أنه سوف يكون سعيدا للغاية بأن يقدم إلى السلطان وإلى وزرائه نصيحة حكومة جلالتها في أية مسألة تطلب فيها هذه النصيحة . أكثر من ذلك فإن الحكومة البريطانية ستكون على استعداد دائما لتهدئة أية دولة أجنبية تدخل في نزاع مع المغرب.

تهريب العلقات :

وفي 9 ديسمبر عام 1849 عرض هاي لموضوع غير عادي في رسالة له إلى اللورد بالمرستون هو تجارة العلقات[27] في المغرب . وقال انه قد تلقى شكاوى من سيدي بوسلهام بن علي ومن تاجر مغربي يدعى مكي كباش وكان السلطان قد اعطاه حق احتكاز تجارة الصادر من تلك العلقات من المغرب . وقد دار مضمون هذه الشكاوى حول ضبط رجال الجمارك في طنجة لأحد الرعايا البريطانيين المتوجهين إلى جبل طارق وهو يخفي حقيبة مليئة بالعلقات — مما ادى إلى رفع شكوى بهذا الشأن إلى هاي الذي كتب إلى بالمرستون التقرير التالي :

« ظل تهريب الرعايا البريطانيين للعلقات مصدرا دائما من مصادر الشكوى والمراسلات الخانقة بين الحكومة وبيني .. وانه إذا ما أصر البريطانيون على الاستمرار في هذا الطريق فسوف يترتب على ذلك أوخم العواقب على مالية السلطان وأسوأ

(27) Leech هي العلقة التي تستخرج الدم الفاسد من المرضى (المترجم) .

من ذلك فإنها ستتيح المبرر لهذه الحكومة التي تتجه إلى تشويه الصورة البريطانية هنا .. وقد باع السلطان حق احتكار بيع وشراء العلقات هذا العام بمبلغ مائة ألف ريال .. وقد بيع هذا الحق في العام الماضي بمبلغ ثمانين ألف ريال وتم تصدير نحو 20 مليونا منها .. »

عودة إلى مسألة الأمراء وتبادل الهدايا :

وتعبيرا عن الامتنان للمعونة التي لقيها الأميران في رحلتهما للحج إلى مكة فقد بعث السلطان بهدية للملكة فيكتوريا تتكون من خمسة خيول وأربعة أفراس وأربع من النعام وأسد ولبؤة ونمر وأربعة من الغزلان واثنين من صغار الظباء . وبعد أن تشاور هاي مع حكومته حول نوعية الهدايا التي تبعث السرور إلى قلب السلطان تقرر الرد على الهدية المغربية بهدية ملأت سبعة من الصناديق ، وقد اكتظت تلك الصناديق بالسجاجيد والبطاطين وأسرة الخيام والمفروشات والبنادق والشمعدانات والأواني الزجاجية والصينية والشيلان والمشاكيل[26] والكرات الأرضية والنظارات وعلب شغل وخاتمين ذهبيين قابلين للتشكيل . وقد بلغت قيمة هذه الهدايا 500 جنيها ، واستهدف منها أن تعطي للسلطان فكرة عن تنوع الصناعات البريطانية.

وكان المولى عبد الرحمن قد أرسل مع هداياه رسالة إلى الملكة فيكتوريا مؤرخة في 11 ربيع الاخر عام 1266 (26 فبراير 1850) أشار فيها إلى عودة ابنيه من الحج بالسلامة وقال ان الأميرين قد تحدثا معه عن المعاملة الحسنة التي لقياها من البريطانيين خلال رحلتهما واردف ..

« وهذا العطف ليس غريبا علينا حيث توارثت امتكم الصداقة الحميمة مع أسلافنا والتي تحولت إلى وداد كامل ظاهر للعيان مثل السماء ووافر مثل الماء المندفع . وان تلك الصداقة قد اكتسبت دفعة جديدة مما قدمتموه لنا مما ليس بعده جميل .. [29] »

---

(28) المشكال: أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما ان تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال المختلفة الألوان (المترجم).

(29) F.O. 99/46

دعوة المغرب لمعرض لندن عام 1851 :

وفي عام 1850 بدئ في اتخاذ التدابير في لندن لإقامة المعرض الكبير الذي تقرر انعقاده في العام التالي . وفي هذه المناسبة كتب بالمرستون إلى هاي في مارس يطلب منه ابلاغ السلطان بالمعرض . في نفس الوقت تلقى هاي التعليمات بأن يعرض على المولى عبد الرحمن تخصيص ما مساحته ألف قدم مربع من أرض المعرض لعرض المنتجات المغربية . وقد عبر المولى عبد الرحمن عن خالص امتنانه لهذا العرض غير انه أشار إلى أنه ليس لدى الحكومة المغربية النية على الاشتراك في المعرض .

عود إلى موضوعات تبادل الهدايا

وفي 12 نوفمبر عام 1850 وصلت هدايا الملكة فيكتوريا كذا رسالة منها إلى طنجة على ظهر السفينة الحربية جانوس . وقد تقرر ارسال الهدايا والخطاب إلى فاس بصحبة فرانك شقيق هاي والذي وان كان آنئذ لم يبلغ من العمر سوى عشرين عاما غير انه كان يعمل بوظيفة نائب القنصل في طنجة كما كان يجيد العربية اجادة تامة . ووصل فرانك هاي إلى فاس في 30 نوفمبر وتقدم بالهدايا في اجتماع عام انعقد في 4 دجنبر عام 1850 . وقد كتب هاي أن السلطان وجه إليه في هذا اللقاء الخطبة الآتية :

« مرحبا بك ! مرحبا بك ! لقد ارتبط اسلاف ملكتكم بأسلافنا بأوثق عرى الصداقة ، ولقد استمرت هذه العلاقات الطيبة بين مولاتكم وبيننا . وان الشعب الانجليزي والشعب المغربي اشبه بشعب واحد (وهنا أشار السلطان بيديه بطريقة تفيد هذا المعنى) وان الانجليز أكثر أمم العالم خيرا.»[30]

وفي 9 دجنبر عام 1850 أرسل المولى عبد الرحمن لهاي يستفسر منه عن كيفية استخدام بعض الهدايا مثل المشاكيل وكيفية تركيب غيرها مثل أسرة الخيام وأجاب فرانك هاي عن استفسارات السلطان ثم كتب إلى أخيه في اليوم التالي تقريراً من فاس جاء فيه ان السلطان ووزراءه « ابدوا اهتماماً واستمتاعا بالغين بمختلف الهدايا

F.O.99/46 (30)

وذلك من خلال آهات الاعجاب والاندهاش التي ندت عنهم بما بلغه الانجليز من براعة . وبعد أن عرضت مختلف الأشياء أعيدت إلى صناديقها التي تم اغلاقها مرة ثانية ، ويبدو أن السلطان قد أمر بذلك حيث أراد أن تفتح مرة أخرى بحضور الحريم ، وقد سمعت انه لما أعيد فتح الصناديق تم مد السجاجيد الانجليزية واشعال الشمعدانات ووضعت الهدايا حيث أخذ السلطان يقدم إلى كل واحدة من نسائه بعضا من المصنوعات الانجليزية .. »[31]

حادثة فرنك درمندهاي :

غير أنه بعد فترة قصيرة من الزيارة الموفقة لفرانك درمندهاي لفاس تورط هذا الشاب في حادثة كادت تودى بمستقبله الديبلوماسي . ذلك أنه كان على علاقة حب بفتاة يهودية في طنجة، وعندما شكت له الفتاة من أن موظفا صغيرا من موظفي القنصلية الفرنسية العامة بالمدينة ، هو المسيو بومييه ، يعمد إلى مضايقتها فقد واجه غريمه في احدى الليالي في شارع من شوارع طنجة حيث احتدت المناقشة بينهما وتحولت الى شجار تبادل فيه الرجلان عددا من اللكمات . وبدلا من تسوية الحادث بشكل ودي كما أراد جون درمندهاي فإن القائم بالأعمال الفرنسي قد رفع دعوى اعتداء على فرانك هاي ولم يكن أمام أخيه الأكبر سوى إرساله إلى لندن ليقدم نفسه إلى بالمرستون حيث تجرى محاكمته . وقد دافع جون هاي عن أخيه في رسالة بعث بها إلى وزير الخارجية في 31 مارس عام 1851 وتلمس العذر فيما حدث من أخيه بمشاعر الشباب ، واستطرد قائلا :

« إني أثق مع ذلك بأنه لن تتبدد كل الآمال التي اعقدها على تقدم الشاب إذا أصبح أكثر تعقلا وإذا ما وضعت في الاعتبار براعته كذا خدماته الأخيرة التي تؤهله لاستمراره في الوظيفة في السلك الديبلوماسي أو القنصلي .. »[32].

ومن حسن حظ فرانك هاي أن رجلا من طراز بالمرستون كان يتولى وزارة الخارجية آنئذ . فلقد تعاطف مع هاي الصغير بالرغم من الملاحظات الحادة التي

---

(31) Ibid

(32) F.O. 99/49

ابديت حول عمله . وليس هناك ما يشير في المحفوظات لما جرى في اللقاء الذي تم بين هاي الصغير وبالمرستون غير أن وزير الخارجية قد استخدم فيما بعد نفوذه مع الحكومة الفرنسية لحل الموضوع ، أكثر من ذلك لم يؤد ما حدث في أحد شوارع طنجة إلى تدمير مستقبل هاي فقد عين بعد ذلك نائبا للقنصل في تطوان وقد أدى في وظيفته الجديدة خدمة طيبة للسلك القنصلي .

قراصنة الريف والعلاقات الانجليزية — المغربية :

كان إدوارد درمندهاي قد احتج في عام 1834 على اعمال القرصنة التي تقوم بها قبائل الريف على ساحل المغرب المطل على البحر المتوسط ضد السفن البريطانية وغيرها من السفن التي يؤدى سوء حظها إلى جنوحها أو توقفها بالقرب من مكامن القراصنة ، وبالرغم من الاحتجاج الآنف فقد استمرت تلك الأعمال . وظلت الحكومة البريطانية لسنوات طويلة بعد ذلك دون اتخاذ أي اجراء قوي في هذا الصدد ، ربما لأنها لم ترغب في اضافة مزيد من المتاعب التي كان المغرب يعاني آنئذ منها في علاقاته مع فرنسا وأسبانيا . غير انه في اكتوبر عام 1851 ، وبسبب حادث آخر من حوادث القرصنة في تلك الجهات ، تم ارسال السفينة الحربية جانوس في رحلة تأديبية على طول ساحل الريف ، وقد نجحت في هذه الرحلة في قتل عدد من القراصنة وتدمير مراكزهم . غير أن تأثير هذا الاجراء لم يستمر طويلا مما دعا إلى إرسال التعليمات إلى القنصل هاي عام 1852 ليطلب من السلطان اتخاذ الخطوات اللازمة لانزال العقاب بقبائل الريف ودفع التعويض عن الخسائر التي سببتها . وقد كتب هاي في 20 غشت عام 1852 إلى المولى عبد الرحمن بهذه المطالب . ولم يمض وقت طويل حتى قدم سيدي محمد الخطيب ، وكيل السلطان للشئون الخارجية ، والذي كان مقيما في طنجة للاتصال بالممثلين الأجانب ، قدم رد السلطان وقد تضمن اجابة غير مرضية . ففي الرسالة التي جاء بها هذا الرد والمؤرخة في 29 شتنبر عام 1852 ذكر السلطان انه لا يعتبر نفسه مسئولا عن أعمال قبائل الريف حيث أنها خارجة عن مناطق سيطرته.

وفي 4 نوفمبر أرسل اللورد مالمسبوري الذي خلف بالمرستون في وزارة الخارجية تعليمات إلى هاي تقضي بابلاغ الحكومة المغربية بأن الحكومة البريطانية ترى أن

انكارها لمسئوليتها عن أعمال سكان في أراضيها إنما يعني التنازل عن أي حقوق للسيادة على تلك الأراضي. ثم اردف مالمسبوري بقوله :

« تفهم حكومة جلالتها من هذا أن الامبراطور لا يدعي ملكية منطقة الريف. ومن ثم فسوف تنظر إلى سكان الريف باعتبارهم مستقلين وبالتالي مسئولين عن أعمالهم »[33]

مشاكل التجارة مع المغرب ومعاهدة عام 1856 :

غير أنه كان هناك ماهو أخطر من قضية الريف مما استمر مصدرا للخلاف بين بريطانيا والمغرب ، وقد تمثل في التغييرات المستمرة التي ظلت تتعرض لها تعريفة رسوم الواردات والصادرات المغربية ، كذا في تلك الاحتكارات التي استمر السلطان في منحها لبعض الشخصيات . وقد نمت هاتان الظاهرتان في الاقتصاد المغربي نتيجة لحاجة السلطان الملحة لمزيد من المال الذي ينفقه في شئون الادارة .ولم يمض وقت طويل حتّى بدا تأثير هذه الاجراءات على حجم التجارة الأجنبية مما دفع التجار البريطانيين المقيمين في جبل طارق أو في بريطانيا نفسها الى تقديم أشد الاحتجاجات إلى وزارة الخارجية . مثل على ذلك ما جرى في اكتوبر عام 1853 حين تقدم تجار جبل طارق بشكاواهم إلى وزارة الخارجية حول الاحتكارات وزيادة الرسوم التي رأوا وراءها وزراء السلطان الذين فرضوها لاثراء أنفسهم ، وانه لم يمكنهم من هذا الغرض سوى « ما أخذ يصيب مولاهم الامبراطور من ضعف »[34]

نتيجة لهذه الاحتجاجات قرر وزير الخارجية الجديد اللورد جون راسل في 27 غشت عام 1853 ارسال القنصل العام هاي إلى مقر السلطان حيث يتقدم له برسالة من الملكة فيكتوريا حول موضوع القيود التجارية . وقد جاء في تعليمات راسل إلى هاي :

« لن تأخذ معك هدايا إلى الامبراطور وسوف تعزو ذلك إلى ان الهدايا يتبادلها

F.O. 99/54 (33)
F.O. 99/58 (34)

الأصدقاء وليس أولئك المختلفين مع بعضهم كما هو الحال في العلاقات القائمة بين انجلترا والمغرب لسوء الحظ »[35].

كما تضمنت التعليمات التي تلقاها هاي بأن عليه بعد تقديم رسالة الملكة ابلاغ السلطان بغضب حكومة جلالتها بسبب عدم ابداء أية استجابة تجاه الشكاوى التي تقدمت بها من القيود المفروضة على التجارة المغربية والتي تمثل انتهاكا لمعاهدة السلام والتجارة الانجليزية — المغربية . وتضمنت نفس التعليمات أخيرا بأن على هاي ابلاغ السلطان بأنه لن يتم استقبال أي سفير مغربي في بريطانيا قبل اتخاذ الخطوات الواجبة لوقف انتهاكات هذه المعاهدة .[36]

وقد تقدم هاي الى وزير الخارجية باقتراح يستهدف عقد معاهدة جديدة لدى وصوله إلى بلاط السلطان ، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح . وقد بدت الحاجة لاتخاذ خطوات في هذا الشأن من خلال الاحصاءات المتعلقة بقيمة السلع البريطانية التي يستوردها المغرب سواء بشكل مباشر أو من خلال جبل طارق وذلك خلال السنوات الممتدة بين عامي 1848 و 1852. وقد ضمن هاي هذه الاحصاءات في مراسلة منه إلى وزير الخارجية اللورد كلارندون بعث بها من طنجة في 10 دجنبر عام 1853 وبالرغم من أن الاحصاء الخاص بعام 1852 يسجل تزايدا غير أن الاحصاء في اجماله يمثل هبوطا خطيرا.

العام	القيمة
1848	148 ، 308 جنيها
1849	965 ، 264 جنيها
1850	623 ، 145 جنيها
1851	214 ، 167 جنيها
1852	080 ، 238 جنيها

F.O. 99/57 (35)

(36) شهدت تلك الفترة ، مع تضخم الانتاج الرأسمالي لدول الغرب . ومع الضعف الذي ألم بالبلاد الاسلامية والشرقية ، ضغوطا لفتح أسواق تلك البلاد دون قيد أو شرط للمنتجات الغربية . وقد أثمرت هذه الضغوط على الدولة العثمانية بمعاهدة يالطة ليمان عام 1838 ، كما أثمرت في فتح العديد من الموانئ الصينية واليابانية أمام تلك التجارة. (المترجم)

وقد انهمك هاي في أواخر عام 1853 في اعداد مشروعين أحدهما لمعاهدة تجارة جديدة والآخر لمعاهدة عامة تعتمد على الأسس التي قامت عليها المعاهدة التي وقعها القنصل العام ماترا في فاس في 14 يونيه عام 1801 وإن كانت بريطانيا لم تصدق عليها الا في 19 يناير عام 1824 . وفي تلك الأثناء ، ونتيجة للاحتجاجات البريطانية أصدر السلطان أوامره في مارس عام 1854 بإلغاء الاحتكارات وزيادة الرسوم على الواردات . وما ان أرسل هاي بتلك الأنباء حتّى جاءته التعليمات من وزير الخارجية ليعبر للسلطان عن رضاء حكومة جلالتها على هذه الخطوة.

كما تحسنت العلاقات الانجليزية - المغربية في نفس الوقت بسبب الروح الودية التي أبداها السلطان تجاه بريطانيا وحلفائها لدى اشتعال حرب القرم[37] في مارس عام 1854 فقد وافق بناء على مطلب من الحكومة البريطانية بابعاد السفن الروسية من موانيه كذا أية سفن عسكرية تابعة لأية دولة تكون مشتبكة في حرب مع بريطانيا وفرنسا وتركيا . أكثر من ذلك فقد وافق السلطان في يوليوز من نفس السنة ، وكتعبير عن تعاطفه ، على تصدير ألف من العجول إلى جبل طارق بالرسوم المخفضة التي كان يصدر بها الفان من العجول سنويا إلى نفس المكان . وكان هذا الامتياز ذا أهمية بالغة بالنسبة لبريطانيا وحلفائها في حرب القرم وذلك لسد حاجة الاعداد الكبير من القوات التي كانت تمر من جبل طارق في طريقها إلى ميدان القتال . وقد بدت أهمية المجاملة التي قدمها السلطان للبريطانيين على ضوء رفضه للطلبات التي طالما تقدم بها الاسبان لتصدير الأبقار إلى حامياتهم في المدن الواقعة شمال المغرب ، وعلى ضوء رفض المطالب الفرنسية بامداد قواتهم في الجزائر بالابقار أيضا[38] .

---

(37) حرب القرم تفجرت أصلا بين تركيا وروسيا عام 1853 بسبب نزاع حول مفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس . وقد انضمت كل من بريطانيا وفرنسا إلى تركيا عام 1854 ثم لم تلبث أن انضمت إليهما سردينيا في العام التالي . وقد دارت أغلب معارك الحرب في شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود وانتهت بمعاهدة باريس المعقودة عام 1856. (المترجم)

(38) في الواقع أن رفض المطالب الاسبانية والفرنسية مفهوم على أساس أن الاسبان يحتلون أرضا مغربية والفرنسيين يحتلون أرضا عربية اسلامية . ومفهوم أيضا سبب المعونة للجانب البريطاني حيث كان الانجليز يحاربون في صف دولة الخلافة الاسلامية ضد الأطماع الروسية في أراضي تلك الدولة. (المترجم)

وفي نوفمبر عام 1854 وافقت الحكومة البريطانية على مشروعي المعاهدتين اللذين كان قد أنجزهما هاي واستعد الأخير للسفر إلى المقر السلطاني . وقد رؤى بالنظر إلى التحسن الذي أصاب العلاقات مع السلطان أن يأخذ هاي إليه هذه المرة بعض الهدايا . بل أكثر من ذلك فقد جاء في خطاب أرسله اللورد كلارندون إلى هاي في 14 نوفمبر عام 1854 تخويله بعض الصلاحيات لتسهيل توقيع المعاهدات الجديدة ، فقد جاء في هذا الكتاب :

« إذا ما دعت الحاجة إلى انفاق بضع مئات من الجنيهات بالاضافة الى هدايا من أي نوع بهدف تخطي المصاعب فإن اللورد كلارندون لن يعترض على انفاق ما لا يزيد عن خمسمائة جنيها في هذا الصدد ..[39] . »

وغادر هاي طنجة قاصدا إلى مراكش في 22 فبراير عام 1855 فوصلها في مارس . وما ان اقترب من المدينة حتّى شعر بأن الأمور لا تسير على ما يرام ، فمثلا لم يأت لاستقباله لدَى دخوله إلى المدينة أكثر من ثمانين فارسا بدلا من الحرس المعتاد الذي كان يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف . ثم ان قائد هذه المجموعة من الفرسان كان لا يتحدث إليه بالاحترام الواجب . أضف إلى ذلك أن المقر الذي خصص لاقامته في مراكش كان من تلك الأماكن المخصصة لاقامة صغار الموظفين بدلا من تخصيص أحد مقار وزراء السلطان كما جرت العادة من قبل.

ولم تلبث ان اتضحت لهاي أسباب تلك المعاملة غير العادية . فقد وجد القنصل المغربي في جبل طارق ، الحاج محمد الرزيني وهو واحد من كبار محتكري التجارة المغربية ، وقد وصل إلى مراكش قبله بيومين وذلك بناء على استدعاء السلطان الذي أراد استشارته خلال مفاوضات المعاهدة .

وبالرغم من اللقاء الودي الذي حظى به هاي من جانب السلطان في 24 مارس عام 1855 غير أنه لم يحصل على أي رد على الاحتجاجات التي كان قد

---

(39) F.O. 99/61 وصلت إلى هاي تعليمات أخرى مؤرخة في 5 فبراير عام 1855 خوله كلارندون بمقتضاها بزيادة المبلغ إلى ثلاثة آلاف جنيه.

تقدم بها إلى الوزير الكبير سيدي محمد الصفار[40] يطالب فيها بالغاء القيود الاقتصادية في المعاهدة الجديدة . وكما كتب هاي إلى اللورد كلارندون في 5 أبريل عام 1855 بأنه لم يمض وقت طويل حتّى أيقن من أن الرزيني وغيره من الاحتكاريين كانوا يدبرون المكائد لافشال مهمته . وقد تأكدت شكوكه عندما أخبره سيدي محمد الصفار صراحة في 6 أبريل بأنه لا يمكن تغيير المعاهدات القائمة بين المغرب وبريطانيا.

وقد رد على الوزير الكبير في 9 أبريل أن حكومته ستنظر إلى ذلك السلوك الغريب من جانب الحكومة المغربية ، بالإضافة إلى تلك التسويفات التي واجهها خلال ثلاثة أسابيع من إقامته في مراكش باعتبارها عملاً غير ودي . وانه إذا لم يستقبله السلطان خلال ثلاثة أيام أو يعين وزيرا للبحث معه في مشروع المعاهدة فسوف يغادر مراكش. ونتيجة لهذا التهديد تم عقد اجتماعين بين هاي والوزير الكبير غير أنهما لم يسفرا عن شئ لأن سيدي محمد الصفار كان يرى أن مشروعات هاي تتطلب دراسة متأنية وهو أمر يحتاج لوقت طويل.

ونتيجة لهذا الموقف السلبي قرر هاي مغادرة مراكش والتوقف عن أية محادثات أخرى . وقد استقبله السلطان مودعا في 17 أبريل واقتصر هذا اللقاء على تبادل عبارات الوداع العادية وهكذا غادر هاي مراكش دون انجاز مهمته بالتفاوض لعقد معاهدات انجليزية — مغربية جديدة . وكان المكسب الوحيد الذي أحرزه من رحلته هو تجديد المرسوم السلطاني القاضي بتصدير ألفٍ أخرى من العجول إلى جبل طارق بالرسوم المخفضة لعام آخر .

من ناحية أخرى فقد حصل على وعد من السلطان بأنه سوف يرسل تعليماته إلى سيدي محمد الخطيب في طنجة لاستئناف المفاوضات مع هاي حول المعاهدات المقترحة ، وعلى ذلك فقد أخذ هاي في أعقاب وصوله إلى طنجة في 6 ماي في العمل على اعادة فتح باب المفاوضات . وفي كل مرة كان الخطيب يسوف متعللا

---

(40) كان وزيرا للمولى عبد الرحمن بن هشام ثم مع ابنه سيدي محمد بن عبد الرحمن ثم مع ابنه المولى الحسن بن محمد/محمد داود : تاريخ تطوان جـ 3 هامش ص 297 (المترجم)

بأنه لم تصله بعد من السلطان التعليمات الوافية في هذا الشأن ، واستمر الحال على ذلك حتَّى فبراير عام 1856 عندما وصل التخويل المطلوب واستؤنفت المفاوضات . وبعد شهور من المباحثات والعودة إلى السلطان للموافقة على ماتم التوصل اليه في طنجة وصلت أخيرا التعليمات إلى الخطيب في شتنبر عام 1856 ليبلغ هاي أن السلطان قد وافق على مشروعي المعاهدتين اللذين تم تعديلهما في محادثات طنجة . وكانت الأولى معاهدة عامة تحوى ثمان وثلاثين مادة بينما كانت الثانية اتفاقية للتجارة والملاحة تضم خمس عشرة مادة.

وقد تضمنت المعاهدة العامة الامتيازات التي كان الرعايا البريطانيون قد حصلوا عليها في المعاهدات الأولى ومن ثم فلم تكن انجازا محسوبا لهاي[40م] . أما اتفاقية التجارة والملاحة فقد كانت بلا جدال انجازا حقيقيا . فقد عالجت قضية الغاء الاحتكارات كذا القيود المفروضة على السلع المستوردة ، ففيما عدا استثناءات قليلة[41] (المادة الثانية) تقرر ألا تزيد الرسوم المفروضة على تلك السلع عن 10٪ من قيمتها (المادة السابعة)[42] ؛ كما تقرر تحديد الحد الأقصى للرسوم المفروضة على الصادرات طبقا لجدول ألحق بالمادة السابعة . وتمت بذلك الاستجابة للغالبية العظمى من شكاوى التجار البريطانيين ان لم يكن كلها . أكثر من ذلك فقد تم الاتفاق بين هاي والخطيب على أن تطبق الامتيازات التي حصل عليها البريطانيون بمقتضى الاتفاقية على سائر رعايا الدول الذين يتاجرون مع المغرب . من ثم فقد كان للاتفاقية دلالة عامة ويمكن القول انها تشكل مرحلة جديدة في تاريخ التجارة المغربية . وفي خطاب بعث به اللورد كلارندون إلى هاي في 18 مارس عام 1857 امتدح ما قام به القنصل العام في المفاوضات التي وصفها بحق بأنها كانت « طويلة وشاقة » وأبلغه انه اعترافا بعمله قد تقرر اعتباره رفيقا من درجة باث .

(40م) انظر نص المعاهدة ملحق رقم 6 (المترجم)

(41) تمثلت في التبغ والافيون والكبريت والبارود والرصاص والأسلحة.

(42) من نص هذه المادة « اقتضى نظر سلطان مراكش ان اعتبار السلع الداخلة بمراسي ايالته على يد رعية كرت برطن لا يؤدوا عليها أكثر من عشرة في المئة على تقويمها بالمال بالسعر الواقع بمرسي نزولها . (انظر ملحق رقم 7) (المترجم)

بينما كان هاي منهمكا في التفاوض بشأن المعاهدة السابقة في كل من مراكش وطنجة استمرت قبائل الريف في أعمال القرصنة بالرغم من الرحلة التأديبية التي قامت بها ضدهم السفينة الحربية جانوس عام 1851. من ثم فقد قرر في أبريل عام 1856 القيام برحلة يتحدث بنفسه مع زعماء قبائل القرصنة معتمدا في ذلك على اجادته للعربية العامية ومصطحبا معه الحاج عبد الله العمارتي أحد أصدقائه من اشراف الريف. وقد استقل هاي السفينة الحربية ميراندا إلى مليلية من حيث بدأ في عقد لقاءات تم تدبيرها خارج حدود المدينة الاسبانية. وقد التقى بخمسة أو ستة من زعماء الريف كان معهم نحو مئة من اتباعهم. ومن خلال تمكنه من العربية وبين الاغراء والوعيد نجح هاي في أن يحصل من زعماء الريف على وعد بوقف أعمال القرصنة. عندئذ صافح هاي كل فرد منهم وقال لدى مغادرته لهم مودعا:

« إني واثق في كلامكم ، عليكم جميعا بركة الله ورحمته وليهبكم الخير والسعادة! سيبقى الريفيون والانجليز أصدقاء حقيقيين إلى الأبد!. وداعا! »[43].

ومع ذلك لم يبالغ هاي في آماله عن تأثير ذلك اللقاء مع زعماء الريف. فقد قال في التقرير الذي بعث به إلى كلارندون في 27 أبريل 1856..

« مع أنه لا يمكن الوثوق فيما قطعه هؤلاء الخارجون على القانون على أنفسهم فإني أعتقد بإمكان الحصول على نتائج طيبة من اللهجة التي تحدثت بها مع هؤلاء الزعماء.. »[44].

وبالرغم من المحادثات مع رجال القبائل ، وبالرغم من الوعود التي قطعوها على أنفسهم فإنهم ما لبثوا أن أوقعوا بالسفينة التجارية البريطانية هيمن في 14 ماي عام 1856[45]. ومرة أخرى تجيء التعليمات لهاي بمطالبة السلطان بالتعويض وحثه على ارسال قوة مسلحة كبيرة إلى منطقة الريف لانزال العقاب برجال القبائل فيها. وقد

---

(43) L.A. Brooks, A Memoir of Sir John Drummond Hay (London 1896) p. 157

(44) F.O. 99/74

(45) كانت السفينة البريطانية الثامنة التي يأسرها الريفيون منذ عام 1846.

استجاب السلطان هذه المرة فأرسل في يونيه سيدي محمد بن عبد المالك حاكم طنجة على رأس بضعة ألوف من الرجال لتأديب الريفيين. كما وافق السلطان في شتنبر على دفع التعويض الذي طلبته الحكومة البريطانية لحساب ملاك هيمن في مقابل الخسائر التي نزلت بهم.

الأمراء يحجون على متن سفينة حربية انجليزية :

وفي مارس عام 1858 طلب السلطان مرة أخرى سفينة من سفن الأسطول الملكي لنقل ثلاثة من أبنائه مع حاشيتهم إلى الاسكندرية في طريقهم لتأدية فريضة الحج في مكة. وجاءت السفينة فيلتير لنقل الأمراء من طنجة في 13 ماي 1858 وعادت السفينة إلى نفس الميناء في 5 أكتوبر تحمل أميرا واحدا ذلك انه قد توفي لسوء الحظ الأميران الآخران واحد في مكة والثاني في المدينة بعد أصابتهم بالكوليرا ، غير أن الذي نجا كان المولى عبد الله اكبر الأبناء وأقربهم إلى قلب السلطان. وقد عبر المولى عبد الرحمن عن امتنانه للكابتن كامبل قائد السفينة فيلتير فأهداه سيف الشرف. ومرة أخرى كتب السلطان خطاب شكر إلى الملكة فيكتوريا وأرسل معه بعض الهدايا تعبيرا عن هذا الشكر.

وكالعادة كان من ضمن هذه الهدايا بعض الخيول والحيوانات المتوحشة بالإضافة إلى بعض المنتجات المغربية ، وقد وصلت إلى طنجة في 30 دجنبر عام 1858 واصطحبها في رحلتها أربعة من المغاربة للعناية بالحيوانات خلال الرحلة. وقد استقبلت الملكة فكتوريا هؤلاء المغاربة وشكرتهم ومنحتهم بعض الهدايا. وقد كتب هاي بعد ذلك في 20 مارس عام 1859 إلى اللورد مالمسبوري يقول :

« عندما عاد المغاربة عبروا عن أشد الامتنانات للهدايا العديدة التي أعطيت لهم كذا للمعاملة الطيبة التي لقيوها خلال فترة بقائهم في انجلترا. غير انه يمكن فهم أكثر ما أثر فيهم باقتطاف بعض ما جاء في عبارات أحدهم الذي قال :

« لقد أدهشنا ، بل واذهلنا ما شاهدناه من الثورة والقوة والمعرفة والسلوك المنضبط للنصارى الانجليز ، غير أن ما أدهشنا وسرنا أكثر من أي شئ رأيناه وسمعناه كانت الملكة سيدة وصاحبة كل هذه القوة والثروة وهي تتحادث معنا نحن

الفقراء بأطيب الكلمات وذلك عندما توجهنا إلى مجلسها السامي »[46].

الانجليز وحرب تطوان :

شهد عام 1858 تدهور العلاقات الاسبانية — المغربية وقد نتج هذا التدهور في جانب من جوانبه من ذلك الاحتكاك المستمر حول سبتة ومليلية وغيرها من الاملاك الاسبانية الصغيرة على الساحل المغربي مثل بنون دي فيليز ، كما نتج على الجانب الآخر من أن المغاربة قد رفضوا دفع التعويض عن سفينة اسبانية كان قد أسرها الريفيون عام 1856 . على الجانب الأخير كان المغاربة يطالبون باستعادة سفينتين تجاريتين من سفن الريف كانت حامية بنون دي فيليز قد أسرتهما مؤخرا.

وقد أشار هاي في خطاب بعث به إلى اللورد مالمسبوري وزير الخارجية في غشت عام 1858 إلى أنه يبذل أقصى جهده لتسوية الخلافات بين الحكومتين المغربية والاسبانية ذلك انه كان يعتقد أن أفضل سياسة ينبغي على بريطانيا اتباعها تتمثل في تشجيع العلاقات الودية بين الدولتين. وكان يرى أيضا ان اسبانيا مثلها مثل بريطانيا لها مصلحة حيوية في الحفاظ على استقلال ووحدة املاك السلطان.

وبناء على نصيحة هاي وافق المولى عبد الرحمن أخيرا على دفع التعويض الذي طلبه الاسبان مقابل سفينتهم على أن يعيدوا السفينتين الريفيتين اللتين أسروهما . ووصل الأمر إلى أن يقبل السلطان تعديل حدود مليلية لإرضاء الاسبان وقد اعتبر هاي هذا الموقف مسالما ومعقولاً جداً . أما على الجانب الآخر فقد رأى الموقف الاسباني يتسم بالتعنت ويعمل بحساب دقيق على اشعال نار الحرب مع المغرب . وقد تزايدت مخاوف هاي عندما صعَّد الاسبان مطالبهم خلال الشهور الأولى من عام 1859 مما ازعج السلطان بدوره وجعله يعاود تلمس النصيحة لدى هاي.

وازدادت الأزمة الاسبانية — المغربية استحكاما في غشت عام 1859 عندما قامت معركة بين الطرفين في ضواحي سبتة ، وفي 5 شتنبر قدم القائم بالأعمال الاسباني انذارا للحكومة المغربية يهدد فيه بأنه إذا لم تتم الاستجابة لكل مطالب اسبانيا خلال عشر أيام فسوف تعلن الحرب . وكان من بين ما تضمنه الانذار أن

---

(46) F.O. 99/90

يجلد الرؤساء المغاربة القاطنين بنواحي سبتة علانية وأن تقوم القوات المغربية بتحية العلم الاسباني .

وفي هذه الظروف الحرجة جاءت الأنباء إلى طنجة في 6 شتنبر عام 1859 بوفاة السلطان المولى عبد الرحمن . وكان قد نقل وهو مريض إلى مكناس في غشت حيث عكف على علاجه دكتور باينتر كبير أطباء جبل طارق الذي أرسله حاكمها سير وليام كوردينجتون خصيصا لهذا الغرض وذلك استجابة لطلب سيدي محمد الخطيب . وبعد اجراء الفحوص اللازمة وجد ان المولى عبد الرحمن يعاني من مرض في الكلي وذكر انه قد يموت فجأة أو يمتد به العمر لبضعة شهور . غير انه قد تحقق الأمر الأكثر تشاؤما لسوء الحظ فتوفي السلطان وبلاده على مفترق الطرق.

وقد اعتلى العرش ابن المولى عبد الرحمن تحت اسم السلطان محمد الرابع ، وقد تدخلت الحكومة البريطانية لتحث الاسبان على مد أجل إنذارهم لعشر أيام أخرى بالنظر للظروف القائمة . ورغم قبول الاسبان فإن رأى هاي فيهم لم يتحسن فقد كتب إلى وزير الخارجية الجديد اللورد جون راسل في 19 شتنبر عام 1859 بأنه ينبغي منح المغاربة ثلاثة شهور لا عشرين يوما وذلك بالنظر لصعوبة الاتصال مع مقر السلطان ولقلة خبرة السلطان محمد الرابع ، وقد صرح هاي بأن الإسبان « مصرون على فرض طلبات ظالمة ومتعنتة على الحكومة المغربية » واستطرد هاي يقول :

« ان الحكومة الاسبانية تنسى دائما أن المغاربة بدورهم أمة وانهم ليسوا مجردين تماما من شعور الاستقلال والشرف الوطنيين ، وان لديهم المبررات المعقولة للشكوى من حاميات الاسبان المغربية ومن الأعمال التي ارتكبها رجالها والتي تستحق أن توصف بالانتهاكات »[47]

وتخيب الحكومة البريطانية من أمل المغاربة عندما لا تتعهد بتقديم أي عون عسكري في حالة الهجوم الاسباني . فقد وصلت هاي التعليمات بنصح السلطان بالاستسلام لكل المطالب الاسبانية على اعتبار أن ذلك أفضل من التورط في حرب

F.O. 99/1 (47)

قد تؤدى إلى ثورة داخلية وإلى تفتت امبراطوريته . وبالرغم من أن تعاطف هاي مع المغرب لم يكن محل شك فإنه قد أخذ على عاتقه اقناع سيدي محمد الخطيب بنصيحة الحكومة البريطانية ، وقد كتب إلى اللورد جون راسل في 5 أكتوبر عام 1859 يصف رد فعل الخطيب . فقد اعلن نائب السلطان للشئون الخارجية بعد ابلاغه بنية الحكومة البريطانية بأنه :

« مندهش للغاية وحزين أشد الحزن ليعلم أن الحكومة البريطانية ، وعلى عكس سياستها التي اتبعتها زمنا طويلا ، تتخلى عن المغرب في اللحظة التي يتعرض فيها للهجوم من قوة أجنبية(48) ».

وبالرغم من المشاعر التي اعتورت المغاربة بأنهم قد أصبحوا ضحايا للاستئساد الاسباني فقد قبلوا تحت الحاح هاي كل المطالب الاسبانية بما فيها اعادة تعيين حدود المنطقة المحايدة الواقعة خارج سبتة . ومع ذلك فقد طالب الاسبان بتأجير أراضي سبتة . وعند هذا الحد رفض المغاربة تقديم المزيد من التنازلات وقد تعاطف هاي معهم تماما في هذا الموقف . فقد كتب إلى اللورد جون راسل في 18 أكتوبر عام 1859 انه على ضوء سوء النية التي بدت من الاسبان ففي رأيه انه قد شارك في تضليل الحكومة المغربية ذلك انه كان قد أبلغ المسئولين فيها بأنهم إذا ما استجابوا لنصائحه فلن يتقدم الاسبان بمطالب جديدة.

وكيفما كان الأمر فقد وضعت العقدة في المنشار ، فقد طوى القائم بالأعمال الاسباني في طنجة علم بلاده في 25 أكتوبر 1859 وأخذ سكان المدينة من الأوروبيين واليهود في مغادرتها وان كان هاي قد بقي في مقره بها . ثم فرض الاسبان الحصار على كل من طنجة وتطوان والعرايش ولم يكن لدى الحكومة المغربية عندئذ سفينة حربية واحدة يمكن أن تتحدى بها هذا الحصار . وكانت نتيجة هذا الصراع غير المتكافئ معروفة مقدما . فقد تمكن جيش اسباني تحت قيادة الماريشال أودونيل من هزيمة قوة مغربية خارج تطوان في 4 فبراير عام 1860 ثم تبع ذلك باحتلال المدينة . وكان يقود الجيش المغربي الأمير المولى عباس أخ السلطان والذي التقى بهاي

---

(48) F.O. 99/90

يوم 11 فبراير ، وتم تدبير هذا اللقاء في نقطة تبعد عن طنجة ستة أميال . وكان الأمير قد طلب من الأسبان قبل اللقاء شروطهم لعقد السلام وجاء الآن يطلب نصيحة هاي بدون أي تحفظات . وتنفيذا للتعليمات التي وصلت هاي مؤخرا من لندن فإنه ابلغ المولى عباس أن من رأى حكومة جلالتها ألا يقدم السلطان أية تنازلات يمكن أن تضعف من سلطته على رعاياه . ولما كان تأجير الأراضي يمثل تنازلا من هذا النوع ولما كان الاسبان قد طالبوا من بين ما طالبوا به بتأجير تطوان فإن السلطان لم يقبل شروطهم للسلام واستمرت الحرب وقصف الاسبان كلا من العرايش وأصيلا.

في 10 مارس عام 1860 وبناء على تعليمات جديدة وصلت هاي من اللورد راسل فقد أبلغ سيدي محمد الخطيب أن حكومة جلالتها توصي المغاربة بالموافقة على تعيين حدود جديدة لسبتة ، وعلى تأجير الأراضي التي طلبها الاسبان على ساحل المغرب المطل على المحيط الأطلنطي بهدف اقامة مركز للصيد ودفع تعويض للاسبان مقابل تخليهم عن مطلبهم بتأجير تطوان . وفي ظل الظروف القائمة لم يكن أمام السلطان أي بديل عملي غير قبول هذه النصيحة ، وانتهت نتيجة لذلك الحرب المغربية — الإسبانية في 26 أبريل عام 1860 بعقد معاهدة تطوان .

وقد تقرر بمقتضى هذه المعاهدة ان يدفع المغرب تعويضا لاسبانيا قدره عشرين مليونا من الريالات يدفع نصفها قبل الجلاء عن تطوان . ولم يستطع السلطان تدبير المبلغ المطلوب مما دعاه إلى ارسال مندوبين ، أحدهما تاجر انجليزي اسمه ريتشارد جلوفر والآخر مغربي هو الحاج عبد الكريم بن جلون ..إرسالها إلى لندن ليحاولا اقتراض المبلغ من مصادر خاصة . أعقب ذلك وفي 14 يونيه عام 1860 ارسال المسئول عن خزينة السلطان السيد محمد بن الشامي يصحبه سكرتيره الحاج عبد الرحمن العاجي في سفارة إلى انجلترا حيث وصلاها في 20 من نفس الشهر[49] على ظهر السفينة الملكية ملبومن . وقد سلم السفير المغربي إلى اللورد جون راسل وثيقة

(49) أقام السفير في فندق كلاردج بين 26 يونيه و 30 يوليوز عام 1860 على حساب الحكومة البريطانية . وكان هذا أمرا حسنا بالنظر للحالة المالية السيئة للمغرب ذلك ان هذا الحساب قد بلغ 1 —15 — 808 . 1 جنيها.

طويلة تتضمن بالتفصيل وجهة نظر الحكومة المغربية في الاحداث التي أدت إلى الحرب مع اسبانيا وطلب معونة الحكومة البريطانية للتوصل إلى اتفاق مع الاسبان حول شروط دفع التعويض. ورد اللورد جون راسل في 11 يوليه عام 1860 على السفير بأن حكومة جلالتها تبدى غاية اهتمامها بصوالح السلطان وانها تواقه لتخليصه من المصاعب التي يواجهها، ومن ثم فقد ارسلت التعليمات للقائم بالأعمال الانجليزي في مدريد لحث الحكومة الاسبانية على الجلاء عن تطوان حالما يدفع لها عشرة ملايين من الريالات ومد المهلة المسموح بها لدفع بقية التعويض.

وفي 26 يونيه عام 1861 وصلت إلى هاي، الذي كان قد رقي لرتبة الوزير المقيم منذ مايو 1860، التعليمات للقيام بزيارة إلى السلطان ليؤكد له الحاجة لاقرار مسألة دفع التعويض وذلك لتجنب تجدد المنازعات مع اسبانيا. في تلك الأثناء وفي 17 يونيه ابدى الاسبان قبولهم بأنه إذا ما دفع المغاربة ثلاثة ملايين ريال من التعويض فإنهم سوف يجلون عن تطوان دون تأخير. وقد وصل هاي إلى مكناس في 18 يوليوز عام 1861 وعقد مع السلطان اجتماعا خاصا بعد ذلك بستة أيام حيث أكد له بأنه إذا ما دفع الملايين الثلاثة المطلوبة من الاسبان فسوف يجلو هؤلاء عن تطوان وبدا السلطان على استعداد تام لدفع المبلغ غير انه لم يكن تحت تصرفه آنئذ سوى مليونا واحدا. ولحسن الحظ كان أحد التجار البريطانيين من المتعاملين مع المغرب ويدعى فورد قد سبق وكتب لهاي يبلغه انه يستطيع التفاوض على قرض للسلطان من انجلترا. وبناء على نصيحة هاي فقد تم قبول العرض ووافقت الحكومة البريطانية بأن تسدى يد المعونة للاقتراح.

وقد حث هاي السلطان بالحاح ليرسل اخاه المولى عباس كمبعوث خاص إلى مدريد ليتفاوض مع الاسبان على الشروط التفصيلية المتعلقة بالجلاء عن تطوان، وتم فعلا قبول النصيحة. وفي 30 أكتوبر عام 1861 وقع المولى عباس معاهدة في مدريد تعهد الاسبان بمقتضاها بالجلاء عن تطوان بمجرد تسلم ثلاثة ملايين من الريالات، واتفق على رهن نصف موارد الجمارك المغربية للاسبان كضمان لدفع بقية التعويض. وكانت قد تمت في تلك الأثناء الترتيبات لاقتراض مليوني ريال

(426.000 جنيه) من مصادر خاصة في لندن . وبلغت قيمة الفائدة على هذا القرض 5٪ سنويا ومدته عشرين عاما . وفي 18 يناير عام 1862 وقع كل من هاي والحاج عبد الرحمن العاجي الذي مثل السلطان في المباحثات الخاصة بالقرض على اتفاقية تقرر بمقتضاها تخصيص النصف الآخر من مداخيل الجمارك المغربية لاداء القرض وفوائده.

وقد بدا السلطان مدركا تماما للدور الأساسي الذي لعبه هاي في المفاوضات التي أدت إلى جلاء الاسبان عن تطوان . فقد كتب لهاي في 29 ربيع آخر عام 1278 (3 نوفمبر 1861) يقول :

« لقد اجهدت نفسك كثيرا في هذا الأمر ، وقد تصرفت كصديق حقيقي . ولقد احرزتم أيضا المزيد من صداقتنا وتقديرنا العميق لحكومتكم[50] »

واعترفت الحكومة البريطانية بدورها بأن هاي بكفايته وبدبلوماسيته التي لا تعرف الكلل قد توصل إلى نهاية مرضية لمشكلة الجلاء عن تطوان . ومن ثم ابلغه اللورد راسل في 21 ماي عام 1862 بأنه بالنظر لخدماته الجليلة فانه يسر الملكة فيكتوريا أن تعينه « فارسا من درجة باث ».

وفي 7 ماي عام 1862 زار هاي تطوان في اعقاب جلاء الاسبان عنها ، وتعتبر الرسالة التي بعث بها إلى اللورد راسل بعد ذلك بيومين من طنجة عن احترامه للحضارة الاسلامية وتعاطفه مع المغاربة ، كتب هاي :

« تبدو المدينة في حالة تخريب كامل فقد طوحت القوات الاسبانية باسقف الوف من المنازل بهدف استخدام أخشابها كوقود أو لاغراض أخرى .. وقد لاحظت للاسف أيضا أن السلطات الاسبانية لم تحترم مقابر المسلمين ، فقد استخدم الاسبان الألواح المخروطة لتلك المقابر لرصف حصون المدافع بينما تم تحويل مصلًى أو مكان مقدس اسلامي إلى مرحاض عام ، وقد كتبت الكلمات التي تعني ذلك على بابه . ولا ينسَى المسلمون أبدا الاهانات التي تلحق بدينهم ، وعلى ذلك ، وبالرغم من

F.O. 99/107 (50)

شعور الضعف ، تظهر أفكار الانتقام التي تبقي في نفوسهم حتّى تأتي الفرصة للتعبير عنها .. »[51].

الانجليز يطالبون بالاصلاح :

بالرغم من انتهاء الأزمة التي سببتها الحرب مع اسبانيا فقد وجد السلطان الجديد أمامه عدة مشكلات . وقد نبه هاي عليه في مناسبات عدة بالحاجة إلى الإصلاح ، خاصة فيما يتصل بالإدارة المغربية التي أضعفها انتشار الفساد على نطاق واسع . غير أن محمد الرابع كان واقعيا الى حد كبير ذلك انه مع علمه بشدة الحاجة إلى الاصلاح غير انه اخبر هاي بحكمة انه لا يجب أن يتوقع منه الكثير مرة واحدة كما انه لا ينبغي الاعتقاد بامكان اجبار شعبه على تعديل أساليبه إلى المنحو الأوربي بشكل سريع .

وفي 6 ماي عام 1862 كتب هاي الى السلطان مهنئا باسترجاع تطوان ومعربا عن أمله بأن الفرصة قد أصبحت مواتية والوقت قد أصبح مناسبا لاجراء اصلاحات عاجلة . وقد الحق هاي بخطابه مذكرة تضمنت عدة اقتراحات لتطوير الاقتصاد المغربي . مثلا اقترح هاي في ميدان الفلاحة زراعة القطن على نطاق واسع[52] واقترح أيضا برنامجا مكثفا لاستغلال ثروة المغرب المعدنية وتطوير مواصلاتها بهدف تحديث اقتصادها وزيادة دخل السلطان .

وقد شكر محمد الرابع هاي على مقترحاته ووعد بتنفيذها في الوقت المناسب بعون الله . والحقيقة أن السلطان لم يكن ميالا سواء لتوسيع مزارع القطن أو زيادة استغلال الموارد المعدنية أو الموافقة على أي مشروع يمكن أن يؤدى إلى اتساع النفوذ الأوربي أو تدفق الأجانب وكان لدى محمد الرابع سبب معقول لنفوره ذلك أن زيادة عدد الأجانب كان يعنَى زيادة عدد المتمتعين بالحماية وما يستتبع ذلك من تقليص وتدمير سلطته.

---

(51) F.O. 99/115

(52) لم يكن هذا الجانب من النصيحة بريئا تماما حيث أن امدادات بريطانيا من القطن كانت قد تناقصت بسبب نشوب الحرب الأهلية الأمريكية عام 1861.

قضية الحماية :

ذلك أنه بمقتضى المعاهدات منحت الحماية (التي تعفي صاحبها من المثول أمام القضاء المغربي كذا من دفع الضرائب والخدمة العسكرية) للاشخاص الذين يعملون في وظائف رسمية كالديبلوماسيين الأجانب وعدد محدد من العاملين معهم . بالإضافة إلى ذلك تمتع اثنان من سماسرة التجار الأجانب بالحماية الكاملة . وقد اعتبر هذا الامتياز ضروريا لتمكين الديبلوماسيين والتجار الأجانب من تأدية أعمالهم دون خوف من المضايقات . ومن الناحية النظرية سنت الحماية لتيسير التعامل بين المغاربة والأجانب ، غير أنها من الناحية العملية تحولت تدريجيا لتصبح شراً مستطيرا . وسبب ذلك ما حدث من توسع الحماية لتشمل المزيد من الأشخاص ممن كان مفروضا الا تطبق عليهم بحال . وكان كلما زاد عدد هؤلاء كلما زاد ضعف سلطة السلطان وزادت خسارته من ايرادات ضرائبه . وقد وصل السوء إلى منتهاه بما قام به الأثرياء المغاربة من رشوة صغار المسئولين في الهيئات الديبلوماسية في طنجة للحصول على الحماية وذلك بهدف التهرب من الضرائب والخدمة العسكرية كذا المثول أمام محاكم السلطان . وفي مثل هذه الظروف يمكن تماما فهم دوافع محمد الرابع بعدم الترحيب بانتشار المشروعات الأوربية حيث كان عليه مع ذلك أن يواجه انتشار الحماية وما يترتب عليها من اضعاف مركزه . وقد شارك هاي السلطان في مخاوفه من هذا الخطر ، مما يبدو مما سجله في مراسله له إلى اللورد جون راسل في 28 أبريل 1863 والتي جاء فيها :

« أخشى أن تكون مسألة الحماية من المسائل التي ستؤدى إلى اضطراب كبير ، وإذا لم يتم تنظيمها فانها لن تؤدى فحسب إلى عرقلة تقدم الحضارة وزيادة التجارة في تلك البلاد ، بل انها قد تؤدى ان عاجلا أو آجلا إلى حالة من الفوضى كما قد تؤثر في استقلال السلطان »[53] .

ومع ذلك كان هناك مثل لمشروع أوربي لم يلق معارضة من السلطان بل انه حاز معونته القلبية . ذلكم هو مشروع بناء منارة عند رأس سبارتل في منطقة مشهورة

---

(53) F.O. 99/117

بجنوح السفن . وكان هاي قد اقترح عام 1852 ان تتولى الحكومة البريطانية بناء المنارة غير أن المغاربة لم يقبلوا الاقتراح . في عام 1861 تمكنت الحكومتان الفرنسية والاسبانية من حث السلطان على قبول مشروع تقدم به مهندس فرنسي لبناء المنارة حيث بديء في تنفيذه في 15 اكتوبر عام 1864 . وقد لعب هاي دورا بارزا في المفاوضات التي اعقبت ذلك والتي تمخضت عن توقيع اتفاقية دولية في طنجة في 31 ماي عام 1865 شارك فيها ممثلو عشرة دول[54] . وقد تضمنت الاتفاقية المذكورة أن تقوم الدول الموقعة بدفع مبلغ سنوي لصيانة المنارة التي تقرر ان تبقى ملكا للحكومة المغربية.

بريطانيا ووضع اليهود المغاربة :

بينما كانت السنوات تمضي بالقرن التاسع عشر كان وضع اليهود في بريطانيا يزداد تحسنا فقد كانوا يتخلصون من القيود المفروضة عليهم قيدا وراء آخر . شجع ذلك زعماء الجالية اليهودية في بريطانيا على محاولة ضمان أوضاع أفضل لليهود المغاربة الذين قدر عددهم آنئذ بخمسمائة الف يعيش اغلبهم في داخل البلاد . وقد كتب السير موسى مونتفيوري عميد الجالية اليهودية في بريطانيا الى اللورد جون راسل في أبريل عام 1861 يلفت نظره إلى أحوال يهود المغرب ويطلب قيام حكومة جلالتها ببذل مساعيها الحسنة لصالح هؤلاء . ردا على ذلك أرسل اللورد جون راسل بتعليماته إلى هاي في 9 أبريل ليقدم لليهود المغاربة العون كلما وجد إلى ذلك سبيلا على ألا يخل هذا بحقوق السلطان وامتيازاته . وبالرغم مما أبداه السير موسى مونتفيوري من امتنان لاستجابة وزير الخارجية لمطلبه فقد قرر أن يذهب بنفسه للمغرب ويتصل شخصيا بالسلطان . وقد وصل إلى طنجة في 11 دجنبر عام 1863 وكتب هاي على الفور إلى الوزير الكبير في مراكش يوصي به ويطلب منه أن يلقى السير موسى استقبالا طيبا وكريما . وقد صرح هاي لنائب القنصل ريد باصطحاب السير موسى إلى المقر الملكي للقيام بدور الوساطة ، ووصل الرجلان إلى مراكش في

(54) هي النمسا وبلجيكا واسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطاليا والأراضي المنخفضة والبرتغال والسويد والمغرب . وقد انضمت المانيا للاتفاقية عام 1877 وأصبحت العضو الحادي عشر.

25 يناير عام 1864 .

وقد استقبل السلطان السير موسى في 5 فبراير واستمع بعطف إلى التماساته بشأن اليهود المغاربة . وقد نفذ ما كان قد تعهد به للسير موسَى في اعقاب رحيل الاخير وذلك عندما أصدر مرسوما لكل الحكام المغاربة والموظفين الاقليميين يحثهم على معاملة اليهود الموجودين في مناطقهم بانسانية وعدل .

ومن خلال معرفة سير جون هاي العميقة بالمغرب وشعبه جاء تعليقه على مرسوم السلطان الذي ضمنه خطابه إلى اللورد جون راسل المؤرخ في 7 غشت عام 1864 جاء متسما بالفتور ، فقد قال فيه :

« صحيح أن السلطان ووزراءه الرئيسيين ذوو نزعة انسانية غير اني أخشَى ان أي محاولة لاجبار موظفيه على تنفيذ هذا المرسوم الذي أصدره بناء على طلب السير موسَى مونتفيوري قد تؤدى إلى تعريض حياة اليهود للخطر . وسوف يؤدي التقدم التدريجي للحضارة والتجارة وزيادة نفوذ معتمدي الحكومات الأوربية إلى تحسن أحوال اليهود في تلك البلاد أفضل مما تؤدى إليه.الاصلاحات الفجائية التي تفرض على شعب جاهل ومتعصب[55] [56] ».

وفي الحقيقة فإن الصعوبات التي واجهت فرض الاصلاحات على المغرب خلال القرن كانت من ذلك النوع الذي لا يمكن التغلب عليه . لقد كان السلطان محمد الرابع حسن المقاصد ولكن وكما أكدت الأحداث فبالرغم من النصائح الطيبة التي أسداها هاي اثبتت الأوضاع في المغرب انه من الصعوبة بمكان بالنسبة للسلطان أن يؤثر كثيرا على بلاده المتخلفة . لقد كان قدر المغرب أن يبقى في حالة من الضعف السياسي والاقتصادي مما كان بمثابة دعوة مستمرة للتدخل والعدوان من الخارج.

---

(55) يختلف هذا الحكم على الشعب المغربي عن سائر الأحكام التي ظل يصدرها البريطانيون أنفسهم في مناسبات سابقة. (المترجم)

(56) F.O. 99/121

الفصل الثامن

سير جون درمندهاي في الاوج

صورة مظلمة :

في الرسالة التي بعث بها السير جون درمندهاي في 28 ديسمبر 1867 إلى اللورد ستانلي الذي خلف اللورد كلارندون وزيرا للخارجية منذ يوليوز عام 1866 قدم صورة مظلمة عن حالة المغرب ، قال :

« يسود البلاد حالة من الفوضى لم تعرفها خلال الاعوام الخمسة والثلاثين التي عركت خلالها أحوال المغرب . وقد اسهم نقص المحصولات خلال العامين الماضيين وزيادة أسعار الحبوب وكل أنواع الغذاء وما تعانيه الطبقات الفقيرة من تعاسة في قيام حالة من انعدام الأمن وارتكاب الجرائم بشكل يومي . وان كان من رأيي ان العيب الأساسي نابع من شخصية السلطان الحالي سيدي محمد الذي أرى انه غير صالح على الاطلاق والسبب في ذلك طبعة الرقيق والانساني واعتراضه على اصدار أية عقوبة بالاعدام مما لا يؤهله لحكم شعب المغرب الجامح والعنيف »[1].

بريطانيا واليهود المغاربة :

وبالرغم من المرسوم الذي أصدره السلطان بمعاملة اليهود معاملة عادلة وانسانية فقد استمر هؤلاء يواجهون الاعتداءات نتيجة لحالة عدم الاستقرار التي سادت البلاد ، وقد دفع ذلك « اللجنة اللندنية لممثلي اليهود البريطانيين » ، إلى تقديم الاحتجاجات الى وزير الخارجية في شتنبر عام 1867 وقام هذا بالتالي بارسال

F.O. 99/131 (1)

التعليمات إلى هاي في ماي 1868 التي تقضي بتنبيه السلطان إلى مخاطر عدم انزال العقوبة بالمعتدين على اليهود . وبناء على هذه التعليمات غادر هاي طنجة قاصدا إلى فاس في 9 نوفمبر عام 1868 مصطحبا معه زوجته وابنته وقد بلغ مقصده بعد ذلك بعشر أيام . وكما لم يحدث من قبل سمح السلطان لزوجة وابنة هاي بحضور الاستقبال العام الذي تقرر في 23 نوفمبر . وقد كتب هاي إلى اللورد ستانلي مساء نفس اليوم يقول :

« استقبلني السلطان اليوم وهو على ظهر حصانه ، الذي يعتبر عرشا لحكام المغرب ، وقد أحاط به كبار موظفي القصر وعدد كبير من قواته .. ولعل مما يمتع فخامتكم الإشارة إلى أن جلالته ، تعبيرا عن ضداقته ونزعته العطوفة ، قد أصدر توجيهاته الخاصة ، لما علم أن سيدتين من أسرتي قد اصطحبتاني إلى فاس ، بحضورهما اللقاء الذي تقرر في القصر ، وان تحتلا مكانا قريبا يتيح لهما رؤية جلالته والاشتراك في الاستقبال . وفي اعتقادي أنهما أول سيدتين أوربيتين تزوران فاس ولقد كان ما لقياه من معاملة كيسة لا تتسم بالتعصب مما لا يتفق مع السوابق المغربية بالإضافة إلى سماحه لسيدتين مسيحيتين بالتواجد في البلاط ، كان كل ذلك مثارا للدهشة في المدينة . وقد اعتبرت على وجه العموم إشارة ودية غير عادية وبرهان على رغبة جلالته لبذل أقصى ما يستطيع لادخال السرور على قلب الممثل البريطاني »[2] .

وقد عقد محمد الرابع اجتماعا خاصا مع هاي في 30 نوفمبر عام 1868 صرح السلطان خلاله بقوله :

« ان لنا كامل الثقة فيكم ، وأنا على اقتناع بأنكم لا تتقدمون بأي مطلب لا تكونوا مقتنعين بعدالته .. وانكم تعلمون أن عددا من حكامنا في الداخل أناس وقحون وجهلاء ولا يستطيع هؤلاء فهم قوانين الأمم والمعاهدات ، وتعمل حكومتنا في ظل ظروف صعبة على حكم هؤلاء وتوجيههم ، ونواجه نفس الصعوبات بالنسبة للقبائل التي يتزعمونها . واننا نود لو تقومون بشرح كل ذلك لحكومتكم ونحن

F.O. 99/134 (2)

مقتنعون انها ستتجمل بالصبر معنا وذلك عندما تؤكدون لها بأننا نحمل لها نفس الروح الودية التي حملها لها أسلافنا واننا راغبون في احترام المعاهدات وعمل كل ماهو عدل وحق لجميع البشر طالما كان ذلك بامكاننا . اشرحوا ذلك لأننا لا ننظر إليك كوزير لملكة بريطانيا العظمى فحسب بل اننا نعتبرك وكيلنا في الحفاظ على العلاقات الودية بين البلدين ...[3] »

نصائح بريطانية بالاصلاح :

وانتهز هاي الفرصة ليطلب ، كصديق حقيقي ، أو كوكيل كما قال السلطان ، ابداء بعض الملاحظات على حالة المغرب . وطلب محمد الرابع من هاي أن يتحدث معه بصراحة . عندئذ تحدث الممثل الانجليزي باسهاب عن فقر الناس .وعن الأحوال المالية السيئة للحكومة ، وعن الحالة العامة من عدم الاستقرار . وصرح هاي بأن الآفة الحقيقية ناجمة عن العادة بعدم دفع الرواتب للموظفين مما يدفع هؤلاء إلى الابتزاز والفساد لاعاشة أنفسهم . وانصت السلطان بصبر لاقوال هاي وتحدث في النهاية معترفا بالحاجة إلى الاصلاح . لكنه أكد أنه يحتاج إلى التصرف بحذر شديد وإلا سوف يدفع موظفيه وشعبه إلى ثورة علنية ضده . وقد قال لهاي :

« إننا ننتظر الفرصة لتقديم نظام أفضل ، وبعون الله ، وإذا جاءت السنوات القادمة أكثر رخاء من تلك التي مرت أخيرا فإننا سوف ننفذ ما اقترحت وهو ما نرغب فيه منذ وقت طويل »[4] .

وقد أوجز هاي في رسالة كتبها إلى اللورد ستانلي في 2 دجنبر 1868 ما خرج به من هذا اللقاء الخاص فقال :

« يؤكد الانطباع الذي خرجت به الرأي الذي كونته خلال السنوات الماضية عن طبع السلطان الا وهو انه رجل عادل وشديد الذكاء يرغب في الحفاظ على العلاقات الودية مع بريطانيا العظمى وسائر الدول الأجنبية بيد انه ينقصه طابع الاقدام بينما يحيط به عدد من الموظفين المرتشين والفاسدين باستثناء رئيس الوزراء

---

(3) Ibid
(4) Ibid

(سيدي طيب اليماني) الذي يبدو ان تأثيره على جلالته غير كاف إلى الحد الذي يمنعه من الاسترشاد بآراء المتعصبين الجهلاء »[5]

وفي 24 شتنبر عام 1872 ابلغ وزير الخارجية اللورد جرانفيل هاي انه بسبب خدماته الطويلة والقيمة كقنصل عام ثم كوزير مفوض في المغرب يسر الملكة فيكتوريا أن تعينه وزيرا مطلق الصلاحيات . وقد تضمن خطاب جرانفيل أوراق الاعتماد الجديدة لهاي التي طلب منه تقديمها للسلطان في أقرب وقت . وقد غادر فعلا طنجة قاصدا مقر السلطان في 24 مارس ووصل إلى مراكش في 5 أبريل . وهناك وجد أن سيدي موسى مشور السلطان وقد أصبح الحاكم الحقيقي للمغرب بينما أصبح الوزير الكبير وغيره من الوزراء مجرد أصفار.

وقد كتب هاي إلى اللورد جرانفيل في يوم 18 ماي عام 1873 وبعد عودته إلى طنجة يقول انه خلال زيارته للقصر رأى أن الحكمة تقتضي مد يد الصداقة إلى سيدي موسى . وان الأخير قد طلب من هاي بناء على أمر السلطان أن يتراسل معه سرا فيما يتصل بالشؤون المغربية كلما وجد هاي ذلك مناسبا . واستطرد الوزير في رسالته إلى جرانفيل بأنه بناء على هذا المطلب فقد اتفق مع تاجر مغربي من مراكش يدعى سيدي بوبكر الغنجاوي بأن يتولى عملية نقل الرسائل بينه وبين سيدي موسى. وبدأت عندئذ علاقة طويلة بين سيدي بوبكر والوزير البريطاني في طنجة اثبت خلالها التاجر المغربي قيمته كوسيط وكمصدر غني من مصادر المعلومات لهاي عما يجري في الحاشية المحيطة بالسلطان.

وفي احدى الزيارات الأولى التي قام بها سيدي بوبكر إلى سير جون في طنجة أبلغه أن السلطان يطلب النصيحة عن أفضل طريقة لدفع بقية التعويض المطلوب من الاسبان والبالغ 900 ألفا من الجنيهات . وقد اقترح هاي في الخطاب المؤرخ في 14 يوليوز الذي أرسله مع سيدي بوبكر إلى محمد الرابع أن يقوم الأخير ببيع كميات القمح والشعير المكدسة في مخازن الحكومة منذ عام 1754 . (ذلك انه كان قد منع تصدير القمح والشعير منذ ذلك العام نتيجة لتحذير مستشاري السلطان من

---

(5) Ibid

ان المصائب التي نزلت بالمغرب في حربها مع الفرنسيين انما كانت بسبب الغضب الالهي من تصدير الحبوب إلى الكفار). بيد أن السلطان لم يأخذ بنصيحة هاي. وقد أدان الأخير السبب في ذلك حين كتب يتحدث عن:

«التلميحات الغبية للمستشارين الجهلاء الذين يظنون أن الله سوف يصيب المغرب بالوباء بسبب تصدير القمح والشعير..»(6).

عودة لقضية اليهود :

في نفس الوقت شغلت مسألة معاملة اليهود السيئة في المغرب جانبا كبيرا من اهتمامات هاي. ذلك أن السير موسَى منتفيوري كان ينتهز كل مناسبة للفت نظر وزير الخارجية في لندن للحالات التي كان يقع فيها اليهود في المغرب ضحية للقسوة أو للظلم، في نفس الوقت طالب «التحالف الاسرائيلي» في باريس وهي جمعية مكونة من اليهود الفرنسيين بتدخل وزير الخارجية لدى السلطان.

وقام هاي فعلا عند زيارته إلى المقر الملكي في أبريل 1873 بتقديم أشد احتجاج على المعاملة التي يتعرض لها اليهود في الرباط ومكناس مما ترتب عليه توبيخ شديد من جانب السلطان لعاملي المدينتين وأمره لهما بالا يسمح بمثل هذه التعديات في المستقبل. وبالرغم من أن هاي قد أبدى في هذه المناسبة وفي غيرها من المناسبات استعداده للدفاع الحار عن اليهود طالما نما الى علمه انهم قد لقيوا معاملة سيئة، غير انه قد اتخذ على العموم موقفا متوازنا حيال هذه القضية، فقد أشار في خطاب له إلى اللورد جرانفيل مؤرخ في 12 شتنبر عام 1873 انه قد تأكد من صديق مسلم ذي مكانة رفيعة (من المحتمل أن يكون سيدي بوبكر) ان:

«اليهود هم الذين يجلبون على أنفسهم سوء المعاملة بسبب النغمة الخالية من الكياسة التي يرددونها عن امكانهم الحصول على الحماية إذا ما طلبوها من الحكومات الأجنبية أو من ممثليها في طنجة»(7).

---

(6) F.O. 99/145
(7) F.O. 99/155

وقد ذهب إلى القول بأن حالة اليهود في المغرب قد تحسنت كثيرا منذ أن جاء إلى المغرب. فمثلا فيما حدث في طنجة لم هؤلاء مجبرين على خلع نعالهم لدى المرور بالقرب من أي جامع ، كما صرح هم بالركوب بعد أن كان لا يسمح لهم من قبل الا بالتجول على الاقدام. أكثر من ذلك فقد ادعى هاي ان سكان طنجة من اليهود أفضل حالا من سكانها من المسلمين وأعطى مثلا على هذا في اعفائهم من التجنيد مقابل ضريبة صغيرة يدفعونها . واستطرد هاي بأن الغالبية العظمى من اليهود القاطنين في المواني قد حصلوا على نفس الميزات وان كان ذلك لا ينطبق بنفس الدرجة على اليهود الذين يعيشون في داخل البلاد حيث يؤدى غياب الأوربيين إلى تعرض هؤلاء لنزوات الحكام وزعماء القبائل . وختم هاي رسالته بقوله :

« وحدث عندما استقبلت عددا من المبعوثين من سائر الجاليات اليهودية في المدن المغربية ان عبرت لهم عن اهتمام الحكومة البريطانية برفاهيتهم غير اني أكدت لهم على ضرورة بقائهم رعايا مخلصين للسلطان والا يعمدوا إلى طلب تدخل الممثلين الأجانب إلا في حالات وقوع الظلم الفادح بهم . وقد حاولت بقدر الامكان تجنب الظهور بمظهر المتدخل في استقلال السلطان وموظفيه وحقهم في حكم رعاياهم »[8] .

المـولى الحسـن :

وقد توفي محمد الرابع في 11 شتنبر عام 1873 وخلفه ابنه الأكبر المولى الحسن . بعد ذلك بأسبوع كتب هاي الى اللورد جرانفيل يتحدث عن السلطان الجديد ، قال انه لما زار البلاط سمح له بمقابلة المولى الحسن . وقد بدا الأخير متحفظا إلى حد بعيد ، وسبب ذلك في رأي هاي ، كما عبر عنه لجرانفيل ، هو ان الأمير لم يلتق أبدا من قبل بأي موظف أوربي .

وكان من أول الأعمال التي قام بها السلطان الجديد ان استدعى سيدي بوبكر

---

(8) Ibid.

وأمره أن يكتب لهاي ليبلغه بأن المولى الحسن يريد الابقاء على نفس العلاقة الوثيقة بهاي وبريطانيا كما كان الحال في عهد أبيه . ردا على ذلك طلب هاي من الأمير المولى عباس العم المحبب للسلطان الجديد ابلاغ شكره لجلالة الامبراطور وخالص تمنياته بعهد طويل وسعيد .

وعندما علم الأمير المولى عباس بمحتويات رسالة هاي كتب له في 16 نوفمبر عام 1873 معبرا عن قلقه الشديد حول مستقبل وجود ابن أخيه على عرش المغرب وذلك بسبب ما يتسم به الموظفون والمستشارون المحيطون بالسلطان من فساد في عمومهم بالإضافة إلى ما يتقدمون به له من آراء سيئة . وانهم قد عاقوا كل محاولة للاصلاح طالما لم يترتب عليها ميزة لاستغلالهم الشائن . ولم يمض وقت طويل حتّى بدا أن لهواجس الأمير بعض الأساس فقد قام سكان فاس بثورة في مايو عام 1874 عندما أعاد السلطان فرض ضريبة (تعرف بضريبة البوابة أو ضريبة المكس) على كل البضائع الداخلة الى المدينة أو الخارجة منها . وكان هاي قد نصح من قبل بالغاء هذه الضريبة على أساس أنها تمثل عقبة أمام التجارة واستفزاز غير ضروري لكافة الطبقات مما أدى إلى الغائها بالفعل.

وما ان جاءت الأنباء بثورة فاس حتّى كتب هاي في 22 ماي عام 1874 الرسالة التالية للمولى الحسن :

« مولاي لقد عبر والدكم في مناسبات عديدة عن الرغبة في الكتابة مباشرة إلى جلالته خاصة إذا ما رأيت أن هناك أمرا على قدر كبير من الأهمية يؤثر في رخاء ممتلكات صاحب الجلالة . ولما كنت أعتقد أن جلالتكم تحملون نفس المشاعر الودية حيال شخصي ، كما ابديتم وشرفتموني ، فإني لم أتردد يامولاي في مخاطبتكم في هذه المناسبة وذلك لما علمته لشديد الأسف عن الأحداث التي جرت مؤخرا في فاس نتيجة لمحاولة اعادة ضرائب البوابة ... »[9]

وكانت نصيحة هاي بالغاء الضريبة ، غير ان السلطان بعد نجاحه في القضاء على الثورة قد استمر في جمعها . ومع ذلك في الرسالة التي بعث بها إلى هاي

---

(9) F.O. 99/161

والمؤرخة في 11 ربيع الاخر عام 1291 (28 ماي عام 1874) طلب منه الاستمرار في بذل النصح له كما كان الحال بالنسبة لأبيه ، قال السلطان :

« لا تمنعوا عنا نصائحكم ولا ارائكم التي يمكن أن تكون مفيدة .. ذلك اننا على اقتناع تام باخلاص صداقتكم .. »[10]

وفي أبريل عام 1875 سافر هاي إلى فاس لتقديم احتراماته للسلطان الجديد . وقد حمل هاي معه الهدايا كما جرت العادة في هذه المناسبة وكان منها آلتان لبث البرقيات تلقاهما من وزارة الحرب،وقد بعث حاكم جبل طارق بثلاثة ضباط وثلاثة مهندسين عسكريين من رجال الحامية لاصطحاب هاي إلى القصر الملكي والقيام بشرح كيفية اشتغال الآلتين . وقد ضمت جماعة هاي الضباط الثلاثة بالاضافة إلى اللفتنانت بيميش (من المهندسين الملكيين) ، وطبيب ، وصديق شخصي ، وزوجته واثنين من بناته ، وزوجا لابنته . كما اصطحب معه مترجما[11]وسكرتيرا وعددا من الخدم حتى بدت الجماعة كبيرة بشكل غير عادي .

ووصلت الجماعة قبالة فاس في 10 أبريل عام 1875 وقد لقيت كل حفاوة ممكنة من عمال مختلف الأقاليم التي مرت بها وهي في طريقها إلى العاصمة . وقد وصف هاي في الخطاب الذي بعث به من فاس في 11 أبريل إلى اللورد دربي وزير الخارجية .. وصف حادثة غريبة جرت لهم خارج أبواب المدينة وعكست حرارة الترحيب الذي لقيته الجماعة البريطانية ..قال :

« انتصب شريف مغربي وقد تزيى برداء رائع وامتطى فرسا يجري هنا وهناك وسط حشود من الناس وهو يلوح بهراوة ويصيح مطالبا اياهم بسلوك كريم تجاه ضيوف السلطان من الانجليز »[12].

وفي 22 أبريل عام 1875 عقد سير جون درمندهاي اجتماعا خاصا مع السلطان استمر لساعتين ونصف . وفي خلال المحادثات التي جرت في هذا الاجتماع حاول

---

(10) Ibid

(11) لم يكن هاي في حاجة إلى مترجم ولكنه اصطحبه استكمالا لقواعد البروتوكول.

(12) F.O. 99/169 أرسل هاي فيما بعد ساعة جيب هدية لهذا الشريف.

السير جون أن يعبر بصراحة واخلاص للسلطان عن ضرورة اجراء الاصلاح إذا ما أراد أن يبقى المغرب بلدا مستقلا . وقد كتب هاي إلى اللورد دربي تقريرا من فاس بتاريخ 22 أبريل عام 1875 روى فيه ما جرى في هذا الاجتماع ..قال :

« يتمتع جلالته بالذكاء غير انه على جهل تام بمدى التقدم الذي أحرزته أوربا ، وقد وجدت حرجا وصعوبة في أن أوضح له بأن ما يعاني منه المغرب من فقر وبؤس إنما هو نابع من سوء الحكم الذي دام لعدة قرون وانه إذا لم يدخل جلالته إلى طريق الاصلاح ، كما حدث في الأمم الاسلامية الأخرى ، وإذا لم يعمل على تنمية الاتصال والعلاقات التجارية مع الأمم الأوربية فقد تتعالى أصوات الاعتراض على الدول الكبرى التي تسمح لبلد مثل المغرب يقع على طرق التجارة بهذا الشكل بأن يبقى على تلك الحالة من الجمود ، وقد تركت لديه انطباعا بأن المشاعر المعادية لحكومته يمكن أن تؤثر على استقرار عرشه . كما افهمت جلالته ان قوات المغرب وسلاحه عاجزان عن مقاومة جيوش أصغر دولة أوربية ومن ثم فلا مناص أمام وزرائه من الاستجابة للمطالب العادلة للممثلين الأجانب وقد اسهبت على وجه الخصوص في ضرورة الحفاظ على علاقات ودية مع فرنسا[13] ».

وقد اعترف المولى الحسن بصحة ماقاله هاي . غير انه صرح له بأنه في موقف صعب للغاية . أما مصدر الصعوبة فنابع من تمرد عدة مناطق في البلاد على سلطانه مما يجعل كل تحرك من جانبه منطويا على كثير من المخاطر . ثم اعترف بصحة رأي هاي القائل بأن السبب الأساسي لتدهور البلاد هو استمرار النظام الحكومي القائم على الموظفين الذين لا يتقاضون أجورا . وأضاف السلطان الى كل ذلك اعتراض عدد من كبار رجال البلاط لاي تجديد .. مما يجعل من المستحيل عليه القضاء على الفساد في يوم واحد .

وقد قدم سير جون إلى وزير الخارجية وصفا ممتعا للسلطان ، قال :

« اعتقد ان المولى الحسن يناهز من العمر 27 عاما ويبلغ طوله 6 أقدام وبوصتين

Ibid (13)

ذو مظهر حسن وسلوك يتسم بالهدوء والوقار. ويتمتع بملامح متناسقة ومليحة غير انه ترتسم على وجهه علامات الحزن الناتجة بدون شك عن مشاعره بالقلق تجاه استقرار عرشه »[14]

وما ان انتهى الاجتماع بين الرجلين حتّى اصطحب المولى الحسن سير جون درمندهاي إلى منزل في حديقة القصر حيث تمت اقامة اجهزة البرقيات. وكان حاضرا الكولونل لافان واللفتنانت بيميش واللفتنانت ليك واثنان من المهندسين العسكريين لعرض كيفية اشتغال هذه الأجهزة، وقد أظهر المولى الحسن انه تلميذ نجيب ذلك انه نجح بعد وقت قصير في بث البرقيات بنفسه. وقال بعد ذلك بأنه سوف يسمح باقامة كابل برقي بين جبل طارق وطنجة. غير انه اشار إلى عدم نيته على التصريح في الوقت الحالي بمد خطوط برقية داخل المغرب لما يعلمه بأن رعاياه سوف يعمدون الى تدميرها بمجرد مدها.

بريطانيا وسياسة الحسن في التحديث

خلفت ملاحظات هاي حول ضعف تسليح المغاربة تأثيرا عميقا على السلطان الذي أعرب له بعدئذ عن رغبته في بناء مسبك بالمغرب لصب المدافع ومعمل لصناعة البنادق والمسدسات والذخائر، بالإضافة إلى اقامة مصنع للزجاج. غير أن هاي أبلغ السلطان بجسامة تكاليف مثل هذه المشروعات وانه من الأرخص أن يشتري ما يريد من بريطانيا وغيرها من الأمم الأوربية. ومع ذلك لم يتراجع المولى الحسن وطلب من هاي الاستعلام من بريطانيا عن تكاليف المشروعات المذكورة. وقد علم هاي من سيدي بوبكر أن من بين المشاريع التي يخطط لها السلطان تكوين جيش نظامي لا يقل عن ستين ألف رجل مسلحين بالبنادق الحديثة ومزودين بالمدفعية. وأخيرا خطط السلطان الجديد لامتلاك سفينة أو سفينتين حربيتين لتمكينه من نقل قواته بسرعة وسهولة في حالة الضرورة من جهة الى أخرى داخل البلاد.

ولما كان بناء معمل السلاح يستغرق وقتا، ولما كان السلطان في حاجة عاجلة للسلاح والذخيرة فقد بعث في أبريل عام 1875 بثلاثة من الموظفين المغاربة إلى

(14) Ibid

بريطانيا لشراء تلك الاحتياجات . وفي لندن طلب هؤلاء التصريح لهم بزيارة ترسانة ولويش وحوض شاتهام وجاءت الاستجابة سريعة لطلبهم . وأبدى اللورد دربي نفس الاهتمام برغبة السلطان بتأسيس مسبك للمدافع ومصنع للسلاح ومعمل للزجاج . وقد طلب من وزارة الحرب المعلومات حول المسبك والمصنع كما طلب من مقاول اعمال الزجاج المشهور المستر سيمنس النصيحة حول المعمل . أكثر من ذلك فقد بعث اللورد دربي إلى هاي نسخا من كتاب الكيمياء لموسبرات وموسوعة الفنون المفيدة لطلوملنسون وقاموس الفنون والصناعات ، وذلك لتقديمها للسلطان .

وفي 15 يوليوز عام 1875 كتب هاي إلى وزير الخارجية يبلغه بأن المولى الحسن يرغب في ارسال ثلاثة من الشبان المغاربة للدراسة في ساند هرست والأكاديمية العسكرية الملكية في ولويش . ومرة أخرى يبدى اللورد دربي أشد التعاطف تجاه الرغبة الواضحة من جانب السلطان الشاب لتحديث المغرب . وورد على هاي في 20 شتنبر عام 1875 بأن الشبان المغاربة سوف يلقون كل ترحيب في انجلترا.

وقد كتب هاي معربا عن تفهمه لاقتراح المولى الحسن ومحبذا له ، كتب يقول :

« تبدو بوضوح رغبة السلطان الشاب في اصلاح وتطوير بلاده ، غير انه يواجه مهمة صعبة للغاية بسبب ما يحيط به من مستشارين جهلاء ومتعصبين وكل ما يعلمه عن الحضارة الأوربية جاء عن طريق السمع من الممثلين الأجانب الذين زاروا القصر اذ لا يتم تداول الصحف في المغرب .. واعتقد بضرورة تقديم كل تيسير معقول من جانب حكومة جلالتها للعاهل الشاب لتمكينه من التحرك تجاه طريق الاصلاح »[15]

وقد أبدت الحكومة البريطانية مزيدا من الترحيب بمعونة المولى الحسن عندما وافقت في فبراير عام 1876 بالتصريح لعدد من الجنود المغاربة النظاميين بالقدوم إلى جبل طارق للتدريب العسكري على النسق البريطاني وليعودوا بعد ذلك معلمين عسكريين في المغرب . ولما كان السلطان قد تأثر كثيرا بمظهر المهندسين العسكريين

Ibid (15)

الثلاثة الذين اصطحبوا هاي خلال زيارته للقصر عام 1875 لتشغيل آلة البرق فإنه قد قرر تدريب قواته النظامية على نسق الجيش البريطاني .

وقد غادرت المجموعة الأولى من الجنود المغاربة ، والبالغ عددها عشرون رجلا ، طنجة في 13 نوفمبر عام 1876 متجهة الى جبل طارق لتلقي تدريبها . وقد اصطحب هؤلاء ، بناء على طلب من السلطان أيضا ، شابا مغربيا لتعلم الطب في المستشفى العسكري في جبل طارق . وقد تأثر الكولونل كامرون الذي تولى مهمة تدريب الجنود المغاربة أطيب التأثر من هؤلاء حتّى انه اقترح زيادة عددهم إلى مائة حتّى يمكن تعليمهم فنون التكتيك جنبا إلى جنب مع ما يتلقون من تدريب . وقد أبلغ كامرون هاي بأن سلوك الجنود المغاربة يدعو للاعجاب وأضاف بأن رجال القوات البريطانية قد أحبوهم كثيرا . ومرة أخرى يكتب كامرون إلى هاي في 25 نوفمبر عن الجنود المغاربة فيقول :

« أؤكد لكم انه مما يدعو لسروري القيام بتدريب عقول هؤلاء الرفاق وابدانهم فهم تواقون إلى التعلم ويبدون في غاية السعادة والسرور .. ولقد تناول القائد وضباط الصف والرقباء الغذاء في ميز المغاربة في أحد الأيام ويبدو انهم قد استمتعوا جميعا بوقتهم .. »[16]

وبناء على طلب كاميرون تم ارسال مزيد من الجنود الى جبل طارق في دجنبر عام 1876 وكان في صحبتهم هذه المرة ثمانية شبان لتدريب أربعة منهم على اطلاق النفير وتدريب أربعة آخرين على الطب[17].

وبالرغم من النوايا الطيبة التي امتلأت بها نفس السلطان تجاه رعاياه فقد ساد البلاد سخط عام في أوائل عام 1876 ، ويعزى هذا السخط في جانب منه لفداحة الضرائب ، وفي الجانب الآخر لما فرضه موظفو السلطان من غرامات قاسية . وقد تزايد قلق سيدي موسى مشور الملك ، والذي استمر اقوى مستشاري المولى

---

(16) F.O. 99/174

(17) في سعي مولاي الحسن لتنفيذ برنامجه للتحديث ارسل مغاربة إلى مختلف البلاد الأوربية للتدريب كأطباء ومهندسين ..الخ.

الحسن ، من جراء الموقف . دعاه ذلك إلى ارسال بوبكر ليطلب من هاي أن يكتب إليه رسالة (يمكن ابلاغها للسلطان) محذرا مما يمكن أن يترتب على استمرار اغتصاب الأموال من نتائج .

وقد استجاب هاي لطلب سيدي موسَى وكتب له في 14 مارس عام 1876 ما نصه :

« انطلاقا من الاهتمام العميق الذي أوليه لرخاء وسعادة السلطان وبلاده اكتب إليكم هذه الرسالة الخاصة والسرية آملا أن تضعها تحت أنظار جلالته .. فإني أرى حالة من السخط العام تنتشر في البلاد .. والسبب في ذلك ما فرض على الناس من ضرائب وغرامات فادحة مما لا يتناسب مع ثروات الناس وامكاناتهم .. ان شعبا يعاني من تلك الاتاوات الفادحة يشبه حيوانا يئن من ثقل أحماله مما لا يمكنه من بلوغ هدفه ، ويؤدى هلاك الحيوان وضياع حمولته في البرية إلى خسارة تنزل بأصحابه . وان عاهلا يحكم شعبا ساخطا وفقيرا لا يمكن أن يكون قويا أو غنيا أو ناجحا ..وفي اعتقادي انه لما كان السلطان يسترشد بمشاعر العدل والاهتمام تجاه رعاياه فان عليه مراجعة ما يتعرض له هؤلاء من مظالم من حكامه وشيوخه . ابلغوا السلطان انه لن يجد في ممتلكاته مستشارا أكثر مني اخلاصا وأكثر مني رغبة في فلاحه واني على ثقة انه سوف يضع نصيحتي محل الاعتبار »[18]

مبعوث مغربي إلى جبل طارق للترحيب بامير ويلز :

بعد فترة قصيرة من ارسال خطاب هاي علم المولى الحسن ان أمير ويلز في طريق عودته إلى بريطانيا من زيارة رسمية كان يقوم بها إلى الهند . وقد قرر المولى الحسن أن يرسل واحدا من كبار رجال القصر هو سيدي علي المسفيوي إلى جبل طارق نائبا عن السلطان لتقديم التهنئة للأمير بسلامة الوصول . ورحل المبعوث وحاشيته وقد اصطحبهم سير جون درمندهاي من طنجة في 12 أبريل عام 1876 على ظهر السفينة الحربية إكسبريس قاصدين جبل طارق حيث استقبلوا بطلقات المدافع التي

---

(18) F.O. 99/173 سمح السلطان في اعقاب ذلك بدفع الضرائب المتأخرة على اقساط وذلك حتّى يخفف العبئ عن رعاياه.

انطلقت مرحبة بهم . وفي الحفل الذي أقيم بعد فترة قصيرة من وصول الأمير ألقى المبعوث المغربي سيدي علي المسفيوي كلمة قال فيها :

« ان علاقات الصداقة القديمة التي تربط بين عاهلي بريطانيا العظمى والمغرب هي علاقات سرمدية وينتهز مولانا السلطان كل مناسبة لاعلان صداقته الوطيدة لجلالة الملكة على رؤوس الاشهاد فما ان علم بنزول سموكم الملكي في جبل طارق على مقربة من املاكه حتّى أراد تقديم هذا الدليل الجديد عن محبته ومشاعره الودية بتكليفي بالقدوم في هذه البعثة »[19]

وبينما كان سيدي علي المسفيوي في جبل طارق حضر الاستعراض العسكري وسائر الاحتفالات التي أقيمت على شرف أمير ويلز ، وقبل أن يرحل الأمير بيوم واحد ، وفي يوم 19 أبريل على وجه التحديد ، اهدى المبعوث المغربي سيفا معقوفا وطلب منه ابلاغ شكره للمولى الحسن على ايمائته الودية.

وفي 14 يوليوز عام 1876 وصل الحاج محمد الزبدي إلى لندن سفيرا للمولى الحسن وقد حمل معه رسالة من السلطان إلى الملكة فيكتوريا عبر فيها عن شكره على الصداقة الوطيدة التي تربط بين المغرب وبريطانيا . وقد قام الحاج محمد الزبدي وحاشيته بزيارة إلى ترسانة ولويش في فاتح غشت عام 1876 وغادر لندن بعد ذلك بأربعة أيام متوجها إلى فرنسا . غير أنه قبل الرحيل ، وكتعبير عن مشاعر الود تبرع بمبلغ ستمائة جنيها لتوزعها الحكومة البريطانية على الوجوه التي تراها ، وقد تم تقسيم المبلغ بين مستشفيات سان جورج وسان طوماس ووستمنستر وتشيرنج كروس .

عود لقضية الحماية غير القانونية :

أجرى المبعوث المغربي في 18 يوليوز عام 1876 محادثات مع اللورد دربي حول قضية الحماية غير القانونية التي نمت بشكل خطير خلال السنوات الأخيرة والتي أصبحت مصدرا لقلق السلطان لما يترتب عليها من اضعاف سلطاته . وقد نقل الحاج

F.O. 99/173 (19)

محمد الزبدي لوزير الخارجية ما يشعر به المولى الحسن من انزعاج من سوء استخدام مسألة الحماية مما يحدث آنئذ ، وعبر له عن رغبة السلطان في تحديد عمليات منح الحماية بحسم وان تقتصر على موانئ المغرب . ردا على ذلك أبلغ اللورد دربي المبعوث المغربي في 3 غشت بأن الحكومة البريطانية لا ترغب في استخدام الحماية خارج الحدود التي تم تضمينها في المادة الثالثة من المعاهدة الانجليزية — المغربية المعقودة عام 1856 والمادة الرابعة من اتفاقية التجارة والملاحة المبرمة في نفس التاريخ . وقد جاء في المادة الثالثة من المعاهدة أن للقائم بالأعمال أن يختار المترجمين والخدم من المسلمين أو من غيرهم على أن يعفي هؤلاء من ضريبة الرؤوس وغيرها من الواجبات[20] وجاء في المادة الرابعة من الاتفاقية الثانية بأنه تتم معاملة الرعايا المغاربة من وكلاء التجار البريطانيين مثلهم مثل بقية رعايا السلطان وألا يتمتعوا بأية امتيازات مالية.

وفي 10 مارس عام 1877 دعا نائب السلطان للشئون الخارجية في طنجة ، سيدي محمد بركاش ، جميع الممثلين الأجانب وسلمهم مذكرة من السلطان تتضمن آراءه حول مسألة الحماية غير القانونية (المقصود بها الحماية التي تخرج عن الحدود القانونية والمقبولة). وقد ابدى هاي ، بصفته عميدا للسلك الديبلوماسي في طنجة ، تعاطفه الكامل مع الآراء المغربية حول الموضوع ، واعلن لزملائه خلال الاجتماع بفخره بأنه بالرغم من عمله ممثلا لبريطانيا في المغرب لاثنين وثلاثين عاما وبالرغم من أن حجم التجارة البريطانية مع المغرب أكبر من حجم تجارة كل الأمم الأخرى مجتمعة ، فيما عدا فرنسا ، فإنه لم يضم رعية مغربية واحدة لأولئك الذين يتمتعون بالحماية البريطانية بمقتضى المعاهدة.

---

(20) نص هذه المادة كما جاء في الأصل العربي « توقير واحترام نايب رينة النجليز ونوابه لجميع المراسي ومن توجهه من قبلها لجانب مولانا أيده الله يكونون محفوظين في أهلهم وديارهم لا ينالهم أحد بسوء ومن عرض لهم بمكروه يؤدب . ويختار النائب المذكور من يترجم عنه ويخدمه من المسلمين أو غيرهم ونوابه بالمراسي يختارون ترجمانا واحدا وبوابا واحدا ومتعلمين اثنين من المسلمين أو غيرهم للواحد ولا يكلفون بجزية ولا غرامة ولا يكون أحد من هذه الايالة المغربية تحت حمايته الا عياله فقط ويوذن لهم في جعل السنجاق في كل وقت وفي اتخاذ محل صلاتهم والجوائج التي ترد عليهم لأنفسهم أو لأهل دورهم بهذه الايالة لا صاكة فيها وانما يعطون خطوط أيديهم للأمناء بعدد ما يريدون جوازه... (انظر الملحق رقم 6)

التدريب العسكري البريطاني

وفي 14 أبريل عام 1877 كتب سير جون درمندهاي تقريرا إلى اللورد دربي يبلغه فيه بتوظيف السلطان للمستر هـ. أ. دي فير ماكلين الملازم السابق في الفوج رقم 69 والذي استقال مؤخرا وأقام في جبل طارق.. توظيفة للقيام بتدريب العسكر أو القوات النظامية والاشراف على المدربين المغاربة الذين يتلقون تعليمهم في جبل طارق. وقد تم منح ماكلين عند تعيينه لقب قايد ودارا ومرتبا شهريا قدره ثلاثين جنيها ، وقد بدأت عندئذ فترة طويلة من العمل المشرف في خدمة السلطان أصبح خلالها ماكلين واحدا من أكثر مستشاري السلطان اخلاصا وأقربهم إليه. ومع ذلك فقد ترتب على تعيين ماكلين نتيجة ما كان يرحب بها السلطان ذلك أن الفرنسيين الذين رأوا في هذا العمل زيادة للنفوذ البريطاني في المغرب قد تقدموا بعدد من ضباط المدفعية لتدريب قوات السلطان. وبالرغم من أن المولى الحسن كان عازفا عن استخدام هؤلاء الضباط غير أنه لم يرغب في اغضاب الفرنسيين ؛ ومن ثم ورغم أنف السلطان جاء المقابل الفرنسي لماكلين برجالهم في فاس.

واستمر السلطان الشاب المتقد بالحماس في تشجيع المشروعات بارسال المغاربة إلى سائر الأمم الأجنبية بهدف تعلم الفنون والعلوم والعودة لنشر المعارف التي اكتسبوها إلى بلادهم ، وتنفيذا لجانب من هذا البرنامج أرسل عددا من رعاياه إلى بريطانيا لتعلم فنون الملاحة وعددا آخر لتعلم فن بناء السفن حيث كان المولى الحسن يأمل في بناء أسطول تجاري لبلاده بالإضافة إلى قوة بحرية. فمنذ أن احتك مع المهندسين الملكيين من الضباط والجند الذين كانوا بصحبة سير جون درمندهاي وقد اعجب بهذا القطاع من رجال الجيش البريطاني. نتيجة لذلك تلقى ثلاثة من الشبان المغاربة برنامجا مكثفا لتعلم الانجليزية في طنجة تم بعده ارسالهم إلى مدرسة المهندسين العسكريين في شاتهام حيث تتالت التقارير الطيبة عن اجتهادهم وتقدمهم السريع في دراستهم.

وقد تأثر سير جون درمندهاي بذلك أشد التأثر وتعاطف تماما مع طموحات المولى الحسن ، وقد كتب في ذلك إلى اللورد دربي في 23 غشت عام 1877.

« منذ هزيمة الاسبان للمغاربة فإن السلطان الحسن هو أول سلطان في تاريخ المغرب يبدى تفهما لأهمية ادخال الحضارة لتلك البلاد الشبه متخلفة »[21]

وفي اطار تنفيذ برنامج السلطان أيضا قام عبد السلام بن العربي شريف وزان بزيارة إلى لندن في غشت عام 1877 وقام ابان تلك الزيارة بجولة مرهقة زار خلالها ترسانة ولويش ومصنع الأسلحة الصغيرة في انفيلد ومعمل البارود في ولثام أبي . وكما كتب هاي إلى اللورد دربي في رسالة مؤرخة في 22 يوليوز عام 1877 فان الشريف يتمتع باهمية كبيرة بسبب قرابته للسلطان ، بالإضافة إلى ذلك النفوذ الهائل الذي له في شمال المغرب وفي الجزائر نتيجة لكونه من نسل الرسول . وكان سير جون درمندهاي قد قام في مقر البعثة البريطانية في طنجة وفي يوم 17 يناير عام 1873 بتزويج الشريف من سيدة انجليزية اسمها أميلي كين ، ابنة أحد محافظي السجون ، وكانت قد جاءت إلى طنجة للعمل كوصيفة ، وهناك قابلها الشريف الذي تزوجها بعد قصة حب ملتهبة وان كانت قصيرة . وسرعان ما انجبت له ابنين المولى علي والمولى أحمد ، وبالرغم من أنها قد بقيت انجليزية في قلبها غير أنها تمكنت من التكيف مع طرق الحياة المغربية ، وقد اسماها اتباع زوجها بشريفة وزان حيث نجحت في التقرب اليهم نتيجة لنزعتها الخيرة وأعمالها الطيبة .

زيارة درمندهاي للسلطان 1880

قام سير جون درمندهاي بزيارة أخرى إلى مقر السلطان في أبريل عام 1880 حيث وصل إلى فاس في 17 من هذا الشهر واستقبله الوزير الكبير سيدي محمد بن العربي بن مختار ، وقد وصف السير هاي هذا الرجل فيما كتبه لوزير الخارجية اللورد سولسيري بأنه « رجل تافه وجاهل وغير صالح بالمرة للقيام بدور المستشار للسلطان الشاب ». وفي أبريل انعقد حفل الاستقبال الذي خصص لهاي وقد قدم الكابتن تروتر ، أحد الضباط الذين اصطحبوا سير جون ، وصفا حيا لهذا الحفل قال فيه :

« أظن أنه سيمضي وقت طويل قبل أن ينسى أي منا المشهد الذي رأيناه اليوم ، كان مشهدا رائعا في ثوب بربري فخم .، فقد أخذونا إلى مستطيل واسع تحيط به الحوائط من كل جانب ، وكان مدخل القصر في الركن البعيد بالنسبة

---

(21) F.O. 99/178

للمكان الذي قدمنا منه ، وقد ترجلنا على بعد أربعمائة ياردة من الجهة المقابلة لهذا المدخل وانقسمنا إلى صفين وقد وقف في مقدمتنا سير جون وانتظرنا وصول جلالته .. وقد اصطف الجنود المغاربة على شكل ممر واسع فيما بيننا وبين البوابة التي سيدنو منها السلطان ، وبالرغم من أن الزي العسكري الذي ارتداه رجال تلك القوات قد اختلف في شكله وألوانه فقد اختلطت الألوان في كل متمازج يصعب وصفه غير أنه كان شيئا لا يمل الإنسان من تأمله.

« وفي منتصف طابور الجند وعلى جانبنا الأيسر وقفت فرقة من الموسيقيين بلغ عدد أعضائها الثلاثين ، وقد ارتدى كل منهم رداء طويلا ملونا غير أنه لم يتفق رداءان في اللون ، وتراوحت تلك الألوان بين البرتقالي الفاتح والأزرق الغامق وقد شكلت جميعا ما يشبه القوس قزح في ضوء شمس الصباح . وانتصب في مقابل الجماعة حوالي مائة من رجال البلاط في زي أبيض اسلامي أشبه بالثلج ..وكان المشاة تحت رياسة القايد ماكلين بينما نصبت المدفعية بالقرب من البوابة .. ولم يظهر أحد من الفرسان أو ضباطهم لأنه ينبغي في هذه المناسبة أن يقف الجميع على اقدامهم في حضرة سلطان المغرب ..كذا تواجدت قوات أخرى في نواح مختلفة من منطقة العرض وحوله تسد الطريق أمام فضول الجمهور الذي صعد إلى الحوائط البيضاء العالية التي كانت على درجة من اللمعان مما كان بمثابة خلفية منعكسة للمجموعة من أصحاب الأزياء الملونة في داخلها ..

« وقبل أن تنقضي خمس دقائق سرت همهمات التوقع وقرعات الطبول تعلن اقتراب جلالته . ودخل الحسن ببطئ ممتطيا حصانا ضخما وقد سار أمامه رجلان من حملة الحراب وسبقه بقليل المشور . وعلى كل جانب من جانبيه فارسان على حصانين مزركشين يتراقصان ، وقد رفعت فوق رأسه مظلة ضخمة مصنوعة من اللون الأحمر يبلغ ارتفاع عصاتها اثني عشر قدما بينما تواجد في الخلف عدد قليل من الحرس الشخصي السود أو البخاري سار في مقدمتهم جلاد وقاطع رؤوس .. »

« وقد خيم على الجميع جو من الاجلال والاحترام لشخص السلطان السامق فوق الجميع وكان طوال القامة من الحاضرين يحركون ببطئ وانتظام قطعا من القماش الأبيض الطويل فوق رأس السلطان لطرد الذباب . وقد أثر فينا هذا المشهد

وهو يتقدم بهدوء نحونا .. وقد توافقت خطواته مع نغمات الموسيقى التي كانت تعزف النشيد الوطني المغربي في نفس الوقت انحنى أصحاب الزي الأبيض اجلالا وانثنى الجنود على ركبهم وقد رفعوا سلاحهم تحية وقد انطلق من كل حنجرة وفي نفس اللحظة الصياح : مولانا وسيدنا ! . مولانا وسيدنا ! وتوقف جلالته على بعد ست خطوات من المبعوث وتقدم الياور أو قايد المشور إلى سير جون وأخذ بيده إلى السلطان بينما كان يتلو بصوت جهوري القابه على الجمع . وعندئذ انحنى فخامته انحناءه بسيطة. ورفع قبعته وانتظر اذن السلطان .. »[22]

وفي 24 أبريل عقد سير جون درمندهاي اجتماعا خاصا مع السلطان . وقد تناولت المحادثات التي جرت بين الرجلين في هذا الاجتماع والتي استمرت لساعتين موضوعات الحماية غير القانونية ، والضرورة العاجلة للاصلاحات الادارية ، وتطوير التجارة ، ومعاملة اليهود المغاربة ، وبضعة أمور أخرى . وقد طلب من هاي أن يتحدث بأقصى حدود الصراحة وأصغى السلطان باهتمام لهذا الحديث . وحين كتب هاي إلى اللورد سولسبري في 28 أبريل تقريرا عن محادثاته مع السلطان أشار الى أنه وجد الحسن أكثر ذكاء من وزرائه.

ولما كان يعلمه هاي من شغف المولى الحسن بكل وسائل الاتصال الحديثة فقد كانت هديته له آلة اشارة هليوجراف[23] ، كذا آلة تليفون . وكما حدث في الزيارة السابقة فقد كان في صحبة هاي لدى مجيئه إلى فاس عدد من ضباط حامية جبل طارق مهمتهم ان يعرضوا أمام السلطان كيفية عمل كل من الهليوجراف والتليفون . ومن ثم فقد رؤى بعد انتهاء الاجتماع الخاص الذي انعقد يوم 24 أبريل عرض عجائب العلم الحديث على المولى الحسن . وتم في البداية عرض طريقة عمل الهليوجراف حيث كان الكابتن تروتر قد اتخذ موقعه على أحد التلال البعيدة خارج فاس بينما بقي ضابط آخر هو اللفتنانت هاينز داخل فناء القصر . واستخدم الضابطان الهليوجراف في تبادل الرسائل مما كان محلا لدهشة السلطان واعجابه.

---

(22) P.D. Trotter, Our Mission to the court of Morocco in 1881 (Edinburgh 1881) pp. 118-117

(23) الهليوجراف وتسمى احيانا المبرقة الشمسية وهي عبارة عن أداة لارسال الاشارات التلغرافية بواسطة أشعة الشمس منعكسة على مرآة. (المترجم)

وتم بعد ذلك عرض استخدام التليفون في بستان الموالح الموجود بحديقة القصر. وقد تأثر السلطان أشد التأثر بمنجزات هذه الالة حتّى انه عبر عن رغبته في وضع آلة منها في القصر بصفة دائمة وذلك حتى يبعث منها الرسائل إلى الخارج دون الحاجة إلى خدمات الخصيان الذين يقومون بنقل هذه الرسائل.

وتتويجا لعرض عجائب القرن التاسع عشر تم تشغيل جرامافون ، وكان حديث الاختراع ، لتسلية السلطان ، كذا التقطت له بعض الصور . وحتّى يمكن تسجيل صوت عال في الجرامافون طلب هاي بوقا ولكن لم يعثر على أي منها . (اكتشف فيما بعد ان شقيق الوزير الكبير الذي يكره النصارى قد سمع بأنهم محتاجون إلى بوق لشيئ يرتبونه مما دعاه إلى اخفاء كل الأبواق الموجودة). ولما لم يوجد البوق فقد جلس واحد من عبيد القصر أمام الفونرجراف وطلب منه أن يغني فيه . وقد تخوف الرجل من الآلة الغريبة بالإضافة إلى رهبته من وجود السلطان مما جعله يغني بصوت أقرب إلى الهمس . ومن ثم فعندما أعيد سماع التسجيل جاء الصوت بالكاد .

وقدمت بعد ذلك آلة تصوير للسلطان لفحصها ، وبالرغم من انه رفض السماح بتصويره الا أنه دس رأسه في الجراب القماشي للآلة ونظر إلى الجلوس وكانوا سير جون واثنين من رجال الحرس الملكي . وفي التقرير الذي أرسله هاي إلى اللورد سولسبري في أبريل كتب :

« استعرض اللفتانت لولس من لواء حملة البنادق فونجرافا من صنعه الخاص أمام السلطان ، كذا جهاز فوتوغرافي . وقد اخذ صورة لقائد الحرس وغيره مما كان مثارا لمتعة جلالته .. وقد اعرب السلطان عن دهشته لما لمثل هذا الشاب الصغير من علم واسع .. (24)

وقد انتهز السلطان فرصة تواجد الكابتن تروتر في القصر وطلب منه التفتيش على قوة المشاة واعداد تقرير عنها . ومن ثم حضرت هذه القوة البالغ عددها الثلاثة آلاف رجلا الى ميدان القصر ، وقضى تروتر ثلاث ساعات في التفتيش عليها . وكانت نتيجة التفتيش غير مرضية بالمرة ، فقد وجد بين صفوفها عددا من الصبية

---

(24) F.O. 99/191 نتيجة لاستعراض آلة الهليوجراف وافق السلطان على اقتراح بانشاء اتصال هليوجرافي بين طنجة وجبل طارق كذا بين فاس ومكناس.

الصغار تتراوح أعمارهم بين عشر واثني عشرة عاما ، كذا عددا من المسنين والعجزة . وجدهم أيضا يرتدون زيا غير موحد كما لم يرتد كثير منهم الأحذية أو الأحزمة أو يحملون الحراب . أسوأ من كل ذلك وجد البنادق التي يحملونها من كل الأنواع ومختلف المواصفات ، وكان بعضها يعود إلى العهد النابليوني . وقد أوصي تروتر في التقرير الذي رفعه إلى السلطان بأن يتكون من مجموع الرجال الذين فتش عليهم كتيبتان تتألف كل منهما من سبعمائة رجل مع ضباطها وطلائعها وجماعات طبولها . أما الباقون فقد رأى تروتر انهم غير صالحين للخدمة مما ينبغي معه الاستغناء عنهم . وأوصى أيضا بتوحيد نوع البنادق المستخدمة وان يلحق بكل كتيبة خبير في السلاح لصيانة البنادق وان تتلقى كل القوات تدريبا سنويا على استخدام الأسلحة الصغيرة.

على الجانب الآخر كانت هناك قوات السلطان النظامية ، وبالرغم من نقص معداتها فقد كانت جيدة التدريب حيث كان يشرف عليها المدربون الذين تلقوا تعليما بريطانيا تحت عناية القايد ماكلين . وفي يوم 10 مايو وهو اليوم الذي تقرر لرحيل البعثة البريطانية من فاس صحا الكابتن تروتر في السادسة صباحا ليشاهد دورة تدريبية لقوات السلطان النظامية ، وقد كتب عن ذلك فيما بعد :

«كانت هناك كتيبتان كاملتان من ست مجموعات تتكون كل منها من ثلاثين طابورا ، وكان البقية من الصبية والمجندين الجدد ممن كانوا في مجموعة تحت التدريب . وكان من أفضل ما قام به المدربون أمرهم بالدوران حتّى شكلوا صفا واحدا من نحو مائة وخمسين . أخيرا وليس آخرا كانت هناك قوة تتشكل من نحو مائة تسير بشكل دائري وتعزف نغمات تلقي الرعب في قلب أي عدو عادي . وكانت كافة الأوامر تصدر بالانجليزية سواء تلك المتعلقة بالأرقام أو بالتحذيرات مثل « إلى اليسار در » أو « أمامك أنظر »وما إلى ذلك ..وكانت مظهر الرجال وما يعرفونه من فنون التدريب مثارا لدهشتي .. »[25]

وقبل أن يغادر هاي فاس استحضر المولى الحسن كابتن تروتر وأبلغه بحضور

P.D. Trotter. Op. Cit. p. 228 (25)

هاي ، الذي قام بالترجمة ، وشكره على المتاعب التي تكبدها في شرح كيفية اشتغال الهليوجراف والتيلفون وعلى التقرير الذي أعده عن قوات السلطان النظامية . وصرح المولى الحسن أن الانجليز هم أفضل الأصدقاء وانه مما يسره أن يرى ضباطهم في قصره في كل وقت . ثم انثنى السلطان تعبيرا عن امتنانه فاهدى الكابتن تروتر سيفا في غمد مشغول بالذهب وبمقبض من العاج.

وبعد اللقاءات التي عقدها هاي مع المولى الحسن وجه اليه الوزير الكبير رسالة جاء فيها :

« وضع صاحب الجلالة الشريفة موضع الاعتبار كل ما أشرت إليه متعلقا بحالة رعاياه ، وبما يصدر عن حكامه والاقتراحات التي قدمتها للتخلص من تلك المساوئ ولتطوير ونفع ممتلكاته . وعبر جلالته عن موافقته على النصيحة التي قدمتها .. وسوف يولي كل اهتمام لاحوال رعاياه لتحقيق رخائهم والتخلص من كل المساوئ التي يعانون منها .. وسوف يصدر جلالته الأوامر لحكامه لتوخي العدالة .. »[26]

ومع ذلك لم يطمئن هاي إلى امكانية احراز أي تقدم حقيقي تجاه الاصلاح . عبر عن ذلك في كتاب له إلى سولسبري في 27 ماي عام 1880 جاء فيه

« يمتلئ السلطان بأحسن المقاصد ولكن سوف يعترض الوزير الكبير الحالي ، الجاهل والفاسد ، على محاولة ادخال أي اصلاح على جهاز الحكومة »[27]

ويعود هاي مرة أخرى لنفس الموضوع في مراسلة ثانية للورد جرانفيل الذي خلف سولسبري في وزارة الخارجية ، والرسالة مؤرخة في 14 يونيو عام 1880 وجاء فيها :

« سوء إدارة تلك البلاد والمعاملة القاسية التي يعاني منها المسلمون واليهود على السواء إنما هي ناتجة من النظام القائم على عدم منح رواتب لأي موظف ابتداء من الوزير الكبير إلى جندي البوليس . ويعتمد كل هؤلاء في معيشتهم على الرشوة والاختلاس والابتزاز .. [28]

---

(26) F.O. 99/192
(27) Ibid
(28) Ibid

وقال هاي ان السلطان قد اتفق معه على تشخيص مصدر الفساد ووعد ببذل أقصى جهد للقضاء عليه ، ولكنه يلاحظ :

« انه (أي السلطان) يخشى من تأصل أسباب الفساد والاختلاس في نفوس موظفيه حتّى انه لو دفع لهم فلن يكفوا عنها »[29]

غير انه ليس بالامكان عزو كل أسباب ضعف المغرب إلى نظامه الحكومي . فقد كان من أهم أسباب هذا الضعف نظام الحماية غير القانونية الذي توسع فيه عدد من ممثلي الدول الأجنبية . ولم يكف هاي عن شن حملاته على هذا الشر ونتج عن بياناته المستمرة التي ظل يرفعها للحكومة البريطانية حول هذا الموضوع ان انعقد مؤتمر دولي في مدريد عام 1880 لبحث المشكلة . ومع أن معاهدة مدريد التي تم توقيعها في 3 يوليوز عام 1880 لم تستجب لكل ما اعتبره كل من هاي والسلطان ضروريا ، غير انه وبالرغم من هذا ، لم يمتثل أحد لها فقد استمر منح الحماية غير القانونية للرعايا المغاربة بكل ما ترتب على ذلك من عرقلة جهود السلطان لإصلاح ادارة بلاده .

عود لقضية اليهود :

نتيجة لوضع المغرب الداخلي لم يكن بالامكان وقف التعديات على اليهود والتي شملت عددا من جرائم القتل مما كان زعماء الجالية اليهودية في بريطانيا يبلغون به الحكومة البريطانية أولا بأول والتي كررت تعليماتها القديمة لهاي بتقديم أشد الاحتجاجات للحكومة المغربية . وبالرغم من أن هاي لم يتردد في الاسراع بادانة أعمال القسوة والظلم التي تعرض لها اليهود المغاربة غير انه ظل على حفاظه على رأي متوازن حيال المشكلة . فقد أشار في مراسلاته إلى وزير الخارجية إلى أن عددا من اليهود المغاربة قد بحثوا عن الحماية من الدول الأجنبية وحصلوا عليها بهدف التهرب من الضرائب وغيرها من الواجبات المفروضة على المغاربة وأساءوا استغلال هذا الوضع المتميز . وقد أثاروا بذلك كراهية السكان المسلمين ، وليس فقط بسبب ما وجدوا أنفسهم فيه بل بسبب ما وجدوا فيه سائر اليهود الفقراء والبسطاء . وظل

---

(29) Ibid

هاي على اعتقاده بعدم امكان حدوث تحسن مفاجئ في أوضاع اليهود وان كان هذا التحسن سوف يتم بالتدريج من خلال اصلاح جهاز الحكومة ، وقبل ذلك من خلال ابعاد الحكام المتعصبين المستبدين.

ومع ذلك فقد كان هاي لا يتردد اذا مادعت الحاجة إلى تقديم أشد الاحتجاجات على سوء معاملة اليهود . وقد حدث موقف من هذا في نوفمبر عام 1880 عندما أمر حاكم آنفا بجلد يهودي حتّى الموت بتهمة ممارسة الجنس مع امرأة مسلمة . وطالب هاي بالقبض على الحاكم ومعاقبته وبدفع تعويض مناسب لأسرة اليهودي المتوفي . في نفس الوقت كتب هاي إلى سيدي محمد بركاش نائب السلطان للعلاقات الخارجية في طنجة تناول فيها حالة عدم الاطمئنان على الأرواح والممتلكات في المغرب والتعديات الأخيرة على اليهود . وقال انه قد سادت أوضاع عامة رأى أن من واجبه معها تحذير بركاش من أن حكومات الأمم الأوربية لن تتسامح فيها إلى ما لا نهاية . وعند هذا الحد قال هاي :

« املي أن يتنبه جلالته لعواقب الموقف عندما يعلم ان تلك التحذيرات انما تصدر من شخص اثبت دائما صداقته وحسن نصحه للسلطان وسعى دائما إلى العمل على تحقيق خير السلطان ورعاياه »[30]

وحقق تحذير هاي الهدف منه فقد أرسل السلطان في 23 محرم عام 1298 (26 دجنبر عام 1880) رسالة لكل حكام الأقاليم وغيرهم من الموظفين يؤنبهم على اهمالهم في منع التعديات الأخيرة على اليهود ويأمرهم بالقبض على المحرضين دون شفقة وتسليمهم إلى السلطان لتلقي عقابهم على افعالهم الشريرة .

زيارة أخرى من درمندهاي للسلطان 1882 :

وفي أبريل عام 1882 قام سير جون درمندهاي بزيارة رسمية أخرى إلى السلطان والذي كان مقيما آنئذ في مراكش . وقد عقد المولى الحسن اجتماعا خاصا مع هاي في 13 من نفس الشهر حيث أبلغه السلطان انه يرغب التشاور معه على وجه

F.O. 99/193 (30)

الخصوص حول علاقاته مع فرنسا . ولم يكن الدافع وراء هذه الرغبة ما كان يجري مؤخرا من مشاكل على حدود المغرب مع الجزائر فحسب بل ما جرى من احتلال فرنسا لتونس في ماي عام 1881 والذي نظر إليه السلطان باعتباره فألا سيئا . وقد ابلغ هاي السلطان بأنه قد صدرت التعليمات إلى السفير البريطاني في باريس لطلب ايضاحات حول العلاقات الفرنسية ــ المغربية وكان الرد الذي تلقاه يعبر عن الرغبة الفرنسية في الحفاظ على العلاقات الودية مع المغرب واحترام استقلاله ووحدة أراضيه . وقد استراح المولى الحسن لهذه التأكيدات وان كان قد ابلغ هاي بأنه يعترف بأنه سوف يكون عاجزا تماما عن مقاومة الجيش الفرنسي في الجزائر إذا ما هاجم المغرب وان موانيه سوف تكون تحت رحمة أية قوة بحرية تهاجمها.

وغادر هاي مراكش عائدا إلى طنجة في 18 ماي عام 1882 وبعدئذ بوقت قصير غادر المولى الحسن المدينة بدوره على رأس جيش كبير متجها إلى الجنوب بهدف تدعيم سلطته في اقليم السوس . وكانت مناطق السوس في حالة غاية في السوء نتيجة للجفاف الذي عانت منه لأربع سنوات متتالية . وقد حاول هاي إثناء السلطان عن مشروعه على أساس احتمال هروب اعداد كبيرة من قواته بسبب سوء أحوال الاقليم غير أن السلطان صمم على السير قدما في خطته نتيجة للمعلومات التي تلقاها بأن عددا من الرعايا البريطانيين قد أقاموا في قسم من الساحل عند رأس جوبي التي كان يراها جزءا من ممتلكاته .

الوجود الانجليزي في رأس جوبي :

كان الروح المحرك وراء هؤلاء الرعايا البريطانيين رجل اسكتلندي يدعى دونالد ماكنزي ، وكان يعمل على تنفيذ مشروع يقوم على الاستئثار بتجارة تمبوكتو والمناطق القريبة لها من خلال اقامة مستوطنة على ساحل افريقيا الشمالي الغربي . وبروح غريبة من التفاؤل مستمدة من تلك الروح التي سادت في العصر الفيكتوري اعتقد ماكنزي بامكان استخدام الوسائل الهندسية الحديثة لتوصيل مياه الأطلنطي إلى هذا المنخفض الهائل الواقع في الصحراء الغربية والمعروفة باسم الجوف . وقد بشر بافكاره تلك في كتاب الفه عام 1877 تحت عنوان « غمر الصحراء » ادعى فيه ماكنزي انه لو أمكن ملأ المنخفض بالمياه

« فسوف يمكن الابحار مباشرة من أوربا إلى تمبوكتو من أقصر طريق »[31].

ولما لم يجد ماكنزي من يؤيد المشروع فقد تحول عام 1878 إلى تقديم مشروع آخر بإقامة مركز تجاري بريطاني في رأس جوبي على ساحل المغرب المطل على الأطلنطي جنوبي وادي درعة في مواجهة جزر كناري . وقد اعتقد ماكنزي بامكانية تحويل القوافل التي تأتي منذ القديم من مناطق النيجر متجهة عبر الصحراء نحو المغرب في الشمال الى الشمال الغربي تجاه رأس جوبي لتصرف شحناتها الثمينة هناك.

وقد استكشف قبل أي شيء ساحل افريقيا الشمالي الغربي وخرج من هذا الاستكشاف بأن رأس جوبي هي انسب بقعة لاقامة المركز التجاري البريطاني الذي يريده . وقد سعى ماكنزي إلى اقناع عدد من كبار التجار ورجال الأعمال في لندن وليفربول وبريستول وغيرها من المدن بقيمة مشروعه ، ودخل عام 1879 في مفاوضات مع الشيخ محمد بن بيروك الذي ادعى بأنه حاكم مستقل للمنطقة المحيطة برأس جوبي . وقد حصل ماكنزي من هذا الشيخ على حق تأجير شريط من الأرض عند الرأس ، وقامت الشركة التي أسسها ماكنزي ومعضدوه تحت اسم شركة شمال غرب افريقيا بتأسيس مركز تجاري عند رأس جوبي وحاولت من هناك جذب التجارة إليها.

غير انه لم يتم احراز تقدم يذكر ، ذلك ان البحرية قد ارسلت في دجنبر عام 1881 وبناء على طلب وزارة الخارجية ، الكابتن بريدج في السفينة الحربية اسبيجل ليعد تقريرا عن مستوطنه رأس جوبي . ولم يجد الرجل فيها سوى ثمانية من الانجليز وعددا قليلاً من العمال الذين تم استجلابهم من جزر كناري . وقد قال الكابتن بريدج انه بقدر ما رأى لم يجد اي أثر للتجارة ، أكثر من ذلك كان من رأيه أن رأس جوبي غير مناسبة بالمرة لتتحول إلى محطة للتجارة البحرية[32] فلا يوجد بها مرسى ملائم بالاضافة إلى نقص المياه الصالحة للشرب كذا الغذاء الذي يستحضر من جزر كناري .

قبل ذلك وفي عام 1876 كانت قد وصلت إلى مسامع السلطان أخبار

D. Mackenzie. The Flooding of the Sahara (London 1877) Foreward. p. X (31

F.O. 99/225 (32

استكشاف ماكنزي لساحل شمال غرب افريقيا وكتب إلى هاي يطلب منه اتخاذ الخطوات اللازمة لمنع ماكنزى من القيام بالمزيد . وقد اعترض هاي على مشروع رأس جوبي منذ البداية وحذر ماكنزي من المخاطر والصعوبات التي يمكن أن يتعرض لها إذا ما صمم على السير قدما في مشروعه . غير أن تحذيره ذهب ادراج الرياح.

كتب هاي أيضا إلى سيدي محمد بن حامد مشور السلطان في فاتح دجنبر عام 1879 وأبلغه بأن :

« ليس من حق الحكومة المغربية التدخل في شئون الأوربيين الذين ينزلون في المناطق الواقعة جنوب وادي نون والتي لم تشكل ابدا قسما من املاك السلطان[33] ».

ورد سيدي موسى على ذلك في 17 من نفس الشهر يقول لهاي :

« عليكم أن تعلموا أن قبائل الصحراء تتبع هذه المملكة (المغرب) وتعترف بسيادته (السلطان) الروحية .. هذا بالرغم من أن الحكومة لا تستطيع مد ادارتها وسيطرتها عليها كلها ..[34]

وأثيرت المسألة مرة أخرى في دجنبر عام 1879 عندما عاد سيدي محمد بركاش يذكر بأن الأراضي الواقعة جنوبي وادي درعة انما هي أراضي مغربية . ورد هاي على ذلك في خطاب مؤرخ في 8 دجنبر قال فيه انه منذ القديم يعتبر وادي درعة الحد الجنوبي الأقصى لممتلكات السلطان ، ومن ثم فإن الحكومة البريطانية لا ترى سببا للتعدي على حق الرعايا البريطانيين في النزول في رأس جوبي بهدف التجارة . وفي شتنبر عام 1882 ذهبت الحكومة البريطانية الى ابعد من ذلك حين حذرت السلطات المغربية بأنه ستترتب نتائج وخيمة على الهجوم على الممتلكات أو الرعايا البريطانيين في رأس جوبي .

ومن الجدير بالملاحظة انه بالرغم من أن سير جون درمندهاي كان ينقل إلى

---

(33) F.O. 99/174
(34) Ibid

السلطان رأي الحكومة البريطانية بأن الأراضي المغربية لا تمتد وراء وادي درعة غير أنه لم يكن مقتنعا تماما بالأسس التي يقوم عليها هذا الرأي . ففي مذكرة ارسلها إلى وزارة الخارجية عام 1882 خلال شهر شتنبر على الأرجح (المذكرة غير مؤرخة) قال :

« بالرغم من استمرار النظر الى وادي درعة على أنه الحدود الجنوبية للمغرب فاني لا اعتقد بوجود أية معاهدة أو وثيقة رسمية يمكن الرجوع إليها في محفوظات وزارة الخارجية أو الوكالة البريطانية في طنجة يتثبت من خلالها ما إذا كانت املاك السلطان قد امتدت إلى جنوب هذا الوادي أو لم تمتد .. »[35].

وقد تفاقم النزاع حول الحد الجنوبي للأراضي المغربية في سوس عندما تم تأسيس « شركة السوس وشمال افريقيا للتجارة » في لندن في أواخر عام 1879 . وقد اقترحت هذه الشركة اقامة مركز تجاري لها في افني الواقعة شمال رأس جوبي كذا في الأراضي التي تعترف الحكومة البريطانية بتبعيتها للسلطان . وفي 23 محرم عام 1297 (7 يناير عام 1880) تقدم سيدي محمد بركاش باحتجاج باسم السلطان للحكومة البريطانية وطالب بوقف نشاطات الشركة . وقد وافقت الحكومة البريطانية فيما بعد على نشر خطاب في التايمز بتوقيع بركاش يحذر فيه الرعايا البريطانيين بأنه سوف تتم معاملة أي أشخاص ينزلون على الساحل الغربي في غير المواني المتفق عليها معاملة المهربين وبأنه سوف تتم مصادرة بضائعهم . وفوق ذلك فقد قامت الحكومة البريطانية في أول مارس عام 1882 بتحذير مدراء الشركة بأن الأراضي التي ينوون الاتجار معها تقع ضمن ممتلكات السلطان وانه إذا ما اتخذت السلطات المغربية الاجراءات لمنع تجارتهم غير الشرعية فعلى « شركة السوس وشمال افريقيا للتجارة » ألا تتوقع من الحكومة البريطانية أية حماية.

ولم يلق مدراء الشركة بالاً إلى هذه التحذيرات ورست في فبراير عام 1883 احدى سفنهم التي تحمل البضائع في مكان على الساحل يقع جنوب افني ويسمى اركشيش . وعندما علم السلطان بالخبر أرسل فورا قوة إلى هذا المكان قبضت على

F.O. 99/261 (35)

اثنين من التجار الانجليز ، الأول اسمه كيرتس واسم الثاني اندروز ، حيث أرسلا تحت الحراسة إلى مراكش . وقد افرج عنهما فيما بعد وسمح لهما بالرحيل دون انزال أية عقوبة بهما غير انه قام جنود السلطان بعد ذلك وفي 27 يونيه عام 1883 بمصادرة البضائع التي انزلت في اركشيش وهدم الخيام والأكواخ التي كان قد أقامها الانجليز .

وقد طالب مدراء « شركة السوس وشمال افريقيا للتجارة » الحكومة البريطانية باتخاذ الخطوات لاجبار الحكومة المغربية على دفع تعويض عما أصاب الشركة من خسائر . غير أن وزير الخارجية اللورد جرانفيل كتب إلى هؤلاء رسالة في 22 شتنبر عام 1883 يذكرهم بأنه قد تكرر تحذيرهم بأن التجارة مع السوس غير شرعية وانه لما كانت الشركة قد تجاهلت هذه التحذيرات فعليها أن تتحمل المخاطر التي ترتبت على ذلك . وختم جرانفيل بأنه على ضوء كل ذلك فإن الحكومة البريطانية لن تتخذ على وجه التأكيد أيا من الخطوات التي طالبت بها الشركة بالضغط لطلب التعويض وكان الرفض الرسمي لمعونة شركة « السوس وشمال افريقيا للتجارة » بمثابة اصدار حكم بالقضاء عليها ، وهو ما لم يتأخر كثيرا إذا تم تصفيتها عام 1883 نتيجة للأحكام القضائية التي صدرت لصالح دائنيها.

وقام المولى الحسن بحملته إلى السوس في عام 1882 في اطار محاولته لتدعيم سيادته على المنطقة الواقعة بين وادي درعة ورأس جوبي وساحل السوس والتي أدت إليها محاولات كل من شركة شمال غرب افريقيا وشركة السوس وشمال افريقيا للتجارة في تلك الجهات . وفي تلك الأثناء أرسل السلطان قوة صغيرة إلى رأس جوبي ليرى بالضبط ما يفعله ماكنزى واتباعه هناك ولابلاغهم بوجوب رحيلهم حيث أن رأس جوبي جزء لا يتجزأ من المغرب وان المعاملات التجارية مع البلاد مقصورة على عدد من الموانى المحددة .

ومع ذلك فقد رفض ماكنزي مغادرة المنطقة مما أدى إلى أن يستخدم المولى الحسن كل نفوذه على القبائل القاطنة بجوار رأس جوبي للتوقف عن التعامل مع المركز البريطاني وأدى هذا التطور الى مطالبة مدراء شركة شمال غرب افريقيا بالحماية

من الحكومة البريطانية مما ترتب عليه محادثات طويلة بين الحكومتين المغربية والبريطانية حول الحدود الجنوبية لممتلكات السلطان.

بريطانيا والسجون المغربية

تم في نفس الفترة تبادل مراسلات مطولة بين الحكومتين حول حالة السجون في المغرب . فقد حدث ان نجح المصلحون البريطانيون في تحسين أحوال السجون في بلادهم في أوائل القرن التاسع عشر مما اغراهم الى تحويل اهتمامهم إلى حالة السجون في بلدان أخرى كان المغرب احدها . وكما كان يحدث بالنسبة لمسألة معاملة اليهود في المغرب فقد استمر هؤلاء يطالبون الحكومة البريطانية بتقديم الاحتجاجات للسلطان على حالة السجون المغربية مثل على ذلك ما كتبه أحد رجال الدين الانجليز إلى رئيس الوزراء جلادستون في نوفمبر عام 1883 معبرا عن أساه على أحوال السجون في طنجة ومطالبا باتخاذ الخطوات لتحسين هذه الأحوال . وقد ارسل الطلب إلى هاي في 22 من نفس الشهر ومعه تعليمات من اللورد جرانفيل تقضي بالتنبيه المشدد على الحكومة المغربية بالحاجة إلى اجراء تحقيق شامل في أحوال السجون في سائر أنحاء المغرب وتنفيذ بعض الاجراءات الاصلاحية فيها .

وقبل أن يتصل هاي بالحكومة المغربية بعث إلى مختلف نواب القناصل البريطانيين في سائر الموانى المغربية يستفهم عن أحوال السجون فيها ويطلب منهم التقارير عن تلك الأحوال . وبعد أن جاءته تلك التقارير وقام بدراستها أرسل كتابا إلى الوزير الكبير في 13 مارس عام 1885 يطلب منه أن يقترح على السلطان اتخاذ عدد من الاجراءات للتأكد من حسن تغذية السجناء ومن نظافة زنازينهم وبعدم تكبيل المسجونين بسبب الدين بالسلاسل . ورد الوزير الكبير بخطاب مؤرخ في 26 جمادي الآخر عام 1302 (13 ابريل عام 1885) يبلغ هاي بأن الأوامر قد صدرت بوضع الاقتراحات التي قدمها موضع التنفيذ .

المغرب في العلاقات البريطانية — الفرنسية :

في مارس عام 1883 ابلغ المسيو أورديجا ، الوزير الفرنسي في طنجة ، هاي ، والذي كان لا يكن له ودا كبيرا ، بأنه يعتقد أن نفوذ السلطان يتآكل بسرعة وان

فرنسا لن تحتمل لوقت طويل تلك الحالة من الفوضى التي تسود المغرب . وأضاف المسيو أورديجا انه مما يسر الفرنسيين أن تقوم بريطانيا أو أية حكومة أخرى بفرض سيطرتها على المغرب حتَّى يتمكن الفرنسيون الموجودون بالجزائر من التعامل مع أشخاص موثوق بهم . وانثنى المسيو أورديجا بعد ذلك بأنه إذا لم يحدث ذلك فلن يتأخر الوقت الذي تضطر فيه الظروف فرنسا إلى السيطرة على ممتلكات السلطان .

وقرر هاي تحذير المولى الحسن من اهداف الفرنسيين التي أسفر عنها المسيو أورديجا وان كان قد اعتقد باحتمال المبالغة من جانب الوزير الفرنسي وبأنه لا يعبر عن سياسة حكومته الحقيقية تجاه المغرب . ومن ثم فقد أرسل في 13 نوفمبر عام 1883 مذكرة سرية إلى المولى الحسن قال فيها :

« أود انتهاز الفرصة واحذر جلالته الشريفة من قبول أي اقتراح يمكن أن يقدم له بهدف دفعه إلى البحث عن أو إلى قبول حماية فرنسا أو وضع نفسه بأي شكل تحت رعاية أو اشراف تلك الدولة »[36] .

وذهب هاي إلى حد ابلاغ السلطان بأن مسيو أورديجا لم يخف السر بأنه يريد قيام احدى الدول الأجنبية أو فرنسا ذاتها باسقاط المغرب وغزوها ، وختم هاي رسالته بمطالبة المولى الحسن بأن يكون في غاية اليقظة.

وقد تزايدت شكوك هاي حول المقاصد الفرنسية عندما التقى بشريف وزان في 20 يناير عام 1884 وعلم منه أنه قد حصل مؤخرا على أوراق تمنحه الجنسية الفرنسية . عندئذ ابلغ هاي الشريف بكل صراحة أن هذا العمل غير وطني بالمرة وانه يعطي النموذج السيئ الذي يمكن أن يؤدى إلى الثورة في المغرب . وقد عبر هاي في الخطاب الذي بعث به إلى اللورد جرانفيل في 21 يناير عام 1884 عن شكوكه بوجود تفاهم سري بين الشريف والفرنسيين يعمل الأول بمقتضاه على اسقاط المولى الحسن والحلول محله.

ولم يحصل شريف وزان على حق المواطنة الفرنسية فحسب بل تمت الاستجابة إلى طلبه بوضع جميع الأشخاص الذين يعيشون في ممتلكاته وأراضيه الواسعة

---

(36) F.O. 99/217

بالمغرب تحت الحماية الفرنسية وكان هذا يعني الكثير للمولى الحسن. وقد أرسل في أبريل عام 1884 مذكرة إلى جميع الممثلين الأجانب في طنجة يبلغهم فيها ان استمرار استغلال الحماية بالرغم من معاهدة مدريد المعقودة عام 1880 قد أثرت في سلطته وأضعفت من مكانته إلى أقصى حد.

ونتيجة للتقارير التي بعث بها هاي إلى الحكومة البريطانية حول هذا الموضوع فقد اتصلت بالحكومة الفرنسية وتمكنت من انتزاع تأكيد منها بأنه ليس لدى فرنسا أي خطط لتمزيق وحدة المغرب أو القضاء على استقلاله. وبناء على تعليمات لندن أرسل هاي بذلك التأكيد إلى سيدي محمد بن العربي بن مختار الذي رفعه للسلطان مما ادخل أعظم راحة على نفس الأخير. وفي 26 رجب عام 1301 (22 ماي عام 1884) أجاب الوزير الكبير على هاي معبرا عن عميق شكر السلطان على الرسالة التي تلقاها منه. قال:

« لقد هدأ روع جلالته وتضرع إلى الله طالبا لكم البركة وقد أمرني أن أرجوكم أن تبعثوا له دائما بالأنباء طيبة كانت أو سيئة وذلك لما يضعه جلالته الشريفة من عظيم الثقة في المعلومات التي تقدمونها له أكثر من تلك التي يقدمها أي مصدر آخر وذلك من حيث كونكم الوزير المحبوب والموثوق فيه لحكومة صديقة »[37].

عود لقضية بجة :

ومرة أخرى تطرح في مارس عام 1885 المسألة المثيرة المتعلقة بالحق الشرعي في املاك محمد بجة المتوفي في جبل طارق، غير ان من اثارها هذه المرة كان حاكم جبل طارق وليس السلطان. أما سبب اثارتها فقد نتجت عن الرغبة في ازالة أحد أملاك بجة الواقعة في ممر ميل لما يسببه من تشويه، ومن ثم فقد كتب الحاكم إلى وزارة المستعمرات في لندن يقترح عليها حسم مسألة هذه الملكية التي استمرت تؤثر بشكل متقطع على العلاقات الانجليزية — المغربية منذ عام 1721. وحولت وزارة المستعمرات المسألة إلى وزارة الخارجية، وتبع ذلك أن ارسل اللورد جرانفيل بتعليمات إلى هاي في 18 مارس عام 1885 مؤداها أن يعمل على حث السلطان

F.O. 99/218 (37)

على الموافقة على تسوية للمسألة على الأسس التي اقترحها حاكم جبل طارق. وكانت هذه الأسس تقضي بالسماح للقنصل المغربي في جبل طارق بأن يحتل أحد املاك بجة في شارع ووتربورت كمقر له مقابل أجر رمزي هو بيزيته واحدة سنويا ؛ أما المباني المتهدمة الموجودة في ممر ميل فقد تقرر بيعها في مزاد على أن يحصل السلطان على نصف الثمن وأن يحصل على النصف الآخر ورثة من يدعى ايمانويل فيالي والذي كان شريكا في ممتلكات ممر ميل. وقد نجح هاي في التفاوض على هذه الأسس التي صدق عليها سيدي محمد بن العربي طوريس وكيل السلطان للشئون الخارجية في طنجة وذلك في كتاب أرسله إلى هاي في 21 رجب عام 1303 (26 أبريل عام 1886). وتم بذلك أخيرا التخلص من أحد عوامل الاحتكاك بين المغرب وبريطانيا.

السعي لتعديل اتفاقية 1856

في ربيع عام 1885 ساد الشعور في لندن بالحاجة لتعديل الاتفاقية الانجليزية — المغربية المعقودة عام 1856. فقد أرسل عديد من ممثلي الغرف التجارية مع سائر انحاء بريطانيا العظمى يطلبون من وزارة الخارجية فتح باب مفاوضات جديدة مع الحكومة المغربية للعمل على تخفيض رسوم الاستيراد المفروضة على البضائع التي تأتي إلى المغرب والغاء رسوم التصدير كلية على صادراته. وقد تلقى هاي التعليمات لبحث الأمر مع وزراء السلطان، ولكن بالرغم من المحاولات التي بذلها لم يستطع أن ينجز شيئا.

وكانت قد طرحت مسألة مراجعة الاتفاقية عام 1880 وقد وافق السلطان عندئذ على امكان بدء المفاوضات حولها.

غير أن سيدي محمد بركاش الذي عينه السلطان ممثلا للجانب المغربي في المفاوضات قد اعترض على ما اقترحه سير جون درمندهاي من تعديلات على اتفاقية عام 1856 على أساس انها سوف تؤدى إلى نقص خطير في ايرادات السلطان النابعة أساسا من الرسوم المفروضة على الواردات والصادرات. وقد اغضب موقف بركاش السير جون إلى حد بعيد، مما دعاه إلى أن يكتب للممثل المغربي في 26

مارس عام 1882 ليبلغه بشكل حاد انه يبدو ان آراء مستشاري السلطان تجاه التجارة تتسم بضيق الأفق وانهم يتبعون سياسات تؤدى إلى ضعف المغرب بالتدريج ثم انهياره .

وعندما زار هاي مراكش في أبريل عام 1882 تحدث بكل صراحة مع السلطان في هذا الموضوع وحاول حثه على الموافقة على التعديلات . وقد كتب هاي إلى اللورد جرانفيل في 29 من هذا الشهر تقريرا عن الاجتماع الخاص الذي عقده قبل ذلك بثلاثة أيام مع المولى الحسن وعن المباحثات التي جرت في هذا الاجتماع . قال :

« ابلغت جلالته باسلوب لا يخلو من المجاملة اني بالرغم من رأيي في حكمة جلالته في ادارة علاقاته الخارجية وشئون البلاد بوجه عام غير انه لو سمح لي جلالته بالتحدث بمنتهى الصراحة وبدون تحفظات فلن أخفي عليه خطأ الآراء التي تقوم عليها وجهات نظره وحججه بشأن التجارة مما يبدو معه انه لم يدرس الموضوع وانه كون هذه الآراء بناء على نصائح مستشاريه الجهلاء الذين شجعوه على الاستمرار في نظام أدى إلى بؤس البلاد وافقارها .. »[38]

وقد تقبل السلطان ملاحظة هاي قبولا حسنا ووافق على اعادة النظر في التعديلات المقترحة . ومع ذلك فقد استمر المولى الحسن على معارضته لواحد من اقتراحات هاي الأساسية وهو المتعلق بتخفيض كبير في رسوم الصادرات هذا إذا لم يتم الغاؤها كلية . وكانت وجهة نظر السلطان في هذا الشأن انه بغض النظر عن خسارة الدخل التي سوف تترتب على هذا التخفيض فإنه سوف يشجع على تصدير بعض الصادرات مثل الحبوب مما سوف يترتب عليه ارتفاع أسعارها في المغرب نتيجة لقلتها ويعاني من جراء ذلك فقراء المغاربة.

وخاب أمل هاي في دفع السلطان على قبول حججه بأن حرية التجارة سوف تؤدى حتما إلى رخاء المغرب وفشل الوزير البريطاني بالتالي في حث المولى الحسن بالموافقة على مقترحاته بادخال تعديلات جذرية على اتفاقية عام 1856 . وقد بدا

F.O. 99/244 (38)

شعوره بخيبة الأمل في اللهجة الفاترة التي اتسمت بها مراسلاته إلى وزراء السلطان في تلك الفترة. من ذلك الرسالة التي كتبها في غشت عام 1884 إلى الوزير الكبير سيدي محمد بن العربي بن مختار الذي توقف عن الاستمرار في المحادثات التي كانت تدور حول التعديلات المقترحة على اتفاقية عام 1856 بحجة انشغال الحكومة المغربية آنئذ بمواجهة مؤامرات شريف وزان مع الفرنسيين. فقد كتب هاي معبرا في سخط عن عدم اقتناعه، قال:

«لقد تلقيت ردكم بكثير من عدم الرضا. لقد أشرت مرارا أن الملوك والحكومات لا يسترشدون في تحالفاتهم وصداقاتهم بالمشاعر بل بالمصالح المادية التي يحصل عليها هؤلاء سواء من خلال رعاياهم أو تجارتهم. وليس من المتوقع أن تستمر حكومة بريطانيا العظمى وشعبها في منح هذا الاهتمام الشديد لحكومة لا ترعى مصالحها ولا تتخذ من الخطوات ما يؤدى إلى تطور التجارة وبالتالي تحقيق الخير لرعاياها..»[39]

وبعد ذلك بعام وحين لم يتحقق أي تقدم كتب هاي مرة أخرى في 10 غشت عام 1885 إلى الوزير الكبير بنفس ممتلئة بالحدة والمرارة، قال:

«كان لي الشرف خلال الخمسة والأربعين عاما الماضية أن أبقى وزيرا معتمدا لدى جلالته، وقد بقيت طوال هذه المدة التى مظاهر التقدير والصداقة مما كان مبعثا دائما لسعادتي ولكن لن أكتم عن فخامتكم بأن آرائي ونصائحي لم تلق خلال العامين الأخيرين الاهتمام الواجب خاصة لدى بحث تشجيع العلاقات التجارية بين البلدين كذا ما اتصل برخاء رعايا جلالته بنفس القدر الذي كنت أتوقعه نتيجة لتأكيدات الصداقة وحسن النية التي قطعها جلالته الشريفة. ولما كانت رغبتي الدائمة وهدفي المستمر العمل على الحفاظ على استقلال جلالته وتشجيع رخاء رعاياه فسوف يكون من أشد دواعي الأسف ان اغادر تلك البلاد بينما لم تلق نصائحي لتطوير التجارة بين المغرب وبريطانيا العظمى، كذا بينها وبين أوربا، آذانا صاغية. وينبغي التذكير بأن الصداقات بين الأمم لا تعتمد على المشاعر فحسب ولكن على

---

(39) Ibid

المنافع المتبادلة من خلال العلاقات التجارية والودية وتذوي الصداقة بين أمة وأخرى ويذوي اهتمام أمة بمصالح الأخرى عندما تتجاهل هذه المبادئ الأولية[40] »

بريطانيا والرقيق المغربي :

مشكلة أخرى واجهت المغرب في أواخر القرن التاسع عشر تمثلت في وضع الرقيق الذي كان يمثل جانبا تقليديا في الحياة المغربية ، وهو الوضع الذي فجره المصلحون البريطانيون في تصميم . وقد بدأ ذلك برفع الأمر إلى الحكومة البريطانية وحثها على تقديم الاحتجاجات على الحكومة المغربية ، ونجح المصلحون من خلال ذلك في منع قيام المزادات العامة لبيع الرقيق في المدن الساحلية . وأغراهم هذا النجاح على العمل على الغاء الرق في المغرب وتقدموا بطلباتهم في هذا الشأن للحكومة البريطانية لبحث الأمر مع السلطات المغربية ، ودعا ذلك وزير الخارجية الى احالة المشكلة برمتها الى السير جون درمندهاي طالبا رأيه . وقد تقدم هاي بهذا الرأي متوخيا الصراحة الكاملة ودون أي تأثر لفهمه الواقعي لأوضاع المغرب أو لعواطفه تجاه الشعب . ففي الخطاب الذي ارسله هاي إلى اللورد روزبري وزير الخارجية في 13 ماي عام 1886 أشار إلى المراسلة التي بعثت بها « جمعية مكافحة الرق » إلى روزبري والتي أرسلها إليه الأخير في 30 أبريل عام 1886 طالبا رأيه فقال :

« فيما يتصل بالعبيد في المغرب فهم عموما في حالة من السعادة والرضاء ، فهم يعملون أساسا في الخدمات المنزلية بدور المغاربة الأثرياء . وعندما يحدث ويتم عتق بعضهم بسبب وفاة سادتهم أو لأي سبب آخر فإنهم يفضلون استمرار البقاء مع العائلات التي عاشوا في وسطها . وعادة ما يتم شراء العبيد من النساء ليتحولن إلى محظيات في الحريم ، بيد أن الغالبية من هؤلاء في حالة أفضل وأقل فجورا من آلاف الفتيات في أوربا اللاتي يبيعهن اباؤهم واللاتي يبعن أنفسهن ويسقطن إلى أسفل مهاوي الرذيلة . ولا يزيد ما يتم « استحضاره سنويا من الداخل عما يتراوح بين ثلاثمائة وخمسمائة يشتريهم التجار من نواحي السودان حيث السكان الذين

F.O. 99/222 (40)

يدينون بالإسلام ..ان من يستحق اهتمام أهل الخير والعالم المتحضر هو الفلاح المغربي لا العبد وأرى أنه قد حان الوقت لقيام الدول الأوربية ببذل مساعيها لتحقيق تحسن في أحوال الشعب المغربي ، هذا الشعب الذي حمل اسلافه بينما كانوا في اسبانيا شعلة الفن والعلم ، وهو كفؤ لأن يصبح أمة عظيمة إذا ما توفرت له الحكومة الحسنة ، كذا الأمن على الحياة وعلى الممتلكات .. »[41]

اعتزال هاي .

في تاريخ كتابة التقرير السابق كان السير درمندهاي قد أوشك على الاعتزال . فقد بلغ عام 1886 السبعين من العمر ، وبالرغم من احتفاظه حتّى هذا العمر بيقظة ذهنه ، وبالرغم من خبرته التي لا تجارى بشئون المغرب ، فقد بدا ان الوقت قد حان ليفسح الطريق لرجل أصغر . وهو ما فعله بالضبط بكامل الثقة بالنفس حين كتب في 30 يونيه عام 1886 عن خليفته في البعثة البريطانية :

« من رأيي أنكم لن تجدون أفضل من المستر كيربي كرين ذي المعرفة الوثيقة بالبلاد ولغتها »[42].

ولم يتمكن هاي من توديع السلطان شخصيا إذا كان المولى الحسن عندئذ في الجنوب البعيد في سوس يقود احدى غزواته الدورية هناك . دعاه ذلك إلى أن يبعث بكتاب إلى وزير الشئون الخارجية للمغرب سيدي محمد المفضل غرنيط ، وأشار في هذا الكتاب المؤرخ في أول يونيه عام 1886 إلى اعتزاله وعبر عن أسفه لعدم امكانه توديع السلطان شخصيا . قال :

«كان من حظي خلال الواحد والأربعين عاما التي مثلت أثنائها العاهلة الكريمة ملكة بريطانيا العظمى أن تمتعت بثقة وصداقة جلالة الراحل المولى عبد الرحمن ثم جلالة المولى سيدي محمد واستمر نفس الحال مع جلالة المولى الحسن . وتم الحفاظ على امتداد تلك الحقبة وبدون انقطاع بعلاقات الصداقة القديمة القائمة بين البلدين

F.O. 99/228 (41)
Ibid (42)

وهي العلاقات التي ستستمر بعون الله . واني أرجو من فخامتكم أن تؤكدوا لسدته الشريفة باني لن أتوقف أبدا عن الاهتمام بمصالح جلالته وخير رعاياه . أولئك الذين تلقيت منهم على الدوام كل المشاعر الطيبة مما لن أنساه أبدا .. »(43)

ودلف هاي من ذلك إلى ذكر عدد من موظفي السلطان بالاسم وقال انه يعتبرهم من اصدقائه الشخصيين وطلب ابلاغهم بتحيات الوداع . وختم هاي كتابه بالتعبير عن أمله في الرجوع إلى طنجة في القريب العاجل . وإذا ما قبل المولى الحسن فإنه سوف يذهب إلى البلاط بصفته الخاصة ليقول للسلطان وداعا .

وقد أجاب سيدي محمد المفضل غرنيط على هاي برسالة مؤرخة في 3 يوليوز قال فيها ان المولى الحسن قد أمره بالقول بأن رحيل هاي عن المغرب قد سبب له أشد الحزن والأسى فالسلطان يعتبر هاي من أخلص أصدقائه وهو يرسل له امتناناته على كل ما فعله ويؤكد له بأنه سوف يلقى كل ترحيب في الزيارة الخاصة التي ينوي القيام بها إلى القصر .

وفي طنجة استقبلت الجالية اليهودية أنباء اعتزال هاي بأسف شديد وعبر مشايخها عن اساهم لذلك . كما انهم شكروه بحرارة على ما كان يبديه دائما من اهتمام بخير اليهود المغاربة على وجه العموم . وقد اعلن مشايخهم ان ما أبداه في عديد من المناسبات من انسانية وروح خيرة تجاه اليهود لا يمكن نسيانه البتة .

كما عبر الرعايا البريطانيون في طنجة عن عظيم تقديرهم لخدمات هاي بأن ارسلوا له خطابا موقعا منهم يعبرون له فيهم عن اجلالهم العظيم وعما يشعرون به من أسف لرحيله . وقد قام ثمانية من كبار الشخصيات البريطانية في المدينة بتقديم الدليل على مشاعرهم عندما تولوا في 14 يوليوز عام 1886 التجذيف بالقارب الذي حمل هاي إلى السفينة المنتظرة في الخليج لتقله إلى انجلترا .. وقبل ذلك صحب كل الديبلوماسيين الأجانب وأسرهم سير جون إلى الميناء حيث كان حاكم طنجة ونائب السلطان للشئون الخارجية وعدد من كبار الشخصيات المغربية في انتظار الوزير البريطاني بأزيائهم الوطنية لأداء مراسم الوداع . كما اتخذ عدد من المقيمين في طنجة مواقعهم في قوارب في الخليج بامتداد المسافة بين رصيف الميناء

Ibid (43)

وبين الباخرة التي سيستقلها . وبينما كان رفاق هاي الثمانية في القارب يجذفون ببطء متجهين إلى الباخرة كانت تنطلق تحيات الوداع بالتوالي كلما مروا بأحد تلك القوارب .

وهكذا تم الخروج الرسمي للسير جون درمندهاي من على مسرح الحياة المغربية بعد واحد وأربعين عاما من تكريسه نفسه لخدمة بلاده أو لخدمة البلاد التي كان يمثلها لديها . ولقد احتل مكانته المتقدمة بين الديبلوماسيين الأجانب في المغرب بسبب أمانته وصراحته واخلاصه لبلاده ولحبه للمغرب وفهمه له . ولم يحدث بعد ذلك أن نال ممثل بريطاني كل ذلك الحب والتقدير من المغاربة ، ولم يحدث أيضا ان حظيت نصائح البريطانيين بما حظيت بها نصائحه في البلاط الشريفي .



الفصل التاسع

الجـــزر والمـــد

المخاوف من الخطر الفرنسي :

بعث الوزير البريطاني الجديد في المغرب وليم كيربي جرين الذي تولى مهام منصبه في 7 اكتوبر عام 1886 بمكاتبة طويلة إلى وزير الخارجية اللورد ايدسلييه ذهب فيها إلى التأكيد بأنه إذا لم تحدث معجزة فإن المغرب سوف يسقط في يد فرنسا. وكان هناك عديد من الأسباب وراء مخاوفه ، فمن ناحية بدأت بعض الصحف الفرنسية سواء تلك التي تصدر في فرنسا أو في الجزائر تطالب بالحاح بفرض السيطرة الفرنسية على المغرب سواء من خلال الحماية أو من خلال غيرها ، من ناحية أخرى كان هناك ذلك التوسع الفرنسي من الجزائر والذي استمر في التقدم تجاه الصحراء جنوبا مما كان يؤدى إلى نزاعات حتمية مع المغرب حول الحدود وهي نزاعات يمكن استخدامها أي وقت كذريعة لغزو املاك السلطان ، وأخيرا فقد استخدم الفرنسيون كل ما يملكون من وسائل لزيادة نفوذهم في المغرب . مثل على ذلك مدهم لحمايتهم على شريف وزان واتباعه ورفعهم لوضعية مستشاريهم العسكريين ممن ضغطوا على السلطان ليصبحوا بعثة عسكرية لديه.

وكان المولى الحسن متنبها تماما للخطر الذي يواجه بلاده ، وقد أصدر تعليماته إلى سيدي محمد المفضل غرنيط ليكتب إلى كُرين يطلب منه أن تقوم كل الدول العظمى ذات العلاقات السياسية والتجارية مع المغرب باصدار تصريح بضمان حياد المغرب كالحال بالنسبة لبلجيكا . وجاء رد كُرين في 7 شتنبر عام 1887 ، وبناء على تعليمات وزير الخارجية ، بأنه لا يمكن اصدار مثل هذا التصريح قبل اجراء

الاصلاحات التي تؤدى إلى استقرار أحوال المغرب ، ذلك أن الفوضى الداخلية قد تؤدى إلى تدخل احدى الدول الأجنبية .

القنصل الجديد في مراكش 1887 :

وفي أبريل عام 1887 وصل كرين إلى مراكش لتقديم أوراق اعتماده ، وحظي هناك بلقاء عام حضره المولى الحسن في 20 أبريل . وجرت الإشارة خلال الاحتفال بالصداقة الوطيدة التي تربط بين بريطانيا والمغرب ؛ وقد أدخل كرين السرور الى قلب السلطان عندما أهدى عددا من الأفراس الشيتلاندية الصغيرة إلى واحد من أقرب ابناء السلطان وكان صبيا يبلغ من العمر ثمانية أعوام . وبعد أن عاد الوزير البريطاني إلى طنجة كتب إلى سيدي محمد المفضل غرنيط في غشت عام 1887 يؤكد على علاقات المصالح المتبادلة اللي ظلت تربط بين بريطانيا والمغرب لعصور عديدة . وقال كرين ان جانبا كبيرا من الأمان الذين تمتع به المغرب فيما مضى إنما يعود إلى اعتراف الدول الأجنبية بالمصالح المشتركة التي ظلت تربط بين بريطانيا والمغرب مما دعا تلك الدول إلى أن تتصرف بحذر تجاه المغرب . وأعلن كرين بأنه لا يمكن تقوية مثل هذا الأمان ببذل جهود لا جدوى منها للحصول على ضمان دولي باستقلال المغرب وحياده . وختم رسالته بقوله انه من الأفضل ان يحتفظ المغرب بسياسته التقليدية القائمة على الاعتماد على بريطانيا العظمى .

تآكل مركز بريطانيا :

ولم يكن لنصائح كرين نفس الأثر الذي حظيت به نصائح سلفه سواء بالنسبة للسلطان أو بالنسبة لوزرائه . وقد بدا واضحا بعد وقت قصير انه بعد رحيل سير جون لم يعد المولى الحسن راغبا في الاعتماد على نصائح البريطانيين أو معونتهم كما كان الحال من قبل وانسحب ذلك على ما لقيه من مصاعب مع الفرنسيين . ففي 25 يناير عام 1887 كتب كرين تقريرا إلى وزير الخارجية اللورد سولسبري جاء فيه ان السلطان قد وافق على أن يؤجر للفرنسيين منطقة بالقرب من فجيج وانه قد أعطى تصريحا بإقامة سوق بالقرب من وجدة يكون مسئولا عن اجراءات العدلية به موظفان ، أحدهما فرنسي والآخر مغربي .

وقد شكا كرين أن المولى الحسن قد اتخذ هذه القرارات الخطيرة دون استشارته أو ابلاغه قبل اتخاذها مخالفا بذلك التعهد الذي كان قد قطعه على نفسه للسير جون درمندهاي . وكان هذا الوعد يقضي بوجوب استشارة السلطان للوزير البريطاني في المغرب بالنسبة للمشاكل التي تنشأ حول الحدود مع الجزائر . ومع ذلك أضاف كرين بأن « مصدره » قد أبلغه بأن السلطان اقترح في الحقيقة طلب النصيحة البريطانية بشأن المطالب الفرنسية غير ان الوزراء قد نصحوا بعدم تنفيذ الاقتراح . فقد اعتقد هؤلاء أن بريطانيا تستطيع معونة المغرب في البحر أما في البر فإن لفرنسا جيشا هائلا في الجزائر متحفز للانقضاض في أية لحظة .

وفي خطاب كتبه كرين إلى اللورد سولسبري في 25 يناير عام 1887 شرح من هو « مصدره ». قال انه سيدي بوبكر مندوب سير جون درمندهاي الذي قرر استمرار التعامل معه . وأضاف كرين بأنه لم يذكر سيدي بوبكر بالاسم في الخطاب السابق حتَّى يتجنب احتمال ذكر الاسم في أي احتجاج قد ترى حكومة جلالتها وجوب تقديمه إلى حكومات أخرى ، وسجل كرين ما نصه :

« سوف تتضاءل قيمة هذه البعثة إذا علم على نطاق واسع بما أجنيه من فائدة من تواجده في القصر المغربي ودوره في ابلاغي بما يجرى هناك[1] »

المذكرة الثلاثية :

ساور القلق الحكومة البريطانية لعزوف السلطان عن استشارتها فيما يتصل بعلاقاته الأخيرة مع الفرنسيين ، دعاها ذلك إلى اصدار التعليمات إلى كيربي كرين للتشاور مع زميليه الاسباني والإيطالي في طنجة والحصول على موافقتهما بتقديم مذكرة ثلاثية إلى السلطان . وقد قبلت الحكومتان الأسبانية والإيطالية الاقتراح وتم إرسال المذكرة بالفعل في 12 مارس عام 1887 وجاء فيها أن التعليمات قد صدرت إلى الوزراء الثلاثة من حكوماتهم وهي تقضي بتنبيه السلطان بأن هدفها الأساسي هو الحفاظ على استقلال المغرب ووحدة أراضيه . وكان مفروضا أن السلطان سيرحب بالمزايا

(1) F.O. 99/241

التي يمكن الحصول عليها من قبول ما تعرضه عليه تلك الدول ، ومن ثم فقد طلب ممثلوها من جلالته الشريفة التعهد رسميا بأنه لن يوافق في المستقبل على تقديم أية تنازلات اقليمية دون التشاور المسبق مع ممثلي الحكومات الصديقة الثلاث.

وفي أبريل عام 1882 سافر كرين إلى مراكش وهناك وفي 15 من نفس الشهر عقد اجتماعاً خاصاً مع السلطان وسأله عما إذا كان قد نظر في المذكرة الثلاثية . ورد السلطان على ذلك بانه قد أرسل نص المذكرة لبعض مستشاريه الموثوقين لابداء رأيهم فيها وأضاف بأنه ما ان يتلقى هذا الرأي حتى يبعث برده على المذكرة . ومرة أخرى يرى كرين السلطان في 30 أبريل في اجتماع خاص ويحثه على سرعة الرد غير أن جهوده في هذا الشأن ذهبت أدراج الرياح.[2]

عودة لقضية رأس جوبي :

ووجد كرين السلطان في نفس الحالة الذهنية بالنسبة لموضوع المستعمرة التي أقامتها شركة شمال غرب افريقيا في رأس جوبي . ذلك انه كانت قد وصلت في يونيه عام 1886 قوة تابعة للسلطان بالقرب من المركز التجاري وأجبرت رجال القبائل المحيطين به على التوقف عن أي تعامل معه . وفي نفس الوقت تم نهب عدد من مخازن البضائع كانت الشركة قد أقامتها على البر مما دعا مدراء الشركة إلى اصدار التعليمات لوكلائها في رأس جوبي بنقل كل البضائع إلى قلعة كانت قد تمت إقامتها على صخرة متاخمة للشاطئ كان يعيش فيها رجال الشركة لأسباب تتعلق بالأمن . وعلى ضوء ما حدث طالب المدراء الحكومة البريطانية بارسال سفينة حربية إلى رأس جوبي لحماية أرواح التجار وممتلكات الشركة.

وقد تم إرسال السفينة الناكور إلى رأس جوبي استجابة لمطلب المدراء حيث وصلته في 16 يوليوز عام 1886 وقد وجدت أن أي خطر على الأرواح أو الممتلكات قد انتهى مما ادى إلى اقفالها عائدة في 22 من نفس الشهر. ومع ذلك فقد طالب مدراء الشركة الحكومة البريطانية بتقديم الحماية الدائمة للمركز التجاري

---

(2) في رسالة بعد ذلك بوقت مؤرخة في 27 فبراير 1890 أشار كرين بأن السلطان قد أعلن أخيرا بأنه مرتبط بالمذكرة F.O. 99/279

سواء باعلان الحماية على الأراضي الواقع فيه أو بضمها كلية . وقد رفض ورير الخارجية اللورد ايدسلييه اتخاذ أية خطوة من هذا النوع ، وسجل هذا الرفض في خطاب أرسله إلى المدير العام للشركة وجاء فيه :

« ظلت حكومة جلالتها حتَّى الآن تعترف بأن وادي درعة يمثل الحد الجنوبي للمغرب على اعتبار أن السلطان لم يمتد بنفوذه إلى جنوب تلك النقطة ، غير أنها لا تستطيع أن تنازعه حقه في مد حدوده حربا أو سلما أو في اخضاع الرؤساء الذين تمردوا من قبل على سلطانه وهو ما يبدو أنه يفعله الآن »[3]

نتيجة لهذا الرفض حاول مدراء الشركة التفاوض مع السلطان وبعد استئذان الحكومة البريطانية أرسلوا فعلا مستر فيرجسون ممثلا لهم إلى مراكش في مارس عام 1887 ولم تجد السلطات المغربية ما تبحثه مع المبعوث وأبلغته انه سيتم بحث مسألة رأس جوبي مع الوزير البريطاني . وعندما عقد كرين اجتماعا خاصا مع السلطان في أبريل طرح الموضوع وأشار إلى أن وجود مركز تجاري لشركة شمال شرق افريقيا مفروض ألا يسبب أي ازعاج للمغاربة بالعكس فإنه يفيد جدا في منع أي تعدٍّ اسباني على تلك المنطقة .[4]

وكانت استجابة السلطان تجاه إشارة كرين سلبية تماما مما يتضح مما رواه الوزير في مكاتبته إلى اللورد سولسبري المؤرخة في 7 ماي عام 1887 قال :

«كانت الإجابة التي تلقيتها من الجفاف حتى اني رأيت من اللياقة عدم الاسترسال في المباحثة في هذا الأمر»

ومع ذلك فقد عادت مسألة رأس جوبي إلى الاحتدام في مارس عام 1888 وذلك حين قتل الجنود المغاربة مدير المركز التجاري وجرحوا اثنين من رجاله الذين كانوا قد تركوا القلعة وتجرأوا على النزول إلى الشاطئ . وما ان وصلت تلك الأخبار إلى لندن حتَّى صدرت التعليمات إلى السفينة الحربية فالكون لمغادرة جبل طارق

(3) F.O. 99/262

(4) أعلنت الحكومة الاسبانية في 26 دجنبر عام 1884 عام وقوع المنطقة بين رأس بلانكو ورأس بوجادور تحت الحماية الاسبانية.

والذهاب إلى رأس جوبي واتخاذ الاجراءات اللازمة . غير أنه عند وصول السفينة إلى مسرح الحادث كانت القوة المغربية قد رحلت ومن ثم لم يجد رجالها من عمل سوى تدعيم تحصينات القلعة. وعادت السفينة بعد ذلك إلى جبل طارق.

وفي 21 أبريل عام 1888 بعث كرين باحتجاج إلى سيدي المفضل غرنيط وجاءه الرد بأن السلطان قد أمر باجراء تحقيق حول حادث الهجوم على رأس جوبي . وفي تلك الأثناء كان مدراء شركة شمال غرب افريقيا قد تأثروا من عمل السلطان الأخير الذي يؤكد على تصميمه بعدم الاعتراف بادعاء اتهم مما دعاهم إلى ابلاغ وزير الخارجية اللورد سولسبري في 4 ماي عام 1888 بأنهم على استعداد للانسحاب من رأس جوبي ونقل حقوقهم وأملاكهم إلى السلطان في مقابل أن يدفع هذا تعويضا مناسبا .

وكان سولسبري من ناحيته قد أرسل في 2 ماي يسأل المستشارين القانونيين للتاج عما إذا كان لشركة شمال غرب افريقيا حق قانوني في طلب معونة حكومة جلالتها وعما إذا كان من حق الحكومة قانونا أن تصر على الحصول على تعويض مناسب من السلطان عن الخسائر التي لحقت بالشركة . وجاء رد المستشاوين القانونيين المؤرخ في 29 ماي على النحو الآتي :

« في رأينا أنه ليس من حق حكومة جلالتها مساندة ادعاء الشركة بأن وكالتها لا تخضع لقضاء سلطان المغرب وسيادته . ومع ذلك فإن من حق الشركة طلب حماية حكومة جلالتها في مواجهة الاعتداء بالعنف على أشخاص وممتلكات تلك الوكالة ولكن ليس من حقها أن تنازع سلطان المغرب في تنظيمه لشئون تجارة بلاده بشكل لا تراعى فيه مصالح الشركة . وفي رأينا أنه بالامكان رفع الاحتجاجات للسلطان ومطالبته باجراء التحقيق اللازم وتوقيع العقاب « طالما دعت الحاجة إلى ذلك ».[5]

وفي 8 نوفبر عام 1888 أصدر سولسبري تعليماته إلى سير وليم كيربي كرين[6] للضغط بشدة لانزال العقاب بقتلة مستر موريس مدير الشركة في رأس

---

(5) F.O. 99/263

(6) حصل كرين على لقب فارس في 21 يونيه 1887

جوبي وبطلب تعويض مالي عما لحق بالشركة من خسائر . وقد طالبت مذكرة كرين المرفوعة للحكومة المغربية في 10 نوفمبر عام 1888 بتعويض عن موت موريس وجرح زميليه كما طالبت بمبلغ قدره خمسين ألفا من الجنيهات مقابل الخسائر التي لحقت بمتاجر شركة شمال غرب افريقيا . وجاء رد سيدي المفضل غرنيط في 4 ربيع آخر عام 1306 (9 دجنبر عام 1888) وافق فيه على دفع تعويض لأرملة موريس وللرجلين الجريحين ، وقال ان هذه الموافقة ليست أكثر من علامة على حسن النية حيث ترى الحكومة المغربية أنها ليست ملزمة قانونيا بعمل ذلك . اما فيما يتصل بمبلغ الخمسين ألفا من الجنيهات التي تطلبها الشركة تعويضا عن الخسائر التي لحقت بها فقد رأى السلطان أنه ينبغي بحث المسألة في لندن حيث يرسل مبعوث مغربي خصيصا لانجاز هذه المهمة.

ولم تحبذ الحكومة البريطانية اقتراح السلطان الأخير وانتهى الأمر بأن دفعت الحكومة المغربية في 9 أبريل عام 1889 مبلغ 25 ألف ريال (حوالي خمسة آلاف جنيها) تعويضا إلى كل من أرملة المستر موريس والانجليزيين الآخرين اللذين جرحا في رأس جوبي . أما فيما يتصل بمبلغ ألـ 000 ، 50 جنيها فقد أبلغ السلطان كرين في اجتماع خاص عقداه في 30 شتنبر عام 1889 انه يرى مبالغة في تقدير هذا المبلغ واقترح أن يدفع إلى شركة شمال غرب افريقيا 30 ألفا من الجنيهات في مقابل انسحابها الكامل من رأس جوبي .

وبعد عدة اجتماعات في وزارة الخارجية بين اللورد سولسبري ومدراء الشركة قبل هؤلاء أخيرا بنصيحة وزير الخارجية باتفاق يقضي بأن يحصلوا على موافقة السلطان بدفع ما قيمته 8٪ على كل البضائع التي يستوردونها بهدف التجارة وعندما قدم كرين الاتفاق المقترح للسلطان كان الأخير ميالا لقبوله ولكنه أشار إلى أن التجار في سائر المواني المغربية يدفعون 10٪ على البضائع المستوردة وانه لو صرح لشركة شمال غرب افريقيا برسم قدره 8٪ فإن سائر التجار الأجانب سوف يطالبون بنفس الامتياز مما سيترتب عليه انخفاض خطير في ايراداته إذا ما تمت الاستجابة إلى هذا المطلب . وأدى الخلاف حول هذه المسألة ، تقدير الرسم الذي ينبغي أن تدفعه شركة شمال غرب افريقيا ، إلى اخفاق المفاوضات وبقيت مسألة علاقة هذه الشركة برأس جوبي

من المسائل التي تبعث بالاضطراب في العلاقات الانجليزية المغربية لبضع سنوات أخرى .

استعراض السلطان للأسطول البريطاني :

في شتنبر عام 1889 صدرت تعليمات المولى الحسن إلى وزير خارجيته سيدي المفضل غرنيط يطلب منه ابلاغ سير وليم كيربي كرين بأن السلطان سوف يقوم بعد وقت قصير بزيارة إلى طنجة وبأنه يرغب في مشاهدة استعراض يقوم به الأسطول البريطاني في الخليج . وقال غرنيط ان مثل هذا الاستعراض يؤكد استمرار التحالف القديم والوثيق بين بريطانيا العظمى والمغرب ، ليس للمغاربة فقط بل للممثلين الأجانب في طنجة أيضا.

غير أن الأسطول البريطاني كان لسوء الحظ متجمعا آنئذ في لمنوس في البحر المتوسط ، وبالرغم من ذلك وبهدف إرضاء السلطان فقد تم إرسال طرادين سريعين هما فايتون وفيرليس اللذين وصلا إلى طنجة في 24 شتنبر عام 1889 ، بعد يومين فقط من وصول السلطان . وفي اليوم التالي تم استقبال عدد من كبار وزراء السلطان على متن فيرليس ، وفي 30 شتنبر تم تقديم قباطنة وضباط الطرادين إلى المولى الحسن في اجتماع خاص وقامت فصيلة من بحارة وجنود فايتون باجراء استعراض خاص أمام السلطان في 3 أكتوبر. وقد وصف سير وليم كيربي هذا الاستعراض في كتاب أرسله إلى اللورد سولسبري في 4 أكتوبر قال فيه :

« بناء على طلب السلطان الذي ابلغته إلى الكابتن سان كلير قائد فايتون نزل عصر أمس بصحبة مائة وخمسة وعشرين من بحارته وجنوده ومعهم مدفع ميدان للقيام باستعراض أمام جلالته حيث انه كان تواقا للتعرف على طريقة القيادة العسكرية الأوربية . وقد سبب مرور مدفع الميدان بصحبة الانجليز الموفوري الصحة في شوارع طنجة الضيقة صخبا كبيرا . ولم تكن أرض الاستعراض التي اختارها السلطان مناسبة تماما لآية مناورات عسكرية حيث كانت منحدرة عند سور المدينة بزاوية تصل إلى 45 درجة ، غير أن جلالته كان راغبا في أن تشاهد الحريم العرض وكن قابعات في دار قائمة على قمة المنحدر . وقد امتلأت الساحة بعدد كبير من القوات المغربية النظامية المختارة بالاضافة إلى كافة موظفي القصر الذين تجمعوا

للمشاهدة . وكان على القوات المغربية أن تعيد كل تدريب يقوم به البحارة والجنود الانجليز ، ومما علمته ان السلطان قد سر كثيرا لما وجد أن الكابتن ماكلين[7] قد درب رجاله بما يتوافق تماما مع النظام العسكري الانجليزي . وقد شاهد المولى الحسن كل العرض من نافذة في دار الحريم حتّى انه لما أوشك العرض على الانتهاء أرسل يطلب اطالته بعض الشيئ فأصدر الكابتن سانت كلير أوامره إلى رجاله لاكتساح تل من المفروض ان العدو يحتله . وكان أهم ما يميز استعراض العشية اندفاع الجنود الانجليز وصياحهم اثناء تنفيذ العملية . ولبعض الوقت لم يعرف المغاربة الذين كانوا غير متهيئين لمشاهدة ذلك ، ما إذا كان الانجليز ينفذون العملية بجد أو من قبيل المناورة. وقد علمت فيما بعد أن السلطان قد عبر عن رأيه بأن الانجليز يتميزون بالصلابة والقوة أكثر من رجال قواته الأقل وزنا والأكثر رشاقة والذين جاءوا أساسا من العناصر العربية في امبراطوريته وانه بالامكان ان يزداد عديد منهم حجما وقوة إذا ما تمت تغذيتهم وحصلوا من العناية على ما يحصل عليه الجنود البحارة من الانجليز.[8]

محاولة تسوية مشكلة رأس جوبي :

خلفت زيارة السفينتين الحربيتين البريطانيتين أثرا عميقا في نفس المولى الحسن . ذلك أنه عقد في 7 أكتوبر وقبل أيام قليلة من مغادرته لطنجة ، اجتماعا خاصا مع السير وليم كيربي كرين وأبلغه بأنه مصمم على بذل كل مافي طاقته لتقوية علاقات الصداقة القديمة التي أعرب عن أمله بأنها لازالت قائمة بين المغرب وبريطانيا العظمى . وقد عزيت الروح الودية التي أبداها السلطان الى براعة كرين بالأساس وإلى فهمه للطرق والعادات المغربية ، دفع ذلك الوزير البريطاني تحدوه روح من التفاؤل إلى القيام بزيارة للسلطان في مراكش بعد فترة قصيرة . وكان الهدف الأساسي من وراء هذه الزيارة التوصل إلى اتفاق حول مشكلة رأس جوبي ، وقد وافق السلطان بعد مفاوضات طويلة على أن يدفع لشركة شمال غرب افريقيا خمسين ألفا من الجنيهات على خمسة أقساط سنوية قيمة كل قسط عشرة آلاف من

(7) بعد أن استخدم السلطان هاري ماكلين استخدم أيضا أخاه كابتن الان ماكلين كمدرب للقوات المغربية النظامية.

(8) F.O. 99/265

الجنيهات كتعويض لما أصاب مؤسساتها ومتاجرها من خسائر ، ومع ذلك وبالرغم من كل المحاولات عجز كرين عن التوصل إلى تسوية المشكلة الأساسية وبقيت مسألة حق الشركة في البقاء في رأس جوبي دون حل .

وفاة سير كرين :

وبعد أربعة أيام من الحصول على موافقة السلطان على دفع التعويض لشركة شمال غرب افريقيا لقي سير وليم كرين نهايته بشكل مأسوي ذلك أنه قد توفي فجأة نتيجة لانفجار في شرايين المخ. وجاء في تشخيص الطبيب الانجليزي المصاحب لبعثة كرين إلى مراكش ان شدة الارهاق والتوتر قد اديا إلى الانفجار شرايين المخ مما لايدع مجالا للشك بأن سير وليم كيربي قد توفي شهيدا للواجب ذلك أن المفاوضات التي قام بها كانت مجهدة للغاية وقد سبق له أن شكا للطبيب في 11 فبراير من آلام في رأسه وبالرغم من ذلك فقد استمر في المفاوضات مما نتج عنه انفجار شرايين المخ والموت المفاجئ.

وقد نقل جثمان سير وليم من مراكش إلى مازاكان من حيث نقلته السفينة الحربية البريطانية رودني إلى طنجة حيث تم دفنه في جبانة المسيحيين في 2 مارس عام 1891 وقد حضر الجنازة الحاج محمد طوريس مأمور الشئون الخارجية في طنجة والقائم بأعمال حاكم طنجة واعضاء السلك الدبلوماسي والسير جون درمندهاي وجميع ابناء الجالية البريطانية في المدينة . وقد تقدم موكب الجنازة فصيلة من القوات المغربية يتبعها اثنان من الرسميين المغاربة ، وسارت وراءهم قوة من رجال السفينة رودني من البحارة والجنود . وجاء الجثمان أخيرا ملفوفا بالعلم البريطاني ومحمولا على عربة مدفع يقودها بحارة بريطانيون وقد سار على جانبي العربة أعضاء من السلك الديبلوماسي .

القنصل الجديد

وقد خلف سير شارلز ايوان سميث سيروليم كربي كرين في منصبه ، وقد تولى مهامه لدى وصوله إلى طنجة في 3 دجنبر عام 1891 وكان قد تلقى التعليمات للقيام بمهام منصبه يوم 16 ماي من نفس السنة . تضمنت تلك التعليمات بأن عليه بذل

كل جهد للحفاظ على حسن التفاهم مع السلطان ووزرائه والعمل على التوصل إلى حل مرض بشأن مسألة رأس جوبي على أسس من اعتراف حكومة جلالتها بسيادة السلطان على تلك المناطق في مقابل ضمان امتيازات تجارية وتعدينية لشركة شمال غرب افريقيا. كما تضمنت نفس التعليمات أن يعمل على مواجهة مشكلة الحماية بقدر الامكان وأخيرا العمل بالتفاهم مع زملائه من رجال السلك الدبلوماسي على حث السلطان على قبول التعديلات التي اقترح سيرجون درمندهاي ادخالها على الاتفاقية التجارية عام 1886.

هدية الفيل :

وكانت الملكة فيكتوريا، قبل وفاة سيروليم كيربي كْرين بفترة قصيرة قد وعدت باهداء المولى الحسن فيلا هنديا وقد وصل الحيوان المسمى «ستوك» من جبل طارق إلى طنجة في غشت عام 1891 في رعاية فيال هندي وبصحبة الكابتن انكلفيلد الذي تولى مسئولية تأمين سلامة ستوك وتوصيله إلى السلطان. وما ان سمع المولى الحسن بوصول الحيوان حتّى أرسل القايد ماكلين واثنين من الموظفين المغاربة إلى طنجة للانضمام إلى الكابتن انكلفيلد وحراسة الفيل إلى معسكر السلطان الذي كان في طريقه آنئذ إلى مكناس. وبعد مغامرات لاتصدق من عبور للانهار واختراق للطرق غير المباشرة وصل أخيرا الفيل مع حراسه إلى معسكر السلطان، وفي حفل كبيرا اهدى الكابتن انكلفيلد ستوك إلى المولى الحسن وقام القايد ماكلين بدور المترجم بين الرجلين. وقد كتب ماكلين بعد ذلك تقريرا إلى القنصل هوبرت هوايت الذي كان قائما باعمال البعثة الديبلوماسية في طنجة قبل وصول سير تشارلز ايوان سميث، قال انه لم يشاهد السلطان من قبل مهتما بشيء أو يضحك من اعماقه بهذا الشكل كما حدث عندما رأى ستوك.

انطلاقا من السرور بالهدية فما ان علم المولى الحسن بوصول سير تشارلز ايوان سميث إلى طنجة حتّى أرسل سيدي بوبكر ليبلغ الوزير الجديد برغبة السلطان في أن يقوم بالاتصال به شخصيا في أقرب وقت وكذا بنفس الرغبة في الاحتفاظ بأوثق علاقات الصداقة معه ويتلمسه للنصح والعون مما لقيه هو وأبوه وجده من سير جون

درمندهاي في كل وقت . وقد كتب إيوان سميث في تقرير إلى اللورد سولسبري مؤرخ في 28 دجنبر عام 1891 عن سيدي بوبكر

« جاء ذلك المغربي المرموق ، والذي اعترف به دائما كوكيل لبريطانيا في البلاط المغربي ، جاء إلى طنجة منذ ثلاثة أيام بهدف زيارتي ... وهو رجل ذو هيئة رائعة أقرب إلى تمثال براهما الهندي منه إلى مغربي من مناطق البربر المغربية ، وهو على ذكاء حاد بلا ريب كما انه على مقدرة كبيرة على وجه اليقين ، وهو يمارس ، لسبب أو لآخر ، نفوذا كبيرا على السلطان وعلى الشخصيات الكبيرة المحيطة به ، ويؤكد لي سير جون هاي انه بامتداد السنوات الطويلة التي تعامل خلالها مع الرجل لم يقدم له معلومة زائفة أو ضارة بالمصالح البريطانية .... »[9]

اشاعة الاتفاق الانجليزي — الفرنسي :

بدا واضحا ما أصبحت تتعرض له علاقات الصداقة التقليدية بين انجلترا والمغرب من ضغوط في الخطاب الذي أرسله سيدي بوبكر إلى القنصل هوايت في طنجة والمؤرخ في 9 شتنبر عام 1891 . قال سيدي بوبكر انه تسرى اشاعة في البلاط السلطاني بأن الفرنسيين والبريطانيين قد عقدوا فيما بينهم صفقة « يترك لفرنسا بمقتضاها حرية التصرف في تافيلالت وتوات في مقابل الاعتراف الفرنسي بالسيطرة البريطانية على زنجبار ، وقد أبدى السلطان اهتماما كبيرا بهذه الاشاعة التي وصلته من عدد من الممثلين الأجانب .

ولم يمض وقت طويل حتّى تأكد ما جاء في تقرير سيدي بوبكر وذلك حينما كتب سيدي المفضل غرنيط خطابا إلى هوايت في 22 صفر عام 1309 (27 شتنبر عام 1891) يبلغه فيه أن السلطان قد طلب منه سؤال هوايت عن صحة ما وصل إلى السلطان من توصل الحكومة البريطانية إلى اتفاق مع الفرنسيين حول أمور معينة تضمنت ترك المغرب لفرنسا وان السلطان قد اندهش كثيرا غير أنه رفض التقرير لثقته في استمرار صداقة حكومة جلالتها . وكان مصدر الاشاعات التي أشار إليها سيدي المفضل غرنيط هو التصريح الانجليزي — الفرنسي الصادر في لندن في 7

(9) F.O. 99/280

غشت عام 1890 . وقد اعترفت فرنسا بمقتضى هذا التصريح بالحماية البريطانية على زنجبار وممباسا في مقابل اعتراف بريطانيا بالحماية الفرنسية على مدغشقر ، كذا اعترافها بمنطقة نفوذ فرنسية في افريقيا تقع جنوبي الأراضي الفرنسية المطلة على البحر المتوسط وتصل إلى خط يمتد من نقطة على نهر النيجر الى باروا على بحيرة تشاد .

الأطمـاع الفرنسيـة :

وكان السلطان آنئذ مهموما من الأطماع الفرنسية في الأراضي التي يعتبرها قسما من املاكه . وقد كتب الحاج محمد طوريس إلى القنصل هوايت في 15 ربيع آخر عام 1309 (18 نوفبر عام 1891) يبلغه بما اعلنه الفرنسيون من نيتهم على انزال العقوبة بسكان توات لاغتيالهم للضابط الفرنسي الكولونيل فلاترز . وقال الحاج محمد طوريس ان الفرنسيين قد طلبوا من السلطان عدم التدخل في هذا الأمر ولكن لما كان المولى الحسن يعتبر توات قسما من الممتلكات الشريفة فقد رفض التسليم بحقه .

ووصلت هذه المكاتبة إلى طنجة مع وصول سير تشارلز ايوان سميث إلى المدينة لتولى مهام منصبه ، من ثم فقد قام بالرد على الحاج محمد طوريس في 19 دجنبر عام 1891 وقد نصحه بابلاغ السلطان بمطالبة الفرنسيين بتبرير ادعاءاتهم على كل من توات وتديكلت . ومما لاشك فيه أن ايوان سميث رأى عدم الاستفاضة في النصيحة حيث انه كان يتأهب للقيام بزيارته الأولى للبلاط ليقدم أوراق اعتماده ، ورأى أنه يستطيع عندئذ أن يقدم النصح التفصيلي للسلطان بنفسه.

اقتراح بوقف استخدام أبوبكر :

غير انه قبل التوجه إلى البلاط وصل إيوان سميث خطاب من محمد طوريس مؤرخ في 30 رجب عام 1309 (29 فبراير عام 1892) يبلغه فيه باقتراح للسلطان بالتوقف عن استخدام سيدي بوبكر كوسيط بين البعثة البريطانية وبين القصر . وقد كتب سير تشارلز ايوان سميث إلى اللورد سولسبري في 14 مارس عام

1892 يبلغه باقتراح السلطان . وكان مما ابلغه لوزير الخارجية في هذا التقرير أن المولى الحسن لازال يستقبل سيدي بوبكر في لقاءات يومية خاصة ويعقد معه محادثات طويلة ، كما انه يتلقى المراسلات الخاصة من السلطان عن طريق سيدي بوبكر . وأضاف ايوان سميث بأنه قد علم أن الفرنسيين الذين دبت الغيرة في قلوبهم من وجود وسيلة خاصة للاتصال بين السلطان والانجليز هم الذين طالبوا بوقفها . ولما كان من الصعب تعويض الخدمات القيمة التي يقدمها سيدي بوبكر إلى الوزير البريطاني فقد أبلغ سير تشارلز ايوان سميث الحاج محمد طوريس في كتاب مؤرخ في 7 مارس باعتذار حكومة جلالتها عن قبول الاقتراح.

زيارة القنصل الجديد لفاس :

في 27 أبريل عام 1892 غادر سير تشارلز طنجة قاصدا فاس التي وصلها في 12 ماي حيث كان في انتظاره الموكب المعتاد وتم استقباله في الاحتفال الذي استمر الحكام المغاربة يقيمونه للبعثات الأجنبية ، وقد استقبله المولى الحسن المقابلة العامة ذات الطابع التقليدي الخلاب في 14 ماي.

وكان في جعبة ايوان سميث عدد من المسائل ليبحثها مع السلطان ووزرائه ، كان منها المشاكل الشائكة المتصلة برأس جوبي واعادة النظر في المعاهدة التجارية وكان ايوان سميث ذا طابع مختلف عن سلفه فهو من ناحية كان نافذ الصبر ، وهو من ناحية أخرى لم يكن على المام كاف بطبائع المغاربة وحساسياتهم مما لم يؤهله لمواجهة الصعوبات القائمة . وقد كتب في 31 ماي عام 1892 إلى اللورد سولسبري يبلغه بأنه لم يحرز تقدما يذكر مع أنه قد عقد مع السلطان أربع جلسات زاد كل منها عن الساعتين.

وكان الجو المحيط يؤكد أن بعثة سير تشارلز ايوان سميث إلى فاس منهية إلى فشل ذريع . وقد تفجر سبب من اسباب المتاعب مما فعله الوزير من تعيين تاجر اسكتلندي في فاس يدعى ماكيفر ماكلويد « نائبا للقنصل في المدينة بدون راتب » اعتبارا من 7 يوليوز عام 1892 وكان سير وليم كيربي قد اقترح فكرة تعيين نائب قنصل في فاس في كتاب له إلى اللورد سولسبري مؤرخ في 27 ماي عام 1890

متذرعا في ذلك بزيادة عدد التجار البريطانيين المتواجدين بها والسياح البريطانيين الذين يقصدونها وكان اللورد سولسبري قد وافق على الاقتراح بتعيين ماكلويد . غير أنه ترتب على هذا التعيين رد فعل غير متوقع من جانب السلطان وهو ما سجله ايوان سميث في تقرير له إلى وزير الخارجية مؤرخ في 27 يوليوز عام 1892 ... قال :

« في أول الأمر كان السلطان ووزراؤه ميالين لتقييد حق حكومة جلالتها بتعيين موظفين قنصليين في أي مكان بالمغرب . وقد اظهروا جهلا مطبقا بشروط المعاهدة العامة المعقودة عام 1856 والتي يبدو ان السلطان لم يقرأها على الاطلاق ، ولما ابلغته انه لحكومة جلالتها بمقتضى تلك المعاهدة حق تعيين القناصل في اية مدينة بالمغرب وأكثر من ذلك أن لكل قنصل الحق في رفع العلم البريطاني على سطح داره ، بل وتخصيص مكان له للعبادة ، صرحوا بأنه قد تم ابرام تلك الشروط في وقت كان بالامكان كفالة الأمن بالنسبة لهؤلاء اما الآن فالحال ليس كذلك ، ومن ثم فان ما تضمنته هذه المعاهدة من مسئوليات ليست ملزمة لجلالته بعد ذلك »(١٥)

وكان من أهم أسباب ممانعة السلطان في قبول تعيين نائب قنصل بريطاني في فاس مخاوفه ، التي كان على حق فيها ، من أن مثل هذا التعيين سوف يستتبعه مطالبة الفرنسيين وغيرهم بنفس الحق مما قد يؤدى إلى دفع أهل فاس للثورة على الأجانب . بدا ذلك من الرد الذي بعث به سيذي المفضل غرنيط والمؤرخ في 11 يوليوز عام 1892 على مكاتبة ايوان سميث التي أبلغ فيها بتعيين ماكلويد . قال غرنيط :

« وصلني كتابك الذي تقول فيه انك عينت مستر ماكلويد قنصلا في فاس بناء على المادتين الثالثة والرابعة من المعاهدة التي ابرمتها الحكومة الشريفة مع حكومتكم الصديقة عام 1856 . وقد طلبت تقديم دار له يرفرف عليه علمكم .... ولابد انك تعلم ايها الصديق ما يمكن أن يثيره عامة الناس من اضطراب واعمال عصيان بعد أن رأوا أتباعك وقد نقلوا الراية من على المقر الذي تقيمون فيه إلى مكان اقامة

(10) F.O. 99/333

ماكلويد... ولا زال هؤلاء العامة في حالة من الانزعاج الشديد بسبب ذلك ونتيجة لتتالي الحوادث التي سببتها: مثل منح الحماية غير القانونية، وكذا اللهجة التي يستخدمها اتباعكم ولا تتفق مع تقاليد الصداقة القائمة بين البلدين »[11]

وقد وجه ايوان سميث اغلب جهوده في محاولة النجاح فيما فشل فيه سير درمندهاي وذلك بحث السلطان على الموافقة على اعادة النظر في الاتفاقية التجارية المبرمة عام 1856 وقد جرت محادثات مطولة في هذا الصدد دون جدوى مما أدى بايوان سميث إلى مغادرة فاس بعد تسعة أسابيع. وقبل ذلك طلب الالتقاء بالسلطان لتوديعه، وهو اللقاء الذي انعقد في 12 يوليوز عام 1892. وطبقا لرواية ايوان سميث عما جرى في هذا الاجتماع قال انه قد أثار مسألة المعاهدة التجارية مرة أخرى غير أن المولى الحسن بقي مصمما على ضرورة ادخال عدد من التغييرات على التعديلات التي طالب بها ايوان سميث حتى تكون مقبولة من الجانب المغربي. وكان هذا أكثر مما يطيق ايوان سميث مما دعاه إلى وقف المحادثات وتوديع السلطان والرحيل إلى معسكره الذي كان قد أقيم على بعد عشر أميال خارج فاس.

ومع ذلك فقد وصل فجأة إلى المعسكر في الساعات الأولى من صباح يوم 13 يوليو مبعوثان مغربيان لابرام الاتفاقية التجارية المعدلة وبعد أن وافق ايوان سميث على ادخال بعض التعديلات على المشروع اخذها المبعوثان للحصول على موافقة السلطان. بيد أنهما لما عادا قالا إن المولى الحسن يريد ادخال مزيد من التعديلات على المشروع المقدم، ووافق ايوان سميث على النظر فيها غير انه اقترح أن يتم هذا النظر بحضور المبعوثين المغاربة في اليوم التالي (14 يوليوز). ويستطرد الوزير البريطاني في روايته بأن المبعوثين لم يأتيا في ذلك اليوم مما دعاه إلى أن يبدأ المرحلة الأولى من رحلة العودة إلى طنجة والتي كانت على بعد 15 ميلا من فاس.

وقد كشف ايوان سميث عن مدى تدهور العلاقات بينه وبين السلطان خلال الفترة التي أقامها في فاس وذلك في الخطاب الذي بعث به إلى المولى الحسن في 10 يوليوز عام 1892 بعد أن اتخذ القرار بالانسحاب من المفاوضات فقد عبر بصراحة

(11) (F.O. 99/33) كان ايرنست ساتو الذي خلفه ايان سميث في منصبه في مراكش هو الذي بعث هذا الخطاب الى وزير الخارجية اللورد كمبرلي في كتاب مؤرخ في 25 مارس عام 1895 وعلق عليه « يبدو انه لم يقدم من قبل إلى وزارة الخارجية ».

غير عادية وبلهجة تعوزها الديبلوماسية عن استيائه من فشل محاولات التوصل إلى اتفاقية تجارية جديدة.

وقد وصل سير تشارلز ايوان سميث راجعا إلى طنجة في 22 يوليوز عام 1892 . وفي اكتوبر عاد إلى انجلترا لقضاء الاجازة . وتم في تلك الاثناء ارسال س . ان . أي اليوت إلى طنجة لتولى منصب القائم بالأعمال خلال فترة تغيب الوزير . ولدى وصول الرجل واجه موقفا متدهورا للغاية فالسلطان كان في غاية الهياج من الأسلوب الذي اتبعه ايوان سميث خلال بعثته مما عبر عنه في خطاب مؤرخ في 17 يوليوز عام 1892 ارسله الى الملكة فيكتوريا شاكيا من سلوك مبعوثها . وقد تم ارسال هذا الخطاب من خلال الحكومة الفرنسية اذ سلمه المسيو وادنجتون السفير الفرنسي في لندن إلى وزارة الخارجية في 10 غشت عام 1891 .

وكان سبب هذه الطريقة الغريبة في التراسل أن السلطان تعبيرا عن غضبته قطع كل وسائل الاتصال مع البعثة البريطانية في طنجة ولم يرد على خطاب يصله من هذه البعثة ... ووصل الأمر إلى عدم الرد على رسالة بعث بها اللورد روزيري وزير الخارجية . وما ان وصل الكتاب الذي تضمن شكوى السلطان حتى كتب اليه اللورد روزيري يطلب منه اقامة الدليل على شكاويه ضد السير تشارلز ايوان سميث بذكر احداث محددة لما يدعيه من سوء سلوكه . وقد انتهز اللورد روزبري الفرصة ليبلغ السلطان بدهشة الملكة فيكتوريا من عدم موافقة السلطان على الاتفاقية التجارية المعدلة التي قدمها له ايوان سميث .

ولم ينته هذا الموقف السيئ الا بعد الأخذ بالنصيحة التي أسداها سير جون درمندهاي بارسال مبعوث خاص من رجال البعثة البريطانية في طنجة إلى البلاط . وقد وقع الاختيار على المستر دي فيم دي بونتييه الذي حمل معه رسالة من المستر اليوت تضمنت الرغبة في استعادة العلاقات الودية . ذلك أن القائم بالأعمال ذكر انه قد تلقى التعليمات التي تقضي بالتعبير عن دهشة اللورد روزيري لعدم وصول الرد على خطاب بعث به إلى السلطان منذ شهرين . وقد خفف دي فيم بونتييه من توتر العلاقات عندما صرح لدى تسليمه الرسالة لسيدي المفضل غرنيط بأن لديه تعليمات

سرية للقول بأن حكومة جلالتها لا توافق على استخدام ممثلها لأية لهجة قاسية أو جافة في المفاوضات الأخيرة.

وقد أرضى هذا القول السلطان الى حد بعيد مما أدى الى أن يقوم سيدي المفضل غرنيط أخيرا بارسال الرد على اللورد روزبري . وقد جاء في هذا الرد المرسل من فاس والمؤرخ في 14 جمادي الأول عام 1310 (دجنبر عام 1892) أن السلطان قد أصدر تعليماته إلى غرنيط ليكتب الى وزير الخارجية البريطانية بأن السلطان قد تحمل بصبر أعمال سير تشارلز ايوان سميث ليس لسبب الا الاحترام للملكة فيكتوريا .أما عن الحقائق حول سلوك المبعوث فهي على أي الأحوال معروفة إلى الحد الذي لا تحتاج فيه إلى مزيد من الإيضاح[12].

أما فيما يتصل بعدم الموافقة على مشروع الاتفاقية التجارية المقترحة فمرده أن المشروع الذي اقترحه ايوان سميث سوف لا يؤدى الا إلى تدمير المصالح التجارية المغربية.

مقتل بريطاني في طنجة :

ورغم ما أمكن من تخفيف الأثر السيئ الذي خلفته البعثة الأخيرة إلى فاس فقد تفجرت لسوء الحظ مشكلة أخرَى لتعكر صفو العلاقات الانجليزية — المغربية . ذلك حين قام الحراس المغاربة في أحد شوارع طنجة بقتل رعية بريطانية يدعَى جوان ترينداد في أول دجنبر عام 1892 وصدرت التعليمات لاليوت ليطلب تعويضا قدره خمسة آلاف ريال بالاضافة إلى انزال العقوبة بالحراس ولوم الحاج محمد طوريس نائب السلطان للشئون الخارجية بطنجة والذي ادعَى بأنه شمل الحراس بحمايته وقد أمهل الخطاب الذي قدمه اليوت في 31 دجنبر عام 1892 متضمنا مطالب الحكومة البريطانية ... أمهل السلطات المغربية لثمان وأربعين ساعة للاستجابة لتلك المطالب اما إذا انقضت المدة ولم تتم الاستجابة قال الخطاب بأن :

---

(12) من بين ما قيل أن سير تشارلز ايوان سميث قد قام به انه مزق مشروعاً للمعاهدة التجارية المعدلة كان قد أرسله اليه المغاربة لابداء ملاحظاته عليه . وقد وضعت قطع الورق الممزقة في مظروف وأرسلت إلى اللورد سولسبري . ولا زال المظروف والورقة الممزقة داخله موجوداً في المحفوظات (F.O. 99/294).

« عددا من السفن الحربية التابعة لجلالتها سوف يصل إلى طنجة والقيام بما تراه ضروريا »[13] .

بعثة ريدجواي :

ورأت الحكومة البريطانية على ضوء تتالي الأحداث بهذا الشكل انه من الأفضل عدم عودة سير تشارلز ايوان سميث إلى المغرب . وقد قررت ارسال سير وست ريدجواي في بعثة مؤقتة لتمثيل جلالتها في طنجة مبعوثا فوق العادة ووزيرا مفوضا إلى حين تعيين خلف للسير تشارلز ايوان سميث وقد أكدت التعليمات التي اصدرها اللورد روزيري في 18 يناير عام 1893 لريدجواي بأن :

« مهمته الأساسية اعادة علاقات الصداقة القديمة التي استمرت قائمة لوقت طويل بين بريطانيا العظمَى والمغرب بهدف تحقيق المصلحة المتبادلة للبلدين »[14] .

وخلال الفترة القصيرة التي قضاها سير وست ريدجواي في طنجة بذل أقصَى ما في جهده لتنفيذ هذه التعليمات ونجح في ذلك مما يتضح من التعليمات الجديدة التي أصدرها اللورد روزبري في 18 يوليوز عام 1893 إلى ارنست ساتو الذي خلف سير وست ريدجواي في منصبه ، وجاء فيها :

« لاحظت بعين الرضا ، ما أحرزته بعثة سير وست ريدجواي من تحسن ملحوظ في العلاقات بين مفوضي جلالتها والسلطات المغربية واني على ثقة بأنكم سوف تتمكنون من وضع هذه العلاقات على اقدام ثابتة باتباعكم لأسلوب يتسم بالحزم وان كان في نفس الوقت يتسم باللطف »[15]

وقبل أن يغادر سير وست ريدجواي طنجة كتب تقريرا طويلا وفي غاية الأهمية عن الوضع في المغرب إلى اللورد روزبري . وبدأ هذا التقرير بالقول انه مقتنع تماما بأن نظرة السلطان تجاه بريطانيا تحكمها قناعته بأن بقاء المغرب أساسي للغاية لسلامة بريطانيا العظمَى ومن ثم فإنه مهما بذل فان بريطانيا حفاظا على مصالحها ستبقَى

---

(13) F.O. 99/307
(14) F.O. 99/299
(15) F.O. Ibid

حريصة على الابقاء على استقلال المغرب ووحدة أراضيه . وأشار سير وست ريدجواي بعد ذلك إلى أن السلطان قد نظر إلى تأسيس شركة شمال غرب افريقيا لمركزها في رأس جوبي باعتباره انتهاكا للأراضي المغربية وهو لم ينس أبداً أن الحكومة البريطانية قد نازعته في حقه في الأراضي الواقعة جنوبي وادي درعة وأن النفوذ البريطاني لم يتمكن أبدا من استعادة الأرض التي فقدها نتيجة النزاع حول رأس جوبي . وقد أوهن ذلك كثيرا من نفوذ سير جون درمندهاي خلال السنوات السابقة على اعتزاله عام 1886 أضف إلى ذلك ما تمخض عن محاولاته الفاشلة خلال عامي 1885 ــ 1886 للتوصل إلى اتفاقية تجارية معدلة ، والحصول على تعويضات للرعايا البريطانيين مقابله الديون التي يستحقونها ، ولغير هذا ، تمخض عن كل ذلك تعكير صفو العلاقات بين سير جون والسلطان .. ومن ثم فإنه قد بدأ تآكل النفوذ البريطاني في المغرب حتّى قبل اعتزال سير جون درمندهاي .

ولكن كان من رأي ريدجواي أن السبب الأساسي فيما أصاب النفوذ البريطاني من ضعف أنه على الجانب الآخر فرنسا القادرة دائما على فرض ارادتها على السلطان من خلال التهديد باحتلال بعض أراضيه ، ويستطرد ريدجواي :

« ثم ان فرنسا لا تثير الحساسيات الشريفة مثل انجلترا ، وهي لا تلقي المواعظ عليه (السلطان) أو تقرأ له المحاضرات عن مساوئ الادارة ولا تطلب منه امتيازات تجارية كبيرة بل تقبل بشكر ما هو راغب في اعطائه فحسب ... ويقينا فقد وجدت لدَى وصولي إلى طنجة أن نفوذ كافة الدولة بما فيها انجلترا قد انتهَى من الناحية الفعلية فيما عدا النفوذ الفرنسي ... » .

ثم انثنَى ريدجواي يصف أحوال المغرب فقال :

« من الناحية العملية لا يوجد شيء اسمه ادارة هناك فقط جهاز لجمع المال وليس هناك من يتقاضَى أجرا سوَى وزير الخارجية في طنجة وموظفو الجمارك ... أما بقية الموظفين فهم على اختلاف درجاتهم يعتمدون على ما تعطيه لهم وظائفهم من نفوذ لجمع الهدايا والرشاوي ... أما عن السلطان فهو متدين ومثابر ومقتصد ومستوَى قدراته على العموم فوق المتوسط كما انه على جلال وكرم مظهر ويقال انه متفاخر ، وشهواني ، وعلى حس ، ماكر وضعيف ، عنيد ومحب للانتقام وهو أيضا

يتأثر بالخزعبلات ويعتمد كثيرا على التنبؤات الفلكية .. ويشرف السلطان على كل التفاصيل ولا يستطيع أي وزير ارسال خطاب دون أن يراه أو يمر عليه ... »

وقد خصص ريدجواي قسما من تقريره لمحاولات الهيمنة الفرنسية على المغرب . وقال انهم قد منحوا عام 1883 الحماية الفرنسية لشريف وزان وانهم حثوا الشريف في العام التالي على ارسال بعثة إلى سوس للحض على التمرد ضد السلطان . كما أرسلوه شخصيا عام 1892 إلى توات ليستخدم نفوذه لجذب السكان إلى جانب الفرنسيين وان كانت قد فشلت المحاولة .

وقد توفي الشريف في شتنبر عام 1892 وبعد أن فشلت أرملته في الحصول على الحماية الانجليزية تحولت إلى الحماية الفرنسية مثل زوجها المتوفَّى ، وقد وعدها الفرنسيون بمنحها بدلاً ماليا إذا ما وافقت على أن يتلقَّى إبناها تعلما فرنسيا .

أعقب ذلك أن بحث ريدجواي مسألة الادعاءات المالية البريطانية على الحكومة المغربية والتي تراكمت لمدة وصلت إلى أربعين عاما وقد بلغت في مجموعها 24 ألفا من الجنيهات وتراوحت بين دين يبلغ الخمس شلنات وآخر يصل إلى ألوف الجنيهات ، وقال ريدجواي :

« وتمثل هذه الادعاءات شبحاً يجثم على العلاقات بين الوزير البريطاني والسلطان . ولا يسيئ إلى العلاقة مع السلطان أكثر من اللجاجة بالمطالبة بالمال ، وهو ما يعلم سواء السلطان أو وزيره ان اغلب الادعاء به لا أساس له من الحقيقة ... ولا أرَى ثمة اصلاحا يمكن أن يؤدي إلى عودة الراحة والاحترام للوزير البريطاني في طنجة أو إلى إعادة حسن السمعة والنفوذ للبريطانيين الا بتجاوز هذا الموقف الحرج القائم الآن .. »

وقد بدت القدرة الفائقة للسير وست ريدجواي في تفهم جوهر الأمور من خلال الملاحظات التي أبداها حول حفل الاستقبال المغربي في البلاط ، وهي من المسائل التي ضاق بها سير تشارلز ايوان سميث ، قال ريدجواي :

« لقد سمعت عدة شكاوي من الطريقة التي يستقبل بها السلطان الوزير الأجنبي لدَى قدومه إلى البلاط . إذ بينما يكون السلطان ممتطيا صهوة جواده يقف الوزير

عاري الرأس في فناء مكشوف يكتظ بالقوات . وقد دفعني البحث في هذه المسألة إلى عدم الاقتناع بتلك الشكاوى ففي المغرب فرس السلطان هو عرشه .. ولا أرَى كيف يكون ذلك أكثر مهانة من الانحناء في قاعة العرش ... »

ويختم ريدجواي تقريره برنة من التفاخر كانت من حقه ، إذ يقول :

« وجدت السلطان عند وصولي إلى المغرب عبوسا وشكوكا .. وأظن اني أستطيع القول بحق أني أتركه وهو في مزاج ودي وقد امتلأ بالثقة بتوافر النوايا الانجليزية غير العدوانية . وقد أسر جلالته إلى أحد الديبلوماسيين الأجانب ان ما قامت به البعثة قد أدَّى إلى اعادة الثقة في حسن نوايا وحسن اخلاص انجلترا وهو ما كان قد تضاءل إلى حد بعيد »[16]

الوزير الجديد ساتو

وفي يوليوز عام 1893 استقل سير وست ريدجواي وقرينته السفينة الحربية برامبل من طنجة قاصدين جبل طارق ومنها إلى انجلترا . وقد رحلا وسط مظاهر الأسف من جانب الموظفين المغاربة واعضاء السلك الذبلوماسي في طنجة الذين أتوا لتوديعهم ذلك انهما كانا قد اكتسبا محبة الجميع خلال الفترة القصيرة التي قضياها في المدينة . وبعد شهر من رحيلهما وصل الوزير البريطاني الجديد الذي تعين خلفا للسير تشارلز ايوان سميث وتولَّى مهام منصبه في 29 غشت عام 1893 . وكانت أولى المهام التي كان على الوزير الجديد ايرنست ساتو القيام بها التحقيق في الشكاوى التي أثيرت في مجلس العموم ضد سيدي بوبكر وكيل البعثة البريطانية والتي اتهمته بالاتجار بالرقيق وإدارة بيت للدعارة . وفي 15 أكتوبر عام 1893 ارسلت البعثة خطابا إلى سيدي بوبكر تبلغه بالادعاءات التي تناولته وتبلغه بأن الوزير البريطاني سيقوم بالتحقيق فيها .

انتهاء خدمة بوبكر :

وكيفما كان الأمر فقد حدثت صدفة عجيبة ، ففي نفس يوم كتابة هذا الخطاب في طنجة كان سيدي بوبكر يكتب في مراكش خطابا إلى ساتو يستقيل فيه من

(16) F.O. 99/302

منصبه كوكيل لبريطانيا لأسباب صحية ، وعندما سمع اللورد روزبري بذلك كتب إلى ساتو :

« لما كان سيدي بوبكر قد تخلّى من تلقاء نفسه عن منصبه لأسباب صحية فاني لا أرَى ثمة فائدة في الاستمرار في التحقيق المطلوب . يبقَى لي أن أطلب منكم توجيه رسالة إليه بأسرع ما يمكن تعبرون فيها عن الأسف لمرضه وتشكرونه بحرارة على خدماته الماضية مع الاشارة إلى تأكدكم انها سوف تستمر بشكل غير رسمي وتقدمون له الحماية البريطانية بصفة شخصية »[17] .

وعلى الفور أرسل ساتو الخطاب المطلوب إلى سيدي بوبكر في 12 دجنبر عام 1893 وجاءه الرد بالشكر والترحيب بالاستمرار في خدمة البريطانيين . وقد استمر بذلك **مصدراً هامّاً** من مصادر أخبار ما يجري في البلاط متاحا للوزير البريطاني مما كان له أهم الفائدة بالنظر لما كان يجري في المغرب آنئذ من متغيرات .

تولية المولى عبد العزيز :

توفي السلطان المولى الحسن في ليلة 6 يونيو عام 1894 متأثرا بوباء في الكبد والكلي وهو في محفة متوجها إلى الرباط ... وخلفه المولى عبد العزيز أقرب أبنائه إلى قلبه وكان صبيا عمره أربعة عشر عاما كما كانت امه عبدة من أصل قوقازي . وكان من أولى نتائج تولية السلطان الجديد رفت سيدي محمد بن العربي بن مختار الذي تولى منصب الوزير الكبير منذ عام 1879 كذا رفت أخيه الأصغر الذي كان وزيرا للحربية ، والقي الاثنان في السجن . وخلفهما سيدي احماد بن موسَى بن حامد وزيرا كبيرا وأخوه سيدي سعيد بن موسَى وزيرا للحربية وكان السبب وراء تلك التغييرات ان الوزير الكبير السابق وأخاه كانا ميالين إلى تولية المولى اسماعيل عم المولى الحسن أو المولى محمد الأخ الاكبر لعبد العزيز .

وكان من أول الأعمال الرسمية التي قام بها السلطان الجديد ان أرسل خطابا إلى الملكة فيكتوريا في 12 صفر عام 1312 (15 غشت عام 1894) . وكان الفرنسيون قد عينوا مؤخرا نائب قنصل في فاس اقتداء بتعيين سير تشارلز ايوان سميث لماكلويد عام 1892 وهو ما كان السلطان السابق المولى الحسن قد اعترض عليه

F.O. 99/299 (17)

بشدة وقد كتب المولى عبد العزيز إلى الملكة فيكتوريا :

« نود الاستنجاد بجلالتكم في أمر سبب لنا ما لا ترضون من الاضطراب والضرر واننا نشير إلى فتح الباب للآخرين نتيجة لتعيين التاجر ماكلويد في فاس » .

واسترسل السلطان في الحديث عن « الآخرين » ولم يذكر الفرنسيين بالاسم الذين اغتنموا فرصة ما فعلته بريطانيا ليفعلوا مثله مما أدَّى :

« إلى انتشار القيل والقال بين رعايانا الذين أخذوا يتحدثون عن الحكومة بشكل غير لائق ... بل أوشكوا على رفع راية العصيان ... وما نطلبه منكم الآن أن تصححوا تلك المعاهدة بسحب ماكلويد من فاس ، وهو ما ينبغي أن يفعله الآخرون (الفرنسيون) بسحب الشخص الذي أرسلوه إلى هناك ... وهو ما كتبنا به إليهم »(18)

ونتج عن طابع الرد الملكي على المولَى عبد العزيز أن شرع الطرفان في محادثات ودية بينهما للتوصل إلى تسوية مرضية للمسألة ، وفعلا وافق السلطان في شتنبر عام 1895 على الاعتراف بماكلويد كنائب قنصل لبريطانيا في فاس على شرط ألا يرفع أبدا العلم البريطاني على قنصليته وتحت أية ظروف .

ساتو في فاس :

في 11 أكتوبر عام 1894 غادر ساتو طنجة قاصدا فاس لتقديم أوراق اعتماده إلى السلطان الجديد . وقد اصطفت بامتداد الطريق المؤدي إلى فاس قوات عسكرية بلغ عددها الثمانية آلاف كان منها فصائل المشاة تحت رياسة القايد ماكلين . أما المدينة نفسها فقد كانت ساكنة سكون الموتَى ذلك أن الأوامر كانت قد صدرت للأهالي لاغلاق محالهم والذهاب إلى خارج الأسوار لاستقبال المبعوث البريطاني وقد استقبل السلطان الصغير في 29 أكتوبر عام 1894 ساتو في لقاء عام . وقد عبر هذا الأخير عن انطباعه عن السلطان عبد العزيز في خطاب بعث به إلى اللورد كمبرلي في 16 نوفمبر عام 1894 جاء فيه :

F.O. 99/333 (18)

« ومع انه ليس وسيما فانه يتمتع بقدر كبير من الاتزان »[19] ولم تنعقد محادثات ساتو مع السلطان بل مع الوزير الكبير الذي كان بمثابة القوة الحقيقية وراء العرش. وكان من أكثر المشاكل المطروحة للبحث اثارة مشكلة ادعاءات الرعايا البريطانيين بديون لهم على المغاربة ومشكلة الادعاءات بطلب تعويضات عن خسائر قيل انها قد نزلت بهم. وقد فحص سير وست ريدجواي كل تلك الادعاءات واستبعد منها ما اعتقد بعدم جديته ؛ وأخيرا تقدم ساتو بطلب ما يبلغ 15،377 ريالا مقابل خمسة وعشرين ادعاءا ووافقت الحكومة المغربية في ماي عام 1895 على دفع هذا التعويض وتم بذلك التخلص من سبب من أهم أسباب الاحتكاك بين البلدين.

تسوية قضية رأس جوبي

بيد أن المسألة التي كانت أكثر اثارة للنزاع بين بريطانيا والمغرب كانت مسألة المركز التجاري الذي اقامته شركة شمال غرب افريقيا في راس جوبي والتي طرحت أيضا للبحث بين ساتو والوزير الكبير وكانت التعليمات التي وصلت إلى الوزير البريطاني في يناير عام 1895 تقضي بالسعي للتوصل إلى اتفاق حول مسألة رأس جوبي وانهاء النزاع بشأنها نهائيا كما تضمنت تلك التعليمات الأسس التي رأتها الحكومة البريطانية مناسبة للاتفاق ؛ على الجانب الآخر كان الوزير الكبير مرحبا بالفرصة التي واتته لانهاء هذا النزاع المزعج. ومن ثم كانت الاجتماعات الثلاثة التي تم عقدها بين ساتو والموظفين المغاربة كافية للتوصل إلى اتفاق وقعه الوزير البريطاني والوزير الكبير في 13 مارس عام 1895.

وقد نصت هذه الاتفاقية على أن تشتري الحكومة المغربية منشآت شركة شمال غرب افريقيا في رأس جوبي في طرفاية ؛ ورفض الادعاء لأي شخص على الأراضي الواقعة بين وادي درعة ورأس بوجادور ومناطقها الداخلية حيث ان كل تلك الأراضي تابعة لسلطان المغرب. وتعهدت الحكومة المغربية في المادة الثانية بألا تؤجر أي جزء من تلك الأراضي بدون موافقة الحكومة البريطانية ؛ كما تعهدت بمقتضى المادة الثالثة أن تدفع لشركة شمال غرب افريقيا مبلغ خمسين ألفا من الجنيهات مقابل ممتلكاتها في رأس جوبي. وتضمنت المواد الأخرى من الاتفاق الابقاء على

F.O. 99/337 (19)

المركز التجاري مفتوحا للتجارة على أن يدفع فيه نفس الرسوم التي تدفع في الموانئ المغربية ، كذا حق التجار في بناء دور أو مخازن في رأس جوبي على نفقتهم على أن تؤول إلى المغرب بعد عشرين عاما .

وفي 15 أبريل عام 1895 ذهب ساتو إلى القصر لتوديع السلطان . وفي هذه المناسبة أبلغ المولى عبد العزيز أن الملكة فيكتوريا تهتم به اهتماما خاصا حيث تولى العرش في هذا العمر المبكر كما ابلغ ساتو السلطان الصغير أن في مكنته انتزاع حب شعبه من خلال انهاء المساوئ التي دعت عديدا من ابناء هذا الشعب إلى البحث عن الحماية الأجنبية وقد أكد المولى عبد العزيز في رده على ساتو بأنه سيتم تنفيذ الاصلاحات في أقرب وقت . وقبل الرحيل أكد الوزير البريطاني انه في بريطانيا العظمى لم ينس أحد تلك الصداقة الوثيقة التي قامت منذ أجيال بين الحكام البريطانيين والمغاربة وأضاف انه سوف يسافر بعد وقت قصير إلى بريطانيا وانه مما يسعده أن يؤدي للسلطان أية خدمة وهو هناك . وتقبل المولى عبد العزيز العرض شاكرا وطلب من ساتو أن يجلب له رقعتي شطرنج ومجموعة مختلفة الأحجام من قطعها . كما طلب السلطان من ساتو أن يستعلم في لندن عن كمية من طلقات البنادق طلبت منذ وقت ولم يتم وصولها بعد .

احتجـاج مغربـي :

وبعد تلك المفاوضات الناجحة التي كوفئ ساتو عليها بلقب السير فيما بعد في يونيه عام 1895 ، غادر طنجة في مايو بقصد توليه منصبا آخر مخلفا القنصل هوبرت هوايت في ادارة البعثة إلى حين وصول خلفه سير أرثر نيكولسون . وفيما بين مغادرة الوزير الأول ومجئ الوزير الثاني تلقّى هوايت احتجاجا من الوزير الكبير في يونيه عام 1895 مطالبا بسحب الحماية البريطانية من شريف تامصلوحت الحاج محمد بن سعيد المصلوحي وكان هذا الشريف صاحب النفوذ الديني الكبير في جنوب المغرب الذي يضاهي نفوذ شريف وزان في شماله قد طلب الحماية البريطانية في شتنبر عام 1893 واعلن بأنه إذا لم يحصل عليها فسوف يبحث عن الحماية الفرنسية . وبالرغم من أن السياسة البريطانية كانت لا تشجع منح هذه الحماية غير الشرعية الا أنها في هذه الحالة قد منحت الحماية لطالبها ليس لسبب الا منع زيادة

النفوذ الفرنسي في المغرب . وقد شرح القنصل هويت كل ذلك باسهاب إلى الحاج محمد طوريس نائب السلطان للشئون الخارجية في طنجة . وقد كتب هوايت في تقرير إلى سولسبري أن الحاج طوريس قد تفهم قرار الحكومة البريطانية على ضوء تلك الظروف الآنفة واستتبع ذلك الابقاء على شريف تامصلوحت متمتعا بالحماية البريطانية بالرغم من أن ذلك الابقاء استمر يشكل سببا للاحتكاك بين الحكومتين نتيجة لما أسند للشريف من أعمال اتسمت بعدم الولاء للسلطان .

الوزير الجديد نيكلسون :

وصل سير ارثر نيكلسون إلى طنجة في 5 أكتوبر عام 1895 وقام بزيارته الأولى إلى البلاط في مراكش لتقديم أوراق اعتماده في أبريل عام 1896 الذي كتب عنه إلى اللورد سولسبري يقول :

« بدا جلالته وهو يمتطي حصانه أطول من عمره وقد تصرف بقدر كبير من الاتزان ورباطة الجأش . ويبدو بدينا بالقياس إلى سنوات عمره غير أن عينيه تبدوان لامعتين وثابتتين . وهو على وجه اليقين يعطي الانطباع بأنه في صحة قوية »[20] .

ولم يلبث أن فهم نيكلسون أن الوزير الكبير الذي يسمونه بالعامية باحماد يجمع في يديه أزمة الأمور وانه يعتمد إلى حد كبير في الأمور الخارجية على نصيحة سيدي عبد السلام التازي[21] الوزير المحافظ للمالية . واستطرد نيكلسون أن بقية الوزراء ليسوا أكثر من أصفار وليس لهم أي نفوذ ، وفي المراسلة التي بعث بها إلى سولسبري من مراكش في 17 أبريل عام 1896 عبر عن تشاؤمه حين ختمها بقوله :

« أخشَى من أنه ليس هناك ما يحيي الأمل في الاصلاح ، أو في دخول تلك البلاد إلى ميدان التقدم والحضارة .... فليس هناك جيل جديد ينشأ على أفكار متقدمة أو واسعة الأفق . والموقف من أي جانب لا يدعو إلى الاطمئنان »[22]

وفي عام 1897 وصلت الأنباء باستعداد بريطانيا العظمَى للاحتفال باليوبيل الستيني لاعتلاء الملكة فيكتوريا العرش مما دعا الوزير الكبير إلى أن يقرر ارسال سفير ومعه الهدايا المناسبة للقيام بواجب تهنئة الملكة . وقد سافر هذا السفير المدعو المولى

---

(21) F.O. 99/337
(22) F.O. 99/368

محمد ، وكان أخا للسلطان ، ومعه بعثة إلى فرنسا أولا ، غير انه أصيب بالمرض هناك مما منعه من عبور القنال والاشتراك في احتفالات اليوبيل .

وفي فبراير عام 1897 وصلت الباخرة حساني إلى حوض شركة الهند الشرقية في لندن طلبا للاصلاح وكانت هذه الباخرة التي تبلغ حمولتها 1578 طنا قد تم بناؤها في ميدلزبرو عام 1882 واشتراها المولى الحسن في اعقاب بنائها . وقد سأل وكيل السلطان في لندن عما إذا كان بالامكان ان يقوم أحد خبراء لجنة التجارة بفحص السفينة واعداد تقرير عنها ، فأحالت اللجنة الطلب المغربي إلى وزارة الخارجية . وقد أوصَى اللورد سولسبري في 15 مارس عام 1897 باصلاح الباخرة دون مقابل كعمل من أعمال المجاملة ، ولم تمض سوَى أسابيع قليلة حتَّى غادرت الحساني انجلترا بعد أن أصبحت صالحة للملاحة مرة أخرَى غير أن الأمور تطورت تطورا غريبا حين تورطت السفينة بعد وقت قصير في حادثة كان من جرائها تجريم عدد من الرعايا البريطانيين ، ومرة أخرَى تضطرب العلاقات الانجليزية المغربية .

أزمة الرابطة العالمية للمضاربة

فقد حدث في نوفبر عام 1896 ان نشرت عدد من الصحف البريطانية اعلانا عن تكوين ما سمي بـ « رابطة المضاربة العالمية » اعترفت فيه بأنها قد حصلت على احتكارات تجارية وتعدينية في سوس مما اسمته « مجلس رؤساء القبائل المستقلة بسوس » وجاء رد الحكومة المغربية سريعا . فقد كتب الوزير الكبير احماد بن موسَى بن حامد إلى السير أرثر نيكلسون في 14 رجب عام 1314 (20 دجنبر عام 1896) يبلغه بعدم موافقة السلطان على ما تدعي النقابة انها حصلت عليه ويطلب منه ابلاغ الحكومة البريطانية بذلك . وتلا الوزير الكبير ذلك بخطاب آخر إلى نيكلسون في مارس عام 1897 جاء فيه أن أية محاولة من جانب أي شخص لانزال أي بضائع على ساحل السوس سوف يترتب عليها اعتقال صاحبها وتسلميه إلى القنصل البريطاني في موكادور وسوف تعامل البضائع المضبوطة على أنها بضائع مهربة .

وقد استدعَى نيكلسون في 20 مارس عام 1897 مندوب « رابطة المضاربة العالمية » المدعو الميجور سبيلسبوري من طنجة وحذره من مخاطر استمرار الرابطة في

مشروعها للاتجار مع السوس دون تصريح من السلطان . ومع ذلك فقد تحفظ سبيلسبوري بأن من حق الرعايا البريطانيين بمقتضى معاهدة عام 1856 الاتجار أو الاستقرار في أي جزء من ممتلكات السلطان .

وفي 2 يوليوز عام 1897 عقد سبيلسبوري اتفاقا مع اثنين من زعماء منطقة واد نون عند موكادور ، ثم عاد إلى أوربا . وهناك أشرف لحساب « رابطة المضاربة العالمية » على تحميل السفينة تورمالين في ميناء انتورب بالسلاح والذخيرة مما تم في دجنبر عام 1897 . في أثناء ذلك وفي أكتوبر من نفس السنة أرسل اللورد سولسبري تحذيرا إلى رابطة المضاربة العالمية » قال فيه ان الحكومة البريطانية لن تتكفل بأي حال بحمايتهم من نتائج أعمالهم التي تمثل تحديا للحكومة المغربية . ولم يلق مدراء النقابة بالا لهذا التحذير ووصلت تورمالين إلى اساكا الواقعة على مصب واد نون حيث انزل من فيها خيامهم وبضائعهم إلى الشاطئ في 4 يناير عام 1898 .

وما ان ترامت انباء بدء التعامل بين سبيلسبوري وزعماء السوس حتى أمر السلطان في 8 غشت عام 1897 بابحار الباخرة حساني محملة بالقوات إلى اركشيش التي تقع شمال اساكا بمسافة قصيرة . وفي 29 دجنبر عام 1897 حذر سير ارثر نيكلسون الوزير الكبير من أنه سوف تجري محاولة بعد قليل لانزال سلاح وذخيرة على ساحل السوس وطالب بتسليم أي رعايا بريطانيين يتم القبض عليهم في هذا العمل .

وبناء على هذا الاخطار أمرت الحكومة المغربية الباخرة حساني والقوات التي عليها بمسح الشاطئ الواقع جنوب موكادور ووصلت إلى اركشيش في 13 يناير عام 1898 حيث كانت تورمالين على مرمى البصر ومع ذلك فقد نجحت في الهروب والميجور سبيلسبوري على ظهرها ، غير أنه بعد أيام قليلة وفي 17 يناير تمكنت فصيلة من قوات السلطان تحركت من اركشيش من أسر خمسة من رجالها الذين كانوا قد نزلوا إلى البر . وكان اثنان منهم من الإنجليز وألماني وبرتغالي وكانوا جميعا من البحارة ، بالإضافة إلى مترجم يهودي . وقد سلمت السلطات المغربية فيما بعد الرجال الخمسة إلى سير آرثر نيكلسون مع طلب بانزال العقوبة بهم وطلب آخر بدفع تعويض للحكومة المغربية لما سببه الحادث من متاعب وقد تم تسليم واحد من

الرجال الخمسة وهو الألماني إلى البعثة الألمانية للنظر في أمره . وقدم الأربعة الآخرون إلى المحكمة القنصلية البريطانية في طنجة وتم صدور حكم بالسجن أربعة شهور على اثنين منهم وبالسجن ثلاثة أسابيع على الاثنين الآخرين بعد أن ثبتت عليهم جميعا تهمة تهريب السلاح إلى المغرب .

وصدر في نفس الوقت أمر باعتقال الميجور سبيلسبوري بتهمة العمل على اثارة التمرد في المياه الاقليمية المغربية . وقد قيل أن تورمالين قد فتحت نيرانها على الحساني قبل أن تهرب باقصى سرعة لها . وقد قررت محكمة كوينزبتش الا تتم محاكمة الميجور سبيلسبوري أمام المحكمة القنصلية في طنجة بل أمام المحكمة العليا في جبل طارق وبحضور هيئة محلفين . وبدأت المحاكمة في 10 أبريل عام 1899 وكان اتجاه القاضي معاديا إلى حد كبير لسبيلسبوري ومع ذلك فقد كان القرار الذي أصدرته هيئة المحلفين في 19 أبريل أن الرجل غير مذنب وتقرر اطلاق سراحه بل أكثر من ذلك انه تلقّى تحية حارة أثناء مغادرته المحكمة .

وأدهش الحكومة المغربية كما خيب من أملها أن يطلق سراح الرجل الذي نظرت إليه باعتباره زعيما للمؤامرة ودعاها ذلك إلى الاصرار على طلب التعويض عن المتاعب والتكاليف التي سببتها « رابطة المضاربة العالمية » . وفي 16 شتنبر عام 1899 زار نائب الشئون الخارجية في طنجة والذي كان عندئذ عبد الله بن سعيد السير آرثر نيكلسون وأثار مسألة التعويض وكانت حجته انه عندما ينزل المغاربة ضررا ما بالأجانب من خلال عمل غير قانوني تفرض أشد التعويضات على الحكومة المغربية وان ما تطلبه هذه الحكومة الآن هو المعاملة بالمثل والنظر في دعاويها على نفس الأسس . وان الحكومة المغربية تعتمد على حكومة جلالتها في الحصول على تعويض مناسب من « رابطة المضاربة العالمية » لحساب الحكومة المغربية . وجاءت اجابة سير آرثر نيكلسون مخيبة تماما لآمال وكيل الشئون الخارجية وهو أن الحكومة البريطانية قد فعلت بالنسبة لقضية تورمالين كل ما تستطيع وانه ليس في امكانها من وجهة قانونية اجبار رابطة المضاربة العالمية على دفع التعويض وقد احتج عبد الله بن سعيد على ذلك حيث انه ليس من العدالة في شيء السماح بترك محاولة مدبرة للحض على الثورة في دولة صديقة دون عقاب والا يجبر المحرضون على أن يؤدوا

للحكومة المغربية كل ما تكبدته من نفقات نتيجة لأعمالهم الخارجة عن القانون. وبالرغم من كل تلك الاحتجاجات فشلت الحكومة المغربية في الحصول على أي تعويض وهو ما خلف لديها شعورا بالمرارة، سواء عن حق أو عن غير حق، بأن دعاويها الصحيحة لم تلق سوَى كل اهمال.

أزمة آسفي :

أيضا تعرضت العلاقات الانجليزية — المغربية عام 1898 لمزيد من الاضطراب نتيجة لما قام به القايد الشتوي حاكم آسفي من أعمال. فقد اعتقل هذا الحاكم ستة أشخاص من بينهم امرأة ممن يتمتعون بالحماية البريطانية وألقَى بهم في زنزانة تحت الأرض وهم مقيدون بالسلاسل. دعا ذلك سير آرثر نيكلسون إلى الكتابة إلى الصدر الأعظم في 29 شتنبر عام 1898 يطلب الافراج فورا عن السجناء وعقاب الحاكم ودفع تعويض قدره 12،940 ريالاً قبل أكتوبر. ولما لم يصل أي رد تحركت السفينتان الحربيتان، هوك وسكيلا، من جبل طارق إلى مازكان وقد حملا خطاباً آخر من نيكلسون إلى الوزير الكبير. وجاء في الخطاب الجديد المؤرخ في 21 أكتوبر بأنه لم يصل رد على الخطاب الأول وانه إذا لم يتلق ردا قبل 28 أكتوبر فسوف يترك الأمر لقائدي السفينتين الحربيتين هوك وسكيلا ليتخذا ما يراه مناسبا وعجل هذا التهديد المستتر بوصول رد الوزير الكبير المؤرخ في 7 جمادي الآخر عام 1316 (24 أكتوبر عام 1898). وجاءت فيه الموافقة على المطالب البريطانية الثلاثة وان عبر عن أسفه بأن مثل هذا الموقف القاسي للحكومة البريطانية الذي عبر عنه خطاب السير آرثر نيكلسون لا يتفق مع علاقات الصداقة التقليدية بين بريطانيا والمغرب.

الموقف في الحكومة المغربية :

في 22 شتنبر كتب نيكلسون إلى اللورد سولسبري ينبئه عن تدهور صحة السلطان المولَى عبد العزيز وبأنه يعاني من نوبة حادة من الحمَّى الروماتيزمية وكان قد سبق للسلطان أن أتَى بطبيب نمسوي يدعَى الدكتور فردون لعلاجه وقد استقر هذا الطبيب في القصر وأصبح واحدا من أقرب مستشاري السلطان عبد العزيز ولاشك أن السلطان لم يشارك بقدر كاف في ادارة شئون البلاد نتيجة لضعف حالته

الصحية ، وقد كتب نيكلسون بذلك إلى اللورد سولسبري في 24 دجنبر عام 1900 فقال :

« أخشَى أن يكون السلطان مستغرقا فيما يسليه . وهو منهمك في كل ما هو ساذج ومفيد من ألعاب التسلية ويهتم بالشئون العامة في أقل القليل ... ومن المأمول تنبيه السلطان في النهاية بضرورة الاهتمام بشئون الحكومة ... »(23)

وكان من أسباب تململ نيكلسون من هذا الوضع وفاة الوزير الكبير في 13 ماي عام 1900 وكان سيدي احماد بن موسَى بن حامد يمارس اشرافا فعالا على السلطان الذي اعتمد عليه كأنه أبوه ، ولكن ما أن توفي الصدر الأعظم حتَّى دعا كل وزرائه وأعلن أمامهم بأنه لن يسمح أن يوجد في المستقبل من يقف بينه وبين شعبه . وقد رأى نيكلسون على ضوء ذلك الموقف أنه أصبح من الضروري على السلطان أن يطلب النصيحة البريطانية كلما اعوزه ذلك . وقد عبر عن هذا الرأي في الخطاب الذي كتبه إلى اللورد سولبري في 22 ماي عام 1900و وجاء فيه :

« اننا في الحقيقة بمثابة القوة المسيطرة والمهيمنة في المغرب ... ذلك أنه ليس بامكان اية قوة أخرَى القيام بعمليات ذات طبيعة مؤثرة في تلك البلاد ضد رغبتنا ذلك طالما احتفظنا بسيطرتنا على الطرق العامة والمواصلات ، اعني البحرية ... ومن ثم ليس من المرغوب فيه فقدان المكانة التي نحتلها عند الحكومة المغربية نتيجة لتخلفنا عن اسداء ما تطلبه من نصيحة مخلصة .. وإذا ما اعتقد المغاربة اننا قد تخلينا عن الاهتمام بمستقبلهم فإما انهم سوف يتجهون إلى مكان آخر بحثا عنهم أو ينجرفون إلى اليأس ... وفي اعتقادي ان التخلي عن تلك البلاد انما يحمل المخاطر على وضعنا في البحر المتوسط(24)

وكانت الظروف القائمة مدعاة لتقوية الروابط الانجليزية المغربية ذلك ان الدولتين كانتا في خشية من المشروعات الفرنسية ، فعلَى الجانب البريطاني كان الفرنسيون قد دخلوا مؤخرا في مواجهة معه في فاشودة بالسودان ، أما على الجانب المغربي فقد كان هناك ضغطهم المستمر على الحدود الشرقية وكان هناك توسعهم من

---

(23) F.O. 99/368

(24) F.O. 99/369

الجزائر جنوبا تجاه الصحراء حيث كانوا قد احتلوا مؤخرا واحتي توات وتيدكيلت مما أثار أشد المخاوف لدَى الحكومة المغربية.

بدا ذلك فيما كتبه السلطان المولَى عبد العزيز بتاريخ 14 جمادي الأول عام 1318 (10 شتنبر عام 1900) وجاء فيه :

« لا يخفَى على عطوفة جلالتكم ما فعله الفرنسيون مؤخرا شرقي بلادنا. وهي الأحداث التي أحزنت كل النفوس وسببت اضطرابا عاما داخل ممتلكاتنا ... ونحن لا نبحث على أكثر من العدل من جانب الفرنسيين طالما بقينا جيرانا لهم ... وحتَّى لا تحدث منازعات أو اضطرابات أخرَى بيننا ؛ وحتَّى يصبح لكل منا حقه الذي لا نزاع حوله فيجب تدوين ذلك في صيغة صحيحة وبناء على العلاقات الودية التي ربطت بين اسلافنا من جيل إلى جيل والتي لازالت قائمة بيننا فإننا نرسل لعطوفة جلالتكم هذا الخطاب المخصوص لاعلامكم ونطلب نصيحتكم الغالية حتَّى ترشدنا إلى الطريق الذي ينبغي علينا سلوكه لتحقيق العدل والتوصل إلى حدود معروفة توافق عليها كل الأمم ولا ينازع عليها أحد في الحاضر أو في المستقبل حتَّى يتمتع شعبنا بالسلام والأمن .. ونحن نلتمس بكل تواضع من عطوفة جلالتكم استخدام كل ما تملكون من نفوذ غلاب مع الدول الأوربية لحثهم على معونتنا للتوصل إلى هذه النتيجة المطلوبة »[25]

وجاء رد الملكة على كتاب السلطان على النحو الآتي :

« نستطيع أن نؤكد لكم بأن خير ونجاح جلالتكم الامبراطورية من أكثر الأمور التي تلقَى كل عناية من جانبنا. وسوف يلقَى ما جاء في خطاب صاحب الجلالة الامبراطورية ما يستحقه من اهتمام ملحوظ وسوف تصدر بشأنه التعليمات اللازمة لوزيرنا في طنجة ... واننا نود في نفس الوقت أن نعرب لجلالتكم عن أخلص مشاعر الود والارتياح وهي المشاعر التي حملناها دوما لكم ... »[26]

F.O. 99/372 (25)
Ibid (26)

وبعد ثلاثة شهور فقط من كتابة هذا الخطاب توفيت الملكة فيكتوريا (22 يناير عام 1901) وأرسل السلطان تعازيه من خلال السير آرثر نيكلسون حيث طلب من الأخير ابلاغ الحكومة البريطانية بأنه ، أي السلطان ، قد فجع في الملكة من حيث كونها صديقة عظيمة ، ومن حيث ما تمتعت به من أعلى درجات الاحترام والتقدير .



تذييل
بداية القرن العشرين

استهل القرن العشرون بإشارة من الصداقة والتعاون في العلاقات الانجليزية — المغربية . وفي خلال الزيارة التي قام بها سير آرثر نيكلسون إلى الرباط عام 1902 أبدَى اعجابه بخطط السلطان الصغير لتطوير بلاده واصلاح ادارتها ؛ وقد شهدت نفس الفترة قدوم الخبراء العسكريين البريطانيين لتدريب قوات المشاة والفرسان المغربية بالإضافة إلى انتعاش التجارة ، كما شهدت تبادل الرسائل الودية بين السلطان والملك إدوارد السابع .

وكيفما كان الأمر فقد زاد الاهتمام بأحوال المغرب المالية كذا بأوضاعه الاقتصادية التي اتسمت بعدم الاستقرار ؛ وقد زاد من حالة عدم الاستقرار الثورة التي اشتعلت ضد اسراف السلطان في استخدام الابتكارات الأوربية في تنفيذ اصلاحاته . وفي عام 1905 أصبح المغرب مديونا إلى العنق لعديد من الدول الأوربية التي قامت باقراضه ؛ وبالرغم من التحسن المؤقت للموقف في أعقاب توقيع عدد من الدول الأوربية للمرسوم العام لاتفاقية الجزيرة الخضراء عام 1906 فقد نتجت ازمة جديدة بسبب المجاعة والحرب الأهلية التي أدت إلى خلع السلطان المولَى عبد العزيز وتولية أخيه المولَى عبد الحفيظ . وبمقتضى المعاهدة التي وقعها السلطان عبد الحفيظ في فاس في 30 يناير عام 1912 بعد اتفاق الدول الأوربية فرضت فرنسا حمايتها على القسم الأكبر من المغرب بينما فرضت اسبانيا سيطرتها على أقسام أصغر في شمالي البلاد وجنوبيها واستمرت تلك الحمايات لما يقرب من نصف قرن حتَّى حصل المغرب على استقلاله الكامل في عهد المرحوم الملك محمد الخامس عام 1956 .

الملاحق

— ملحق رقم (1)
من المولى زيدان إلى جيمس الأول (1020هـ — 1611 م)

— ملحق رقم (2)
من سيدي علي بن محمد إلى شارل الأول (1040 هـ — 1630 م)

— ملحق رقم (3)
معاهدة بين العياشي وشارل الأول (1046هـ — 1637م)

— ملحق رقم (4)
من المولى الشيخ الى شارل الأول (1049هـ — 1639)

— ملحق رقم (5)
من المولى اسماعيل الى جيمس الثاني (1109هـ — 1698م)

— ملحق رقم (6)
معاهدة 1856

— ملحق رقم (7)
الاتفاقية التجارية 1856

ملحق رقم (1) [1]

من عبد الله السُّلطان المظفَّر بالله الإمام الناصر الفاطمي أمير المومنين بن الإمام المنصُور أمير المؤمنين بن الامام المهدي أيده الله بالنَّصر العزيز وَحَاطَهُ بالصَّون الحريز وأعْلَى في فَضاَء العَدْل مناره وخلَّدَ في صفحات الدَّهْر فخاره وَأَتَاحَ فِي ظِلِّ النَّصر والتمكين ظَفَره وَاقْتِدَاره المقام الذي يُدْلى في الفخامةِ بحُجَج لاَ يُردُّ دَلِيلُهَا وَيستَظهر في العُلُوِّ والظُّهُور بأمُور لا يجحدُ من اهْلِ مِلَّة المسِيح ارْتفَاعَهَا غَبِيُّهَا وَلاَ نَبِيلُهَا والمثابة التِي لوْ سَاجَلَتْ فَازَتْ بخَصْلِ السَّبَاق وَطَنَّتْ حَصَاةُ صِيتِهَا فِي الافَاقْ وَضَاعَفَ جَلاَلَها اعْتزاَؤُها إلى المُلُوك الأكابر وأنابيب قَنَاتِهَا يعْتَضِدُ بالاوآيل منها والآواخر مقام السُّلْطان المرْعِيِّ المقْدار الشَّهِير في الأقْطَار السُّلْطَان جيمس حفظ الله عليه حُظْوته ووجد بالنجدة أسرتَه وَاجْرَى أرآه على سداد المبادْي والخواتم وأنْظَارهُ مُعْتمدة فِي الصَّلاحِ على أوْثَق دَعَآئِم فَانَّا كَتَبْنَاهُ لتلكُم المثابةِ والاسْعَادُ والشكرلله خفَّاق الْجناح واليُمن يَتَحَلَّى فِي المنوَّات بجبينِ وَضَّاحْ يُبَاكِرُ نَادِينَا الامامي وَيُمَاسِيه وَيُسَاعِدُ المقْترِحَ منْ مَّقَاصِدنا وَيُواسيه منَّةً للهِ سُبْحَانَهُ وَلَيْسَ وَالشكر لله بهذه الآفَاق سِوَى الْإِجْمَاعِ عَلَى كلمتنا الشَّريفةِ وَالإِصْفَاق وَتَوَاطُؤ البواطِن من عمَّارِهَا والظَّوَاهر وَعجم عُود مَا انْطَوَتْ مِنْهُم عَلَيهِ السَّرآئِر وَإطرَاح الغير سداً بالْعَرَا فَصَدَقَ المَثَلُ كُل الصَّيْدِ فِي جَوْف الفرا وَالذي أوجَبَ إِصْدَارَ هَذَا المدرج اليكم أنَّ التُّجَار الانجليزيين الذين ألمتمِ في كتابكُم إلينَا بِأَغْرَاضِهِمْ فَاعْلَمُوا أنَّهُم ان كانوا قد أدْلَوْا لديكُم بحجَّةٍ أنَّهُم مسَّهُم من جنابنا ظُلْمٌ فَمَعَاذَ الله أن يكون بممالكنا على اتِّساع نطاقها ظُلم أو يتطرَّقُ اليهَا حَيْفٌ نعم فَأُولاَئِكُم التُّجَارُ لَمَّا حَلُّوا من ثُغُورنَا بثغر أسْفِي آمَنَهُ الله أَخْفَوْا جَوْهَراً كَانَ عِنْدَهُم عَنْ تَعْشِيرِ الأُمَنَآءِ وَارْتكبُوا فِي فِعْلِهِمْ ذلك إصْراً كَبِيراً وَالعَادَةُ ان من أخْفَى سِلْعَتَهُ كَذَلِكَ تَكُونُ لِبَيت الْمَالِ لِأَنَّهُ سَارِقٌ وَتَعَيَّنَ أَنَّ جَوْهَرَهُمْ هُوَ لَنَا بِمَا حَكَّمَتْهُ العَوآئِد واطَّردت بِهِ القَوَاعِد والأَمْرُ الآخَرُ هُوَ أَنَّنَا امَرْنَا

(1) الملاحق من رقم 1 إلى رقم 4 نقلاً عن : Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc

بالنِّدَآءِ عَلى تجَّار الحربيين بان كُل مَنْ حَمَل مَعَهُ لبلاد النَّصارَى الذَّهب العَيْن فَمَا لَهُ لبيْت المَال فوقع النِّدَآءُ بذلك وَعلمهُ القريب وَالقَصِي وَتأدَّى للعَارف والغبي واشْتَهَرَ اشْتِهَارَ النَّهَار وَعَمَّ القرى والامصار فركب هَاؤُلاَءِ التُّجَار خَطْراً كَبيراً وَأَخَذُوا الذَّهَبَ مَعَهُم فاطّلع عَلَيْهم الأُمَنَاءُ فَتَبَيَّنَتْ جُرْأَتهُم على الأوامر زيادةً على السَّرقَة فَلَمَّا أُخذَ مِنْهُمْ ذلك طَلَبُوا الشَّرْعَ فَأُجِيبُوا مِنْ إِنْصَافِنَا الحَقْي اليه لِأَنَّ المعوَّل فِي الأَمْوَالِ عَليه فَغَلبهُم الحقُّ بِالشرع ولم يجدُوا مَقَالاً وَلاَ عَن الاذعان انْتقالا فثبت عليهم الحقُّ فهذه تفاسير قضاياهُم فَإِن رَاجَعتُم عَلاَءَنَا وَكَاتبتُم مَقَامَنَا فِيهِمْ بَعْدَ أَنْ ثَبتَتْ عِنْدَكُم هذه الحقيقة واتضحَتْ لكُم الطَّرِيقَة فَمَا هُوَ أَعْظَمُ من ذَلك خَطْراً وَاجَلَ فِي الأَعْيُنِ والاسمَاعِ قَدْراً لاَ تَرَدُّ لكُم فِيهِ شَفَاعَة وَلاَ تبخس من أمالكُم بضاعة فيكون الرَّدُّ عليهم حينئذٍ مِنْ مَّالِنَا لا من مَّالِهم وَمُرَاعَاة لامالكم لا لأَمَالهم فَأَغْرَاضِكُمْ بِهَذَا المَقَام مَقبُولَة وَعَلَى كَامِلِ المُرَاعَات والايثار محموله وبهذا اجْزمُوا وَعَلَيْهِ فِي مُقْتَرحَاتِكُمْ عوِّلُوا واعْزمُوا وممَّا تَتعَرَّفُونَهُ أَنَّنَا نَحتَاجُ لمن يُفرغ الانفاط فنُريدُ أنْ تبعثُوا لَنَا من يُحسنُ ذلك والله يحرس جنابكم وَيُعَمرُ بِالوُفُودِ أَبْوَابَكم وهذا مُوجبه اليكُم وَالسَّلام وبه كتب فِي الثَّاني من المُحرم فاتح عام عشْرين وألف سنة

ملحق رقم (2)

بسْمِ الرحمان الرَّحيمِ الله يُحقُّ الحقُّ ويبطل الباطل

الخاتم

من المقام العلي الاسْما ذي المجد الكامل الأنمى الهمام المعظَّم غوث الانامْ وزين الأيَّامْ وعلم الاعْلام ورافع راية الإسلام المرابط نجل ولي الله تعلى الامامِ الكامل امام الطريقة الجامع بيْن الشريعة والحقيقة أبي العباس القطب الحافل السيد أحمد بن موسَى برَّد الله ضريحَه ووَالى عَليْه جزيل رضْوَانِه أبو الحسن السيد علي بن محمد اعلا الله قدره وايْده وابقاه دعامة للإسْلام وسدَّده بمنه وكرمه كاتبا به إلى التَّشْرْلُسْ بن جِمْسْ عظيمِ الرُّومِ السلام على مَنْ اتبع الهدى أمَّا بَعدَ فقد بلغ مكتوبكم لمقامنا العلي مقتضيا شكر صُنْعنا بالأساري أصحابكم الخارجين بهذه الناحية حيث مننا عليهم بالاطلاق من الإسْر فقد وقع منا ذلك رعايةً لمصلحة الإسْلاَم ليلا يبقَى في جميع عملكم أسير مسْلم إلا وأخرجتموه لبلاد الاسْلام سواء كان من أهل قطرنا ومن غيره من أقطار الاسْلام وكذا مَنْ كَانَ خَارجاً عن حكمكم ووجدتم إلى استخلاصه سبيلا فإن وفيتم بذلك فقد أمناكم في أمْوالكم ودمائكم على نحو العهد الواقع بين بعضٍ من تقدَّم من أمراء الإسْلام وبينكم فقد جددنا لكم العهد على ذلك فلا يبقَى لدينا من قبائل انْكلِزْ أسير ما دمتم باقين على الوفآء بالعهد باذلينَ في ذلك الجُهْد لثماني ليال خلون من شهر صفر عام أربعين وألف من الهجرة النَبَويَّة

ملحق رقم (3)

بسم الله الرحمن الرَّحيم

شُرُوطُ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ الصُّلح بَيْنَ السَّيد الكَبِيرْ الجَلِيلْ الشَّهِيرْ الطَّاهِرُ الظَّاهِرُ الأَصْعَدُ الأَمْجَدُ الأَعْلَى العَالِم العَامِلُ الفَاضِلُ الكَامِلُ عِمَاد الدنْيا والدين رَافع ظلال العدْل على العلمين محْيي معالم الدين قامع المتمردين قاهر الخوارج والمُعْتَمدين الامام العادل المؤيد المعانْ المجاهد المرابط قطب الزمانْ سيدنا ومولانا ابُوا عبد الله سيدي محمَّد بن السَّيد الصَّالح البركة سيدي أحْمد العياشي أبقى الله وجوده وبركته ءامين وامتعَ ببقائه الاسْلام والمُسْلمين بمحمد وءاله الطيبين الطاهرين وبين سُلطان بُرْطَانية فرانصية ارْلانضه الانجليزي على يد نائب سيدنا ومولانا أبي عبد الله المذكور أعلاه وهو المكرم الأرضى ابراهيم بْن علي الْعربي الأنْدلسي ونائِب سُلطان الاقاليم المذكورة أعْلاه وهُو القبطان هِرْنَالْ هِلْيرْمُ رِيْمُورنُم وَذلك لَمَّا طَالَعَ كِتَابيْ سُلْطَانه وتحقق أن الخط خطّه ووجد بهما من تعْظيم السَّيد الكامل مَاهُو مسَطَّر بهما عمل على مقتضَى ذَلكَ من تجديد العَهْد القديم حسبمَا كَانَ ذلك على أيْدِي أمراء المُسْلمين لمَا رَاوْ فيه من صلاح الدنيا والدِّين وسلك مسْلكهم من اقتفَى أثرُهم وانهما ما زَالاَ على ذَلكَ الى الان من غَيْر تَبْديل ولا تغيير وأن طاعة كل امام من العرب والعجَمْ إذا أرادُوا التسَبُّب وقضاء الأوطار في أي اقليم وأي بلْدة وأي مِصْر من الأمْصَارَ ومَرْصة من المراصي لا يتعرض لهُم الا بالملقَى الحَسَن والتَّرجيب والأمان حتَّى ينصرف كلٌّ إلى وطنه ومن تعرَّض لأحد الفريقين يُعاقب على الوجه الشَّرْعي وان كُلَّ من خَرجَ عن طاعَة كل امام وأَرَادَ الفسَاد فِي البَرِّ والبَحْر أو هرب بسفينة أو فيها أو أراد التلصُّص برّاً وبحراً فإن طَاعة كُل امام لا يوالُونَه ولا ياوُونه وَلاَ يَدعُوه يدخُل مَرْصة وَلاَ غَيْرَهَا لِأَنَّهم ضَرُورة لِلْفَرِيقَيْنِ وَإِنَّ سُفُن السُّلْطَانَ لمْ يزَالُوا مقيمين على عتبة سَلا محاصرين للدّاخل والخَارج مِمَّن مرق من الدِّين وانسلخ منه وكذلك غَيرها من المراصِي مِمَّن اسْتَنَّ بسُنَّتِهم حتَّى يَدْخلُوا فِي جَمَاعَة المُسْلمين ويكون عملُهم من عملهم وان مَنْ ارَادَ

الصُلْح من الفريقيْن مَعَ الشّرْدمة الحائِدة عن الدين المفارقة لجَميع المسْلمين لا بدَّ من الوُقُوف عَلَى مشوْرة الفرقة الأخرَى وموافَقتها والاً فَسَدَ ما عَقَدته كل فرقة دون نظرِ الأخرى وإن ما بايدي كُل امامٍ من الاسْرَا يَسَرَّحُ محجَّانا من غير فداء وإن لاَ ياسَر كُل فرقة منِ الأخرى من الان الى ما ياتي من الزمان وإذا يسَّر الله فِي الاستيلاء علىِ الشّرْدْمة المارقة من الدّين من علَيْنا سَيدنا الامام بِمَا في ايْديهم من الاسْرَا مَجَّاناً وانَّ السُّفن الخَارجة بالعدْوتين بسَبب الريح وهيجان البَحر سواء تكسَّرت أو بقيت على حالها يقف معها من يليهَا من الفريقَيْن حَتَّى تجتمع امتعتها عن ءاخرها ولو بالاجرة ويُصرف ارْبابَها إِلَى أوطَانِهِمْ عَلَى حُسْنِ المُرَاد وإنَّ جميع مَا احْتَاجَ اليْه سيدنا الامام من ءالة الحرب مدافع وغيرهَا وبارُودٍ ورصاص وغير ذلك نَاتوا به بحَيْث لاَ يلحقُنا ضررٌ فِي ذَلِكَ وَكَذلك ما احْتَاجُوا إليْه مِنْ جَميعِ اغْرَاضِهم مِمَّا بِايدِي المُسْلِمينَ شَهدَ علَى الفريقين بما فيه وَهُمَا بحال كمال الاشهاد وعرفهمَا وفي الثامن عَشَر من شهْر الله ذِي الحَجَّة عام ستَّة وأربعين وألف وفِي اليَوْم الخامس من شهر الله مَيَّه عام سبْعة وثلاثين وستمائة وألف والعهد المرسوم هَذا وقَعَ بِالثَغْر السَّلَوِي القديِم حَاطَهُ الله تعلى بمَنَّه

ملحق رقم (4)

صدر هذا المكتوب العلي الامامي الكريم السلطاني المجاهدي المحمَّدي الشيخي الحسني الهاشمي عن الأمر العلي النَّبوي الشريف العلَوي الذي دانت بطاعته الكريمة المالك الاسلامية وانقاذت لدعوته الشريفة سآئر الأقطار المغربية وخضعت لأوامره العلية جبابرة الملوك السُودانية وأقْطارها القاصية والدَّانية إلى السلطان المعظم المكين المحترم الذي له بين الملل النَّصرانية والامام المسيحية الانكليزية المملكة السامية وَالمكَانة الرفيعة العالية وله في قومه القدرُ الشامخُ وفي ما لسلفه من التَّنوية والتمكين القدمُ الرَّاسخ والعز الباذخ السُّلطان كَارْلُ سُلْطَانُ الانكليز واسكُوسْي وفرانصية وارلانْضية وسآئر نواحيها وجميع جهاتها وأقطارها امَّا بعدَ حمد الله الذي جعل بين ملوك الأرض وان اختلفت في الاديان وُصلة تعتبرهَا باعتبار أحكام السياسة وقوانين الرِّياسة الملوكُ والأمَراء والازرآء والأعيان وتوجب لها الحق في كُلٍّ ما يدور بينها من المخاطبات والمراسلات في الأمور التي لها الحال والشان فكتابُنا هذا اليكمُ والأحْوَال بحمْد الله في جميع ممالكنا الشريفة السلطانية الشيخية وسائر بلادنا المغربية على أفضل ما يُسر من كمال الطاعة والتَّمهيد وقطْع دابر كل جاحد وعنيد واجتماع كَلِمة المسلمين على السَّمع والطاعة وامتثال أوامرنا العليَّة المطاعة فِي كُلٍّ قطر من ممالكنا الشريفة قريب وبَعيد لله الحَمْد وله الشكر حَمْدا يتَّصل ولا يَبيد هذا وانه وصلت لعلي مقامنا في سالف هذا التاريخ كُتُبكم الأثيرة وخطاباتكم الجليلة الخطيرة أَحدها المُورَّخ بدجنبر الأصَّم من عام ثمانية وثلاثين والاخر المُؤرخ بشهر مارس من العام المذكور صُحبة مملوكنا الأنجد الأوجه القائد محمَّد بن عسكر فتصفَّحناها وتعرَّفنا مضمنها ومقتضاها ووقفنا على ما قرَّرتم فيها ممَّا لكم في هذه الأمامة الشريفة والمثابة العلية المنيفة من صدق المحبَّة وخلوص النية والتمسك بعهودها ورسوخ القدم قولا وفعلا في الوفآء بها وبذل المجهود في قضاء اغراضنا والقيام بجميع ما تندبكم اليه إيالتنا الى غير ذلك مما برعتم في فصول كتبكم .فقد وقفنا على ذلك كله

واستجدناه منكم وشكرناه لكم وإلى هذا فامَّا ما قررتم من المحبَّة في جنابنا العلي والتمسك بالعهود الصادقة فإذا هو المعتقد في جنابكم والمقطوع به عنكم وامَّا ما ذكرتم من أنكم بلغتكم الشروط التي وقعت بيننا وبينكم على يد خديمكم الأنصح المرعى الرُّوبيْرت أبْلاك وانكم قبلتُموها ورضيتم بها وبما كان من العافية والمهادنة بين الجانبين فنحنُ بذلك قائمون وبتلك الشروط والعهود متمسكون واما ما ذكرتم على معاملتكم بالخير لخديمكم بلاك رعيا لحقٍّ خدمته لعلي مقامنا فاعلم اننا قد عاملناه أكثر من ذلك رعيا لحق خدمته لجانبكم وما ذكرتم من معاملة مملوكنا الأحظى محمد بن عسكر وملاقاتكم له بكل خير وصنع جميل وإنكم أمرتم بقضاء الغرض الذي توجه اليه ثم انه تقلَّق واستعجل القدوم فساعدتموه عليه وان ذلك الغرض سيصلنا بعد هذا في القرب إن شآء الله فذلك هو المظنون بمتابكم واستحقق في جانب محبتكم وامَّا ما ذكرتم على تجار البلاد الذي قُلْتم انهم اشتكوا عليكمْ وقالوا انهم يأتون بسِلعهم الى مراسينَا ولا تُشتري منهم كلها فهذه المسئلة الى الآن ما رأينا من جاء منهم إلا القليل وباعوا كلهم ما عندهم ولو جاء الكثيرُ من تجاركم ووردوا على هذه البلاد وبلغوا الى مراسينا ولم يبيعوا سِلعهم فحينئذٍ يحتاجُوا أن يشتكوا عليكم وتقبل حتَّى نحن شكايتهم ونعذروهم ولمَّا على هذه الصفة وعلى هذه الحال التي ذكرنا لكم وفي هذه الساعة فلا تتَّجه شكايتهم لأنهم الى الآن ما جاءوا بسلع كثيرة ولا أتي الى القليل منهم فكيف تقبل شكايتهم ولا يحتاجوا ان يشتكوا الاَّ لو كان الأمر كما ذكرنا لكم وامَّا مسْئلة العدَّة التي قلتم انهم لا يقدمون بها لبلاد العدو ولا توافقهم على ذلك فنحْنُ نعلمُ ونتحقق انكم لا تقبلها لهم ولا توافقهم عليها لما بيننا وبينكم من العُهود والمحبَّة الراسخة وليكن في كريم علمكمْ أن أغراضكم بمقامنا العلي مقضيَّة وبالقبول والاعتنآء مرعيَّة والله يَصل كمال الإرادة في البدْء والاعادة وبه وجب الكتْب اليكم في أوائل ربيع الثاني عام تسعة وأربعين وألف الموافق ليوليُه من سنة .... عشر مائة وألف عرفنا الله خيره ووقانا ضيره ءامين

ملحق رقم (5)

رسالة المولى اسماعيل الى جيمس الثاني[2]

الحمد لله وحده ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا رب غيره ولا معبود سواه.

الطابع السلطاني وبداخله اسماعيل بن الشريف الحسني ، وبدائرته (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً).

أيده الله بعزيز نصره ، وأمده بمعونته ويسره ، وخلد في الصالحات شريف مناقبه وجميل ذكره ، آمين يارب العالمين.

إلى طاغية الانجليز القاطن ببلاد الفرنصيص يعقوب المسمى بلسانهم جامس.

سلام على من أتبع الهدى وتجنب سبيل الغي والردى وآمن بالله ورسوله ثم اهتدى.

أما بعد ، فانا كتبناه إليك وأوردناه عليك وواصلناك بهذا الكتاب ، واعتنينا لك بهذا الخطاب لمسألتين اثنتين : إحداهما دينية والأخرى سياسية دنيوية ، وموجب ايرادهما عليك التنبيه لك والايقاظ والارشاد ، وذلك ان أخاك الذي كان ملكاً على الانجليز من قبلك كان عرف لنا من الحق ما عرف ، وتقرر عنده من لدنا ما لهذا الدين الشريف على غيره من الشفوف والشرف ، فكان من أجل ذلك يطلب منا المهادنة على طنجة فبعث لمقامنا العلي بالله من أصحابه وخدامه المرة الأولى والثانية من بعث ، إنافة بمحلنا وتنويهاً بشريف مكاننا ، وكانت المواصلة بين الملوك والمراسلة مستنة ومشروعة وان اختلف اللسان وتباينت الأديان.

---

(2) نقلا عن الوثائق — مجموعة وثائقيه تصدرها مديرية الوثائق الملكية — المجموعة الأولى ص 424 — ص 429

فجازيناه على فعله ، وكافيناه على شغله ، ووجهنا له من خدامنا الباشادور[3] الذي وصل اليه وقدم عليه ، كما شاهدته ورأيته . ففرح بسفيرنا وأكرمه إكراماً كثيراً ، وسر به وبمقدمه سروراً كبيراً . ورجع من عنده مغبوطاً مسروراً . فلم نزل نراعي له ذلك . ووفينا له في جميع ما كنا عملنا معه في طنجة ، ولم نرد البال الى شيء مما كان يعمله بها حين أراد الرحيل عنها ، وكان ينقل خزائنها ومدافعها وسكانها ، وأهل جوارها من المسلمين يرون ذلك وينهونه إلينا ويقصون ما يشاهدونه علينا وما ألقينا إليه في ذلك البال . ولا التفتنا إليه بحال من الأحوال ، وما ذلك إلا مكافأة له على صنيعه مع سفيرنا ووفاء بالقول الذي كان طلبه منا . وودنا أن لو كان أخوك بقي حيّاً إلى أن يشاهد صنع الله الذي صنعه لنا في فتح العرائش من يد الصبليون ، ويرى محاصرة سبتة اليوم وما كان أهلها يصرفونه عليها من الأموال ، وما كان يلزمهم في مؤونتها من ملايين الريال لتحقق وفاءنا له ، وغضّنا الطرف عنه ، وعلم أن القول والعهد الذي أعطيناه لم تنقص شيئا منه . فالصواب الذي كان من أخيك والحق الذي كان يعرفه لنا هو سبب الكتب إليك مكافأة على صنيعه . وهو الذي أوجب مكاتبتك بهذه المراسلة لنعرض عليك فيها الأمرين المذكورين في أول الكتاب.

فأما الدينية منهما ففيها خير الدنيا والآخرة لما فيها من رشادك ونصحك ان وفقك الله تعالى ، وذلك أن تعلم أن الله سبحانه جل جلاله وتقدست صفاته وأسماؤه إنّما خلق هذا الخلق ليعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئاً . قال الله سبحانه : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرازق ذو القوة المتين) ، وهذه التي أوجب الله على خلقه لابد لها من وسائط يبلغون من الله لخلقه ما أمرهم به ، ومن رحمته بخلقه ورأفته بهم أن جعل لهم وسائط بينهم وبينه من جنسهم أرسلهم إليهم من أنفسهم واختارهم من أنفسهم ، فبعث لهم رسلا يبلغونهم عن الله ما جاءوا من عنده ، فآمن بهم من أراد الله سعادته ، وكفر بهم من كتب شقاوته ، وختم بخاتم أنبيائه سيدنا محمد ﷺ وجعله خاتم النبيئين ، وسيد المرسلين ، وجعل دينه خير الأديان ،

---

(3) السفير.

وشريعته أفضل الشرائع ، وملته خير الملل . ولقد بشر به وبمبعثه عيسَى كما بشر بعيسَى موسَى بن عمران على نبينا وعليهما وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام . ونبينا عليه السلام وإن كان آخر الأنبياء بعثاً فهو أولهم خلقا.

ومما يجب اعتقاده ان الأنبياء كلهم يجب الايمان بهم فلا نفرق بين أحد منهم . وان المسيح بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام هو أحد الرسل الذين جاؤوا عن الله من غير ادعاء مما تدعون ، ولا اطراء مما تطرون ، قال الله تعالى في حق أمه الصديقه : (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين) وقال تعالى في حقه : (إن مثل عيسَى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن ، فيكون)، وقال تعالى : (إنما المسيح عيسَى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فآمنُوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إلاه واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض وكفا الله وكيلا ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً).

ومن المعتقد أن المسيح رفعه الله إليه ، وأن اليهود لعنهم الله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإنما ينزل بين يدي الساعة فيجد المهدي من هذه الأمة من ولد فاطمة ابنة النبي ﷺ يقاتل الدجال ، ويجده قد أقيمت الصلاة فيقول له ، تقدم يانبي الله أو ياروح الله ، فيقول له عليه السلام : عليك أقيمت ، فيصلي خلف رجل من أمة نبينا ﷺ ، ويحكم بشريعته ويقتل الدجال فينكره النصارى ويقتلهم ويقتل اليهود حتَّى يكلمه الحجر ويقول : يانبي الله هذا يهودي ورائي فاقتله ، وقد أخبرنا بهذا كله نبينا ﷺ بقوله : والذي نفس محمد بيده ليوشكن أنْ ينزل فيكم المسيح بن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتَّى لا يقبله أحد ولا يقبل إلا الإسلام ، وهو معدود في أصحاب نبينا ﷺ ، وقد عرف هذا جماعة من أعلام النصارى وملوكهم الذين هداهم الله ومنَّ عليهم باتباعه ، كالنجاشي ملك الحبشة حتَّى عد من الصحابة وصلى عليه نبينا ﷺ يوم مات وهو بأرض الحبشة وهو أحد من خاطبه النبي ﷺ ودعاه إلى الإسلام . كما خاطب قيصر ملك الروم جد هذا الملك الذي لجأت إليه وأنت مقيم لديه ، ولقد كتب إليه يدعوه إلى الإسلام فلما قرأ كتابه ووعاه وكان عنده من العلم المكنون

ما عنده ، سأل من حضره من العرب عن صفاته وأحواله وسيرته وما يدعو إليه وما يأمر به وما ينهى عنه ، فقال : إنه النبي المنتظر ، الذي بشر به عيسَى ، وسيملك موضع قدمي هاتين وشاور أرباب دولته وأهل ملته في اتباعه فضجوا وحاصوا حيصة الحمر الوحشية ، فساعفهم وساعدهم بُخلا بملكه ، وحين بلغ خبره نبينا ﷺ قال : ضن اللئيم بملكه ، فلقد رسخت في قلبه معرفة هذا الدين وفضله على سائر الأديان ، لكنه لم يسمح بملكه.

وبكل حال من الأحوال فهذا الدين الحنفي هو الذي اختاره الله دينا وارتضَى له نبيا أمينا ، وجعله أفضل الأديان ، قال الله سبحانه في محكم القرآن : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)، فمن أمعن النظر واستعمل الفكر ووزن الأديان بميزان الحق والعقل عرف أن دين الإسلام هو الدين ، وان غيره كله لعب وعبث — من بعد أن بعث الله نبينا الذي ختم به الأنبياء — وتقرر لديه أنها كلها باطلة وأهلها للنار.

وقد وقع اختيار الأديان وأيهم أفضل لبعض عقلاء النصارى ، وقد نظر فيما عليه المسلمون وفيما عليه النصارى وفيما عليه اليهود ، فأراد أن يختبرهم من جهة المعقول ، فأتى نصرانياً فقال له : أي الأديان أفضل ، دين النصارى أو دين اليهود أو دين المسلمين؟ فقال له النصراني : دين النصارى أفضل ! فقال له أي الدينين أفضل، دين اليهود أو دين المسلمين؟ فقال له النصراني: دين المسلمين، فأتَى اليهودي وقال له : أي الأديان أفضل ، دين المسلمين أو دين النصارى أو دين اليهود ؟ فقال له : دين اليهود فقال له : وأيهما أحسن أدين النصارى أم دين المسلمين ؟ فقال له دين المسلمين ، فأتى لمسلم وقال له : أي الأديان أفضل ؟ فقال له دين المسلمين ، فقال له : وأي الدينين أفضل أدين اليهود أو دين النصارى ؟ فقال له لا خير فيهما معا ، فالدين القويم هو دين المسلمين ، فعرف هذا النصراني المذكور بعقله أن الدين هو دين الإسلام وأن ما سواه محض ضلال ، وأن اليهود والنصارى ليسوا على شيء ، وقد وقع معنًى هذا في كتابنا ، قال الله عز وجل : (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب).

وها نحن قد أملينا عليك نبذة من الآي القرآنية والأحاديث النبوية والدلائل

المعقولية المطبقة على أفضلية هذا الدين القويم ، وغيره كله إنما هو في سواء الجحيم ، وأنت ان خممت مع رأسك وفكرت في نفسك واخترت الدار الآخرة على الدنيا ودخول الجنة على النار ، فأنت عرفت سبيلها فاتبع هذا الدين الحنفي وانطق بالشهادتين فإن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ولو قالها مرة في عمره ويدخلها بشفاعة النبي ﷺ ، فإن له في أهل الكبائر والجرائم والذين نفذ الوعيد فيهم شفاعة عظمى خصه بها ربه في الموقف العظيم ، ووالله إن انت اعتقدت هذا الاعتقاد ووفقك الله اليه وعملت ما عمله قيصر من اعتقاده بقلبه وتيقنه به في نفسه حتّى تحمد ذلك حالا ومآلا إن شاء الله.

فهذه المسألة الدينية التي نصحناك بها والمسألة الدنيوية هي إذا أنت أحببت الابقاء على دين الكفر فدين قومك الانجليز أخف وأيسر عليك من عبادة الصليب ومتابعة الذين يجعلون لله الولد ، وينزهون عنه رهبانهم ، وأي شيء رأيت في تغريبك عن وطنك وبعدك عن بلدك وخروجك عن ملة أبيك وجدك وتدينك بدين غير دين قومك ، وإن كان الجميع على ضلال فدينكم أنتم معشر الريكس أيسر من أولائكم المتوغلين في الكفر ، وحتّى امرأتك الفرنسية التي كانت تحوزك على التعبد بدينها ها أنت الآن افتقرت معها ، فعلى ماذا أنت باق في جوار الفرنسيس تارك ملتك ؟ وادع ملك أبيك وأخيك لغيرك بالأفلامنك يتملك على جنسك وأنت بالحياة ، فوالله ما أحببنا لداركم ولا لمملكتكم يتولى رياستها الفلامنك أو غيره ، فألغ عنك ما تقدم بينك وبين قومك فإن الصواب معهم في الانكار عليك بسبب الدين الذي اتلفت معهم فيه ، واعتذر لهم وعاودهم وراجعهم ، ووالله لولا أنا أناس عرب لا معرفة لنا بالبحر أو كان عندنا مَن يحسن معرفته أو نستوثق به في الجيش ونطلقه في يديه حتّى نكاتب الانجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى به ملكك.

ولكن مسألة واحدة نعرفك إياها فحاول حتّى تنتصل من بلاد الفرنسيس ، وأقصد لجبونة من بلاد البرتغال ، وها زوجة أخيك البرتغالية اليوم هناك ، ولقد كان لها عند أهل ديوانكم وجه وكلام ومن هناك تقرب المسافة بينك وبين قومك وتسهل عليك مناولة الكلام معهم ، لاكن بحيث لا يكون للأفرنسيس بك شعور ، وأما إذا عرفوا منك فلا يتركونك ولا يطلقونك لمسألتين :

إحداهما لا يريدونك تترك دينهم وترجع الى دين قومك . والثانية يخافون إنك إذا راجعت قومك ربما تعاديهم وتحاربهم ولاسيما حيث عرفتهم وعرفت عزة بلادهم ، والملوك دائما تحذر من مثل هذا ، وقد نصحناك وأريناك ما يليق بك في دينك ودنياك ، ووالله ما نكره لك الهداية والرشاد .

وقد بلغنا أنك تروم الوصول الى رومة فاياك وأن تحدث نفسك بشيء من ذلك ، فإنك إذا دخلتها تحتل بها ولا تطمع في الخروج منها ولا في ملكٍ بعدها أبدا ، فعلى كل حال إن أنت راجعت قومك ودينك تجدد معك ما كان بيننا وبين أخيك ، ووالله ما زال خديمنا الذي كان عنده يذكر لنا من صوابه وخيره ما أوجب مكاتبتنا لك بنصحنا ، وقد أحببنا ان تكون المودة والمراسلة بيننا وبينك فتنتفع بها على كل حال إن شاء الله ، والسلام على من اتبع الهدى .

وكتب في النصف من شعبان المبارك عام تسعة ومئة وألف.



ملحق رقم (6)

النص العربي لمعاهدة 1856 [4]

الحمد لله وحده.

سلطان مراكش وفاس.
وسلطانة أكرت برطن [5] وارلنض

حيث مرادهم في الدوام وزيادة الخير في المحبة المنعقدة من قديم بين ايالتهم ورعيتهم [6] اقتضى نظرهم التجديد والتجويد للشروط المقررة بين الايالتين.

فسلطان مراكش وفاس عين نائبه الفقيه السيد محمد الخطيب.

وسلطانة أكرت برطن عينت الكبلير جان هي ادرمند هي نائبا مفوضا في أمورها وقونص خنرال موجها لجانب سلطان مراكش.

وبعد ظهور ما بأيديهم من ظواهر التفويض لبعضهم بعضا اتفقوا وتفاصلوا في الشروط الآتية :

الشرط الأول

بهذا انعقد الصلح والمهادنة دائما بين جانب سلطان مراكش وفاس وبين جانب سلطانة أكرت برطن وارلنض ولمن يأتي بعدهم في مقام الرتبة وبين ايالتهم ورعيتهم .

---

(4) الوثائق : المجموعة الثانية ص 151 ـ 174 النص وحواشيه

(5) كتبت كلمة برطن في الأصلين المنقول منهما مرة بألف وصل (ابرطن) ومرة بدونها ، فرؤى حدفها بالمرة . لأن المغاربة يتوصلون الى النطق بالساكن في أول الكلمات من دون حاجة الى ألف وصل.

(6) كتبت كلمة الرعية في النصين المنقول منهما مرة بألف مد (راعية) ومرة بدونها ، فرؤى كتابتها في جميع هذه المعاهدة بدون ألف كما هو الصواب.

الشرط الثاني

إن جانب سلطانة أكرت برطن تعين قونصواً واحداً أو أكثر في ايالة جانب سلطان مراكش وفاس . ويكون للقونص المذكور ، واحدا كان أو متعددا ، السكنى بمرسى[7] من مراسيه أو مدينة من مدنه على ما يختروه من ذلك القنصوات المذكورين أو دولتهم ويظهر لهم فيه المصلحة لخدمة سلطانة أكرت برطن واعانة لتجارها ورعيتها .

الشرط الثالث

إن نائب سلطانة أكرت برطن أو من هو موجه من جانبها لسلطان مراكش مع قونصوات أكرت برطن الذين هم مستقرين بالمراسي خلاف النائب المذكور ، يكون لهم الوقر والاحترام دائما يوافق منزلتهم ، وكذلك دراهم وأهلهم يكونوا محفوظين محروسين لا يتعرض لهم أحد بمظلمة ولا بنقص في مرتبتهم قولا أو فعلا ، ومن تعرض لهم بشيء من ذلك فتلزمه العقوبة الشديدة تأديبا له وزجرا لأمثاله ، والنائب المذكور يختار من يترجم عنه ويخدمه من المسلمين أو غيرهم ، ولا يلزم المترجمين عنه والخدام له شيئا من الجزية والغرامة ولا مايشبه ذلك ، واما القنصوات الذين هم خلاف النائب المذكور المستقرين بالمراسي لهم أن يختاروا ترجمان واحد وبواب واحد ومتعلمين من المسلمين أو من غيرهم ، ولا يلزمهم الجزية ولا الغرامة ولا ما يشبه ذلك ، وإذا جعل النائب المذكور خليفة في خدمة تقنصوات[8] بمراسي سلطان مراكش من رعية السلطان يكون هو وعياله الساكنين بداره موقرين محترمين ولا يلزمهم جزية ولا غرامة ولا ما يشبه ذلك ، ولا يكون له احد تحت حمايته من رعية هذه الايالة الا عياله فقط ، ويؤذن للنائب المذكور وللقنصوات المذكورين في اتخاذ موضع لصلاتهم ، وفي جعل السنجاق[9] لجنسهم في كل وقت بأعلا ديارهم التي تكون بأيديهم داخل المدينة أو خارجها وفي زورقهم إذا ارتحلوا في البحر ، ولا يلزم النائب والقنصوات المذكورين صاكة[10] على حوائجهم وأثاثهم ومسائلهم التي

---

(7) في الأصل مرسة . وكتبت كلمة مرسى في هذه المعاهدة مرة بألف مقصورة ومرة بتاء مربوطة . فرؤى كتابتها بألف مقصورة في جميع هذه المعاهدة كما تقتضيه قواعد الكتابة العربية.

(8) مصدر صناعي بربري الصيغة ، المراد به خدمات القناصل وأعمالهم.

(9) العلم ، الراية ، والكلمة تركية.

(10) رسوم التصدير والتوريد الواجبة للدولة.

ترد عليهم لايالة مراكش لأنفسهم ولأهل دارهم في الايالة المذكورة . والنائب والقنصوات المذكورين حيث تصل حوائجهم وأثاثهم للمراسي يحتاجون أن يوجهوا للأمين خط أيديهم بالتاريخ يذكر فيه عدد ما يريدون جوازه من حوائجهم . وهذا الانعام لا يكون إلا للقنصوات الذين لا يتجرون . وإذا دعتهم خدمة سلطانهم أو وجه آخر الى خروجهم لا يمنعون من ذلك بوجه من الوجوه . ولا يثقف لا هم ولا خدامهم ولا حوائجهم ولا أمتعتهم ، بل هم على حريتهم في ذهابهم وأيابهم موقرين مكرومين . والنائب والقنصوات المذكورين لهم ما يكون في المستقبل لنواب وقنصوات الأجناس من الزيادة في ذلك.

الشرط الرابع

رعية أكرت برطن لهم أن يسافروا ويستقروا ويسكنوا حيث شاءوا بايالة سلطان مراكش دون تعرض ولا منع من أحد ، نعم يتبع في ذلك قانون حاكم البلد مثل رعية خاصة الأجناس . ولهم الحق أن يكتروا ويجزوا[11] الديار والمخازن . وإذا لم يجدوا محلا موجودا يصلح بهم لديار سكناهم ومخازنهم فإن المخزن يعينهم على موضع ان كان المحل الذي يليق للبناء في محل سكناهم المعلوم لهم ليبنوا فيه ديارهم ومخازنهم . ويتفق كتابة مع مخزن البلد على مصروف زينتهم[12] قدر ما يبقى بأيديهم من السنين . ولا يخرجهم أحد من ذلك المحل الى أن تتم المدة المذكورة المتفق عليها . ولا يلزمهم شيء على أي وجه كان غرامة وما في معناه . ولا يلزمهم خدمة المخزن برا أو بحرا . ولا يلزمهم أيضا تسليف مالهم كرها أو اعطاء شيء دون خواطرهم . وديارهم ومخازنهم وما قاربهم للسكنى أو للتجارة يكون موقورين . ولا بحث ولا تفتيش كرها في ديار رعية أكرت برطن ولا بكنانيش تجارتهم ومكاتبهم وكواغطهم[13] إلا باذن وموافقة من القنص خنرال أو القنص أو نوابهم فقط . وعلى كل حال عاهد سلطان مراكش بأن رعية أكرت ابرطن المستقرين بايالة ونواحي سلطان مراكش يكون لهم الحق والأمن في أنفسهم وأمتعتهم مثل ما يكون لرعية

---

(11) الجزاء ضريبة سنوية أو شهرية يؤديها من يبني فوق أرض مخزنية لا يملكها والفعل جزي يجزي أي أدى الجزاء يؤديه.

(12) الزينة ما يبنيه الإنسان فوق أرض ليست في ملكه.

(13) الكناش السجل . الدفتر . والكواغط جمع كاغط ورق الكتابة.

سلطان مراكش في ايالة سلطانة اكرت ابرطن ، وسلطانة اكرت ابرطن عاهدت بأن رعية سلطان مراكش يكون لهم بايالتها الحماية والاعانة مثل ما يكون لرعية خاصة الأجناس .

الشرط الخامس

من كان ساكنا من رعية أكرت ابرطن أو تاجرا في ناحية من نواحي أيالة سلطان مراكش ، فلهم الأمن التام على أنفسهم وأموالهم ، ويتدينون بما هو من أمور دينهم من غير أن يتعرض لهم أحد بمنع أو سب على ذلك ، وتعين لهم مقبرة لدفن موتاهم ويخرجون لدفنها ءامنين محفوظين في ذهابهم وايابهم ، ولهم أن يوجهوا في قضاء اغراضهم من يريدون من أصحابهم في البر والبحر من غير منع ولا تثقيف . وإذا كان لتاجر أكرت ابرطن مركب في مرسى من مراسي سلطان مراكش أو في خارجها ، فله أن يطلع اليه بنفسه أو بمن يريد من أصحابه من غير أن يلزمه هو ولا أصحابه غرامة على ذلك .

الشرط السادس

كل من هو من طاعة سلطانة أكرت ابرطن أو في حمايتها لا يكلفه أحد ببيع ولا بشراء الا برضاه ، ولا تسلط لأحد من المسلمين على امتعة تجار أكرت ابرطن وأموالهم الا ما يعطونه بخاطرهم ، ولا يوخذ منهم شيئ من ذلك الا ما وقع الاتفاق عليه بينهما ، وعلى هذا المنوال يكون العمل بينهما في ايالة سلطانة اكرت برطن.

الشرط السابع

كل من هو من رعية سلطانة أكرت برطن أو من حمايتها لا يلزم باداء دين ترتب على غيره من أهل جنسه الا ماكان ضامنا له من ذلك برسم أو بخط يد ، وكذلك ما يكون من الديون لرعية أكرت ابرطن على أحد من رعية سلطان مراكش فلا يلزم غيره بادائه عنه إلا أن يكون ضامنا له برسم أو بخط يد.

الشرط الثامن

جميع الدعاوى الكبار والشكايات وجميع الخصومات وأسباب ذلك أو ما يحدث من ذلك بين رعية أكرت ابرطن فإن القونص خنرال أو القونص أو خليفته

أو نائبه هم يحكمون ويفاصلون عليهم فقط ولا يدخل في أمرهم أحد قائد كان أو قاضي ولا غيرهما من ولاة المغرب ، لاكن في كل دعوى أو خصومة تصدر من رعية أكرت ابرطن مع بعضهم لا ترفع دعواهم ولا يتوجه إلا لقونص خنرال أو القونص أو ولاة أكرت ابرطن فقط.

الشرط التاسع

فإن جميع الدعاوى والشكايات وخصومات الشرع أو أسباب الخصام التي تصدر بين رعية سلطان مراكش ورعية سلطانة أكرت ابرطن فصالهم كما سيذكر فيما هو ءات :

وذلك إذا كان مشتكي من رعية اكرت ابرطن والمشتكى به من رعية سلطان مراكش فإن حاكم البلد أو من نواحيها أو القاضي حسبما هو لائق بالدعوى يكون له فيها الحكم فقط ، وعليه فإن كان صاحب الدعوى من رعية أكرت ابرطن يرفع شكواه للحاكم أو القاضي لمن يكون له الأمر بواسطة القونص خنرال أو القونص أو وكيله ، ولهم الحضور في محل الحكم على الدعوى ، ومثل ذلك إذا كان المشتكي من رعية سلطان مراكش والمشتكى به من رعية سلطانة أكرت ابرطن يرفع شكواه لمحل الحكم والفصال لقونص خنرال أو خليفته أو نائبه بواسطة عامل المسلمين أو القاضي من رعية المغرب ، والحاكم أو القاضي أو من ناب عنهم لهم الحضور ان شاءوا وقت الفصال في الدعوة ، وإن كان أصحاب الدعوى من رعية اكرت ابرطن أو من رعية المغرب لم يرضون بحكم الحاكم أو القاضي أو القونص خنرال أو القونص بحكم من كان له الحكم في ذلك فلهم رفع دعواهم لنائب السلطان في أمور الأجناس أو للنائب المفوض في أمور سلطانة أكرت ابرطن.

الشرط العاشر

إذا أحد من رعية أكرت ابرطن رضي بدعوى مع أحد من رعية سلطان مراكش لدى ولاة ايالته على دين ترتب عليه بايالة اكرت ابرطن فإنه ينبغي أن يستظهر بحجة كتابة العربي أو بالعجمي منزل عليها صاحب دعواه بخط يده امام القونص أو خليفته أو نائبه المتولى من جانب سلطان مراكش وشهد عليه بذلك القونص المذكور أو لدى شاهدين من أي جنس كانوا ومعرفا بالقونص المذكور أو نائبه في الحين أو بعد الحين أو بشهادة عدل من رعية أكرت أبرطن حيث تكون

المعاملة بمحل من ايالة أكرت ابرطن الذي ليس فيه قونص ولا خليفة من سلطان مراكش.

وهذه الحجة المذكورة حيث يكون شاهدا عليها القونص أو نائبه أو العدل على خط يد عامر ذمته كما ذكر. فإنها تكون جارية مقبولة لدى الولاة المدعى عندهم. وإذا أحد المدينين من رعية مراكش فر وهرب لبلد داخل ايالة مراكش الذي لم يستقر بها قونص اكرت ابرطن ولا نائبه فإن دولة المسلمين يلزم الهارب المذكور إذا كان بالمحل الذي فيه جارية المخزنية[14] بالمجيء والحضور لطنجة أو لمدينة أخرى أو مرسى أخرى من ايالة مراكش بأي محل رضي مدينه الدعوى والفصال لدى ولاة مراكش.

الشرط الحادي عشر

إذا القونص خنرال أو القونص أو خليفته أو نائبه من سلطان أكرت ابرطن يحتاجون من دولة المسلمين اعانة لهم في القبض أو الحمل لأحد من رعية أكرت ابرطن فإن الولاة يعينهم بالمخزنية أو عسة أو فلائك بسلاحهم لذلك. وتكون سخرتهم[15] مثل ما يعطون رعية سلطان مراكش.

الشرط الثاني عشر

إذا أحد من رعية سلطان مراكش ثبت عليه عند القاضي بموجب شريعة المسلمين الزور في شهادته بقصد الضرر لأحد من رعية أكرت ابرطن فإنه بزجره الزجر الشديد ولاة مراكش، وكذلك القونص خنرال اكرت ابرطن أو القونص أو خليفته أو نائبه إذا ثبت على أحد من رعية اكرت ابرطن زور على أحد من رعية مراكش يزجر زجرا شديدا على مقتضى شرع أكرت ابرطن.

الشرط الثالث عشر

كل من هو من رعية سلطانة أكرت ابرطن مسلمين كانوا أو يهود أو نصارى يكون لهم السوا في الحقوق والمنافع المتفق عليها في هؤلاء الشروط وكذلك في اتفاق شروط أمور التجارة والمراكب الذي وقع الفصال فيها والطبع في هذا اليوم[16] أو ما

(14) المخزنية يعني أحكام الدولة وقوانينها وسلطتها.

(15) السخرة مبلغ من المال يؤديه شخص لشخص آخر يقوم بعمل لمصلحته.

(16) يريد شروط الاتفاقية التجارية التي ستأتي فيما بعد

يسلموا لجنس آخر من خواص الأجناس من بعد هذا الوقت في أي وقت كان.

الشرط الرابع عشر

إن كل دعوة كبيرة أو خصومة أو أسباب الشكايات الذي يصدر من رعية أكرت ابرطن مع رعية اجناس أخر لا يدخل ولا يبحث في دعواهم قواد ولا قضاة ولا غيرهم من ولاة مراكش ، نعم إذا ظلم أحد من رعية مراكش في ذلك الدعوى في نفسه أو متاعه لهم الدخول حينئذ ، ويكون حاضرا أحد من ولاة المسلمين أو من ينوب عنه لحل الحكم بموضع القونص ، وجميع هذه الدعاوى يكون الفصال فيها لدى القنصوات في محل خدمتهم فقط دون دخول لولاة مراكش في ذلك . ويكون الفصال والحكم على مقتضى القوانين المعلومين أو بما يقتضى نظر القنصوات المذكورين .

الشرط الخامس عشر

وقع الفصال وانعقد بين الجانبين العظيمين بان لا يقبل في خدمتهم ولا يستقر بايالتهم أحد من رعية الجانبين الذي كان في خدمة جنسه وفر منها سواء كان خدمته بالبر أو البحر ، بل كل أحد من الجانبين ينفي من خدمته الفارين المذكورين وقت الطلب لذلك ، وكذلك وقع الفصال إذا أحد من بحرية المراكب البرزكان[17] للجانبين فروا من مراكبهم لايالة أحد الجانبين ووقع عليهم الطلب فإن لم يكن فيهم كسب ولا هو من رعية الجانب المطلوب منه ، فولاة الموضع مرسى كانت أو غيرها يقبضهم ويدفعهم ويعينوا القونص خنزال أو القونص أو خليفته أو نائبه فيما يحتاجون لذلك وقت طلبهم ، ولا يحمي ولا يعين أحد ذلك الفارين.

الشرط السادس عشر

كل أحد من رعية سلطانة أكرت ابرطن مدين أو كان متدينا بدين الاسلام لا تنقص له حماية ولا منفعة وحقوق يستفيدها رعية أكرت ابرطن الذين هم نصارى ، لكن جميع رعية أكرت ابرطن على أي دين كانوا يكون لهم الحق والنفع على مقتضى هذه الشروط متساوين دون فرق .

الشرط السابع عشر

رعية سلطانة أكرت ابرطن كائنا من كان ، إذا كانوا في ايالة سلطان مراكش

(17) البرزكان الأسطول التجاري . وعكسه القرصان الأسطول الحربي

في وقت الصلح أو في وقت الحرب فلهم الحرية الكاملة في ذهابهم لبلدهم او لبلد آخر ، وفي ركوبهم في أي مركب من مراكب الأجناس ، ولهم أيضا التصرف بما شاءوا في سلعهم وأموالهم وغير ذلك من أنواع التصرفات ، ولهم أن يصحبوا معهم قيمة جميع المسائل المذكورة ، ويحملوا معهم عيالهم وخدامهم ، وإن كانت نشأتهم وتربيتهم ببر المغرب أو في موضع خارج عن ايالة سلطانة أكرت برطن من غير أن يتعرض لهم أحد بمنع وتثقيف ، ومثل ذلك يكون كله لرعية سلطان مراكش ممن كان منهم في ايالة سلطانة أكرت برطن.

الشرط الثامن عشر

إذا مات أحد من رعية سلطانة أكرت ابرطن أو أحد بمدينة أو بلد وهو في حمايتها ومات في ايالة سلطان مراكش ، فجميع أموالهم وأمتعتهم لا يتصرف فيها أحد من ولاته بتثقيف ولا يبحث معهم أحد في ذلك ، بل جميع أموال الميت وما كان تحت يده وفي حوزه من الأمتعة يأخذه ويحوزه وصيه الذي سماه في وصيته واختاره لذلك كورثته ان كانوا حاضرين ، فإن كان الوصي والورثة غير حاضرين فإن القونص خنرال أو القونص أو خليفته أو نائبه يأخذ جميع ذلك بعد أن يحصيه في زمام مبين فيه كل مسئلة بعينها ، ويجعل ذلك في حوزه حتَّى يدفعه بيد ورثة الميت ، فإن لم يكن للميت المذكور وصي أصلا فالقونص خنرال أو القونص أو نائبه يحوز المتروك بأجمعه ويحفظه عنده لورثة الميت أو أقاربه.

وإذا ترك الميت دينا على أناس فإن عامل البلد أو غيره ممن له التصرف في تلك البلد يلزم المدينين أن يدفعوا الدين عليهم للقونص خنرال أو القونص أو نائبه حفظا لورثة الميت أو أقربائه ، وكذلك إذا كان على الميت دين لأحد من رعية سلطان مراكش فالقونص خنرال أو القونص أو نائبه يقف له على متاعه حتَّى يقبضه.

الشرط التاسع عشر

هذه الشروط وما انعقدوا عليه ، يشمل ويعم جميع ايالة سلطانة اكرت ابرطن وجميع الرعيات الذين هم في طاعتها وجميع من سكن في بلد أو مدينة من جملة مملكتها ، وكذلك رعيتها الذين هم بجبل طارق وسكانها ، وكذلك الساكنين بالجزر المتصلات ينين الذين هم في حمايتهم . فإن جميع من ذكر بمثابة أكرت برطن لا فرق بينهم وبين من نشأ في بلد اكرت برطن أو خارج عنها ، فإذا تملكت سلطانة

اكرت برطن مدينة أو بلدا في المستقبل ودخلوا تحت طاعتها وحكمها بالغلبة أو الصلح أو بالشروط فإن أهلها وسكانها يكونون بمثابة اكرت ابرطن فيما ذكر حتَّى كأنهم داخلين فيها أول مرة.

الشرط العشرون

رعية سلطانة اكرت ابرطن ومن هو تحت حكمها يكون لهم جميع المنافع ووفور النعم الذين هم منعقدين بهؤلاء الشروط ، وجميع ما سلم لرعية من عداهم من الأجناس من بعد تاريخ هذه الشروط يكون لهم ، وما يتجدد من ذلك في المستقبل يكون فيه لرعية اكرت برطن مثل ماهو لرعية من جنس آخر.

الشرط الحادي والعشرون

إن حمل أحد من رعية سلطان مراكش في مركب لجنس هو في الحرب مع سلطانة اكرت ابرطن وغنم أكرت ابرطن هذا المركب فإن المسلم لا يتعرض له ويترك على حريته هو وأمتعه المحمولة معه في المركب المغنوم ليخلي سبيله يذهب حيث شاء هو وأمتعته ، وإذا ركب أحد من رعية اكرت ابرطن في مركب لجنس ليس داخلا في الصلح والمهادنة مع سلطان مراكش وغنم ذلك المركب قرصان من قراصين سلطان مراكش فإن من وجد فيه من رعية سلطانة أكرت برطن لا يتعرض له ولا لأمتعته التي في المركب المغنوم ، بل هو على حريته يخلى سبيله ويذهب بأمتعته حيث شاء من غير تثقيف ولا مهلة في ذلك.

الشرط الثاني والعشرون

إذا مركب لسلطانة اكرت برطن عنده البطنط [18] وغنم مركبا وجاء بها الى مرسَى من ايالة سلطان مراكش فلها أن يبيعوا ذلك المغنوم والسلعة المغنومة من غير أن يمنعهم أحد من ذلك ، ولهم أن يذهبوا بغنيمتهم ويخرجوا بها إلى حيث شاءوا.

الشرط الثالث والعشرون

إذا مركب لسلطانة اكرت برطن اقحمه مركب لعدوه تحت رماية من سواحل ايالة سلطان مراكش فإن له الاحترام ويدافع عنه ولاة مراكش ما أمكن. ومثل

---

(18) البطنط كلمة أعجمية المراد بها هنا على ما يظهر براءة تسجيله في سجل الأسطول الرسمي

ذلك يكون لمراكب سلطان مراكش في جميع سواحل ايالة سلطانة اكرت ابرطن.

الشرط الرابع والعشرون

إذا كان قرصان من القراصين ليس لسلطان مراكش ولا لسلطان اكرت ابرطن وعنده بطنطة لجنس هو في الحرب مع سلطان مراكش أو مع سلطانة اكرت ابرطن فلا يسامح له أن يقيم بمرسى من مراسي الجانبين . ولا يبيع بها الغنائم التي غنمها ولا يبدل بها سلعة أو وسقا لغيره ، وكذلك لا يسامح أن يعين بشيء من الاقامة لمركبه ولا بشيء من المأكولات الا بقدر ما يوصله منها لاقرب بلده.

الشرط الخامس والعشرون

إذا وجد مركب لجنس هو في الحرب مع سلطانة اكرت ابرطن بمرسًى من مراسي سلطان مراكش أو بساحل من سواحله وكان هنالك مركب لسلطانة أكرت ابرطن أو لرعيتها فإنه لا يسامح لمركب عدو سلطانة أكرت ابرطن أن يقحم على مركب سلطانة اكرت ابرطن أو يتعرض له بسوء ، ولا يسامح لمركب العدو أن يخرج بأثر مركب سلطانة اكرت برطن إذا كان لأهل المحل قدرة على منع مركب العدو ، وبمثل ذلك يعاملون في سائر مراسي سلطانة كرت برطن وسواحلها جميع مراكب سلطان مراكش ورعيته.

الشرط السادس والعشرون

إذا كانت مراكب قرصان أو مراكب تجار اكرت برطن دخلوا بمراسي سلطان مراكش أو الى ساحل من ايالته واحتاجوا للمأكولات أو للفرشك فلهم أن يشتروا من ذلك ما يحتاجوا لأنفسهم بالسعر الموجود في الوقت الذي يكفيه للبلد المسافر لها ، ومكوله[١٥] الذي يجزيه مدة اقامته في المرسى من غير عشر.

الشرط السابع والعشرون

المراكب أو الفلايك الصغار المكتريين بأمر دولة أكرت ابرطن لحمل المكاتب أو باتفاق على حمل المكاتب لدولة أكرت برطن لهم الاحترام والخصوصية مثل المراكب القراصين إذا لم يبيعوا ولا يشتروا مع البلد بمراسي ايالة سلطان مراكش .ولم

(19) اقرأ : مأكوله الذي يكفيه

يحملوا من هذه الايالة شيئا من السلعة . وإن حملوا سلعة يلزمهم مثل البرزكان.

الشرط الثامن والعشرون

مراكب رعية الجانبين وسكان ايالتهما إذا دخل منهم أحد لساحل من سواحل الجانبين ولم يرد الدخول الى المرسَى أو دخل ولم يرد أن يبين ولا أن يبيع وسقه فلا يلزمه أن يبين ما عنده في مركبه ، ولا يبحث أحد فيما عنده ولا يفتش بوجه من الوجوه ، لاكن خدام المرسَى لهم الاذن في جعل العسة بالمركب مدة مرساه بالمرسَى على مخطف لمنع الكنطربنض.

الشرط التاسع والعشرون

إذا جاء مركب من مراكب سلطانة أكرت برطن لمرسَى من مراسي سلطان مراكش وكان في المركب المذكور وسق وأراد أن ينزل بعض ذلك الوسق المعين لتلك المرسَى فإنه لا يلزمه الاصاكة ما أنزله فقط ، ولا يطالب بصاكة مالم ينزله ، بل هو على حريته (في) خروجه يسافر به حيث شاء في مركبه بنفسه وبمن معه ، ومنفشط[20] اعني زمام وسق المركب يدفع بيد ولاة المرسى حالة وصوله اليها ، وولاة المرسى لهم البحث في المركب حالة وصوله ووقت سفره ، وأن يجعلوا العسة في المركب لمنع الكنطربنض ، وعلى هذا المنوال يكون العمل في مراسي سلطانة أكرت برطن مع مراكب سلطان مراكش . ولابد أن يصحب بيدهم رؤساء المراكب لمنفشط بما عندهم من الوسق لمسافرين به من قونصهم أو نائبهم ، ويظهره لامناء المراسي ليبحثوا ان ليس لهم كنظربنض في الوسق.

الشرط الثلاثون

لا يلزم رؤساء مراكب أكرت ابرطن في مراسي سلطان مراكش ولا يلزم رؤساء مراكب ايالة مراكش في مراسي اكرت ابرطن أن يحمل في مركبه احدا من الناس ولا من السلع كائنا من كان بوجه من الوجوه الا بخاطره وكذلك لا يلزمه أن يسافر إلى بلد لا يريد السفر إليه ولا أن يثقف مركبه بوجه من الوجوه .

---

(20) المنفشط أو المنفشطو كلمة أعجمية دخلت اللغة الادارية المغربية في القرن الماضي . ومعناها قائمة بها بيان ما بالسفينة أو المركب من سلعة.

الشرط الحادي والثلاثون

إذا اكترى أحد من رعية سلطان مراكش مركبا لسطانة أكرت ابرطن على أن يحمل فيه سلعة أو ناسا من بلد إلى بلد أخرى من ايالة سلطان مراكش والجأت الريح أو البحر ذلك المركب في حال سفره بما ذكر الى الدخول لمرسة أخرى فانه لا يلزم رئيس ذلك المركب اعطاء واجب مخطاف ولا صاكة ولا غير ذلك بنسبب دخوله تلك المرسى مالم ينزل شيئا أو يحمله ، واما إذا انزل فيها شيئا او حمله فيعامل معاملة مراكب الوسق.

الشرط الثاني والثلاثون

مراكب رعية ايالة اكرت برطن التي وقعت بها مضرة في البحر ودخلت لمرسى ايالة سلطان مراكش بقصد الاصلاح فإنهم يقبلونها ويعينوها بكل ما يتوقفون عليه من الاقامة والالات مدة مقامهم وفي سفرهم للبلاد التي قصدوها ان كانت الاقامة من الآلات موجودة في ذلك المحل ويشترونها أهل المركب لأنفسهم كما يشترونها غيرهم ، ولا يثقفون ولا يمنعون من سفرهم بوجه من الوجوه.

الشرط الثالث والثلاثون

إذا مركب لسطانة أكرت برطن أو لرعيتها حرث أو تكسر في ناحية من نواحي ايالة سلطان مراكش فله الاحترام والاعانة فيما يحتاج اليه بما يوافق المحبة ، والمركب كله وجميع ما فيه من الوسق والسلع التي تنجوا من الغرق والتي خرجت بعده لا يختفي عنهم شئ من ذلك ولا يضيع لهم شئ منه بوجه من الوجوه ، بل جميع ذلك لاربابه أو للقونص خنزال أو القونص أو وكيله ليدفعه الى أربابه ؛ وإن كانت في المركب المحرث سلعة وأراد أربابها بيعها على خواطرهم في ايالة سلطان مراكش يعطوا ماهو واجب في عشرها ، وإن كانت السلع التي فيه موسوقة من أحد مراسي سلطان مراكش فلا تلزمه صاكة أخرى ولا عشر[21] عدا ما كان خلصه أولا ، وصاحبها له الخيار في البيع أو الوسق ، والرئيس مع البحرية يتركون على حريتهم ويركبون إلى أي ناحية أرادوا وفي أي وقت شاءوا من غير منع لهم في ذلك ، ولمركب سلطان مراكش أو رعيته مثل ذلك ببلد سلطانة أكرت ابرطن ، وإذا

(21) كتبت كلمة العشر في هذه المعاهدة مرة بمد الشين (عشور) ومرة بدون مد كما الواجب . فرؤى كتابتها الكتابة الصحيحة في جميع الفصول التي وردت فيها.

حصل تحريث لمركب سلطانة اكرت ابرطن بواد نون أو بناحية من سواحله[22] فان سلطان مراكش يستعمل جهده في تحصيل بحريته حتّى يركبون الى بلادهم ، وحتّى قونص خنزال أو قونص أكرت برطن أو وكيله يؤذن له في البحث والوقوف ما أمكنه في تحصيل بحرية مركب حرث في تلك الناحية ويعينه على ذلك ولاة سلطان مراكش بما يوافق المحبة .

الشرط الرابع والثلاثون

جانب سلطان مراكش وجانب سلطانة اكرت ابرطن اتفقوا في اعمال جهدهم بقطع الزمنطوط[22] وسلطان مراكش عهد أن يعمل جهده في البحث والزجر لجميع من هو بسواحله أو ايالته المشتغلين بهذا الفعل ، وان يعين سلطانة اكرت ابرطن في هذا الأمر بعقوبة من يظهر في ايالته من الزمنطوط .

الشرط الخامس والثلاثون

إذا وقع من أحد رعية الجانبين أو في مركب من مراكبهما ما يخالف شرطا من هذه الشروط عن قصد أو عن غير قصد فلا ينقض الصلح بذلك ، بل يبقى محفوظا ثابتا مقيما دائما على رسوخه وصفوه إلى أن يكتب بفعله الى سلطانة فلا ينكر عليه ، وإذا رام رعية أحد من الجانبين فساد هذا العقد أو فساد شرط من شروطه فإن سلطان من رام ذلك يلزمه الأدب ويعاقبه عقوبة شديدة على فعله.

الشرط السادس والثلاثون

إذا وقع نقض لهذا الصلح والمحبة التي بين الجانبين وجاء من ذلك حرب نعوذ بالله منه فجميع ايالة سلطانة اكرت ابرطن ورعيتها ومن في حمايتها ممن هو داخل ايالة سلطان مراكش في أي مرتبة كان يكون لهم الذهاب لأي ناحية ارتضوها من الدنيا ، ولهم حمل امتعتهم وعيالهم وخدامهم سواء خلقوا بايالة اكرت ابرطن أو لا ، ولهم الركوب في أي مركب أرادوا من مراكب الأجناس ، ويكون لهم الأجل

---

(22) يراد بهذه السواحل شواطئ الصحراء المغربية الممتدة من وادي نون إلى نهر السينغال ، وسكان هذه النواحي المغربية عرب رحل كانوا لا يستقرون بمكان وإنما ينتجعون الكلأ حيث كان ، فلهذا نص على هذه الناحية التي لم يكن الحكام مستقرين في مكان معين منها ، وإنما كانوا ينتقلون مع محكوميهم ويطبقون عليهم الأحكام المخزنية وينفذون الأوامر الملكية .

(23) الزمنطوط لصوص البحر في الاصطلاح الاداري المغربي القديم .

في ذلك ستة أشهر لمن طلبه لاصلاح أموره وبيع سلعه أو يفعل بها ماشاء خاطره ، ولهم في خلال تلك المدة الحرية الكاملة والأمان التام على أنفسهم وأموالهم من غير أن يتعرض لهم بمكروه أو منع بسبب ما ذكر من الحرب أو غيره ، وللولاة اعانتهم ومساعدتهم في صلاح أموالهم والوقوف معهم في قبض ديونهم من غير مماطلة ولا مكافحة ولا مهلة في شيء من ذلك . ومثل ذلك كله يكون لرعية سلطان مراكش في جميع ايالة سلطانة اكرت ابرطن .

الشرط السابع والثلاثون

هؤلاء الشروط المنبرمة ، لازم شهرتها لرعية الجانبين ليلا يقع لأحد جهل في شروطه ، فتخرج منه نسخ وترسل للقواد والأمناء الواقفين على قبض الداخل والخارج في جميع مراسي سلطان مراكش ولرؤساء قراصينه .

الشرط الثامن والثلاثون

هذه الشروط المذكورة يطبع عليها سلطان مراكش وسلطانة أكرت ابرطن ويتمسك بها كل واحد من الجانبين في مدة أربعة أشهر من تاريخه ، وحين يتمسك كل واحد من الجانبين العظيمين بهذه الشروط مع شروط التجارة والمراكب التي وقع الفصال عليها في هذا التاريخ يجري عليها العمل وتكون ناسخة للشروط المتقدمة بين ايالة مراكش وايالة اكرت ابرطن .

وبهذا تفاصل النائبين المفضوضين المذكورين ، وختم بخط يدهما وطابعهما على ذلك في المدينة السعيدة طنجة حرسها الله آمين ، في عاشر من شهر ربيع الثاني عام ثلاثة وسبعين ومئتين وألف ، الموافق التاسع من دجنبر من سنة المسيح ستة وخمسين وثمانمئة وألف.

خديم المقام العالي بالله محمد الخطيب وفقه الله (ثم طابع مستدير قطره نحو 25 ميليميتر . ونقشه : خديم المقام العالي بالله محمد الخطيب وفقه الله).

وتحته امضاء النائب الانجليزي م. دريموند هاي بالحروف الافرنجية ثم طابعه باللك الأحمر .

ملحق رقم (7)

الاتفاقية التجارية البحرية 1856[24]

الحمد لله وحده.

سلطان مراكش وفاس
وسلطانة الايالات المتصلات اكرت برطن وأرلنض

حيث مرادهم في الاكثار والازدياد في الخير في أمور التجارة والمراكب الكائنتين بين الدولتين والرعيتين ارادوا الاتفاق على ذلك وعينوا له من فوضوه.

سلطان مراكش .وفاس عين نائبه الفقيه السيد محمد الخطيب.

وسلطانة أكرت برطن وأرلنض عينت المفوض في أمورها وقونص خنرال الكبلير[25] هي ادرمند هي موجها لجانب سلطان مراكش.

وبعد ظهور ما بأيديهم من الظواهر لبعضهم بالتفويض ، اتفقوا وتفاصلوا على الشروط الآتيات :

الشرط الأول

تكون التجارة جارية مساوية بين ايالة سلطان مراكش وبين ايالة سلطانة اكرت برطن .

فرعية سلطانة اكرت برطن لهم الاتيان والسكنى والبيع والشراء في جميع مراسي سلطان مراكش دون أمد محدود في كل ناحية من نواحي سلطان مراكش ، وفي كل محل يستقر فيه غيرهم من الأجناس فإنهم يستقرون فيه كذلك ، ولهم الكراء

---

(24) الوثائق - المجموعة الثانية ض 201 — 213 (النص- والحواشي).

(25) الكبلير كلمة اسبانية معناها الفارس

والاجزاء[26] وأعمال الديار والمخازن لسلعهم . ويكون لهم الأمن في أنفسهم وأمتعتهم حسبما ذلك مبين في الشرط الرابع من شروط الصلح والمهادنة . ولهم البيع والشراء مع من شاءوا في جميع أنواع التجارة إلا ماهو مذكور في الشرط الثاني من هذه الشروط . ويتجر بالجملة أو بالتقاضي[27] بكل ناحية من نواحي ايالة سلطان مراكش دون تعرض ودون ضرر بكنطردات[28] وشبهها . ودون تخصيص في أنواع متاجر البيع والشراء الا أنواع التجارة الداخلية والخارجية المذكورين في الشرط الثاني . ولهم جميع المنافع والتخصيص الكائنة والتي تكون بعد هذا التاريخ لأحد من محب الأجناس أو لغيرهم من بعد هذا . ورعية سلطان مراكش لهم مثل ذلك في الانتفاع والتخصص وغير ذلك مثل ما يكون لأحد من رعية جنس محب بايالة سلطانة اكرت برطن .

الشرط الثاني

سلطان مراكش عهد باسقاط الكنطردات والممنوعات في المتاجر الا طابغة[29] والأفيون والكبريت والبارود وملحته والخفيف[30] وءالة الحرب وسلاح الحرب . وباسقاط الكنطردات في جميع المخرجات من أي نوع كانت بايالته الا العلق والدبغ وطابغة والذي يشبهها من الربيع[31] الذي يشرب في الدواية.

الشرط الثالث

لا يلزم مكس ولا غرمة ولا اعشار ولا ما يشبه ذلك لأحد من رعية سلطانة

---

(26) الاجزاء اي اداء الجزاء. وهو مبلغ مالي سنوي يؤديه الباقي فوق أرض مخزنية . كما أنه من الأنظمة العقارية التي ظهرت في المغرب منذ العصر الاسلامي الأول . والعقار الذي يكون خاضعا لهذا النظام يقسم الى جلسة وزينة . فالجلسة هي أصل العقار التي تملكه الدولة أو شبهها والزينة ما يبنيه المنتفع فوق الجلسة من متجر أو مسكن ومقابل الانتفاع يؤدى الجزاء . وما زال هذا النظام موجودا في بعض المدن والجهات المغربية . وقد كانت احياء كثيرة بكبريات الحواضر خاضعة له . كجزاء ابن عامر وجزاء برقوقة بفاس . وحي الجزاء بالرباط .

(27) التقاضي اي التفاصيل . ومن معاني التقاضي أيضا ارجاء الدين مقسطا .

(28) الكنطردة كلمة اسبانية دخلت العامية المغربية معناها العقدة . والمراد بها هنا ماكان يختص المخزن به فردا أو جماعة من امتياز تصدير بعض المواد أو توريدها لمدة معينة مقابل اداء مبلغ مالي سنوي معين لخزينة الدولة . وقد كان هذا الامتياز أو الاحتكار يمنح أحيانا على أساس سمسرة عمومية . فيناله أكبر مزايد .

(29) طابغة التبغ وكلتا الكلمتين عجمية

(30) الخفيف الرصاص في العامية المغربية . من باب تسمية الشيء بضده

(31) الربيع النبات والحشيش في العامية المغربية . والمراد به هنا نوع التبغ الذي يدخن في الغليون (الدواية) !

اكرت برطن في شراء أنواع السلع الخارجة بأي وجه في جميع نواحي سلطان مراكش ، اشتروا ذلك بأنفسهم أو نوابهم ، إلا ما يلزمهم من الصاكة حسبما هو مذكور في الشرط السابع ، لكن أنواع السلع المشتراة تحمل من كل موضع من المغرب وتوسق من كل مراسي الايالة دون مكس ولا غرمة ولا أعشار ولا ما يشبه ذلك الا الصاكة المذكورة في الشرط السابع ، ولا يلزم اذن ولا ما يشبه ذلك لحمل السلع ووسقها ، ولا يمنع أحد من خدام رعية السلطان أو يثقف حمل السلع أو وسقها الا المسائل التي اقتضى نظر سلطان مراكش المنع من وسقها كما هو مذكور في الشرط الخامس . ولا يقبض شيئا من الدراهم على ذلك بأي وجه كان ، وإذا أحد من الخدام أومن الرعية يفعل ما ذكر فإن السلطان يزجره في الحين زجرا شديدا خديما كان أو من الرعية ان كان ظالما ، ويؤدي حينئذ ما ناب من الخسارة لرعية كرت برطن اذا بينوا ذلك الخسرة .

الشرط الرابع

رعية سلطانة كرت ابرطن الذين هم بايالة سلطان مراكش لهم الاشتغال بأنفسهم في أمورهم أو يعينوا من شاءوا بالنيابة والتوكيل في أمورهم وان يختاروا من شاءوا لأنفسهم ، ولا يلزمهم اداء شئ لأحد لم يعينوه لخدمتهم . نعم ، من كان منهم من رعية سلطان مراكش ينوبهم مثل ما ينوب سائر رعيته دون تعرض لأحد في البيع والشراء معهم ، ولا مدخل للولاة في أمور تجارتهم ، وإذا تعرض لهم قائد أو خديم في قدر الثمن من أمور البيع والشراء بين الرعيتين أو يمنعهم من البيع والشراء الداخلة والخارجة بايالة سلطان مراكش ، فإن الجانب المولوي يزجر خديمه عن فعله.

الشرط الخامس

إذا اقتضى نظر سلطان مراكش منع وسوق القوت أو القطاني . أو في نوع من أنواع السلع الخارجة فإن رعية كرت ابرطن يحملون ويوسقون جميع ماهو بمخازنهم أو مشتريا على أيديهم قبل ظهور المنع . ويستمر على عملهم في الحمل والوسق فيما ذكر مدة ستة أشهر من شهرة ظهور المنع . نعم لابد اليوم الذي يأتي الأمر من سلطان مراكش ويخبر التجار يجعل لهم يومين أجلا لبيان ما عندهم بمخازنهم مشتريا ويعطوا رسوم ما عندهم مشتريا بالبادية وغيرها . ولا منع يكون في الحمل والوسق في السلع الداخلة والخارجة لأحد من رعية كرت أبرطن حيث لم يكن ذلك على رعية الأجناس.

الشرط السادس

السلع وجميع أنواع المتاجر أن ورد بهم أحد من رعية كرت ابرطن بأي مركب كان او من أي ناحية كان لمراسي ايالة سلطان مراكش فإنه لا يمنع من نزول سلعه . ولا يلزمه فيها أعشار ولا غيره أكثر مما يلزم رعية سلطان مراكش أو رعية جنس آخر من بعد تاريخ هذه الشروط عدى الأنواع المذكورة في الشرط الثاني ، وجميع أنواع السلع الخارجة يحملها ويوسقها رعية كرت ابرطن ولا يلزمهم فيها أكثر مما يلزم في ذلك رعية الأجناس ورعية سلطان مراكش دون تخصيص وتمييز لغيرهم عدا الأنواع المذكورين في الشرط الثاني.

الشرط السابع

ولمقتضَى النفع والرفق اللاحق لأنواع السلع الموسوقات من ايالة سلطان مراكش في اعشرها حالة دخولها لايالة سلطانة أكرت برطن ، وكون المراد هو تقوية التجارة بين الايالتين كرت ابرطن ومراكش واستواء النفع بين الجانبين ، اقتضَى نظر سلطان مراكش ان اعشار السلع الداخلة بمراسي ايالته على يد رعية كرت برطن لا يؤدوا عليها أكثر من عشرة في المئة على تقويمها بالمال بالسعر الواقع بمرسى نزولها . ولا يوخذ عشرها من عينها ؛ كما أن السلع الخارجية من ايالة سلطان مراكش على يد رعية سلطانة كرت ابرطن لا يؤدوا في صاكتها أكثر مما هو مسطر في الزمام الآتي . وذلك ما سيذكر من الصاكة في :

السلع الخارجة	ميزان وعدد وكيل	أواقي [32]	ريال
القمح ريال واحد عن كل	فنيكة [33] عامرة		1
الشعير نصف ريال عن كل	فنيكة عامرة		1/2
التركية [34] والذرة نصف ريال عن كل	فنيقة مستوية		1/2
جميع أنواع القطاني نصف ريال عن كل	فنيقة مستوية		1/2

(32) ج وقية . في العدد عشر مثقال (وحدة نقدية) وتنقسم الى أربع موزونات . وفي الوزن جزء واحد من أجزاء الرطل الست عشرة . والأواقي هنا للعدد .

(33) فنيكة كلمة اسبانية معناها المد الذي تكال به الحبوب الزراعية . وكانت الكلمة مستعملة قديما في المراسي المغربية حيث كانت الحبوب الموسوقة أو المجلوبة تكال بها.

(34) التركية الذرة البيضاء

الدقيق ثلاثين أوقية عن كل	قنطار	30
الروز[35] ستة عشر أوقية عن كل	قنطار	16
الزوال[36] اثني عشر أوقية عن كل	قنطار	12
التمر أربعون أوقية عن كل	قنطار	40
اللوز خمسة وثلاثون أوقية عن كل	قنطار	35
اللتشين قالس وحلو[37] اثنا عشر أوقية عن كل	ألف	12
الزيت خمسون أوقية عن كل	قنطار	50
الزعتار مثقال واحد عن كل	قنطار	10
الكومة عشرين أوقية عن كل	قنطار	20
الحنة خمسة عشر أوقية عن كل	قنطار	15
الشمع — اثنا عشر مثقالا عن كل	قنطار	120
الصوف المغسولة ثمانية مثاقيل عن كل.	قنطار	80
الصوف غير المغسولة بخمسة وخمسين أوقية	للقنطار	55
جلد البقري والمعزي والغنم بصوفه ستة وثلاثون أوقية	للقنطار	36
جلد فيلالي وزواني وقشيني عشرة مثاقيل عن كل	قنطار	100
الانصاب، عشرون أوقية عن كل	ألف	20
الشحم، خمسون أوقية عن كل	قنطار	50
البغال، خمسة وعشرين ريال عن كل	راس	25
الحمير، خمس ريالات عن كل	راس	5
الغنم، ريال واحد عن كل	راس	1
المعز، خمسة عشر أوقية عن كل	راس	15
الدجاج، اثنين وعشرين أوقية عن كل	زينة[38]	22
البيض، إحدى وخمسين أوقية عن كل	ألف	51

(35) الروز بالعربية المغربية . والأرز بالعربية المشرقية

(36) الزوان

(37) اللتشين بالعامية المغربية هو البرتقال بالعامية المشرقية . والقالس هو الحامض . ويقال أيضا قازص.

(38) زينة ويقال أيضا طزينة كلمة اسبانية معناها اثنا عشر . وما زالت الكلمتان مستعملتين الى اليوم في العامية المغربية.

البلغة[39] سبعين أوقية عن كل	مئة	70		
شوك الزرب. خمسة أواقي عن كل	ألف	5		
الغسول. خمسة عشر أوقية عن كل	قنطار	15		
القفاف. ثلاثون أوقية عن كل	مئة	30		
الكروية. عشرون أوقية عن كل	قنطار	20		
مشطة العود خمسة أواقي عن كل	مئة	5		
الشعر. ثلاثون أوقية عن كل	قنطار	30		
الزبيب. عشرون أوقية عن كل	قنطار	20		
الكرازي عشر مثاقيل عن كل	مئة	100		
تكوت. عشرون أوقية عن كل	قنطار	20		
القنب والكتان أربعون أوقية عن كل	قنطار	40		
العاج				
النحاس				
ريش النعام أسود وأبيض				
بطانة الغنم مدبوغة بصوفها ستة وثلاثون أوقية لكل	قنطار	36		

سلطان مراكش له النظر في منع الموسوقات الخارجات، والذي يريد منعه يكون على ماهو في الشرط الخامس من هذه الشروط، وان أراد تسريها تكون صاكتها حسبا هي بالزمام اعلاه. وأما القمح والشعير إذا اقتضى نظره منع وسقها وتسريح ماهو من ذلك لجانب المخزن بالثمن الذي يريد فيه فله ذلك، وان أراد أن يزيد أو ينقص في ثمن البيع فيجعل لذلك أجلا للمشترين قبل كما هو مذكور في الشرط الخامس، وإن سرحه للرعية فصاكته كما هو بالزمام المذكور. وان اقتضى نظره الرفق والتخفيف من الصاكة في الزمام فنظره أوسع، ويكون لرعية اكرت برطن مثل ما يكون لغيرهم في الرفق والتخفيف في الصاكة.

الشرط الثامن

إذا أحد من رعية اكرت برطن أو نائبه اراد أن يوسق سلعة من أحد مراسي

(39) البلغة : الحذاء بالعامية المغربية.

ايالة مراكش بمرسى أخرى من الايالة المذكورة وكان قد أدى ثمن عشرها وقت دخولها فإنه لا يلزمه عشر مرة أخرى . نعم . يكون بيده خط امناء المرسي الموسوق منها تلك السلعة بأنه أدى عشرها.

الشرط التاسع

جميع أنواع سلعة ايالة مراكش ، إلا ماهو مذكور في الشرط الثاني من هذه الشروط ، إذا اشتراها أحد من ايالة اكرت ابرطن أو نائبه وأراد وسقها فإنه يحملها ويوسقها من أحد المراسي المعلومة فلا يؤدي عليها الا الصاكة المذكورة في الشرط السابع من هذه الشروط .

الشرط العاشر

لا يلزم لمراكب رعية اكرت برطن ولا لسلاعهم الداخلة والخارجة واجب انخطاف[40] ولا ملزوما آخر من لوازم المراكب ولا أعشار في جميع مراسي ايالة سلطان مراكش أكثر مما يلزم مراكب ايالة مراكش . وكذلك السلعة الموسوقة في مراكب ايالة مراكش داخله كانت أو خارجه . ولا يعطوا في انخطاف ولا في غيره من مصاريف المراكب أكثر مما سيذكر . وهو أن كل مركب يؤدى في المخطاف ست موزونات[41] عن كل طنلض[42] إلى مئتين طنلض . والمركب الذي فيه أكثر من مئتين طنلض يؤدى ست موزونات عن كل طنلض الى مئتين . وكل ما زاد على المئتين يؤدي موزونتين عن كل طنلض . وإن وقع شك للأمناء في قدر ما يقوله الرئيس في مركبه من عدد الطنلضات فإن القونص يظهر لهم كواغيد[43] المركب الذي فيه عدد الطنلضات . وهذا هو الذي يؤدي في جميع مراسي الايالة ، الا المراكب التي تدخل في الأودية اعني الرباط والعرائش فإنهم يؤدوا للبلط[44] الذي يدخلهم في الوادي أربع موزونات عن كل طنلض وكذلك للذي يخرجهم من الوادي يؤدوا له أربع موزونات لكل طنلض ، وعن مخطاف المراكب الذين يدخلون للوادي يؤدون ثلاث موزونات لكل طنلض ، والذي لم يدخل الوادي يؤدي مثل

(40) انخطاف في الاصطلاح البحري العتيق : المرساة لأنها تشبهه . وواجب الخطاف أي رسوم الارساء

(41) الموزونة : من كسور الوحدة النقدية القديمة في المغرب . وكانت تساوي ربع الوقية . والوقية عشر المثقال . فعلى هذا تكون الموزونة جزءا من أربعين جزءا من المثقال .

(42) الطنلض الطن . والكلمة اسبانية

(43) ج كاغد . ويقال أيضا كاغيط . ورق الكتابة . والمراد هنا أوراق المركب الرسمية.

(44) البلط كلمة عجمية معناها الربان . والمراد به هنا الربان الرشد الذي يتقدم السفن بزورقه يدلها على المجاري الآمنة حتى لا تصطدم بسفينة أخرى أو حتى لا تصطدم بالساحل.

مراسي اخر ، ويؤدى للبلط بمرسة الصويرة أربع موزونات لكل طنلض في الدخول فقط . وفي المخطاف ست موزونات لكل طنلض كما ذكر . وفي مراسي اخر إذا احتاج رئيس المركب بلوط يؤدي .موزونتين لكل طنلض والا فلا.

وأما البابورات الواردين لمراسي ايالة سلطان مراكش بقصد حمل السلع أو وضعها يؤدون ستة عشر ريالا واجب المخطاف في تلك المرسَى ، وإذا دخل لمرسة أخرى من الايالة المذكورة وحمل منها شيئا أو وضع يؤدي مثل ما أدى في المرسى الأولى ، وهكذا في جميع مراسي الايالة المذكورة ، وإذا رجع للمرسى التي أدى فيها المخطاف أولا فلا يلزمه اداء مخطف ثانيا . نعم إذا بقي يتردد في الخدمة بمراسي الايالة المذكورة بالحمل والوضع فيؤدى مخطافه حينئذ . وكذلك إذا سافر لايالة غير ايالة مراكش ورجع اليها فيؤدى واجب المخطاف المذكور الا البابور الذي يكون من مئة وخمسين طنلض فأقل يجري عمله عمل مركب قلع في واجب المخطاف في كل مرسى ، وكل مركب يؤدي الزيادة على المخطاف لخدام المرسى على حسب ما يذكر فقط .

وذلك كل مركب من خمسة وعشرين طنلض فأقل يؤدي عشرين أوقية .
وكل مركب من خمسة وعشرين الى خمسين يؤدي أربعين اوقية .
ومن خمسين الى مئة ستين أوقية .
ومن مئة الى مئتين ، ثمانية مثاقل .
ومن مئتين فأكثر عشرة مثاقل .

وفي مرسَى مدينة تطوان يزاد على ما ذكر مثقال واحد لحمل كواغيد المركب من مرتيل للمدينة المذكورة ، وللنفار[45] المعلم بالمركب خمس أواقي . وللبراح[46] أيضا ثلاث أواقي ولا يعطي مصروف أكثر من هذا .

والمراكب الداخلة للمراسي بقصد التستر فقط مع مراكب الحواتة[47] لا يؤدون شيئا ، وكما لا يلزم لمراكب رعية سلطان مراكش ولا لسلعهم الداخلة والخارجة واجب المخطاف ولا ملزوما آخر من لوازم المراكب أو اعشار في جميع مراسي ايالة اكرت برطن أكثر مما يلزم مراكب ايالة اكرت برطن ، وكذلك السلع الموسوقة

(45) النفار النافخ في النفير ، وكان النفار ينفر في نفيره معلما أهل المرسي بقرب وصول مركب.
(46) البراح : المنادي العمومي.
(47) ج حوات صائد الحوت والسمك ، والمراد مراكب الصيد.

داخلة كانت أو خارجة بمراكب ايالة اكرت برطن.

الشرط الحادي عشر

رعية اكرت برطن إذا أرادوا أن ينزلوا أو يحملوا وسق المراكب التي تريد مراسي ايالة مراكش ففلايك[48] المخزن يخدم ذلك ، ثم بعد اليومين من وصول المركب ولم توجد فلايك المخزن لذلك فرعية أكرت برطن يستخدمون فلايك الغير الذي يظهر لهم ويعطوا للمخزن النصف المعتاد في مصاريف[49] فلايك المخزن عدى مرسى طنجة وتطوان لقيامها في مراسيها بفلايك المخزن، ومصروف الفلايك المعتاد في هذا الوقت لا يزاد عليه في المستقبل ، وامناء المراسي يمكنون قنصوات اكرت برطن في كل مرسى بزمام المصاريف الذين هم في هذا الوقت.

الشرط الثاني عشر

مضمن كل شرط من هذه الشروط يكون عليهم العمل في كل مرسى من ايالة مراكش ، وإذا فتح سلطان مراكش مرسى آخر كالمهدية واكدير أو وادي نون أو غيرهم من مراسي حدود ايالته ، فإنه لا فرق ولا زيادة تكون فيهم في اعشار السلع والمخاطف والمصاريف أكثر مما هو في المراسي المعلومين المعروفين.

الشرط الثالث عشر

إذا أحد من رعية اكرت برطن وجد مشغولا بكنطربنض[50] بنوع من أنواع السلع بايالة مراكش فإن تلك السلع توحز[51] لبيت المال ، ومن ثبت عليه كنطربنض امام قونص خنرال أو القونص أو خليفته أو نائبه فإنه يعاقب بغرمة لا تزيد على قدر ثلاث مرات من عشرها ، وإذا كانت سلع من السلع المذكورة التي لا تقبل يؤدي ثلاث مرات قدر ثمنها ، وإذا لم يؤد ذلك فورا بعد أن ثبت عليه الكنطربنض عند القونص خنرال أو القونص أو خليفته أو نائبه فإنه يسجن ، وإذا لم يلزمه بغرمة يسجن في المحل الذي يظهر للقونص خنرال أو القونص أو خليفته أو نائبه بما يظهر له من السجن ولا يطول به السجن أكثر من عام.

---

(48) ج فلوكة : الفلك ، والمراد الزوارق ، والمخزن : الادارة والحكومة.

(49) ج مصروف : النفقة والتكليف ، ومثله الصاير

(50) كنطربنض : تهريب ، والكلمة عجمية.

(51) أي تحاز ، والمراد تحجز لخزينة الدولة.

الشرط الرابع عشر

هذا شرط بين الجانبين المتفقين ربما يكون مرادهم في المستقبل اتفاق وفصال على بعض مسائل الذي يظهر فيها النفع للجانبين وزيادة الخير للرعيتين ، اتفقوا على أن في كل وقت بعد مضي خمس سنين من تاريخ تمسك كل واحد من الجانبين بشروط التجارة والمراكب مطبوعين من الجانبين . له أن يطلب أحد الجانبين من الآخر المراجعة في هذا الشروط . لكن ذلك المراجعة لا تكون الا بخاطر الجانبين وموافقتها .

وهذه الشروط يبقون جارين على عملهم ولا محيد عنهم الا أن يكون شروط اخر للتجارة والمراكب مطبوعين .

الشرط الخامس عشر

هذه الشروط التي هي للتجارة والمراكب يطبع عليها سلطان مراكش وسلطانة اكرت برطن ، ويتمسك بها كل واحد من الجانبين في مدة أربعة أشهر من تاريخه . وفي تلك المدة المذكورة يتمسك بشروط الصلح والمهادنة بين الجانبين العظيمين . وحين يتمسك كل واحد من الجانبين العظيمين بهذه الشروط الذي وقع الفصال عليها في هذا التاريخ يجري عليها العمل مثل شروط الصلح والمهادنة المطبوع عليها . وتكون ناسخة للشروط المتقدمة بين ايالة مراكش وبين ايالة اكرت برطن في تاريخه.

وبهذا تفاصل النائبان المفوضان المذكوران وختم بخط يديهما وطابعهما في المدينة السعيدة طنجة حرسها الله في يوم عاشر من ربيع الثاني عام ثلاثة وسبعين ومئتين وألف ، موافقا لتاريخ المسيح التاسع من دجنبر سنة ستة وخمسين وثمانمئة وألف.

خديم المقام العالي بالله محمد الخطيب وفقه الله . ثم طابعه المستدير ونقشه خديم العالي بالله محمد الخطيب وفقه الله.

وإلى اليسار امضاء المندوب البريطاني م دريموندهاي . وخاتمه المنقوش في اللّك .

المصادر

المخطوطة

British Museum
Additional Ms. 21993
Cotton Mss. Nero B VIII. Nero B XI
Harlei Ms. 6991

Public Reccord Office
Colonial Office Papers
co 279 (1 – 49) : Colonial Office Papers. Tangier (1661 1735)

Foreign Office Papers
FO 52(1 – 45) : Morocco. Series I (1761—1837)
FO 95/1/3 : Barbary States (1766—1801)
FO 99 (1 – 173) : Morocco (1838 –76)
FO 99(174 – 287) : Morocco (1876 91
FO 99 (285 – 302) : Morocco (1892– 93)
FO 99 (303 – 378) : Morocco (1893– 1900)

State Papers
SP 12/99 (State Papers Domestic. Elizabeth I)
SP 12/225 (State Papers Domestic. Elizabeth I)
SP 71 (12 — 21) : Barbary States (Morocco). (1577—1774)
SP 102/2 (Royal Letters. Barbary States (Morocco). (1664—1766)
SP 103/1 (Treaty Papers. Barbary States (Morocco). (1626—1700)

مطبوعة :

Addison, Lancelot : West Barbary, or, Short Narrative of the Revolutions of the Kingdoms of Fez and Morocco (Oxford, 1671)

Anonymous : A Discourse Touching Tanger, in a Letter to a Person of Quality, to which is added, The Interest of Tanger, by another Hand (London, 1680)[1]

A Letter from a Gentleman of the Lord Ambassador Howard's Retinue to his Friend in London, Dated at Fez, Nov. 1 1669, Wherein he gives a full Relations of the Most Remarkable Passages in their Voyage thither, and of the Present State of the Countries under the Power of Taffaletta, Emperour of Morocco (London, 1670)

The Arrivall and Intertainments of the Embassador Alkaid Jaurar Ben Abdella... With his Associate Mr. Robert Blake, From the High and Mightie Prince Mulley M'ahamed Sheque, Emperor of Morocco, King of Fesse, and Suss... (London, 1637)

The Moores Baffed : Being a Discourse Concerning Tanger... (London, 1681)[2]

Barbour, Nevill : Morocco (London, 1965)

Bray, W (Editor) : Memoirs of John Evelyn... (2 vols. London, 1818)

Brignon, J (and others) : Histoire du Maroc (Paris, 1967)

Brooks, L A E : A Memoir of Sir John Hay Drummond Hay (London, 1896)

Castries, Le Comte Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc,

(1) الكاتب هو سير هنري تشيرز وهو مهندس عسكري اقام بطنجة فيما بين 1669 ـ 1683 وأشرف على تدمير اللسان.

(2) المؤلف هو القس لانسلوت اريسون . أحد قساوسة طنجة ، ووالد الكاتب جوزيف أديسون.

de Henry : Première Série, Dynastie Saadienne. Archives et Bibliotheques d'Angleterre. (Paris, Tome I 1918 ; Tomme II, 1925 ; Tome III, 1935)
Moulay Ismail et Jacques II : Une Apologie de l'Islam par un Sultan du Maroc (Paris, 1903)

Brown, R (Editor) : The Adventures of Thomas Pellow of Penryn, Mariner (London, 1890)

Fisher, Sir Godfrey : Barbary Legend (Oxford, 1957)

Flournoy, F R : British Policy Towards Morocco in the Age of Palmerston (1830—65) (Baltimore, 1935)

Files. J A (Translator) : Roger of Wendover's Flowers of History (2 vols, London, 1849)

Graham, R B Cun ningham : Mogreb-el-Acksa : A Journey in Morocco (London, 1898)

Hakluyt, R : The Principal Navigations, Voiages, Traffiques and Discoveries of the English Nation... (vol. II, London, 1598-1599)

Hall, Unity : Emily (London, 1971)

Harrison, J : The Tragicall Life and Death of Muley Abdala Melek, the Late King of Barbarie (London, 1633)

Mackenzie, D : The Flooding of the Sahara (London, 1877)
A Report on the Condition of the Empire of Morocco (London, 1886)
The Khalifate of the West (London, 1911)

Meakin, Budgett : The Moorish Empire (London, 1899)

Ogilby, J : Africa (London, 1670)

Playfair, Sir R Lambert, and Brown, Dr Robert : A Bibliography of Morocco from the Earliest Times to the end of 1891 (London, 1892)

Parsons, F V : The North-West African Company and the British Covernment 1875-1895 (The Historical Journal. 1-2, pp. 136-153, Cambridge. 1958)

Routh, E M G : Tangier : England's Lost Atlantic Outpost (London, 1912)

Spilsbury, A G : The Tourmaline Expedition (London. 1906)

Trotter, P D : Our Mission to the Court of Morocco in 1880 under Sir John Drummond Hay (Edinburgh. 1881)

المحتويات

— **مقدمة للمترجم .**

— **دراسة نقدية للمترجم .**

افتقاد المنهج وظواهره - محاولة لوضع الإطار - قضية الشكل العلمي - المصادر . 10 - 26

— **مقدمة المؤلف ص 27**

— **تمهيد . ص 28 - 30**

— **الفصل الأول : مدخل من العصور الوسطى : ص 31 - 36**

بعثة الملك جون إلى محمد الناصر ومصيرها .

— **الفصل الثاني : التجارة والسياسة على عهد اليزابيث : ص 37 - 53**

بدايات الاتصال الأوربي بالمغرب — علاقات انجليزية مبكرة — احتجاجات برتغالية على التجارة الإنجليزية مع المغرب — تجارة الأسلحة والذخائر — بعثة هوجان — أحمد المنصور ومرحلة جديدة — تأسيس شركة بلاد البربر — حقيقة التحالف بين اليزابيث والمنصور .

— **الفصل الثالث : قراصنة سلا ص 55 - 76**

مغامرة تدخرلي — قراصنة سلا — بعوث هاريسون — محاولات التحالف مع الموريسكيين — محاولة الاتفاق مع المولى الوليد — العمل على اطلاق سراح لأسرى — مبعوث مغربي في لندن — معاهدة عام 1638 — تجارة غير شرعية — أسرى جدد .

— **الفصل الرابع الانجليز في طنجة ص 77 - 101**

تملك الإنجليز لطنجة — تحصين المدينة وبداية الهجمات المغربية — الهدنة مع غيلان — عودة الهجمات المغربية — معاهدة سلام وتحالف مع غيلان — بعثة هيوارد — اتفاقية جديدة مع غيلان — الإنجليز والمولى اسماعيل — بداية تصفية الوجود الإنجليزي في طنجة — محاولة جديدة لعقد السلام — سفير مغربي في انجلترا 1682/1681 — فشل محاولة الاتفاق — اخلاء طنجة .

— الفصل الخامس أسرى في بلاد البربر : ص 103 — 146

محاولات مبكرة لاطلاق سراح الأسرى الانجليز في المغرب - تجدد المحاولات والاتفاق — عقبات أمام الاتفاق — تنفيذ الاتفاق — حرب الوراثة الإسبانية والعلاقات الإنجليزية المغربية — بعثة مثوين — وفد مغربي إلى لندن عام 1706 — مبعوث مغربي إلى انجلترا عام 1710 — مبعوث انجليزي في المغرب 1713 — احتدام أزمة الأسرى الإنجليز — معاهدة 1721 والعلاقات بعدها — تدهور العلاقات — استمرار التوتر — حادثة القنصل ريد — بعثة ميلبانك .

— الفصل السادس تموين جبل طارق : ص 147 — 187

بعثة كليفلاند — بعثة عديل — العربة الملكية — عود لبعثة عديل — بعثة المستيري — أزمة بحارة لارك — بعثة بن يدر — بعثة سيدي طاهر — تأخر الساعات — التوتر — قطع العلاقات ثم اعادتها — بعثة روكور كيرتس — القنصل باين — القنصل ماترا — قضية لايتون — تولية المولى يزيد وأثرها — محاولة استعادة سبته — حروب الثورة الفرنسية ونابليون وأثرها — التموين المغربي لجبل طارق — حج الأمير — قنصلية دوكلاس — بعثة مكنين — أزمة متيور وأوريستس .

— الفصل السابع : عصر بالمرستون ولورد جون راسل : ص 189 — 232

مجيء ادوارد هاي 1829 — أثر الغزو الفرنسي للجزائر 1830 — التجارة الإنجليزية في المغرب — قراصنة الريف — حركة عبد القادر وأثرها — انجلترا والجنوب المغربي — مشكلة وكلاء القناصل اليهود — عود لمسألة العلاقات الفرنسية المغربية — الوساطة بين المغرب واسبانيا — عودة أخرى للعلاقات الفرنسية/المغربية — الوساطة الإنجليزية بين المغرب وبين الدانمارك والسويد — تعليقات لجون هاي — عبد القادر مرة أخرى — هاي في مراكش — عبد القادر مرة ثالثة — تغير وضعية ممثل بريطانيا في طنجة — نهاية عبد القادر — الموقف البريطاني من النزاع المغربي/الإسباني حول جزر شفارين (ملوية) — سفينة بريطانية لنقل الأمراء للحج — رغبة سلطانية في تعيين هاي وسيطا دائما ورفض الأخير — عودة إلى مسألة الحج وتبادل الهدايا — دعوة المغرب لمعرض لندن 1851 — عود إلى موضوع تبادل الهدايا — حادثة فرنك

درمندهاي — قراصنة الريف والعلاقات الإنجليزية/المغربية — مشاكل التجارة مع المغرب ومعاهدة 1856 — عود لقراصنة الريف — حج الأمراء على متن سفينة انجليزية — الانجليز وحرب تطوان — الإنجليز يطالبون بالإصلاح — قضية الحماية — بريطانيا واليهود المغاربة.

— **الفصل الثامن : سير جون درمندهاي في الأوج : ص 233 — 271**

صورة مظلمة — بريطانيا واليهود المغاربة — نصائح بالإصلاح — عود لقضية اليهود — المولى الحسن — هاي والسلطان الجديد — بريطانيا وسياسة الحسن في التحديث — مبعوث إلى جبل طارق للترحيب بأمير ويلز — سفير مغربي في لندن 1976 — عود لقضية الحماية — التدريب العسكري البريطاني — زيارة دومندهاي للسلطان 1880 — عود لقضية اليهود — زيارة أخرى من درمندهاي للسلطان 1882 — الوجود الإنجليزي في رأس جوبي — بريطانيا والسجون المغربية — المغرب في العلاقات البريطانية/الفرنسية — عود لقضية بجة — السعي لتعديل اتفاقية 1856 — بريطانيا والرقيق في المغرب — اعتزال هاي.

— **الفصل التاسع : الجزر والمد : ص 273 - 305**

المخاوف من الخطر الفرنسي — القنصل الجديد في مراكش 1887 — بداية تآكل مركز بريطانيا — المذكرة الثلاثية — عود لقضية رأس جوبي — استعراض السلطان للأسطول البريطاني 1889 — محاولة تسوية مشكلة رأس جوبي — وفاة كرين — القنصل الجديد — هدية الفيل — إشاعة الاتفاق الإنجليزي/الفرنسي — الأطماع الفرنسية — اقتراح بوقف استخدام بوبكر — زيارة القنصل الجديد لفاس — مقتل بريطان في طنجة — بعثة ريد جواي — الوزير الجديد ساتو — انتهاء خدمة بوبكر — تولية المولى عبد العزيز — ساتو في فاس — تسوية قضية رأس جوبي — احتجاج مغربي — الوزير الجديد نيكلسون — أزمة الرابطة العالمية للمضاربة — أزمة آسفي — الموقف في الحكومة المغربية — نهاية القرن.

— **تذييل : بداية القرن العشرين ص 306**

— **ملاحق : ص 309 — 347**

— **المصادر : ص 348 — 350**

صدر عن :



* روضة التعريف بالحب الشريف — تحقيق الاستاذ محمد الكتاني
* محمد اقبال مفكرا اسلاميا — للاستاذ محمد الكتاني
* المحدث الحافظ ابوشعيب الدكالي — للاستاذ عبد الله الجراري
* فى نطاق التفكير الاسلامي — للاستاذ محمد الحمداوي
* الخوارج فى بلاد المغرب — للدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق
* الحضارة المغربية عبر التاريخ — للاستاذ الحسن السايح
* تاملات فى الادب المعاصر — للدكتور ابراهيم السولامي
* دفنا الماضي — للاستاذ عبد الكريم غلاب
* الثقافة والفكر فى مواجهة التحدى — للاستاذ عبد الكريم غلاب
* الاصول : دراسة ايبتسبمولوجية لاصول الفكر اللغوى العربى — للدكتور تمام حسان
* مناهج البحث فى اللغة — للدكتور تمام حسان
* اللغة العربية مبناها ومعناها — للدكتور تمام حسان
* اللغة العربية بين المعيارية والوصفية — للدكتور تمام حسان
* المدخل لدراسة التاريخ والادب العربيين — للدكتور نجيب البهبيتي
* أحاديث عن الادب المغربى الحديث — للاستاذ عبد الله كنون
* رسائل ابن علي الحسن اليوسى — تحقيق الاستاذة فاطمة خلبل
* وقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب — للدكتور ابراهيم شحاته حسن
* مع الرسول فى رمضان — للاستاذ عطية محمد سالم
* فضائل القرآن — للدكتور فاروق حمادة
* فقه المناسك على مذهب الامام مالك — للاستاذ قدور الورطاسي
* كتاب السياسة أو الاشارة فى تدبير الامارة — تحقيق الدكتور سامي النشار

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء